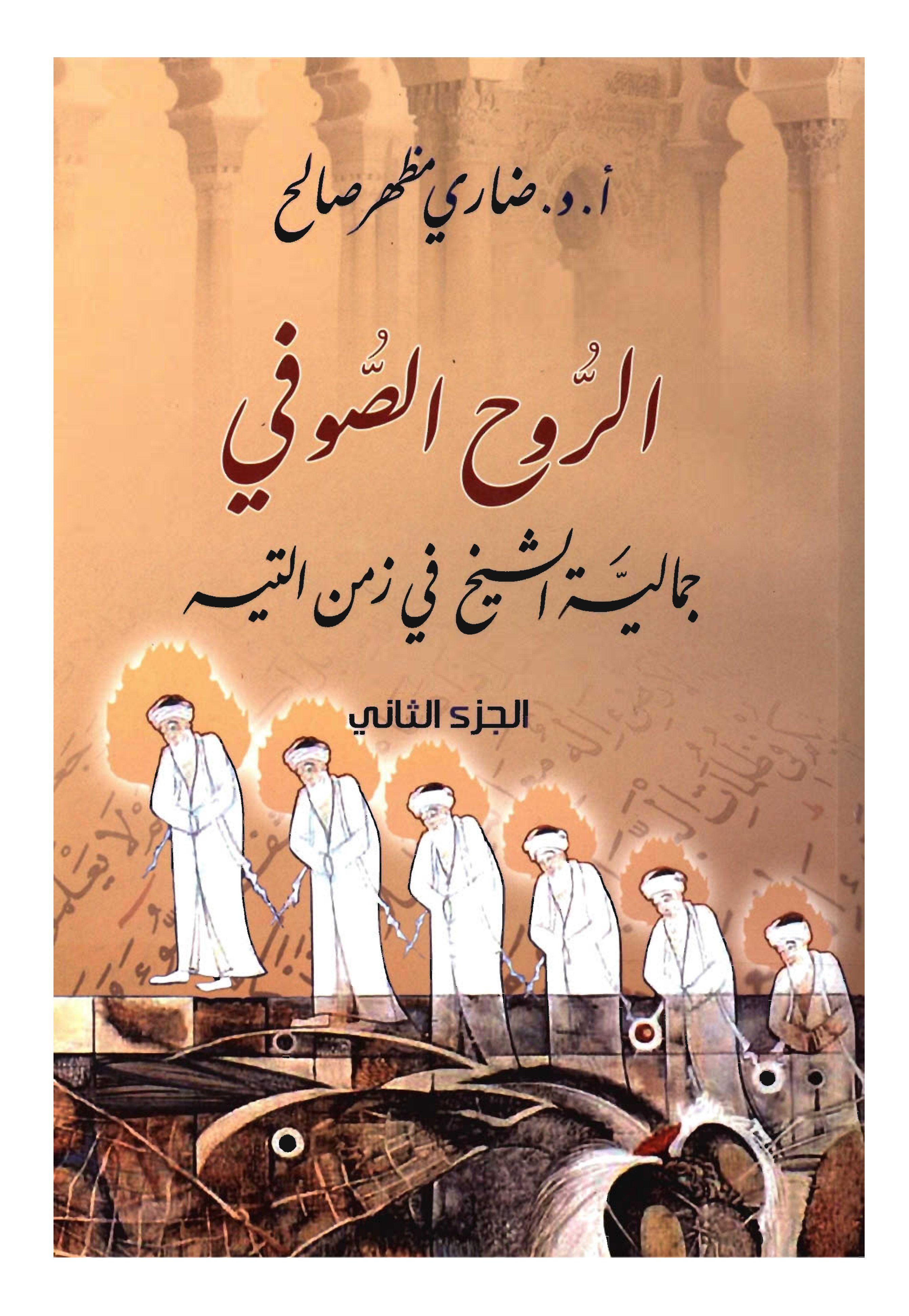


أ.د. ضاري مظهر صالح
الرُّوح الصُّوفي
جماليَّة الشيخ في زمن التيه
الجزء الثاني

الرُّوح الصُّوفي

جمالية الشيخ في زمن التيّه

إن عملية الوصول إلى الحقيقة تحتاج إلى مستوى رباعي الأركان، الأول: أن يكون للفرد استعداد قبلي للتوجه إلى تحصيل الطريق المؤدي إلى الحقيقة. الثاني: تبني الشريعة من خلال التتلمذ على يد شيخ مربي له باع طويل في علم الشريعة أو الإطلاع على الفقه الذي يحدد لك أسس الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم والعمل به وتبنيه بالكامل، الثالث: العمل على البحث عن الولي المرشد الكامل الذي غالباً ما يطلق عليه بشيخ الطريقة ومعاهدته بالعمل في الأسس التي تتضمنها طريقته أو منهجه، وإن على المريد أو طالب طريق الكمال أن يكون اختياره للشيخ مبني على الأهلية والأفضلية من بين المشايخ ليكون هذا الاختيار الوسيلة الأفضل والأسرع في عملية الوصول إلى الحقيقة، فإن بعض المشايخ ليس لديهم التمكين والمؤهلات الكافية لتربية المريدين المستعدين، ومعلوم (أن فاقد الشيء لا يعطيه)، الرابع: العمل بمنهج الشيخ من نوافل وعبادات دون تفريد وبحسب ما يقرره الشيخ الولي المرشد، ويلازم الشيخ الكامل حتى يفتح عليه الحق في يوم أو شهر أو سنة أو سنتين حيث يتوقف ذلك على مدى إقبال المريد وعزمه الأكيد في الوصول إلى الحقيقة.






ISBN 978-9933453325-1
9 789933 453251

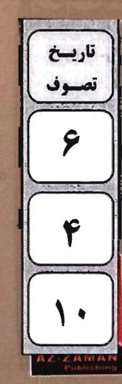
الغلاف: م. جمال ابطح

أ.د. ضاري مظهر صالح

الروح الصوفي

جمالية الشيخ في زمن التيه

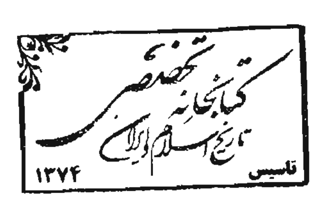
الجزء الثاني



الروح الصوفي

جمالية الشيخ في زمن التيه

الجزء الثاني



الكتاب: الروح الصوفي، جمالية الشيخ في زمن التيه، ج2

تأليف: أ. د. ضاري مظهر صالح

الطبعة الأولى : 2012



❖ **الناشر: دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع**

دمشق - سوريا : ص. ب 5292

تلفاكس: 00963 11 5626009

موبايل: 00963 932 806808

E.mail: zeman005@yahoo.com

E.mail: zeman005@hotmial.com

Web sit: www.darzaman.net

❖**الناشر** التفسير

للنشر والاعلان

اربيل - شارع المحاكم - تحت بناية فندق شيرين بالاص

هاتف: 2221695 -2230908 -2518138

موبايل:07504605122- 07701387291

E.mail:tafseeroffice@yahoo.com

E.mail:altafseero@hotmail.com

E.mail:tafsseroffice@maktoob.com

web sit: www.al-tafseer.com

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

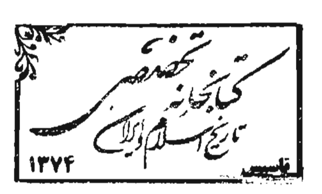
الإخراج الداخلي: دار الزمان

أ. د. ضاري مظهر صالح

الروح الصوفي

جمالية الشيخ في زمن التيه

الجزء الثاني







المقدمة

إن موضوع الشيخ المربي الروحي من خلال منهج النوافل يعد من المواضيع المهمة؛ لأن المنهج ثاني أهم ركيزة تستند إليها العقيدة الدينية لما لها من أهمية كبيرة في تربية المستعدين إلى تحصيل الكمالات اللائقة وصولاً إلى الكشف عن أركان الحقيقة في الباطن الروحي.

كما أن علاقة المنهج بالشيخ المربي الروحي من جهة، وعلاقة الشيخ بالمنهج الروحي وجهان لحقيقة واحدة لا يمكن الفصل بينهما بأي شكلٍ كان، لحاجة كل طرف إلى الطرف الآخر، وهذا ما يؤكد ضرورة كل واحد منهما للزمان والمكان، فيشترط في كل زمان وجود شيخ ولي كامل، حي حاضر، كما يشترط أيضاً أن يكون الشيخ الولي الكامل قد امتاز بمنهج جديد يناسب الزمان والمكان ويختلف بعض الشيء عن المناهج التي سبقته. قال تعالى: **(لِكُلٍّ جَعَلْنَا منكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)** [المائدة: 48] فالخيرات إشارة إلى الانتظام في طريقة ومنهج الشيخ الولي المرشد والعمل بما يأمر حتى تشرق شمس الحقيقة، فالخيرات لها طريق والسير في الطريق يحاج إلى ولي مرشد، ويحتاج منا بذل الجهد حتى نصل إلى الهدف (الخيرات) قال تعالى: **(مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً)** [الكهف: 17] من خلال تأمل الآية يتضح أن من افتقد الولي المرشد يكون قد سار في طريق الضلالة.

أطلق الله تعالى على على هذا المخصوص بالعناية (الولي المرشد) وإن صفة الولي تمنحه إمكانية الإشارف الباطني على مريده إينما كان ويقلبه في الأحوال حتى يصل إلى الصفاء الكامل داخلياً فيكون مستعداً لتقبل تجليات الحق تعالى في كل وقت وجاهزاً لاستقبال الواردات والفيوض الربانية في كل وقت، كما أن صفة الإرشاد التي جاءت بعد صفة الولي يقابل بها الشيخ مريده ظاهرياً حين يلتقي المريد بشيخه خلال عملية السلوك.

إن عملية الوصول إلى الحقيقة تحتاج إلى مستوى رباعي الأركان، الأول: أن يكون للفرد استعداد قبلي للتوجه إلى تحصيل الطريق المؤدي إلى الحقيقة. الثاني: تبني الشريعة من خلال التتلمذ على يد شيخ مربي له باع طويل في علم الشريعة أو الإطلاع على الفقه الذي يحدد لك أسس الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم والعمل به وتبنيه بالكامل، الثالث: العمل على البحث عن الولي المرشد الكامل الذي غالباً ما يطلق عليه بشيخ الطريقة ومعاهدته بالعمل في الأسس التي تتضمنها طريقته أو منهجه، وإن على المريد أو طالب طريق الكمال أن يكون اختياره للشيخ مبني على الأملية والأفضلية من بين المشايخ ليكون هذا الاختيار الوسيلة الأفضل والأسرع في عملية الوصول إلى الحقيقة، فإن بعض المشايخ ليس لديهم التمكين والمؤهلات الكافية لتربية المريدين المستعدين، ومعلوم (أن فاقد الشيء لا يعطيه) كما يقول المثل الدارج أو الحكمة الشائعة، الرابع: العمل بمنهج الشيخ من نوافل وعبادات دون تفريد وبحسب ما يقرره الشيخ الولي المرشد، ويلازم الشيخ الكامل حتى يفتح عليه الحق في يوم أو شهر أو سنة أو سنتين حيث يتوقف ذلك على مدى إقبال المريد وعزمه الأكيد في الوصول إلى الحقيقة.

من هنا نجد من الأهمية أن نوضح كل ما من شأنه أن يكشف عن الحقائق التي لها صلة بهذا الشيخ الجليل، والتي بدورها تحفز أحباب الحق من المستعدين إلى التوجه لهذا الفرد الإنساني الكامل الذي اجتمعت لديه تلك الخصائص المذكورة في الجزء الأول من هذا الكتاب، والجزء الذي بين أيدينا، فإن المنهج الذي خصنا به تعالى مع الشريعة لا بد أن تجد فاعليتها وأهميتها في مجتمعاتنا الإسلامية من أجل تعزيز حقائق العقيدة التي جاء بها سيد الكائنات محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، سيما وإن الخطاب الإلهي قد أكد بشكل واضح الضرورة المهمة لتلازم المنهج والشريعة. قال تعالى: **(لِكُلٍّ جَعَلْنَا منكُمْ شرْعَةً وَمنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحدَةً ولَـكن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاستَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا**

كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) [المائدة: 48] ولما كان للشريعة من يهتم بها من بعض المؤسسات الدينية، ويمنحها حقها واستحقاقها فإن المنهج الذي يوصل إلى الحقيقة لا بد له أيضاً من يهتم به رجال الدين ليكمل تلك الخطى بهذه الخطى وصولاً إلى حق اليقين، ومن أجل أن لا تلتبس الحقائق وتختلط الأوراق، نجد لزاماً علينا أن نوضح حقيقة المنهج، وحقيقة القائمين به ليكون ذلك بمثابة النصيحة للناس بالتوجه إلى كليهما أي رجال الشريعة، ورجال المنهج (أصحاب الطريقة) من أجل الوصول إلى الحقيقة، سيما وأن سيد الكائنات صلى الله تعالى عليه وسلم قال: (الدين النصيحة)، والله من وراء القصد.

أ. د. ضاري مظهر صالح

الشيخ والعروة الوثقى

العروة الوثقى لغة: (العروة: من الدلو والكوز: المقبض.. وقوله تعالى: **(فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ)** [البقرة: 256] فذلك على سبيل التمثيل، لأن العروة ما يتعلق به من عَرَاه أي جانبه.) (الفيروزابادي: المصدر السابق، ج4، ص58)

العروة الوثقى في الاصطلاح الصوفي

يعرفه ابن عربي: (العروة الوثقى: الوحدة الذاتية التي وثوقها وإحكامها بنفسها، فلا شيء أوثق منها، إذ كل وثيق بها موثوق، بل كل وجود بها موجود وبنفسه معدوم، فإذا اعتبر وجوده فله انفصام في نفسه لأن الممكن وثاقته ووجوده بالواجب، فإذا قطع النظر عنه فقد انقطع وجود ذلك الممكن ولم يكن في نفسه شيئا.) (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص84)

يعرفه ابن عجيبة: (العروة: ما تستمسك به اليد عند خوف الزلل كالحبل ونحوه، ووثوقها: متانتها.) (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد1، ص255)

يعرفها القشيري: (العروة الوثقى: الوقوف عند الأمر والنهي، وهو سلوك طريق المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله.) (القشيري: المصدر السابق، مجلد1، ص 184)

وفي اصطلاح الكسنزان قدس سره: (يعرفه الحكيم الترمذي: هي حكمة الحكمة. ويعرفها الشيخ الأكبر ابن عربي قدس سره: العروة كناية عن دائرة لها قطران بالفرض، يفصلهما خط متوهم، فالعروة الوثقى: أنت وهو من حيث قطريتها، فالوجود منقسم بينك وبينه، لأنه مقسوم بين رب وعبد، فالقديم الرب والحادث العبد، والوجود أمر جامع لنا. ويعرفه الشيخ عثمان النيسابوري: العروة الوثقى: محمد صلى الله تعالى عليه وسلم. ويقول أبو عبد الله الجزولي: سمي صلى الله تعالى عليه وسلم (العروة الوثقى) لأنه العقد الوثيق المحكم في الدين، والسبب الموصل لرب العالمين، لأن من اتبعه لا يقع في مهاوي الضلال، كما أن من تمسك بحبل متين صعد به وارتفع من

حضيض المهالك..والمعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم الواسطة القوية التي لا يعتريها ضعف ولا انقطاع والمتسك به يصل لمطلوبه ولا يعتريه سقوط ولا ضياع.) (الكسنزان: المصدر السابق، ج15، ص 359 ـــ 360)

يعرفه الباحث إجرائيا: (العروة الوثقى) هو امتداد الوراثة المحمدية المساوقة للزمان والمكان، وهو نهاية الحبل المقابل لجهة الخلق، وخير من يمثلها الإمام أو الشيخ الولي المرشد الكامل، والشيخ له البرزخية بين الحقيقة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والخلق، فهو على قدم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، ونائبه الحامل لمقتضيات الرحمة ظاهرا وباطنا، وظل كماله المطلق الذي يُقتدى به في الزمان والمكان، وامتداد نوره الأسنى الكاشف لظلمة الريب.

لا فرق عندي بين حبل الله والعروة الوثقى إلا من حيث الامتداد، فالنور الإلهي الكاشف عن الحقيقة الإلهية يتجلى في الآفاق وفي النفس من خلال شعلة نور الله المعبر عنها بشيخ الوقت، قال تعالى: **(يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)** [التوبة: 32] فالشيخ هو تمام النور واستمراره في الزمان والمكان، لأنه خير من يمثل الرحمة، وهو أحد أهم أركان العدالة الإلهية المهمة، فالعروة الوثقى هي محل المباشرة الربانية مع الخلق، وغيابها يعني انقطاع الصلة الظاهرية مع الحق تعالى فهو محل الإجابة لمن أحالهم تعالى بقوله: **(فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)** [النحل: 43] وهو محل الاعتصام كما مر بنا، وهو وجه الحق تعالى كما مر بنا من قبل، وهنا تكمن ضرورته وأهميته بالنسبة للزمان والمكان.

قال تعالى:

(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: 256]

قال تعالى:

(وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) [لقمان: 22]

قوله تعالى: **(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)** يطالبنا تعالى بالتوجه إلى حقيقة الدين طوعا؛ ذلك لأن التطوع هو أساس القرب من الحقيقة، ولذلك جاء في الحديث القدسي: **(ولا يزال عبيدي يتقرب إلي بالنوافل... الحديث القدسي)** والنوافل ما يتطوع به العبد من العبادات والأعمال تقربا لله تعالى، كما أن الحق تعالى أدبنا بآداب مخاطبة الآخر بأساليب الخيار وليس القسر، قال تعالى: **(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)** [فصلت: 11] ولم يقل تعالى ائتيا كرها بل ترك لها الخيار، لتختار فيثيبها على قدر اختيارها، فلو كانت مجبولة ارتفع عنها الأجر والثواب، فالغاية من عدم الإكراه في الدين هو تحصيل الثواب والغاية من الثواب هو القرب من الحق تعالى.

قوله تعالى: **(قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)** (الغي: جهل من اعتقاد فاسد، وذلك أن الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا ولا فاسدا، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد، وهذا النحو الثاني يقال له غي.) (الراغب: المصدر السابق، ص620)

وهذا يعني أن الحق تعالى، ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، قد أسقطا الحجة على الخلق بعد توضيح طريق الحق تعالى لجميع العقول العوام منها والخاص، وهو طريق الاستقامة الصحيحة من خلال الكتب المقدسة أو من خلال الرسل والأنبياء، والدعاة من الأولياء الكاملين، ولم يبق على الإنسان إلا أن يختار واحد من طريقين.

قوله تعالى: **(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ)** الطاغوت هي نسبة الفجور المودعة في الإنسان حين رد إلى مرتبة أسفل سافلين كما جاء في قوله تعالى: **(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)** [التين:4 ــ 5] إن بقاء الإنسان مع جهة الطبع ومستوى الطينة هو الذي يطلق عليه مرتبة أسفل سافلين أي: لا تزال نفسه أمارة بالسوء وتتعلق بالأغيار وتميل مع جهة السوى، ولا انتباه لها لجهة الحق تعالى لعدم إيمانها بحقيقة الاكتمال بالله بسبب جهلها في هذه الحقيقة.

يرى ابن عربي في فتوحاته: قال تعالى: **(وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم)** [البقرة: 257] وما أفرد الطاغوت لأن الأهواء مختلفة، وافرد نفسه لأنه واحد يخرجونهم من النور إلى الظلمات، فنصر هؤلاء الأولياء لهم حيث لا يتركونهم يدخلون الجنة لما لهم فيها من الضرر لأنهم على مزاج يتضرر بالاعتدال كما تضر رياح الورد بالجعل فهم ينصرون أصحابهم، وليس إلا أهل النار الذين هم أهلها أخبر صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إن وليي الله الذي نزل الكتاب)** لأن فيه الله ولي الذين آمنوا وهو من المؤمنين وهو يتولى الصالحين، ولهذا القطع كان الصلاح مطلوبا لكل نبي مكمل، وشهد الله به لمن شاء من عباده على التعيين تشريفا له بذلك كعيسى ويحيى عليهما السلام. وأما قوله تعالى: **(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)** [الروم: 47] وليس المؤمن إلا من لم يدخل إيمانه بأمر ما خلل يقدح في إيمانه، والمؤمنون في كلام الله نوعان وهم الكافرون، فنوع آمن بالله وكفر بالطاغوت، وهو الباطل فهم أهل الجنة المعبر عنهم بالسعداء، والنوع الآخر آمن بالباطل وكفر بالله وهو الحق فهم أهل النار المعبر عنهم بالأشقياء، فقال عز وجل في حق السعداء: **(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ)** وهؤلاء هم الذين حق على الله نصرهم، والألف واللام للعهد والتعريف.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد7، ص416)

إن جهل الإنسان بحقيقته الروحية، من حيث كونها امتداد من النفخة الروحية للحق تعالى كما جاء في قوله تعالى: **(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي)** [الحجر: 29] هو الذي جعله يظن أنه مخلوق من أجل الدنيا، يأكل، ويشرب، ويقضي أوقاته في البطالة، وإنه لا يلاقي بعد وجوده في الدنيا أية تبعة سلبية كانت أم إيجابية ما بعد الموت، كل ذلك على سبيل الظن والجهل قوله تعالى: **(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)** [القيامة: 36] ولو حاول أن يتخذ مع الرسول سبيل المعرفة الحقة لوجد أن الأمر يختلف تماما، فبالطاعة، والتقرب من الحق تعالى يذوق العبد حلاوة ذلك الإيمان عبر مذاقات، ومشاهدات، ومكاشفات كثيرة تجعله لا يفارق طريق الحق، وطريق الاستقامة، قال تعالى فيمن ندم بعد فوات الفرص عليه: **(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ**

عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) [الفرقان: 27] أي: لم يدع فرصة السلوك إلى معرفة الحقيقة التي كانت متاحة له وكان سبب التفريط بها هو تكبره واستعلائه على طريق الفقراء بدليل قوله: **(يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابا)** [النبأ: 40] أي: يا ليتني كنت متواضعا كتواضع التراب فتكون بدايتي لمعرفة الحقائق من هذا المستوى، فإن المتكبر تكون بداياته من العلو والاستكبار، ولا يوجد في هذا العالم المتوهم أو المتخيل (الاستكبار) داعية يدعوه إلى جهة الحق تعالى فيبقى المرء محجوبا بتكبره ويساعده بذلك إبليس عليه اللعنة لأنه إمام الاستكبار كما جاء في قوله تعالى: **(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ)** [ص: 75] فالاستكبار نوع من العمى يصيب المرء فيجعله في منأى عن الأمر الإلهي، ولذلك وصف تعالى من خالف الأمر الإلهي، أو تجاهله بالوصف الإبليسي، قال تعالى: **(بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)** [الزمر: 59] فقوله تعالى: **(واستكبرت)** إشارة منه تعالى إلى أن هذا المرء قد التحق بإبليس في استكباره، وعدم تواضعه فيكتب من زمرة إبليس في الاستكبار، ويحاسب على أنه متكبر في عالم الدنيا وهذه هي نسبة أسفل سافلين، وهذا يعني أن من غلب صفة أسفل سافلين تكبر ونسي مراد الحق تعالى فيه وله، ومن غلب نسبة الحق فيه فإن عليه أن يكفر بالطاغوت وما يصدر عنه ويتواضع ويتخذ مع الرسول سبيل يوصله إلى معرفة الحق تعالى.

قوله تعالى: **(فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ)** من خلال ما تقدم عرفنا أن المطلوب من العبد أن يتمسك بمخالفة الطاغوت من خلال طاعته للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والسير بسبيله من أجل الوصول إلى الحقيقة، فالطاعة المطلقة للرسول أو من ينوب منابه هو عين قوله تعالى: **(فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ)** لأن العروة الوثقى تعني هذا التمسك الذي يوصل العبد إلى الفناء والتماهي في الحق تعالى بموطن المحق ومن ثم بموطن محق المحق.

فموطن المحق يقتضي ظهور العبد في الكون (بطريق الاستخلاف والنيابة عنه، فلك التحكم في العالم، ومحق المحق ظهورك بطريق الستر

عليه والحجاب، فأنت تحجبه في محق المحق فيقع شهود الكون عليك خَلْقًا بلا حق، لأنهم لا يعلمون أن الله أرسلك سترا دونهم حتى لا ينظرون إليه، فمحق المحق يقابل المحق، ما هو مبالغة في المحق وإنما هو مثل عدم العدم، فإذا أقيم العبد في خروجه عن حضرة الحق إلى الخلق بطريق التحكيم فيهم من حيث لا يشعرون، وقد يشعرون في حق بعض الأشخاص من هذا النوع كالرسل ــ صلوات الله عليهم ــ الذين جعلهم الله تعالى خلفائه في الأرض يبلغون إليهم حكم الله فيهم، وأخفى ذلك في الورثة، فهم خلفاء من حيث لا يشعر بهم، وأعلم أن محق المحق أتم عند أهل الله في الدنيا، والمحق أتم في الآخرة، ومحق المحق لا يفوز به إلا أخص أهل الله، وهو للعقول المنورة، والمحق يفوز به الخصوص، وهو للنفوس المنورة.) (الطهراني، قاسم: المصدر السابق، ص117)

ويريد ابن عربي بقوله: (أن محق المحق أتم عند أهل الله في الدنيا، والمحق أتم في الآخرة) محق المحق أتم عند أهل الدنيا، لأنه محل الستر الإلهي من كون الدنيا ليست محلا للظهور والإسفار والكشف الصريح لحقيقة حقائق الأنوار، بل جعل تعالى الآخرة محلا لذلك، فالمتحقق بمحق المحق في الدنيا أتم، أما المتحقق في الآخرة بالمحق، فإن الآخرة هي محل الكشف والظهور كما جاء في قوله: (**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**) [الطارق: 9] وحين تبلى السرائر فلم تعد هناك ضرورة لمحق المحق، كما أن أهل الجنة لهم القيومية، والتحقق بمقام الكن لظهور الحق فيهم وليس عليهم أن يخفون حقيقة الحق الظاهرة فيهم لأنهم الكل مكاشفين ظهرت فيهم أوصاف الربوبية، يقولون للشيء كن فيكون، وليس وراء ظهور أوصاف الربوبية مطمع إلا السير المطلق في العلم الإلهي الذي لا يحده حد، فإذا بلغ العبد هذه المرتبة، وتحقق بها تكون هي نهاية النهايات ونهاية كل مطلب، وبذلك فإن ابن عربي يرى أن التحقق في المحق أتم، لأن حكم الدنيا يجب أن يكون فيها ثمة محجوب، وثمة مكاشف يرى ويعرف بالحق تعالى، أما دار الآخرة فهي دار المعرفة الحقة المتحققين بها من المرحومين الواصلين في تماهيهم في الجمال المطلق، فلهم من الجمال ما لا حد له، وثمة محجوب كان همه في الدنيا طلب جمال

المحدود الحسي حتى غرق، وتاه فيه، ولم يعطي لنفسه فرصة النفاذ إلى عالم الروح، وتذوق معانيه، ورضي بالجمال الزائل بدلا عن الجمال الدائم، فجعله تعالى من ضمن عالم جهنم ليرى فيها قاهرية الجلال حتى يأخذ حقه واستحقاقه منه ثم تتداركه الرحمة لتنقله في النهاية إلى الجمال، بعد أن طهره الحق تعالى بنار الاحتجاب وألم فراق المشاهدة، قال تعالى: **(كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)** [المطففين: 15]وهذا حال أهل جهنم، أما حال أهل الله فيقول تعالى فيهم: **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ *إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)** [القيامة:22 ــ 23] وشتان ما بين الطرفين.

قوله تعالى: **(لاَ انفِصَامَ لَهَا)** أي: صلتها بالله تعالى أكيدة مثلها بذلك مثل العروة في جسم الشيء بحيث يمكن حمله ونقله بالاعتماد على قوة الصلة بين العروة وذلك الجسم، كذلك الحال مع الشيخ الولي الكامل فإن صلته مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن ثم فإن الصلة مع الله تعالى صلة يقينية، وحقيقية لا يعتريها الريب، أو الشك؛ فمن استمسك بها كمن استمسك بالله تعالى، وهذا التمسك يستدعي من المريد أن يراعي في الشيخ الولي الكامل حرمة الحق تعالى، وحرمة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم.

وفي علاقة وتمسك المريد بالشيخ الولي المرشد الكامل يرى أحمد بن يوسف الحريثي: (أن يعتقد المريد أن بداية الطريق يبدأ بـــ**(لا إله إلا الله)** فيكون أول بداية الطريق وترا، وأخرها التوحيد، وهو وتر، فالمريد مأمور بالوترية في جميع أحواله، فلزم من هذه الوترية أن يكون شيخه عنده أكمل أهل زمانه لتحققه بأنه قيم بتأديبه، وتهذيبه، وتعريفه طريق السلوك الجامعة لكل وصف محمود ومذموم، وأن شيخه أجدر بذلك من غيره لينفذ فيه قول الشيخ، ويستعد باطنه لسريان حاله، وتصفو له صحبته فتعلق المريد بالشيخ ليس هو تعلق ذاتي، وإنما هو تعلق روحاني. فتعلقة ليس إلا للمعارف التي يجريها الحق على لسانه، وقد ضرب الحق تعالى لنا في ذلك أمثلة ظاهرة، وهو أن اليد أو الرجل، أو العين، أو الأذن، إذا كان أحدهم معدوم الحركة أو الرؤية أو السمع، فلا فائدة بوجوده، فحاجتنا إليهم إنما هي لوجود مقاصدنا

ومآربنا بهم. فتعلقنا بالمشايخ إنما هو لضرورتنا.) (الحريثي، أحمد بن يوسف: 2007، ص326)

فالشيخ الولي المرشد هو الصراط وهو الطريق الواضح الذي أرسله الحق تعالى لنا بمقتضى رحمته ليكون لنا دليلا إليه تعالى، وأطلق عليه العروة الوثقى ليكون منزها من جهته تعالى فنثق فيه ليصل بنا إليه تعالى، وقد جعل تعالى فيه من العلامات الظاهرة من الكرامة والعلم ما يجعلنا نطمئن إليه.

قوله تعالى: **(وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)** أي: سميع بأذن عروته الوثقى متكلم بلسان عروته وظاهرا بعلمه من خلال لسانه كما جاء في الحديث القسي: **(كنت لسانه الذي ينطق به... الحديث القدسي)**، فمن وجد الشيخ الولي المرشد الكامل، فإنه وجد علم الله المطلق، وهذا يعني أن التمسك بالولي الشيخ الكامل، هو عين التمسك بعلم الله تعالى المطلق الذي يرقيه في المقامات حتى يصل مرتبة الفناء.

ويستدعي السلمي بعض تأويلات العارفين فيرى في قوله تعالى: **(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ)**، يقال: طاغوت كل أمريء نفسه، وقيل الطاغوت: كل ما سوى الله جل وعز، وفي الجملة إن كل من لم يتبرأ من الكل لم يصح له الإيمان بالله عز وجل، أما قوله: **(فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ)** العروة الوثقى: التوفيق في السبق، والسعادة في الختم، وقيل: العروة الوثقى: لا إله إلا الله، وقيل العروة الوثقى: محمد صلى الله تعالى عليه وسلم. وقيل العروة الوثقى: السنة.) (السلمي: المصدر السابق، مجلد1، ص 77)

يرى البروسوي: (إن حقيقة الإيمان كونه متعلقا بالله على وجه الشهود والعيان ومجازه كونه متعلقا به على وجه الرسم والبيان، أو بالطاغوت وحقيقة الكفر كونه متعلقا بالطاغوت، ومجازه كونه متعلقا بوحدة الله أو بنعمته فإن الكفر ثلاثة أقسام: كفر النعمة، وكفر الوحدة، وكفر الطاغوت، وأفراد الإنسان ثلاثة أقسام أيضا: أصحاب الميمنة، وهم أرباب الجمال ومظاهره، وأصحاب المشأمة، وهم أرباب الجلال، ومظاهره، والمقربون، وهم أصحاب الكمال ومظاهره، وقلوب الفريق الأول في أيدي سدنة الجمال

الإلهي من الملائكة المقربين، وقلوب الفريق الثاني في أيدي سدنة الجلال الإلهي من الشياطين المتمردين يستعملونها في سبيل السرور، وقلوب الفريق الثالث في يد الله فوق يدي سدنة الجمال والجلال يقلبها كيف يشاء بين التجليات العاليات، والعلوم، والمعارف الإلهيات، ولما تعلق إيمان هذه الفرق بالله على وجه الشهود، والعيان، وتعلق كفرهم بالطاغوت جليا، أو خفيا كان إيمانهم وكفرهم حقيقيين، وجاوزوا من عالم المجاز إلى عالم الحقيقة، وأما الفريق الثاني فقد إيمانهم بالطاغوت مطلقا جليا، أو خفيا وكفرهم بالوحدة والنعمة فكان إيمانهم، وكفرهم مجازيين لكن إيمانهم مردود ككفرهم لأنه لم يتعلق بالله إلى قرب عالم الحقيقة.) (البروسوي: المصدر السابق، مجلد1، ص413)

أما القشيري فيرى في لطائف إشاراته: (**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**) فإن الحجج لائحة، والبراهين ظاهرة واضحة(**قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**) وامتاز الليل بظلامه عن النهار بضيائه، والحقوق الأزلية معلومة، والحدود الأولية معلولة فهذا بنعت القدم، وهذا بوصف العدم (**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ**) وطاغوت كل واحد ما يشغله عن ربه(**وَيُؤْمِن بِاللّهِ**) والإيمان حياة القلب بالله (**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ**) الاستمساك بالعروة الوثقى الوقوف عند الأمر والنهي، وهو سلوك طريق المصطفى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم(**لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**) [البقرة: 256] فمن تحقق بها سرا، وتعلق بها جهرا فاز في الدارين وسعد في الكونين. (القشيري: المصدر السابق، مجلد1، ص184)

ويرى ابن عجيبة إن الإشارة في هذه الآية مفادها: (لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك، إنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك) وقال أحمد بن حضرويه: الطريق واضح، والحق لائح، والداعي قد أسمع، ما التحير بعد هذا إلا من العمى..فطريق السير واضحة لمن سبقت له العناية، باقية إلى يوم القيامة، وكل ما سوى الله طاغوت، فمن أعرض عن السوى، وعلق قلبه بمحبة المولي، فقد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها على طول المدى.) (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد1، ص، 255)

الشيخ والرابطة الروحية

الرابطة لغة: (الرباط: مصدر ربطت ورابطت، والمرابطة كالمحافظة، قال تعالى: **(وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ)** [الأنفال: 60]، وقال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ)** [آل عمران: 200] فالمرابطة ضربان: مرابطة في ثغور المسلمين، وهي كمرابطة النفس في البدن، فإنها كمن أقيم في ثغر وفوض إليه مراعاته، فيحتاج أن يراعيه غير مخل به، وذلك كالمجاهدة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة) وفلان رابط الجأش: إذا قوي قلبه، وقوله تعالى: **(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ)** [الكهف: 14]، فذلك إشارة إلى نحو قوله: **(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ)** [الفتح: 4].) (الراغب: المصدر السابق، ص338 – 339)

الرابطة في الاصطلاح الصوفي

يعرف السيد الشيخ محمد الكسنزان قدس سره: (الارتباط الروحي: هو ارتباط عقيدة المريد بالشيخ. طريقة الارتباط بالشيخ: بالذكر وأوراد الطريقة يكون ارتباط المريد بالشيخ أما في مسألة ارتباط المريد بالشيخ الحي فيرى الكسنزان قدس سره: الارتباط الروحي لا يكون إلا مع الشيخ الحي؛ لأن كل شيخ ينتقل إلى العالم الآخر يخلف بعده شيخا، يكون الواسطة الروحية بين المريد وسلسلة مشايخ الطريقة، فعلى المريد أن لا يربط روحه بغير روح شيخه الحاضر، فهو بهذا يكون مرتبطا مع الجميع. ويرى الشيخ أن الفائدة من هذا الارتباط من أجل أن يكون ارتباط المريد بالشريعة كاملة؛ لأنها متجسدة في أقواله وأفعاله وأحواله.) (الكسنزان، السيد محمد: المصدر السابق، ج9، ص76)

(الرابطة كما يعرفها نجم الدين داية: هي ربط القلب بالشيخ، وهو عبارة عن تعلق قلب المريد بالشيخ من جهة الإرادة التامة الكاملة حتى يتيقن أنه هو الذي يوصله إلى الله تعالى. ويعرفها الشيخ محمد بن احمد البسطامي: أن يخيل صورة شيخه محاذات وجهه، ويستمد من روحانيته، فإن معنى الشيخ بواسطة

ربط قلب المريد به لا يغيب عنه، إذ قلب الشيخ يحاذي قلب شيخه ويتصل به اتصالا باطنيا، وكذلك قلب شيخ شيخ الشيخ، وهكذا إلى الحضرة النبوية، وقلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دائم التوجه إلى الحضرة الإلهية. ويعرفه عبد الوهاب الشعراني: الرابطة: هي أن يخيل "المريد" خيال شيخه في عينيه، وهو من أهم الآداب وآكدها. ويرى الشيخ عبيد الله خواجة: الرابطة: هي الكينونة مع الصادقين، المأمور بها في كلام رب العالمين الكون معهم صورة ومعنى... الكينونة المعنوية. ويرى الشيخ إبراهيم بن عمر: الرابطة: تكون إن لم يتمكن المريد في مصاحبة الشيخ لتعذره ببعده عنه، وهي: أن يقوم بإحضاره في خياله، ويعتقد أنه في حضرته وصحبته، ويتصور نفسه كأنها بين يديه، ويحفظ ذلك التصور في خياله، ويفنى في وجود الشيخ بكليته، ثم يتوجه من وجود الشيخ إلى الله تعالى، ويتكلف ذلك ويكرره مرة بعد أخرى إلى أن يشرق النور الإلهي على لطيفته إشراقا يكشف الغطاء عن أسرار المعاني، فيكون بالله لا بغيره ولا بنفسه.) (نفسه: ج9، ص76 – 77)

ويوضح شيخ الكسنزان قدس سره الرابطة بشكل أدق بقوله: (الرابطة: هي عبارة عن كثرة مراعاة صورة الشيخ في البال والاستمداد من روحانيته المباركة الفانية في الله تعالى، فيتم للمريد بهذه الرابطة الحضور والنور ويترك بسببها سفاسف الأمور، فيستفيد المريد من شيخه في غيبته كالحضور فتحصل للمريد العلاجات الروحية التي يقدمها الشيخ لصفاء ذات المريد المرابط، ويضيف الشيخ قدس سره: الرابطة: هي أن تربط قلبك بقلب شيخك إلى قلب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الحضرة الإلهية، ومن يفعل ذلك تتنزل عليه الفيوضات الربانية والرحمانية، وينال بركتي نور الذكر ونور الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم. فالرابطة مع الشيخ الكامل: هي إكسير التطهير من الخواطر الرديئة، والوساوس السيئة، فبدل أن يتعبد المريد وفي خواطره صور الدنيا وزخارفها من الأموال والنساء والأولاد وما يزيد في حبها فتشغله عن ربه، فإنه يتفكر في الشيخ الفاني في الله، فيزيد في حبه لله وفي الشوق للقائه. والرابطة تعني: ربط قلب المريد إلى الوسيلة مع الله

الفانية فيه الممدة منه سبحانه والممدة للمريد، وهذه الوسيلة عندنا هي شيخ الطريقة.) (نفسه: ج9، ص79 – 81)

وللرابطة أثر روحي كبير يجري بين الحق تعالى والمريد بتوسط حضرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، والشيخ الولي المرشد الكامل من كونه نائبا عن الرسول في الزمان والمكان، يرى شيخ الكسنزان قدس سره بقوله: (الرابطة: هي باب مدينة العلم الإلهي، فمن دق عليها فتحت أمامه حقائق الغيوب فارتقى عليها للقاء المحبوب، والرابطة: سر بين الشيخ ومريده، لا يطلع عليه إلا من يرابط. والرابطة: تعني الصحبة الروحية. كما أن الذي يرابط مع الشيخ تأتيه بركتان: بركة نور الذكر وبركة نور الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم. والرابطة: تجسيد الروح الأقدس المقدس، واستواءه على عرش الرحمن في المملكة الإنسانية، أي تجسيد نور الشيخ وإنزاله في قلب المريد ، والمرابطة: هي أن تغمض عينيك عن الدنيا، وتنظر بداخلك إلى قلبك، وقلبك ينظر إلى الشيخ.) (نفسه: ج9، ص80)

أما البقلي فيرى أن المرابطة تعني: (حبس القلب عن التقلب مع خطرات الوسوسة في مقام طلب الكشف وصفاء الذكر بنعت خلوصه عن ذكر ما دون الله، وهو منزل يعسر النفس والشيطان وجنودهما يلزم عليه هنالك دفع عساكر الخيال عن حكومة المكاشفات، قال تعالى: **(وَرَابِطُواْ)** [آل عمران: 200] وقال عليه الصلاة والسلام في وصف الطهارة: **(فذلكم الرباط)**، وفائدة المرابطات ارتفاع حجر العوارض عن بصر الروح لتجد مصدرها من عالم الملكوت، وتبصر عجائب غيب الملكوت فترجع إليه بنعت الشوق والعشق والمحبة، وتصير مشاهدة جمال الابتداء الذي لم يكن بينها وبينه واسطة، لأنها عرفت الحق حقيقة بلا حجاب ولا رسوم، ولأن الله تعالى تعرف نفسه للأرواح القدسية الأولية في تجليه من غير واسطة الالتباس، بل كان صرفا كما كان في أزل الآزال، واستغرقت الأرواح في بحار جمال الأزلي وولهت في قفار المعرفة بنعت العشق، وقوله تعالى: **(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)** [الأعراف: 172] عبارة عن تعرف نفسه لها، وتجليه بنعت الجلال والجمال لها، فلما هامت الأرواح بوجوهها في وجه القدم وعشقت بعد الخطاب والرؤية بذات الأزلي

الأبدي، فأجابت الحق تعالى محبة ومعرفة (بلى) وهذا من معنى استغراقها مشاهدة جمال عزه وكبريائه وبقائه، يقال: السير مربوط بريق العناية وحسن الرعاية.) (البقلي: المصدر السابق، ص36 ـــ 37)

المرابطة إدامة الصلة مع الحق تعالى من خلال توسط نور الشيخ الولي المرشد الكامل وصلته بنور الأنوار حضرة الرسول محمد المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم، فالشيخ لم يبلغ مرتبة النور لولا فنائه في حضرة النور، ومن ثم اكتمل في فنائه بنور الله تعالى، والشيخ حين يتوسط بين المريد والحق تعالى لأنه حضرة مناسبة بين النور وبين الخلق، فهو من حيث الروحانية نور رباني محض، ومن حيث الجسد، فهو بشري ليقابل من خلاله البشرية فيعتني بهم ويرقيهم ظاهرا وباطنا حتى يبلغوا أفق النور الرباني فيتم لهم الفناء فيه.

فالمرابطة شكل من أشكال النوافل، وهي أقرب ما تكون من الصلاة الدائمة؛ لأنها تحقق صلة مع جهة النور في جميع الأوقات التي يرابط فيها المريد مع شيخه، كما أن المرابطة تستدعي حضور للشيخ لمريده روحيا، وبحضوره يتم انجلاء الشيطان، ووساوسه، وما يثيره من أوهام، وخيالات فاسدة، ومن ثم فإن ذلك يجعل قلب المريد لا يميل إلى جهة الأغيار، أو السوى، وهذا يعني أن المريد يستطيع من خلال المرابطة تقليل الفجوة، أو المسافة بينه وبين الحق تعالى.

كما أن المرابطة تعني من جهة، محاولة المريد لتغليب كفة التقوى على كفة الفجور؛ وذلك لأن المرابطة مع الشيخ الولي المرشد الكامل تعني المرابطة مع جهة الحق تعالى، وإن النفس ملهمة بالفجور والتقوى كما جاء في قوله تعالى: **(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)** [الشمس:7 ـــ 8] وإن المرابطة جزء مهم من عملية تزكية النفس، وتخليصها من براثن الهيمنة الشيطانية، وتقلبها في أهوائها وميولها تجاه الأغيار والسوى، قال تعالى: **(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)** [الشمس:9 ـــ 10] فالمرابطة لها دخل كبير ومشاركة فعالة في تزكية النفس، وتحريرها من عبودية الهوى والأغيار، كما أن للشيخ الولي الدور الروحي الكبير في إعانة المريد على تخطي المصاعب وبالأخص في عملية المرابطة، لأن المرابطة

كما قلنا من قبل تعني حضور الشيخ بفاعلية طالما المريد قد رابط معه، وإن لحضوره دور كبير في إزالة المكائد، والمصائد التي يزرعها الشيطان في طريق المريد خلال سيره في طريق الحقيقة.

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [آل عمران: 200]

وقوله تعالى:

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً) [الكهف: 14]

قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ)** الخطاب هنا موجه للمؤمنين وهم الذين ترقوا عن مرتبة الإسلام، لقوله تعالى: **(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** [الحجرات: 14] أي: لم تبلغ الأعراب مرتبة الإيمان لخلو قلوبهم من نور الإيمان، ويبدو أن الأعراب لا تزال قلوبهم تميل إلى السوى، وإلى الأغيار، أي: كثيرة التقلب في محبة ما سوى الله تعالى، وكثيرة التعلق بالغواشي، وبجهة الطبع، فمن كانت هذه صفته لا يعد نفسه من المؤمنين بل هو لا يزال في طور ومرتبة الإسلام.

أوصى تعالى المؤمنين بالصبر على الأذى، وتحمل أعباء مقاومة النفس الأمارة بالسوء، ومجاهدتها من خلال مخالفة أهوائها، ورغباتها الدنيوية المحدودة بحدود الأطر الحسية، قال تعالى: **(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)** [النازعات:40 ــ 41]، فالصبر على مخالفة أهواء النفس، ومقاومة رغباتها يساهم بشكل، أو بآخر إلى إذعانها، وانقيادها إلى جهة الحق تعالى، وما دامت النفس منقادة للحق تعالى فإن إقبال الفيض الأقدس عليها مستمر بحسب قوابلها ووعائها حتى تبلغ مراتب الكمال من خلال الوارد القدسي فيكون علمها قائما بالله تعالى فيصل بها هذا العلم إلى مراتب الكمال، والصبر يجب أن لا يفارق المؤمن في جميع

رحلته إلى جهة الحقيقة، كما أن على المؤمن أن يشد من أزر أخيه المؤمن من خلال توصيته، ونصيحته لأخيه المؤمن على الصبر، فيكون عامل مساعد في شد همة أخيه المؤمن ويدعوه إلى الثبات على طريق الإيمان من خلال استدعاء بعض المواقف التي وقفها أهل العزم من السالكين مع ذكر أهمية الصبر في الوصول إلى المقامات العلية، ويفضل أن يذكر له من باب الذكرى بعض المذاقات الروحية التي مرت به من قبل ليقوي به عزمه، ويدعوه إلى المرابطة مع جهة الحق تعالى (الشيخ الولي المرشد الكامل)؛ لأن المرابطة تبعد عنه كل الأوهام والخيالات الفاسدة التي من شأنها إحباط همة المسافر إلى جهة الحق تعالى، إن التواصي بالصبر له أهمية كبيرة على نفسية المؤمن، قال تعالى: **(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)** [العصر: 3] هم الذين لا تهتز عقيدتهم بالعصر، أو الملمات الصعبة كما في قسم الحق تعالى: **(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ)** [العصر:1 – 2] أي: أن الكل ينهار وتتبدل عقيدته حين تمر به الظروف الصعبة، والابتلاءات، والاختبارات، باستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وهنا تظهر أهمية المصابرة في عملية ثبات المؤمن الضعيف نتيجة صحبته للمؤمن القوي، ولأجل ذلك فقد أوصت المشايخ بدور وأهمية الصحبة في عملية الاستقامة، وفي عملية إقالة العثرات من الزلل، أو الانحراف.

ويرى الفيض الكاشاني: (الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقبلة باعث فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين فإذن ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر وهو باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة، وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة فإذا قوي يقينه أعني المعرفة التي تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوي ثبات باعث الدين، وإذا قوي ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة، فلا يتم

ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة، وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها.) (الكاشاني، محسن الفيض: 1426هجري، ج4، ص 77)

وفي تأويل قوله تعالى: **(اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ)** يرى الكاشاني: (حكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيّه أشد، فقال الصبر في الله، فقال: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، قال الصبر مع الله، قال: لا،: فأيش؟ قال: الصبر عن الله، فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف، وقد قيل في معنى قوله تعالى: **(اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُوا)** أصبروا في الله.. وصابروا بالله، ورابطوا مع الله، وقيل: الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء، وقيل في معناه:

والصبر عنك فمذموم عواقبه   والصبر في سائر الأشياء محمود

وقيل أيضا: الصبر يجمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يجمل.) (الكاشاني: المصدر السابق، ج4، ص95)

ويقسم الغزالي الصبر إلى قسمين باعتبار اليسر والعسر فيرى: (أن الصبر على العسر هو ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر. وإذا دامت التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى: **(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى *وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)** [الليل:5 ــ 7] ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره، فإن الرجل القوي يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعته إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر، ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين، فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين، ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى

وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا، فالرضا أعلى من الصبر.) (الغزالي: ب ت، ج4، ص94)

والمرابطة في أحسن حالاتها إذا صحبت الصبر ولازمته، لأن الحق تعالى يحب المجاهدين، والمجاهد من لزم الصبر عند الشدائد ولم يتخلى عنه، قال تعالى: **(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)** [العنكبوت: 69] فلولا محبته تعالى للصابرين الذين جاهدوا النفس من أجل الثبات على طريق الحق تعالى، ودليل محبته تعالى لهم لما أطلعهم على السبل المؤدية إليه.

ويرى ابن عجيبة الحسني أن الإشارة في هذه الآية: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ)** إيمان أهل الخصوص **(اصْبِرُواْ)** على حفظ مراسم الشريعة **(وَصَابِرُوا)** على تحصيل أنوار الطريقة **(وَرَابِطُواْ)** قلوبكم على شهود أسرار الحقيقة، أو: أصبروا على أداء العبادة، وصابروا على تحقيق العبودة ــ أي: الحرية ــ أو: اصبروا على تحقيق مقام الإسلام، وصابروا على دوام الإيمان، ورابطوا على العكوف في مقام الإحسان، أو: أصبروا على تخليص الطاعات، وصابروا على رفض الحظوظ والشهوات، ورابطوا أسراركم على أنوار المشاهدات،**(وَاتَّقُواْ اللّهَ)** فلا تشاهدون معه سواه،**(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)** [آل عمران: 200]، بتحقيق معرفة الله. (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد1، ص421)

ويرى ذو النون أن علامات الصابر خمسة: التباعد عن الخلطاء في الشدة والسكون إليهم. مع تجرع غصص البلية. وإظهار الغنى مع كثرة العيال، وجفاء الخلق مع هجرانهم له. وقول الحق مع احتمال الضرر في المال والبدن، ويرى الإمام الصادق عليه السلام: **(اصبروا)** عن المعاصي، **(وصابروا)** على الطاعات، **(ورابطوا)** الأرواح بالمشاهدة، واتقوا الله عز وجل، أي: تجنبوا الانبساط مع الحق تعالى **(لعلكم تفلحون)** أي: تبلغون مواقف أهل الصدق، فإنه محل الفلاح، ولا ينأى الجنيد البغدادي قدس سره عن تأويل الصادق بعيدا فهو يرى: إن الله تعالى ذكر الصبر، وشرفه وعظم

شأن الصابرين عليه لديه (**وَرَابِطُواْ**) وهو ارتباط السر مع الله تعالى سرا، والوقوف على الله تعالى جهرا، والصبر: حبس النفس مع الله تعالى بنفي الجزع عما سواه، والصبر حبس النفس على المكروه. (الهندي، محمود: المصدر السابق، ص 56)

ويستعين الرازي هو يستعين في تأويله للآية بجملة من أراء العارفين: قال الجنيد قدس سره (الصبر تجرع المرارة من غير تعبس، وقيل: هو ترك الشكوى، وقيل: هو استقبال البلاء بالرضى والثبات، وعلامته: أن يكون بين أصحابه لا يفرق بينه وبينهم وهو في غمرات البلاء، وبهذا فسر قوله تعالى: (**فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً**) [المعارج: 5]، وقيل: علامته أن تستوي عنده النعمة والنقمة، وقال إبراهيم الخواص: الصبر هو: الثبات على أحكام الكتاب والسنة، وقد أمر الله تعالى بالصبر ومدح الصابرين وقال: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ**(...ويرى الرازي أن الفرق بين الصبر والمصابرة: أن المصابرة هي الصبر على مرارة الصبر حتى تستغرق الصبر في الصبر، فيستمد الصبر من الصبر إلى أن يفنى الصابر والمصبر، وقيل في قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ**(: إن الصبر دون المصابرة، والمصابرة دون المرابطة. (الرازي، محمد بن أبي بكر: المصدر السابق، ص107ــ 105)

ويرحل ابن عربي تأويل الآية ليخاطب في تأويله (الكون الصغير) الإنسان من الداخل فيرى في تأويله: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ**) لله (**وَصَابِرُواْ**) مع الله(**وَرَابِطُواْ**(بالله، أي: اصبروا في مقام النفس بالمجاهدة، وصابروا في مقام القلب مع سطوات تجليات صفات الجلال بالمكاشفة، ورابطوا في مقام الروح ذواتكم بالمشاهدة حتى لا يغلبكم فترة أو غفلة أو غيبة بالتلوينات (**وَاتَّقُواْ اللّهَ**) في مقام الصبر عن المخالفة والرياء، وفي المصابرة عن الاعتراض والامتلاء وفي المرابطة عن البقية والجفاء لكي تفلحوا الفلاح الحقيقي السرمدي الذي لا فلاح وراءه.) (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص136)

وفي الفتوحات المكية يوصي ابن عربي بالمرابطة فيقول: (عليك بالرباط فإنه أفضل أحوال المؤمن، فكل إنسان إذا مات يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمى له إلى يوم القيامة، ويأمن فتان القبر ثبت هذا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، والرباط أن يلزم الإنسان نفسه دائما من غير حد ينتهي إليه أو يجعله في نفسه، فإذا ربط نفسه بهذا الأمر فهو مرابط، والرباط في الخير كله ما يختص به خير من خير فالكل سبيل الله فإن سبيل الله ما شرعه الله لعباده أن يعملوا به، فما يختص بملازمة الثغور فقط ولا بالجهاد فإن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال في انتظار الصلاة بعد الصلاة: (إنه رباط) والله يقول في كتابه للمؤمنين: (**اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ**) يعني في ذلك كله أي اجعلوه وقاية تتقوا به هذه العزائم، وذلك معونته في قوله: (**وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ**) [البقرة: 45] أي تكون لكم النجاة من مشقة الصبر والرباط.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد8، ص287)

في حين يرى القشيري في لطائف إشاراته تأويل الآية: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ**) [آل عمران: 200] (الصبر فيما تفرد به العبد، والمصابرة مع العدو، والرباط نوع من الصبر ولكن على وجه مخصوص، ويقال أول الصبر التصبر، ثم الصبر ثم المصابرة ثم الاصطبار وهو نهاية، ويقال: اصبروا على الطاعات وعن المخالفات، وتصابروا في ترك الهوى والشهوات، وقطع المنى والعلاقات، ورابطوا بالاستقامة في الصحبة في عموم الأوقات والحالات، ويقال: اصبروا على ملاحظة الثواب، وصابروا على ابتغاء القربة، ورابطوا في محل الدنو والزلفةــ على شهود الجمال والعزة. والصبر مر مذاقه إذا كان العبد يتحساه على الغيبة، وهو لذيذ طعمه إذا شربه على الشهود والرؤية (**وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**): الفلاح الظفر بالبغية، وهمتهم اليوم الظفر بنفوسهم، فعند ذلك يتم خلاصهم، وإذا ظفروا بنفوسهم ذبحوها بسيوف المجاهدة، وصلبوها على عيدان المكابدة، وبعد فنائهم عنها يحصل بقائهم بالله.) (القشيري: المصدر السابق، مجلد1، ص295)

أما الآية الثانية التي يقول فيها تعالى: **(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً)** [الكهف: 14] هناك علاقة كبيرة بين المرابطة وبين الربط فالمرابطة هي وسيلة العبد للتقرب من الحق تعالى، والغاية من التقرب معروفة، وهي الفوز برضا الحق تعالى لأن الرضا يعني كفالة الحق للعبد، وخير ما يعبر عن هذه الكفالة قوله تعالى: **(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ)** أي: جرى ثباتهم على العقيدة بنا، فمن جرت به قيومية الحق تعالى أصبح من الذين خاطبهم تعالى بقوله: **(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)** [يونس: 62] فالثبات على الإيمان والتوفيق يتم من قبله تعالى إذا صبر العبد في مرابطته مع جهة الحق تعالى.

قوله تعالى: **(إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** أي: إذا توكلوا في أداء عمل ما فإن مرابطتهم لا تنفك مع الحق تعالى، فقابل الحق مرابطتهم بتثبيت قلوبهم في مقام الإيمان، فكان ذلك مبعثا لتمسكهم بجهة الحق تعالى وتوكلهم عليه توكل مطلق.

يتأول ابن عطاء قوله تعالى: **(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** حتى صدقوا العهد والميثاق وأخلينا أسرارهم عما دوننا، ووسمنا أسرارهم بسمة الحق، فقاموا بالحق للحق، فقالوا **(رَبُّنَا)** إظهارا لإرادة ودعوة، قاموا عما كان أقعدهم من الاشتغال بالأكوان فقالوا: **(رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** لم ينظروا إلى شيء من دوننا، ولم يسكنوا إليه، رجوعا من صفاتهم بالكلية إلى صفاته وحقيقة علمه.**(لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً)** لم نعتمد شيء سواه في شيء، لو قلنا غير ذلك كان **(شَطَطاً)** يعني بعيدا عن طريق الحق. (اليسوعي: المصدر السابق، ص 80)

أما السلمي فقد استعان بتأويل الإمام الصادق عليه السلام في تأويل الآية، فهو يرى في قوله تعالى: **(إِذْ قَامُوا)** وأخلصوا في دعائنا وقال الصادق: أي قاموا إلى الحق بالحق قيام أدب ونادوه نداء صدق وأظهروا له

صحة الفقر، ولجؤوا إليه أحسن لجإٍ وقالوا: **(رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** افتخارا به وتعظيما له، فكافأهم على قيامهم الإجابة على ندائهم بأحسن جواب وألطف خطاب، وأظهر عليهم من الآيات ما يعجب منه الرسل.) (السلمي: المصدر السابق، مجلد2، ص404)

أما الطوفي فيرى في قوله تعالى: **(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً)** [الكهف: 14] في هذه الآية استدلال بالنظر على وجود الصانع، لأن السماوات والأرض خلقان عظيمان في العقل يلزمهما وجود، مؤثر فينتقل العقل منهما إليه انتقالا من الملزوم إلى اللازم وهو ضروري،كما أن قولهم يدل على التوحيد، وتقريره: أن السماوات والأرض دليل على إله قديم كامل، وغيره مما اتخذ آلهة لا دليل عليه، وما لا دليل عليه لا يثبت، إذ عدم الدليل على الشيء، كدليل عدم الشيء، كما أن عدم البينة كبينة العدم، فكأن أهل الكهف تمسكوا على نفي الإله الثاني باستصحاب الحال، ورأوه كافيا، فكأنهم قالوا: قد ثبت لنا بدلالة السماوات والأرض وصانعهما إله، فمن ادعى ثانيا فصاعدا فعليه الدليل، ويحتمل أنهم أشاروا بذلك إلى طريقة للمتكلمين في نفي ما سوى الله تعالى إلها.) (الطوفي: المصدر السابق، ص407 ــ 408)

ويرى ابن عربي في تأويلاته لقوله تعالى: **(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ)** قويناها بالصبر على المجاهدة، وشجعناهم على محاربة الشيطان ومخالفة النفس، وهجر المألوفات الجسمانية، واللذات الحسية، والقيام بكلمة التوحيد ونفي إلهية الهوى، وترك عبادة صنم الجسم بين يدي جبار النفس الأمارة بالسوء من غير مبالاة بها حين عاتبتهم على ترك عبادة إله الهوى وصنم البدن، وأوعدتهم بالفقر والهلاك، إذ النفس داعية إلى عبادته وموافقته، وتهيئة أسباب حظوظه مخيفة للقلب من الخوف والموت، أو جسرناهم على القيام بكلمة التوحيد، وإظهار الدين القويم، والدعوة إلى الحق عند كل جبار. (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص397)

الوارث لغة: (الوراثة والإرث: انتقال قُنْيَةٍ إليك من غيرك من غير عقد، ولا ما يجري مجرى العقد، وسمي بذلك المنتقل عن الميت فيقال للقنية الموروثة: ميراث وإرث، وتراث أصله وارث، فقلبت الواو ألفا وتاء، قال تعالى: **(وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ)** [الفجر: 19] وقال عليه الصلاة والسلام: **(أثبتوا على مشاعركم فإنكم على إرث أبيكم)** أي: أصله وبقيته، ويقال: ورثت مالا عن زيد، وورثت زيدا:، قال تعالى: **(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ)** [النمل: 16]، وقوله: **(وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ)** [النساء: 11] وقال: **(وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)** [الشعراء: 59] وقوله تعالى: **(وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ)** [الدخان: 28] ويقال لكل من حصل له شيء من غير تعب: قد ورث كذا، ويقال لمن خول شيئا: أورث قال تعالى: **(وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا)** [الزخرف: 72] **(أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ)** [المؤمنون: 10] وقوله: **(يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ)** [مريم: 6] فإنه يعني وراثة النبوة والعلم، والفضيلة دون المال، فالمال لا قدر له عند الأنبياء حتى يتنافسوا فيه، بل قلما يقتنون المال ويملكونه، ألا ترى أنه قال عليه الصلاة والسلام: **(إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة)** فقد قيل: ما تركناه هو العلم، وهو صدقة تشترك فيها الأمة، وما روي عنه عليه الصلاة والسلام من قوله: **(العلماء ورثة الأنبياء)** فإشارة إلى ما ورثوه من العلم. واستعمل لفظ الورثة لكون ذلك بغير ثمن ولا منة. وقال لعلي عليه السلام: **(أنت أخي ووارثي، قال: وما أرثك ؟ قال: ما ورثت الأنبياء قبلي، كتاب الله وسنتي).**) (الراغب: المصدر السابق، ص863 – 864)

ويمكن لنا إيجاز دلالات الإرث كما ذهب إليها الراغب على النحو التالي:

أولا: الإرث يعني انتقال قنية إليك من غيرك دون عقد كما يحصل حين يرث الابن أباه بعد موته أو الزوج بعد موت زوجته.

ثانيا: ما يرث من مال بطريق مشروع بعد وصية أو بدونها حين يهب زيد بعض المال لصاحبه وصديقه.

ثالثا: الوراثة المعنوية كالنبوة، والعلم، والجاه، والولاية.

رابعا: الوراثة كل من يحصل على شي من غير تعب يعد وراثة.

ويرى الراغب في قوله تعالى: **(وَلِلّه مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)** [آل عمران: 180] وقال تعالى: **(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)** [الحجر: 23] وكونه تعالى وارثا لما روي: (إنه ينادي لمن الملك اليوم ؟ فيقال لله الواحد القهار) ويقال ورثت علما من فلان. أي: استفدت منه، قال تعالى: **(أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ)** [الشورى: 14]، وقال: **(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا)** [فاطر: 32] وقوله تعالى: **(يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)** [الأنبياء: 105] فإن الوراثة الحقيقية هي أن يحصل للإنسان شيء لا يكون عليه فيه تبعة، ولا عليه محاسبة، وعباد الله الصالحون لا يتناولون شيئا من الدنيا إلا بقدر ما يجب، وفي وقت ما يجب، وعلى الوجه الذي يجب، ومن تناول الدنيا على هذا الوجه لا يحاسب عليها ولا يعاقب بل يكون ذلك له عفوا صفوا كما روي أنه: (من حاسب نفسه في الدنيا لم يحاسبه الله في الآخرة.) (نفسه: ص864)

وهذا يعني من خلال ما تقدم يمكننا أن نقسم الإرث إلى نوعين رئيسيين:

الأول: الميراث المادي الذي يحصل عبر الصيغ التي ذكرت من قبل.

الثاني: الإرث المعنوي والروحي، كالعلم بأنواعه ومذاقاته، والنبوة، والولاية، وهذا ما سيكون عليه مدار هذا المبحث.

الإرث فقهيا: (سمي بذلك المنتقل من الميت فيقال للقنية الموروثة ميراث وإرث، وتراث أصله وراث فقلبت الواو تاءاً ويقال ورثت مالا عن زيد وورثت زيدا، وكيف كان الإرث أما مصدر وهو انتقال المال من الميت إلى الحي أو نفس المال المنتقل إليه، ويطلق عليه بالمعنى الثاني الفرايضة أيضا وهي التي قد يصدر بها كتاب الإرث يريدون بها السهام المفروضة أي: المقدرة المقطوعة، أو السهام الواجبة بتشريع الله تعالى أو السهام المعطاة للوارث بيد الشارع.) (المشكيني: المصدر السابق، ص55)

الإرث في الاصطلاح الصوفي

في موسوعة الكسنزان: (الإرث تعرفه فاطمة اليشرطية: الإرث النبوي الشريف: هو العلم والحكمة. ويعرفه عبد الغني النابلسي: مرتبة الإرث المحمدي: هو السير منه تعالى إلى العالم، وهو جمع الجمع، وهو الفرق الثاني، وهو فوق مرتبة العارف. ويعرفه ابن عربي: الإرث على نوعين: معنوي ومحسوس، فالمحسوس: منه ما يتعلق بالألفاظ والأفعال وما يظهر من الأحوال، وأما الورث المعنوي: فما يتعلق بباطن الأحوال، من تطهير النفس من مذام الأخلاق، وتحليتها بمكارم الأخلاق. ومن الورث المعنوي ما يفتح الله عليك به من الفهم في الكتاب وفي حركات العالم كله. وأما الوارث الإلهي: فهو ما يحصل لك في ذاتك من صور التجلي الإلهي عندما يتجلى لك فيها، فإنك لا تراه إلا به فإن الحق بصرك... ولا يصح ميراث لأحد إلا بعد انتقال الموروث إلى البرزخ، وما حصل لك من غير انتقال فليس بورث وإنما ذلك وهب وأعطية.) (الكسنزان: المصدر السابق، ج21، ص 389 – 390)

وترى موسوعة الكسنزان في اصطلاح الوارث: (أولا: بمعنى الله جل جلاله. فالإمام القشيري يرى: الوارث جل جلاله: الباقي بعد فناء الخلق. أما الغزالي فيرى: الوارث جل جلاله: هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك..هو الباقي بعد فناء خلقه، وإليه مرجع كل شيء ومصيره، وهو القائل إذ ذاك: **(لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ)**، وهو المجيب **(لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)** [غافر: 16] أما ابن عربي فيرى: (الوارث: جل جلاله: لما خلفناه عند انتقالنا إلى البرزخ خاصة). ويرى أحمد سعد العقاد: الوارث: جل جلاله: هو الذي تسربل بالصمدانية بلا فناء، وتفرد بالأحدية بلا انتهاء، هو الذي لا يرثه أحد، ولكنه يمنح من يشاء من عباده الولاية والمدد. ثانيا: بمعنى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم. فيرى عبد الكريم الجيلي: (الوارث والرشيد: فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان متحققا بهذين الاسمين، متصفا بهاتين الصفتين. أما ابن عربي فيرى: الورثة: هم خلفاء من حيث لا يشعر بهم، ولا يتمكن لهذا الخليفة المشعور به وغير المشعور به أن يقوم في الخلافة إلا بعد أن يحصل معاني حروف أوائل السور سور القرآن المعجمة. ويرى عبد الكريم الجيلي: الوارث:

هو الذي ورث مقام الدعوة إلى الله تعالى، وهو الذي أورثه الله تعالى الكتاب. الشيخ عبد الغني النابلسي يرى: الورثة: هم هياكل لروحانية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو رسول أبدا حيا وميتا فمن يطع الشيخ فقد أطاع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه روح هيكله، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، فإنه مجلاه). والوارث عند ابن عربي: هو التابع للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم المتتبع له في أقواله وأفعاله وأحواله، إلا ما خص به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مما لا يجوز مشاركته به.) (نفسه: ص391 – 392)

ويعرف البقلي الميراث بقوله: (أورث الحق نور مشاهدته وجه الواصلين وجعلهم بذلك الميراث وارثين منه الولاية والاتصاف والقدرة فيما يريدون، قال تعالى: (**أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ**) [المؤمنون: 10] ورثوا نعم مشاهدته وهم فيها خالدون، قيل: الميراث لباس الربوبية على العبودية.) (البقلي: المصدر السابق، ص227)

وفي الوراثة الكاملة أو الوارث المحمدي جاء في موسوعة الكسنزان قدس سره: (يرى ابن عربي: الوارث الكامل: هو من جمع ميراث الأقوال والأفعال والأحوال، ويقول: الوارث الكامل من الأولياء: هو من انقطع إلى الله بشريعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى أن فتح الله له في قلبه في فهم ما أنزل الله عز وجل على نبيه ورسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بتجل إلهي في باطنه، فرزقه الفهم في كتابه عز وجل، وجعله من المحدثين في هذه الأمة، فقام له هذا مقام الملك الذي جاء إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم رده إلى الخلق، يرشدهم إلى صلاح قلوبهم مع الله، ويفرق لهم بين الخواطر المحمودة والمذمومة، ويبين لهم مقاصد الشرع وما ثبت من الأحكام عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وما لم يثبت بأعلام من الله، أتاه رحمة من عنده، وعلمه من لدنه علما، فيرقي هممهم إلى طلب الأنفس بالمقام الأقدس، ويرغبهم فيما عند الله. ويرى عبد الغني النابلسي في الوارث المحمدي: هو خاتم الأولياء في عصره، كما كان نبينا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم الأنبياء، فلا نبيَ من بعده. وفي كل زمان، لله تعالى أولياء بعدد الأنبياء المتقدمين. وهذا الوارث المحمدي خاتم لولايتهم، جامع

لأسرارهم، واسع لأنوارهم، لأنه ذاتي المقام. ويعرفه الشيخ محمود أبو الشامات: الوارث المحمدي: هو سر الله الجامع لكل الأسرار، ونوره الواسع لجميع الأنوار.) (الكسنزان: المصدر السابق، ج21، ص396)

العلم محمول في أصل النور المتجلي في الوجود الإنساني في الوقت الذي قال فيه تعالى: **(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ)** [الحجر: 29] فالروح المنفوخ هي الحاملة للعلم، وما على الإنسان إلا العمل على كشف كنزية العلم الإلهي الذي تضمنه هذا الامتداد النوراني الساري في الوجود الإنساني المودع فيه، وهذا العلم هو ما نبهت عليه الكتب المنزلة، والرسل، والأنبياء، والأولياء، ويعد النبي، أو الرسول، أو الولي الشيخ المرشد الكامل هو المكتشف الأول لهذا العلم الأقدس بما أتيح له من مشاهدات ومكاشفات، من خلال انتهاجه لمنهج ألهمه الله تعالى به، وهذا العلم الشريف لم يخل أفق من الآفاق الكونية إلا واختزن منه ما يفي بالوصول إلى معرفة الحق تعالى من وجه معين، قال تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)** [فصلت: 53] فكل أفق من الآفاق يحمل وجه للحق تعالى، فمن أراد الكشف عن وجه الحق تعالى في أفق من هذه الآفاق ليس عليه إلا السير على وفق منهج صحيح ليصل إلى مراده، وهو الكشف عن وجه الحق تعالى في ذلك الأفق، وتعد النفس من أهم الميادين التي تصلح للكشف عن أوجه الحقيقة؛ وذلك لأن الآية واضحة في إحالتها **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)** فجعل تعالى النفس في مقابل الآفاق الكونية أي: أن المكتشف الذي يصل بك إلى الحق تعالى هو معرفة نفسك، فإن هذه المعرفة تساوي معرفتك في الآفاق وفي الوقت نفسه معرفة بالحق تعالى؛ لأن الإنسان كون صغير وشريف، وهو نسخة مصغرة من الكون الأكبر.

ويُعَدّ الشيخ الولي المرشد الكامل هو الأنموذج الأكمل من بين العارفين، والعلماء بالطريقة التي تساعد المريد وتسهل من مهمته الكشفية تجاه الحقيقة الكبرى؛ وذلك لعلمه المسبق الذي وهبه الحق تعالى له ومكنه من تولي غيره للوصول به إلى الحقيقة، فهو المطلوب في كل زمان ويفتقر الوجود إليه

لضرورته وأهميته في عملية الوصول إلى المعرفة القائمة بالحق تعالى، ولولا شرف هذا الأنموذج، وأهميته، وضرورته لما أحال إليه واحد من أكابر الرسل والأنبياء عليهم السلام، وهو نبي الله موسى عليه السلام كما جاء في قوله تعالى: **(فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً)** [الكهف: 65] ولولا أهمية العلم الذي يحمله هذا العبد المخصوص لما طلب منه نبي الله موسى عليهما السلام أن يصحبه كتلميذ كما جاء في قوله تعالى: **(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً)** [الكهف: 66] ومن المعلوم أن موسى عليه السلام كان كليم الله، ونبي من أنبياء أولوا العزم ولا يشغله هم آخر غير التقرب من الله تعالى، فأراد التقرب من خلال وسيلة هذا العبد المخصوص إلى الله تعالى، لتكون هذه الآيات مناسبة لنا فنطلب من يصل بنا إلى الحقيقة في زماننا، ولعل من العدالة الإلهية أن يكون في كل زمان عبدا مخصوصا مثل هذا العبد يصل بالراغبين الطالبين طريق الحقيقة إلى مطلوبهم، فإذا غيب مثل هذا العبد المخصوص فإن ذلك ينافي العدل الإلهي، كما أن عملية التغييب تتقاطع مع الرحمة الإلهية، فالرحمة الإلهية توجه بها تعالى لكل الوجود ولن تتوقف في الدنيا والآخرة، وإن فقدان الشيخ الولي المرشد الكامل يعد مصادرة للرحمة الإلهية، وهذه من الاستحالات.

فالشيخ الولي المرشد الكامل هو الوارث للعدالة والرحمة، أي: هو الوجه الذي ينظر من خلاله الحق إلى الوجود فيرحمهم، وهو امتداد العدالة الإلهية التي يتوجه بها تعالى في كل زمان ومكان، والوارثة هنا لا بالمعنى الاصطلاحي الفقهي، بل يراد بالوراثة التواصل مع العطاء الإلهي في كل زمان، والشيخ هو مستودع الحق تعالى، فمن أراد الحقيقة عليه بالتوجه إلى هذا المستودع القدسي ليأخذ عنه ما يكمل نقصه في العلم والمعرفة في الحقيقة، فالوراثة هنا تعني الصلة الدائمة بالحي الذي لا يموت، وبالواهب القدسي الذي لا ينقطع فيضه ولا ينفد.

إن على طالب الحقيقة أن لا يحتجب بالرسم أو الشكل أو بمحدودية الفهم الحسي، بل أن عليه الاعتقاد بأن الله تعالى لم يخلق الوجود سدى بل خلقه تعالى من أجل غاية عظيمة وشريفة وهي إن على الإنسان أن يعرف نفسه

ليعرف ربه، فإذا تحقق بهذا المستوى قد بلغ غاية الحق تعالى فيه، ووصل إلى مستوى رضا الحق تعالى، قال تعالى: **(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)** [القيامة: 36] وما دام الإنسان لم يترك سدى بل عليه التقرب إلى الحقيقة كما جاء في الخطاب الإلهي: **(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)** [العلق: 19] أي: لا تطع من يحاول أن يبعدك عن أصل الحقيقة بل خالفه في الاتجاه، وكن من الطائعين الساجدين الذين يتقربون بطاعتهم من الحقيقة المطلقة، وإن أول مقامات الإيمان لا يمكن أن يتم إلا من خلال معرفة الولي المرشد الكامل، ومن ثم يتم معه (الشيخ الولي المرشد الكامل) الوصول إلى المقامات العلية التي تصل المريد بالحقيقة الكبرى.

قال تعالى:

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) [فاطر: 32]

وقوله تعالى:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) [الزمر: 74]

وقوله تعالى:

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) [الحجر: 23]

وقوله تعالى:

(أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) [المؤمنون: 10]

قوله تعالى:

(يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً) [مريم: 6]

في قوله تعالى: **(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)** [فاطر: 32] يكاشفنا الحق تعالى في هذا الخطاب بأن هناك ثمة وارث للكتاب قد اختص به تعالى وهم العباد المصطفين المنعوتين بالصفات الثلاثة

(**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**) ظلم النفس على ضربين: الأول: غير محمود: وهو ترك النفس على هواها فتحتجب بالأغيار عن جهة الحق تعالى، وهذا يعني حرمان النفس من جنة الحق تعالى وهذا عين الظلم للنفس. الثاني: ظلم النفس من أجل إطلاق حريتها من عبودية أصنام الأغيار، أي: الذين جاهدوا أنفسهم من خلال الرياضات، والخلوات، ومخالفة أهواء أنفسهم المشار إليهم بقوله تعالى: (**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**) [العنكبوت: 69] وقوله تعالى: (**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**) [النازعات:40 ــ 41] فإن هذا القسم قد اتخذوا من مجاهدة النفس منهجا لهم حتى تمكنوا من منع النفس من الميل إلى جهة الأغيار، أو الاحتجاب بجهة السوى عن الحق تعالى.

أما الصنف الثاني من المصطفين: (**وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ**) (القصد: استقامة الطريق، يقال قصدت، قصده، أي: نحوت نحوه، ومنه الاقتصاد، والاقتصاد على ضربين: أحدهما محمود على الإطلاق، وذلك فيما له طرفان: إفراط وتفريط، كالجود، فإنه بين الإسراف والبخل، وكالشجاعة فإنها بين التهور والجبن، ونحو ذلك. والثاني يكنى به عما يتردد بين المحمود والمذموم، وهو فيما يقع بين محمود ومذموم، كالواقع بين العدل والجور، والقريب والبعيد وعلى ذلك قوله: (**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ**).) (الراغب: المصدر السابق، ص672)

وفي هذه الآية يشير تعالى إلى النوع المحمود الذي استحق وراثة الكتاب، أي: العلم الكامن في الكتاب الجامع للمعارف اللدنية، فالكتاب يراد به ظاهرا وباطنا وبما يناسب الزمان والمكان إلى يوم القيامة، والمقتصد هنا هو الذي اقتصر على الضروري من الحياة، أي: الزاهد في الحياة الدنيا نتيجة محبته لله تعالى فهو الذي آثر الحياة الآخرة على الدنيا ولم يحتجب بشيء منها.

قوله تعالى: (**وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ**) أي: الذي يدعوا الناس إلى طريق الحق تعالى وهو مأذون من جهة الحق تعالى، المشار إليه بقوله تعالى: (**وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً**) [الأحزاب: 46] فهو مأذون من الله بدعوة الناس إلى طريق الله تعالى، فإن هذا الصنف يفتح عليه تعالى من

علم الكتاب ما يجعل الداعي متمكنا في دعوته للناس، ومسددا في علم الإرشاد من جهة الحق تعالى.

ولكل صنف من الأصناف الثلاثة يعطيه الحق تعالى تمكين واسع من علم الكتاب بما يكفي ذلك العبد، فالزاهد في الحياة الدنيا يعطيه الحق تعالى المذاقات الروحية والمعارف اللدنية وفاكهة الاعتناء القدسية التي تزيد من تمسكه في ورعه وزهده، والظالم لنفسه يقابله الحق بسعة الرحمة ويتولاه بالتعليم اللدني كما جاء في قوله تعالى: **(عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً)** [الكهف: 65] وهو العلم الذي يؤدي إلى معرفة الحق تعالى حق العرفان، أما الصنف الآخر فيمكنه الحق تعالى في عملية الإرشاد ويعطيه المعارف التي تسهل من توجهاته في عملية الدعوة إلى طريق الرشاد والصلاح.

قوله تعالى: **(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)** الفضل الكبير يعود للحق تعالى الذي هدى العبد إلى طريق الحق والرشاد، فلولا هداية الحق تعالى ما كان للعبد أن يهتدي.

يستدعي السلمي أقوال الأئمة والعارفين في تأويل الآية فيرى الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تأويله للآية: **(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ)** فرق المؤمنين ثلاث فرق سماهم مؤمنين أولا، عبادنا: أضافهم إلى نفسه تفضلا منه وكرما ثم قال: **(اصْطَفَيْنَا)** جعلهم كلهم أصفياء مع علمه بتفاوت معاملاتهم ثم جمعهم في آخر الآية بدخول الجنة فقال: **(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا)** [فاطر: 33] ثم بدأ بالظالمين إخبارا أنه لا يتقرب إليه إلا بصرف كرمه وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفائية ثم ثنى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء. ثم ختم بالسابقين لأن لا يأمن أحد مكره، وكلهم في الجنة لحرمة كلمة الإخلاص. ويرى الحسن البصري قدس سره: السابق من رجحت حسناته، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، والظالم الذي ترجح سيئاته. سئل الثوري عن قوله تعالى: **(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا)** على ماذا عطف بقوله ثم ؟ قال: عطف على إرادة الأزل والأمر المقضى، قال: ثم أورثنا من الخلق الذين سبقت لهم منا الاصطفائية في

الأزل. وقال عبد العزيز المكي: المغفرة للظالمين والرحمة على المقتصدين والقربى للسابقين. وقال حارث المحاسبي: الظالم نظر من نفسه في دنياه وآخرته فيقول في دنياه وآخرته نفسي نفسي، والمقتصد نظر من نفسه إلى عقباه وهو في الآخرة ناظر إلى مولاه، والسابق من نظر من الله إلى الله فلم ير غير الله في دنياه وعقباه.) (السلمي: المصدر السابق، مجلد2، ص161)

ويرى أبو الحسن الفارسي في تأويله للآية: (سبحان من أثبت أسامي الظالمين في ديوان السابقين ثم جمع بينهم في محل الإرث فقال: **(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا)** وإن الله اصطفى جملة الموحدين من جملة الكافرين فكانوا عباداً مخصوصين فسوى بينهم أن لا يعتمد السابق على سبقه ولا ييأس الظالم من ظلمه. وقيل في قوله: **(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ)** قال: فيه تعزية وتهنئة وما من تعزية إلا وتحتها تهنئة ولا تهنئة إلا وتحتها تعزية فلما قال: **(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ)** كان ذلك تهنئة له وتعزية للظالم، ثم ذكر السابق بالخيرات وفي ذلك تهنئة له وتعزية للمقتصد لأن الله يقول: **(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ*أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)** [الواقعة:10- 11] والظالم لنفسه افتقر إلى حال المقتصد والمقتصد لم يفتقر إلى حال الظالم لنفسه والمقتصد افتقر إلى حال السابق، والسابق لم يفتقر إلى حال المقتصد؛ لأن من نال أعلى المراتب فقد جاز مرتبة المقتصد ونال أعلى منها فلا يفتقر إلى ما هو دونها.) (نفسه: ص162)

قال النصرآبادي في تأويله لقوله تعالى: **(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ)** قال: (لا ميراث إلا عن نسبة صحح النسبة ثم ادَّعى الميراث، وقال أيضا: ميراث الكتاب الذين فهموا عن الله كتابة وكل فهم على قدره والظالم فهم منه محل المعرفة والثواب والعقاب والمقتصد فهم محل الجزاء والإعراض والجنان، والسابق استرقه التلذذ بالخطاب عن أن يرجع منه إلى شيء سواه.ويقول: القرب من الدرجات العلى والمقامات الأرفع بالإرث، والإرث بصحة النسب فمن صحح النسبة وجد الميراث ولا يأخذ ميراث الحق إلا من نسبة الحق إلا من نسبة الحق وإلى الحق دون الأنساب والوسايط. قال بعضهم: الظالم نظر من النعمة إلى المنعم والمقتصد نظر من المنعم إلى النعمة، والسابق نظر من المنعم إلى المنعم لم يكن منه فضلا أن يلاحظ شيئا سواه أو يشهد غيره. قال

أبو يزيد قدس سره: في قوله: **(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ)** قال الظالم مضروب بسوط مقتول بسيف الحرص مضطجع على باب الرجاء والمقتصد مضروب بسوط الحسوة مقتول بسيف الندامة مضطجع على باب الكرامة، والسابق مضروب بسوط المحبة مقتول بسيف الشوق مضطجع على باب الهيبة.) (نفسه: ص163 – 164)

ويحيلنا ذو النون المصري من خلال تأويله للآية إلى بوابة الوصول إلى الحقيقة المطلقة، والوسيلة إلى ذلك وهو الذكر فهو يرى: الظالم: هو الذاكر لله تعالى بلسانه فقط، والمقتصد: هو الذاكر الله تعالى بقلبه، أما السابق: فهو الذي لا ينسى الحق تعالى في جميع أوقاته. (الهندي، محمود: المصدر السابق، ص163)

وحين يقول ذو النون الظالم: هو الذاكر بلسانه؛ فإنه يريد بذلك بأن ذكر اللسان يكون للمبتدأ من أهل السلوك، فهو في أول الشروع إلى الحقيقة المطلقة، وهو ظالم لنفسه لأنها لم تلتحق بعد بأصل وجودها وهو النور الإلهي، فهي لم تزل تحت قيد الجسد وأهوائه أي: لم تتحرر من عبودية أصنام الأهواء، والميول إلى السوى، والأغيار فلم تزل محتجبة بجهة الغواشي والطبع، ولو تمكنت من التحرر والانفلات من سجن الجسد لدخلت عالم الأنوار، وشاهدت، وتذوقت من المعارف اللدنية الإلهية لخرجت من ظلمة الطبع والجهل.

أما قوله بخصوص المقتصد: الذي يذكر في قلبه، فإنه وصف للحال الذي يتوسط ما بين عالم الحس وعالم الروح فهو من جانب له تحصيل المعارف القلبية، ومن جهة أخرى لا تزال صلته قائمة مع جهة الحس أي له برزخية بين الحس والروح، والموضوع والمعنى، وهو حال المسافر الذي لا يزال يقطع المقامات، وهو في طريقة إلى الكمالات، وحاله السعي الدائم من خلال الرياضات والمجاهدات من أجل الوصول إلى الحقيقة المطلقة والتماهي فيها.

أما قوله: بخصوص السابق: بأنه الذي لا ينسى الحق تعالى فيراد به الفاني أو المتماهي في الحقيقة الكبرى فهو قد تجرد من جميع أشكال الغفلة،

فهو لم ينسى الحق تعالى طرفة عين، قيل: لأحد الأولياء هل تذكر الله كثيرا؟ فقال: وهل يذكر من لا ينسى ؟ أراد بذلك أنه يرابط مع الحق في جميع أوقاته فهو في حكم المشاهدة الدائمة التي لا تتخللها فترة يكون فيها مشغولا بغيره عنه تعالى.

ولا تزال الآية تعطي أكلها التأويلية كل حين فيرى ابن عطاء أن تأويل الآية يمكن تناولها على المحمل التالي: (العبادة: غاية الظالم لنفسه، والعبودية:غاية المقتصدين ونهايتهم، والعبودة: تحقيق ومشاهدة للسابقين، ويرى ابن عطاء: الظالم: معذب، والمقتصد: معاتب، والسابق: ناج مقرب. قدّم الظالم لئلا ييأس من فضله، والسابق مقدم بسبقه. لكن أظهر لطفه بتقديم الظالم، ليعرفوا كرمه فيرجعوا إليه. ويرى ابن عطاء: يحتاج قائل كلمة التوحيد إلى ثلاثة أنوار: نور الهداية ونور الكفاية ونور الرعاية والعناية، فمن منَّ الله تعالى عليه بأنوار الهداية، فهو معصوم من الشرك والنفاق، ومن من الله عليه بأنوار الكفاية، فهو معصوم من الكبائر والفواحش، ومن منَّ الله عليه بأنوار العناية والرعاية، فهو محفوظ من الخطرات الفاسدة والحركات التي هي لأهل الغفلات. فالنور الأول للظالم، والنور الثاني للمقتصد، والنور الثالث للسابق، وإن حمد الظالمين على العادة، وحمد المقتصدين على اللذة، وحمد السابقين على السابقة. والظالم النفس، والمقتصد القلب، والسابق الروح. فالظالم هو الذي يحبه من أجل الدنيا، والمقتصد الذي يحبه من أجل العقبى، والسابق الذي أسقط مراده لمراد الحق منه. فلا يرى لنفسه طلبا ولا مرادا لغلبة سلطان الحق عليه.) (اليسوعي، بولس: المصدر السابق، ص124 – 125)

في حين يذهب التستري إلى تأويل آخر فيرى: السابق هو العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم الجاهل. والسابق هو الذي اشتغل بمعاده، والمقتصد الذي اشتغل بمعاده ومعاشه، والظالم الذي اشتغل بمعاشه دون معاده. (التستري: المصدر السابق، ص129)

ويربط ابن عربي وراثة الكتاب بالورثة المحمديين أي: أولياء الأمة المحمدية فيرى في قوله تعالى: **(ثُمَّ أَوْرَثْنَا)** منك هذا**(الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا)** المحمديين المخصوصين من عند الله بمزيد العناية وكمال

الاستعداد بالنسبة إلى سائر الأمم لأنهم لا يرثون ولا يصلون إليه إلا منك وبواسطتك لأنك المعطي إياهم الاستعداد والكمال فنسبتهم إلى سائر الأمم نسبتك إلى سائر الأنبياء(**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**) بنقص حق استعداده ومنعه عن خروجه إلى الفعل وخيانته في الأمانة المودعة عنده بحملها وإمساكها والامتناع عن أدائها لانهماكه في اللذات البدنية والشهوات النفسانية (**وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ**) يسلك طريق اليمين ويختار الصالحات من الأعمال والحسنات، ويكتب الفضائل والكمالات في مقام القلب (**وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**) التي هي تجليات الصفات إلى الفناء في الذات(**بِإِذْنِ اللَّهِ**) بتيسيره وتوفيقه (**ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**) [فاطر: 32] . (ابن عربي: المصدر السابق، ج2، ص 170)

ويرى عبد الكريم الجيلي في شرحه لرسالة الأنوار لابن عربي في إشارة له عن المردودين الذين وصلوا إلى مقام التحق في الله تعالى والفناء فيه ثم أرجعهم الحق تعالى إلى الخلق، فيقول: (ومنهم المردودين أي: من يرد إلى الخلق ليكملهم ويدعوهم بلسان الإرشاد والهداية إلى جناب الحق تعالى، (وهو العالم) الرباني، وهو من الذين قال الله تعالى في حقهم: (**كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**) [آل عمران: 79]، فهو الوارث الذي ورث مقام الدعوة إلى الله تعالى ـ وهو الذي أورثه الله ـ تعالى ـ الكتاب كما قال تعالى: (**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**)، وليس كل داع إلى الله تعالى وارث للكتاب على مقام واحد في الدعوة والوراثة، ولكن يجمعهم مقام الدعوة ويفضل بعضهم على بعض في مرتبته، التي تخصه من مطلق مقام الدعوة، كما قال تعالى: (**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**) [البقرة: 253] مع أن مقام الرسالة قد جمع الكل. فمنهم أي: فمن الورثة والداعين إلى الله تعالى على بصيرة (الداعي بلغة عيسى عليه السلام) ومن مقامه وذوقه وحاله وهكذا (موسى، وسام، وإسماعيل، وآدم، وإدريس، وإبراهيم، ويوسف، وهارون وغيرهم) من الأنبياء عليهم السلام، (وهؤلاء الذين) هم ورثة هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، هم الصوفية، وهم أصحاب الأحوال بالإضافة إلى السادة منا، الذين هم أصحاب المقامات يعني الملامية، وهم الطبقة العالية من أهل الله تعالى، وهم

سادات القوم في كل حال أو مقام، من فناء وبقاء وجمع وفرق، ومنهم من الورثة والدعاة الداعي بلغة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن مقامه وذوقه وحاله (وهم الملامية أهل التمكين والحقائق.) (الجيلي، عبد الكريم: 2009، المصدر السابق، ص331)

وفي الفتوحات المكية يرى ابن عربي في الأصناف التي ذكرتها الآية على النحو التالي: (ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، قال صلى الله تعالى عليه وسلم: **(العلماء ورثة الأنبياء)** إن من علامات صدق المريد في إرادته فراره عن الخلق، ومن علامات صدق فراره عن الخلق وجوده للحق، ومن علامات صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق، وهذا هو حال الوارث للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه كان يخلو بغار حراء ينقطع إلى الله فيه ويترك بيته وأهله ويفر إلى ربه حتى فجأه الحق ثم بعثه الله رسولا مرشدا إلى عباده، فهذه حالات ثلاث ورثه فيها من اعتنى الله به من أمته ومثل هذا يسمى وارثا، فالوارث الكامل من ورثه علما وعملا وحالا، فأما قوله تعالى في الوارث للمصطفى أنه (ظالم لنفسه) يريد حال أبي الدرداء وأمثاله من الرجال الذين ظلموا أنفسهم لأنفسهم أي من أجل أنفسهم حتى يسعدوها في الآخرة.. أم الصنف الثاني من ورثة الكتاب فهو المقتصد، وهو الذي يعطي نفسه حقها من راحة الدنيا ليستعين بذلك على ما يحملها عليه من خدمة ربها في قيامه بين الراحة وأعمال البر، وهو حال بين حالين: بين العزيمة والرخصة، ففي قيام الليل يسمى المقتصد متهجدا لأنه يقوم وينام وعلى مثل هذا تجري أفعاله، وأما السابق بالخيرات فهو المبادر إلى الأمر قبل دخول وقته ليكون على أهبة واستعداد كالمتوضيء قبل دخول الوقت والجالس في المسجد قبل دخول وقت الصلاة.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد 3، ص35)

وفي تأويل آخر يرى فيه ابن عربي: (الظالم لنفسه لعلمه بقدرها عند الله فهو يظلم لها لا يظلمها فيعطي كل ذي حق حقه إلا الحق فإنه لا يعطيه كل حقه بل يعطيه من حقه تعالى ما يسمى به أديبا وما لا يسمى به أديبا يظلمه فيه من أجل نفسه حتى يلحق برتبة الأنبياء، فمثل هذا الظلم من الفضل الإلهي على عبده، فمن كان مشهده هذا سمي ظالما لنفسه مع أنه مصطفى

وما أوقفه على ذلك إلا علمه بالكتاب فهو يحكم به كما قال الذي عنده علم من الكتاب لسليمان عليه السلام: **(أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)** [النمل: 40] فلولا الكتاب ما علم آصف بن برخيا ذلك، وأما المقتصد فهو الذي اقتصد في كل موطن على ما يقتضيه حكم الموطن فهو بحكم الموطن لا بحكم نفسه، وهم أهل الله الأخفياء الأبرياء، فمشهد الظالم ما يجب للحق فلا ينسبه إليه، ومشهد المقتصد المواطن وما تستحق، فالظالم يدخل في حكم المقتصد ولهذا كان المقتصد وسطا لأنه على حقيقة ليست للطرفين، وفيه من حكم الطرفين ما يحتاج إليه أو يندرج فيه، وأما السابق بالخيرات فهو الذي يتهيأ لحكم المواطن قبل قدومها عليه، وتجتمع هذه الأحوال في الشخص الواحد فيكون ظالما مقتصدا سابقا بالخيرات.) (نفسه: مجلد7، ص107)

أما في الآية الثانية التي يقول فيها تعالى: **(وَقَالُوا الْحَمْدُ للَّه الَّذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ منَ الْجَنَّة حَيْثُ نَشَاء فَنعْمَ أَجْرُ الْعَاملينَ)** [الزمر: 74] حمدوا الله تعالى على صدقه فيما أوعدهم به من معرفة تتصل بجنة أرض النفس بعد أن تحرروا من رق عبودية الطبع والميل إلى جهة الأغيار.

ففي النفس الإنسانية نسخة من اللوح المحفوظ الذي فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة وهو العلم الإلهي الذي يختص بمراتب الوجود ظاهرا وباطنا، وإن عملية الكشف عنه ومعرفته يعني معرفة الرب تعالى حق العرفان، ولذلك قيل: **(من عرف نفسه فقد عرف ربه)** وقال تعالى: **(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)** [الذاريات: 21] ففي النفس جنة المعاني يرثها من عرف طريق الحق تعالى، ويمكن أخذ الآية على محمل تأويلي آخر المقصود من الوراثة ما يؤول إليه الأمر في زمان المهدي عليه السلام فإن الأرض وما عليها تكون وراثة للمتقين جزاءا لهم بما صبروا.

قوله تعالى: **(نَتَبَوَّأُ منَ الْجَنَّة حَيْثُ نَشَاء فَنعْمَ أَجْرُ الْعَاملينَ)** أي: تحقق العبد بالحق فيكون العبد المخصوص الذي يقول للشيء كن فيكون، فإن مقام الكن هنا يعطي للعبد من التمكينات، والتصريف ما لذ وطاب من جنة المعاني، والمذاقات الروحية، فالوراثة هنا لها مدلولين الأول يتصل بالعبد وهو في عالم الدنيا، والآخر يتصل بالعبد في الآخرة، وكلاهما يحصل للعبد المطيع.

يتأول ابن عربي هذه الآية فيرى: **(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ)** بالاتصاف بكمالاته والوصول إلى نعيم تجليات صفاته**(الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)** بإيصالنا إلى ما وعدنا في العهد الأول وأودع فينا وأنبأنا عنه على ألسنة رسله **(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)** جنة الصفات **(نَتَبَوَّأُ)** منها **(حَيْثُ نَشَاءُ)** بحسب شرفنا ومقتضى حالنا**(فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)** الذين عملوا بما علموا فأورثوا جنة القلب والنفس من الأنوار والآثار. (ابن عربي: المصدر السابق، ج2، ص207)

فالوراثة التي يشير إليها ابن عربي هي ما يحصل عليه العبد المطيع من مذاقات ومكاشفات ومشاهدات قد اكتنزتها نفس العبد، بمعنى آخر إن النفس هي رقيقة إلهية حاملة لصفات الرب تعالى، وتستطيع أن تفعل فعل الرب تعالى إذا تجردت من تعلقاتها بالأغيار وصفت من كدورات الطبع ولذلك جاء في الحديث القدسي: **(عبدي أطعني تكن ربانيا تقول للشيء كن فيكون)** فإن هذا الوصف، أي العمل بمقام الكن مع الاستجابة لهذه الإرادة هو الذي يطلق عليه جنة الصفات، وجنة الأفعال، وهذه الجنة باستطاعة العبد العازم أن يحققها ويتحقق بها وهو في الحياة الدنيا، أما في الآخرة فإن الحديث عن تلك الجنة ففيه ما يذهل العقول، ويكفينا من ذلك أن نتعظ من مشاهداتنا للكرامات، وخوارق نواميس العقل التي تظهر على يد الأولياء، والمشايخ الكاملين، والصالحين.

فالكون الشامل قد اندرجت فيه حقائق كثيرة منها ما هو موجود متحقق فيه ومنها ما ينتظر التحقيق، ومنها ما هو موجود ــ مختفي في نفس الوقت، مثال ذلك أن فيه عوالم روحية كثيرة لا ترى بالعين كالملائكة والجن وعالم الروح، كما أن فيه أنواع الجنان وأرقاها، وجعل تعالى الفرد الإنساني كون صغير جامع لكل هذه الأمور الكونية كثيفها ولطيفها، فإذا أراد الكشف عنها وجب عليه التوجه إلى باب العبودية والطاعة لتحقيق هدفه، ويرى ما أودعه الحق تعالى فيه من عوالم.

ويستدعى السلمي قول الإمام الصادق عليه السلام في تأويل قوله تعالى: **(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)** الذي يرى فيه: هو حمد العارفين الذين عرفوا الحق تعالى فاستقروا في دار القرار وهي المعرفة الحقة، التي حصلت

بعد الوصول إلى الفناء، والتحقق بالحق تعالى كما جاء في قوله تعالى: **(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)** [فاطر: 34]. (السلمي: المصدر السابق، مجلد2، ص205)

ويريد الصادق عليه السلام حين يحيلنا إلى قوله تعالى في الآية **(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)** [فاطر: 34] إشارة منه إلى الولاية الحاصلة بعد الفناء، والتحقق بالحق تعالى، وارتفاع حال الحزن والخوف من قلب الولي كما جاء في قوله تعالى: **(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)** [يونس: 62] ولا يرتفع الحزن والخوف إلا بعد دخول الجنة، وحصول مذاق البشرى كما جاء في قوله تعالى: **(لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)** [يونس: 64] أما الحال الذي يحصل فيه مذاقات أهل الجنة مع بقاء الحزن والخوف فهم مقام بعض مراتب أهل الإيمان الذين هم دون مرتبة الفناء.

يشير ابن عربي في فتوحاته بقوله: (إن جنات الأعمال ما بين الثمانين إلى السبعين لا تزيد ولا تنقص، والإيمان بضع وسبعون بابا أدنى ذلك إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعه قولا: لا إله إلا الله، قال تعالى: **(نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)** فلم يحجر بهذا لمن عمل بكل عمل، فإن الإنسان في الدنيا أي عمل عمله من الأعمال أعمال الإيمان لا يحجر عليه إذا شاء عمله، فلما ظهر صلى الله تعالى عليه وسلم بجميع شعب الإيمان كلها التي هي بعدد الجنات العملية إما بالفعل وإما بالدلالة عليها فإنه الذي سنها لأمته فله أجر من عمل بها، ولا يخلو واحد من الأمة أن يعمل بواحدة منها فهي في ميزانه صلى الله تعالى عليه وسلم من حيث العمل بها فيتبوأ من الجنة حيث يشاء، وهذا لا يصلح إلا لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه عنه ظهرت السنن الإلهية، فبهذا نال المقام المحمود وبجوامع الكلم وبالبعثة العامة، فإنه بالعناية الأخروية صحت له هذه المقامات في الدنيا، وباتصافه بهذه الأحوال في الدنيا نال تلك المقامات الأخروية، فهو دور بديع مختلف الوجوه حتى يصح الوجود عنه.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد3، ص131)

ويرى ابن عطاء أن العبيد ومن خلال عبوديتهم ذاقوا، وعرفوا، وشاهدوا النعمة التي جاد بها المنعم، التي تفوق حقوق العبودية، فوجدوا أن هذه النعم لم يبلغوها بأعمالهم بل جاءت من خزانة الجود والكرم الإلهي بفضله من غير استحقاق منهم لذلك فحمدوا الله على ذلك الفضل والجود والكرم. (اليسوعي، بولس: المصدر السابق، ص132)

ويرى ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية مفادها: إن خزنة الجنة هم شيوخ التربية، العارفون بالله، فهم الذين يقولون لمريديهم الذين تخلصوا من أوصاف البشرية وتحققوا بأوصاف الربوبية سلام عليكم طبتم أي: تقدستم من العيوب والأكدار، فادخلوها خالدين، لأن من وصل لا يرجع أبدا، وما رجع من رجع إلا من الطريق، وقالوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، بأن أنجز لنا ما وعدنا من الوصول، على ألسنة المشايخ، قال في الحكم: (سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه). وأورثنا أرض الوجود بأسره، نتبوأ من جنة المعارف، في أقطار الوجود، بفكرتنا وهمتنا، حيث نشاء، فنعم أجر العاملين، وترى الملائكة حافين من حول العرش، أي: قلب العارف، لأنه بيت الرب، ومحل قرار نوره، فيحفظونه بالحفظ والرعاية من دخول الأغيار، وينزهون الله عن الحلول والاستقرار. وقضي بينهم بالحق، فعزلت الشياطين عن قلوب الذاكرين، وتسلطت على قلوب الغافلين، والحمد لله رب العالمين، حيث لم يظلم أحدا من العالمين. (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد6285)

فالجنة هنا كما يراها ابن عجيبة هي جنة الشيخ الولي الكامل باعتباره هو الوارث للمعارف الإلهية، وتعد جنة المعارف هي من أرقى أنواع الجنان، فالمريد الذي يتربى بين أحضان شيخ ولي مرشد كامل كمن تربى في أحضان الجنان.

أما في قوله تعالى: (**وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ**) [الحجر: 23] هذه الآية من الآيات التي تحيلنا إلى مظاهر العظمة التي يظهرها الحق على أنبيائه ورسله وأوليائه ليريَ تعالى أثار قدرته على يد الرسول أو الولي، إن أحياء الموتى التي أظهرها عيسى عليه السلام كما جاء في قوله

تعالى: (وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي) [المائدة: 110] لا تفيد الشركة في نفس الأمر، أي: عملية الإحياء بل تفيد أن الحق تعالى هو القادر على عملية الإحياء، وما يظهره عيسى عليه السلام من عملية إحياء فهو على سبيل الاستعاضة من أجل المناسبة، وكأن الفعل العيسوي هنا يراد به الإحالة إلى جهة الحق تعالى، فالفعل العيسوي دعوة إلى التوحد والفناء في الحق تعالى والتحقق فيه ليظهر العبد بحقيقة الرب الذي يقول للشيء كن فيكون، ويراد بالوراثة في هذه الآية أن فعل الإحياء لا يرثه إلا الله تعالى على سبيل الحقيقة، فهو المحيي، والوارث المطلق الذي لا وجود لغيره إلا من حيث النسبة، والإضافة، ولا وجود حق إلا لله تعالى، فأراد تعالى يرينا فعله في عملية الإحياء فأرانا فعله على يد خليفته من أجل المناسبة البشرية التي نجتمع بها نحن وخليفته، ولو جردنا خليفته من أوصافه البشرية لوجدنا أن حقيقة الفعل ينطلق من الحق تعالى وليس من غيره، ومن أجل ذلك جاء تعالى في خطابه بلغة الجمع (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) وهي لغة التعظيم، ومن هذا الباب جاء تعظيم الحبيب المصطفى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم: 4] فإن حقيقة العظمة لا يقع وصفها إلا على الله لأنه تعالى هو الذي خلق حبيبه بهذه الخلق العظيمة وهي الأخلاق الإلهية، فما عظم الحق تعالى إلا نفسه من خلال هذا التعظيم، فالتعظيم بالنسبة للعارف جرى على سبيل المجاز ، في حين أنه لله تعالى على سبيل الحقيقة.

يرى الغزالي: معنى المحيي والمميت الموجد ولكن الوجود إذا كان هو الحياة سمي فعله إحياء، وإذا كان هو الموت سمي فعله إماتة، ولا خالق للموت والحياة إلا الله فمرجع هذين الاسمين إلى صفات الفعل (وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) قيل للباقي وارث الميت لأنه يبقى بعد فنائه، فالمعنى ونحن الباقون بعد فناء الخلق جميعا، المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازي، الحاكمون في الكل أولا وآخرا وليس لهم إلا التصرف الصوري والملك المجازي، وفيه تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم كما يتراءى من ظاهر الحال والمكاشفون والمشاهدون المعاينون يرون الأمر الآن على

ما هو عليه من العدم فإن قيامة العارفين دائمة فهم سامعون الآن من الله تعالى من غير حرف ولا صوت نداء لمن الملك اليوم موقنون بأن الملك لله الواحد القهار في كل يوم وفي كل ساعة وفي كل لحظة، وفي التأويلات النجمية: **(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي)** قلوب أوليائنا بأنوار جمالنا **(وَنُمِيتُ)** نفوسهم بسطوت نظرات جلالنا **(وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)** بعد إفناء وجودهم ليبقوا ببقائنا. (البروسوي: المصدر السابق، مجلد4، ص480)

ويرى محمد وفا الكبير: أن الميراث هو استحقاق الوارث ملك المورث بالبقاء بعد انحلال ملكته عن أملاكه، فالوارث: هو مالك البعد المطلق بعلة البقاء الذي مفهومه امتناع سلب الوجود عن ذات موصوفة. فرع: وجه الحي الذي لا يموت هو المقول عليه (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [القصص: 88] ومعنى ميراثه: إليه يرجع الأمر كله، فهو الفاتح بالإيجاد والخاتم بالمعاد (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) [المعارج: 4]. (الكبير، محمد وفا: 1992، ص، 162)

في حين يرى زروق في تأويله للآية: (أن الوارث: هو الذي له مرجع جميع الأملاك ومالكيها بوجه لا تبقي معه دعوى ملك لأحد، ولا تعلق في الملك، قال تعالى: **(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ)** [مريم: 40] تنبيه: من عرف أنه الوارث لكل شيء لم يتشبع من الوجود، وقال بعض المشايخ: الوارث من الورثة، وهي من تحقق اسمه الحي، ودوامه حال هلاك كل شيء وفناء من عليها، وموت كل حيوان، ورجوع ما ملكهم إياه إليه. والمتقرب بهذا الاسم: تعلقا: نفي الدعوى وترك الجزع والشكوى، وإن بلغت الغاية في الضر والبلوى. وتخلقا: أن يكون وارثا لما عليه الصالحون من أحوال وأعمال وأقوال؛ **(فالعلماء ورثة الأنبياء)** ورثوا العلم، من أخذ به أخذ بحظ وافر.) (زروق، أحمد بن أحمد: 2007، ص 166)

ويرى القونوي: (الوارث لما خلفه العبيد عند انتقالهم إلى البرزخ. أعلم أن أحكام هذا الاسم سرت في المراتب كلها من الصورية والمعنوية، فالصورية، هي أن يرث الأرض ومن عليها عند انتقال الكل من نشأة الدنيا إلى نشأة الآخرة جملة ويرث أيضا في هذه النشأة من بعض عباده حكما

وعدلا، ليورثها من يشاء، وأما المعنوية فوراثيته فيما يتعلق به علمه من العلم الإبتلائي كما قال تعالى: **(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ)** [محمد: 31] والمورث يخدم الوارث بما تعب في جميع ما أورثه، غير أن الإرث المعنوي ــ الذي هو العلم ــ لا ينقص شيئا من موروثه بوراثة الوارث، بخلاف الدينار والدرهم، فإنهما نقل العين بالوراثة من الميت إلى الوارث، والأنبياء ما ورثوا إلا العلم، وهو ما ورثهم الحق، فالأنبياء ورثة الحق **(والعلماء ورثة الأنبياء)** فالحق وارث من وجه وموروث من جهة وكذلك الخلق، فمن العلماء من ورث علم الأحكام والشرع من ظاهر النبوة، ومنهم من ورث علم الأسرار والكشف من باطن النبوة، ولهما المرتبة الثانية في الوراثة، فإنها ما حصل لها العلم حتى تقدم بها النبي المعين، فما يحصل للورثة من حضرة النبوة من العلم لا يقبل كما يقبلها العلم النظري فهو في غاية البيان، وأي عامل عمل بأمر مشروع وحصل له من ذلك العلم العمل علم بالله فهو من العلم الموروث.) (القونوي، صدر الدين: 2008، ص389 ــ 390)

أما في قوله تعالى: **(أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ)** [المؤمنون: 10] لقد وصف تعالى الوارثون لجنة الفردوس بجملة صفات، فمن اتصف بها كانت له جنات الفردوس نزلا من رب غفور، والصفات كما يلي:

قال تعالى: **(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)** [المؤمنون:8 ــ 9] وقال تعالى: **(الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)** [المؤمنون: 11] فالأمانة، والعهد، والصلاة هي الأعمال التي يرث من خلالها العبد الفردوس.

والأمانة تعني المحافظة على الفطرة المودعة في النفس الإنسانية حين نفخ الحق تعالى من روحه في الجسد الإنساني كما جاء في قوله تعالى: **(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ)** [الحجر: 29] والنفخة هي المعبر عنها بالأمانة كما جاء في الخطاب الإلهي: **(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولا)** [الأحزاب: 72] ومن أجل المحافظة على الأمانة

وجب على الإنسان أن يحافظ على نورانية النفخة المودعة فيه، وعدم إهمالها، والجهل بحقها من خلال الاحتجاب بالمراتب الوجودية، والميل إلى جهتها وإلى جهة الطبع الذي كثيرا ما يعتاد الميل إلى الأغيار، إذ الميل إلى ما سوى الله تعالى يعد ظلم بحق النفس المودعة فيه، والظلم كثيرا ما يحصل بسبب الجهل، ومن أجل التخلص من الجهل لابد من المعرفة القائمة على الحقيقة، ومن أجل تحصيل ذلك، لابد من طلب العلم من عارف بالله حق العرفان، قال تعالى: (**الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً**) [الفرقان: 59] والخبير هو الشيخ الولي المرشد الكامل، وهنا تكمن ضرورة الشيخ وأهميته من كونه وارث للعلم الإلهي وخبير به، فهو خير من يُستشار ويُؤخذ بمشورته.

أما بخصوص العهد فالمراد به تأكيد وإقرار العهد مع الشيخ الولي المرشد الكامل، ونقول تأكيد لأنه جرى من قبل في عالم الذر كما جاء في قوله تعالى: (**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**) [الأعراف: 172] فإن عدم الغفلة يستدعي منا عدم نسيان هذا العهد الذي أعطته، وأقرت به الأرواح في عالم الذر، أي: يجب أن نستجيب لداعي الحق تعالى إذا دعانا إلى تأكيد العهد قولا وفعلا. قال تعالى: (**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**) [الفتح: 10] فالبيعة الواردة في هذه الآية تؤكد صيغة العهد الذي يجب أن يكون مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أو مع من ينوب عنه من الأولياء، وعادة ما يجري العهد باليد مصافحة، مع الإقرار باللسان، مع الإيفاء بشروط العهد وهذا ما أطلق عليه تعالى بقوله: (**وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**) أي: يراعيه ولا يهمله.

أما عملية المحافظة على الصلاة، فالمقصود بها تحقيق الصلة الروحية، والمرابطة، والصبر مع جهة الحق تعالى التي يمثلها الشيخ الولي المرشد الكامل وصولا إلى تحقيق الصلة اليقينية مع الحق تعالى قال تعالى: (**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**) [المعارج: 34] أي: لم يبدد بصلته بالحق تعالى من خلال ميله إلى جهة الأغيار أو السوى بل كان ارتباطه بالحق دائم لا

تشوبه شائبة ولا تتخلله فترة من السهو والغفلة، ولما كان حالهم دوام الصلة مع الله تعالى فإن الحق تعالى يديم عليهم جنات المعارف والعلوم اللدنية يتذوقون فاكهة العلوم الإلهية ويشربون شراب الوصال الذي لا يظمأ بعد شرابه أحدا، فإذا تحقق العبد بهذا الوصال كانت له جنات الفردوس نزلا، ويكون من الوارثين لها.

ويرى ابن عربي في تأويل قوله تعالى: (**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ**) من أسراره التي أودعهم الله إياها في سرهم(**وَعَهْدِهِمْ**) الذي عاهدهم الله عليه في بدء الفطرة (**رَاعُونَ**) بالأداء إليه والإحياء به(**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى**) صلاة مشاهدة أرواحهم(**يُحَافِظُونَ**) الموصوفون بهذه الصفات (**أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) فردوس جنة الروح في حظيرة القدس. (ابن عربي: المصدر السابق، ج2، ص65)

أما القشيري فيرى في تأويله للآية: (الإرث على حسب النسب، وفي استحقاق الفردوس بوصف الإرث لنسب الإيمان في الأصل، ثم الطاعات في الفضل. وكما في استحقاق الإرث تفاوت في مقدار السهمان: بالفرض أو بالتعصيب ــ فكذلك في الطاعات؛ فمنهم من هم في الفردوس بنفوسهم، وفي الأحوال اللطيفة بقلوبهم، ثم هم خالدون بنفوسهم وقلوبهم جميعا لا يبرحون عن منال نفوسهم يبرحون عن حالات قلوبهم.) (القشيري: المصدر السابق، مجلد4، ص239)

ويرى ابن عجيبة: (إن الله تعالى أعطى لعبده سرين يسرهما إليه، يوجده ذلك بإلهام يلهمه، أحدهما: إذا ولد وخرج من بطن أمه، يقول له عبدي، قد أخرجتك من إلى الدنيا طاهرا نظيفا، واستودعتك عمرك، ائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقاني كما أخرجتك، وسر عند خروج روحه، يقول له: عبدي، ماذا صنعت في أمانتي عندك ؟ هل حفظتها حتى تلقاني على العهد والرعاية، فألقاك بالوفاء والجزاء ؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب ؟ فهذا داخل في قوله تعالى: (**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**) وفي قوله تعالى: (**وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**) [البقرة:

40] فعمر العبد أمانة عنده، إن حفظه فقد أدى الأمانة، وإن ضيعه فقد خان.) (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد5، ص، 6)

ويستدعي السلمي الكثير من تأويلات العارفين لتأويل قوله تعالى: **(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)** (قال محمد بن الفضيل: جوارحك كلها أمانات عندك أمرك في كل واحد منها بأمر. فأمانة العين الغض عن المحارم، والنظر بالاعتبار، وأمانة السمع صيانتها عن اللغو والرفث، وإحضارها مجالس الذكر. وأمانة اللسان اجتناب الغيبة والبهتان ومداومة الذكر. وأمانة الرجل المشي إلى الطاعات والتباعد عن المعاصي، وأمانة الفم أن لا تتناول به إلا حلالا، وأمانة اليدان أن لا تمدهما إلى حرام ولا تمسكها عن الأمر بالمعروف، وأمانة القلب مراعاة الحق على دوام الأوقات حتى لا تطالع سواه ولا تشهد غيره، ولا تسكن إلا إليه، ثم العهد عليك في حمل الأمانة وحفظها فمن ضيع الأمانة وصف بالظلم والجهالة **(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)** قال ابن عطاء: المحافظة عليها وهو حفظ السر فيها مع الله أن لا يختلج فيه شيء سواه، قال بعضهم: المحافظة على الصلاة حفظ أوقاتها والدخول فيها بشرط الخدمة والمقام فيها على حد المشاهدة والخروج منها على رؤية التقصير، قوله تعالى: **(أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ)** أي: الذين يفعلون إلى مواريث أعمالهم من رضا ربهم. وقال بعضهم: الفردوس ميراث الأعمال ومجالسة الحق ميراث رؤية الفضل والنعماء.) (السلمي: المصدر السابق، مجلد2، ص31 – 32)

قال تعالى: **(يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً)** [مريم: 6] يحيلنا تعالى إلى حقيقة مهمة من حقيقة الوراثة الروحية، فلو كانت الوراثة المراد بها ماديا فقط لقال زكريا عليه السلام يرثني، ومن أجل أن يفهم المتلقي أن الوراثة لم تكن مادية فقط بل هي كذلك روحية أشار بقوله: **(وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ)** وهناك فارق زمني كبير بين يحيى عليه السلام وبين آل يعقوب عليهم السلام، فالمراد هنا قطعا الوراثة الروحية وما كمن فيها من معارف، وقد جاء الحرف (من) ويراد به العلم الموروث من آل يعقوب الذي يناسب الزمان والمكان ولا يراد به مطلق العلم اليعقوبي عليه السلام أو

مطلق العلم الذي جاء لآله من بعده؛ وذلك لأن بعض العلوم قد ارتبطت بزمانهم دون الزمان الآخر، وخاصة العلوم التي اختصت بالظاهر الحسي، فالوارثة هنا جرت للمعارف الروحية التي تصلح لكل زمان ومكان، وعادة ما تتصل هذه العلوم بطبيعة المقامات، والمنازل الروحية، والأحوال، والمذاقات، والمكاشفات، والمعارف، والعلوم اللدنية الإلهية، وهي علوم يقينية حقيقية غير قابلة للتبديل لأنها من الثوابت كونها تتصل بالله تعالى فلا يطرأ عليها نظام التغير، أو النسخ، أو التبديل لأنها من أوجه الحقيقة الثابتة، فإن المعارف الروحية أو التي لها صلة بعالم الروح لا تتغير لأنها مجردة من الظن وبعيدة عن الاحتمالات، أو الشك، والريب؛ فإن الظن، والشك، والريب يحدث في عالم الحس، قال تعالى: **(وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ)** [الأنعام: 116] يضلوك لأنهم يتبعون الظن، وإن الظن لن يغني عن الحق شيئا، قال تعالى: **(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)** [يونس: 36] في حين أن إتباع الكتاب الناطق أي: الشيخ الولي المرشد الكامل يودي بك إلى اليقين الذي لا ريب فيه، قال تعالى: **(ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)** [البقرة: 2] وشتان ما بين علم يقيني يوصل إلى الحقيقة، وعلم ظني كسبي يضلك عن الحقيقة.

هنا لابد من القول بأن وراثة العلم يتم من خلال الروحانية باعتبار أن الروحانية هي الحاملة للعلم؛ لأن العلم محمول ولا يأتي العلم إلا محمولا، والحامل له هي الروح، وإن قول زكريا يرثني أي: يرث الخلافة الكبرى وما يتصل بها من معارف، وتمكينات، وتصريف، وتدبير.

قوله تعالى: **(وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً)** أي: راضٍ في سيره إلى الحق تعالى، ومنقاد له تعالى في كل أحواله ولا يعصي الحق تعالى في ميل تجاه الأغيار، بل منقاد إلى درجة التسليم، فمن كان راضيا في سيره يرضيه الحق تعالى بالقرب ويمكنه من مراتب الكمال كما جاء في خطاب الحق تعالى: **(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً)** [الفجر:27 ــ 28] فإن الحق تعالى أرضاها لما كانت تتصف بالرضا في سيرها إلى الحقيقة، ومن

أجل هذا كان دعاء نبي الله زكريا أن يكون أبنه رضيا ليرضيه الحق تعالى من خلال الوراثة الروحية، أي: وراثة المعارف والعلوم اللدنية المطلقة التي لا حد لها ولا حصر، كما أن المعارف والمكاشفات السابقة ستكون من ضمن العلوم التي يرثها الوارث النبوي، ومن ثم يضاف إلى هذا الإرث ما ينكشف له في زمانه من العلوم والمعارف، فالوارث هو الذي يرث الذي سبق، ويرث ما يعطيه الحق تعالى من واردات، ومكاشفات في زمانه.

يتأول ابن عربي هذه الآية في فتوحاته فيرى: (أعلم أن المشيئة الإلهية لما كان لها أثر في الفعل لهذا نفى تعلقها بما لا يقبل الانفعال من حيث مرجحه لا من حيث نفسه بخلاف مشيئة العبد، فإنها إذا وقعت وتعلقت بالمشاء قد يكون المشاء وقد لا يكون، ولهذا شرع الله لنا إذا قلنا نفعل كذا أن نقول إن شاء الله، حتى إذا وقع ذلك الفعل الذي علقناه على مشيئة الله كان عن مشيئة الله بحكم الأصل ولم يكن لمشيئتنا فيه أثر في كونه، لكن لها فيه حكم وهو أنه ما شاء سبحانه تكوين ذلك الشيء إلا بوجود مشيئتنا إذ كان وجودها عن مشيئة الله، فلابد من وجود عين مشيئتنا وتعلقها بذلك الفعل وهو قوله: **(وَمَا تشاءون إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)** [الإنسان: 30] يعني إن تشاؤوا، وفائدة إخبار الله تعالى بأنه لو شاء لفعل كذا مع كون هذا يستحيل وقوعه عقلا لكون المشيئة الإلهية لم تتعلق به إعلام لنا أن ذلك الأمر الذي نفى تعلق المشيئة الإلهية بكونه ليس يستحيل كونه بالنظر إلى نفسه لإمكانه فإنه يجب له أن يكون في نفسه قابلا لأحد الأمرين فيفتقر إلى المرجح، بخلاف المحال لنفسه فإنه يستحيل نفي تعلق المشيئة بكونه فإنه لا يكون بنفسه.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد5، ص، 123)

ويضيف ابن عربي في هذا المجال بقوله: (فإن بعض الناس ذهب إلى أن الله تعالى لو أراد إيجاد ما هو محال الوجود لنفسه لأوجده، وإنما لم يوجده لكونه ما أراد وجود المحال الوجود، فصاحب هذا القول يقول: إن الحق تعالى أعطى المحال محاله، والواجب وجوبه، والممكن إمكانه، فهذا القائل لا يدري ما يقول فإنه سبحانه واجب الوجود لنفسه فيلزمه أن يكون هو

الذي أعطى لنفسه الوجوب ولو شاء لم يجب وجوده، فكان وجود الحق مرجحا لنفسه فهو كما قال القائل:

أراد أن يعربه فأعجمه

فإنه أراد أن ينسب إليه تعالى نفوذ الاقتدار ولو لم يعلم متعلق الاقتدار ما هو فعلقه بما لا يقتضيه، وصير الحق في قبيل الممكنات من حيث لا يشعر، فكانت فائدة إخبار الله تعالى بقوله لو شاء فيما لا يقع إعلام أنه بالنظر إلى ذاته ممكن الوقوع ليفرق لنا سبحانه بين ما هو في الإمكان وبين ما ليس بممكن، فنفى تعلق المشيئة والإرادة به، فإذا علقها بالمحال على جهة نفي تعلقها مثل قوله: **(لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً)** [الزمر: 4] و **(لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا)** [الأنبياء: 17] وهذا محال لنفسه، فكيف ادخله تحت نفي تعلق الإرادة التي لا يدخل تحتها إلا الممكن وهو الذي أشار إليه هذا الذي جهلناه وخطأناه في قوله.) (نفسه: ص 123 ـــ 124)

أما السلمي فيرى في تأويل الآية، ومن خلال استدعائه لبعض أقوال العارفين: **(يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ)** قال ابن عطاء: (أي: هب لي من لدنك وليا، أي: ولدا يرث مني النبوة، ويرث من آل يعقوب الأخلاق. قال أبو الحارث الأولاسي: سؤال الأنبياء لا يكون إلا بإذن أو عن إذن. قال بعضهم: هب لي من لدنك وليا: أي ولدا يكون ناصرا لي ومعينا على خدمتك، يرثني أي يرث مني صحبة الفقراء، ومجالستهم، والميل إليهم والاعتزاز بهم فإنها كانت أخلاق الأنبياء والمرسلين، ويرث من آل يعقوب: السخاء والكرم والصبر على النوائب والرضا بالمقدور. قوله تعالى: **(وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً)** قال ابن عطاء: ترضى منه أخلاق الظاهر، وترضيه عنك في الباطن. قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: رضيا: أي راضيا بما يبدو له وعليه. قال أبو بكر الواسطي: **(رضيا)** مستقيم الظاهر والباطن لا ينازعك في مقدور، ولا يخالفك في قضاء، ساكنا عند بوادي ما يبدو من الغيب ساء أم سر. وقال أحدهم: **(وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً)** أي: تجعله ممن قد رضيت عنه فأرضيته.) (السلمي: المصدر السابق، مجلد1، ص421)

الشيخ والاتباع

الاتباع لغة: يرى الر اغب: (تبع: تبعه واتبعه: قفا أثره، وذلك تارة بالجسم، وتارة بالارتسام والائتمار، وعلى ذلك قوله تعالى: **(فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)** [البقرة: 38] وقوله تعالى **(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ)** [يس: 20]) (الر اغب: المصدر السابق، ص162)

الاتباع في الاصطلاح الصوفي

يعرفه الشيخ أحمد السرهندي: (الاتباع: هو إتيان أحكام الإسلام، وإجراؤها بين الأنام، ورفع رسوم الكفر وإبطالها ودفعها عن الخاص والعام. أما سعيد النورسي فيعرف الاتباع: هو تحري المسلم السنة السنية واتباعها وتقليدها في جميع تصريفاته وأعماله، والاستهداء بالأحكام الشرعية في جميع معاملاته وأفعاله...اتباع السنة المطهرة هو طريق الولاية الكبرى، وهو طريق ورثة النبوة من الصحابة الكرام والسلف الصالح.) (الكسنزان، السيد محمد: المصدر السابق، ج4، ص11)

ويعرفه الكسنزان، الشيخ محمد قدس سره: (الاتباع: هو التسليم الكامل لله تعالى بين يدي أولي الأمر المشايخ الكاملين في الدين بالإعراض عن الاعتراض في الأمور كلها لقوله تعالى على لسان عبده الصالح الخضر عليه السلام: **(فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً)** [الكهف: 70]، وحقيقة هذا الاتباع: هو فناء التابع في المتبوع بالتسليم الكامل المطلق له ظاهرا وباطنا، فأما ظاهرا فبإقتدائه بكل حركات شيخه وسكناته وأخلاقه وصفاته، وأما باطنا بأن لا تغيب صورة الشيخ المتبوع عن قلب التابع ولو للحظة فيحصل الانتساب الروحي الذي ذكره تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام حين قال: **(فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي)** [إبراهيم: 36]، كما أنه من اتبع أحب ومن أحب اتبع، فالإتباع ظاهر المحبة والمحبة باطن الاتباع، فلا اتباع بلا محبة ولا محبة بلا اتباع، ومن ظن خلاف ذلك بأن يستطيع الاتباع بلا محبة فهو منافق كذاب، والاتباع على ثلاث مراتب: اتباع الشيخ: وهو قول موسى للخضر عليه السلام: **(هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً)** [الكهف:

66]، وهذا الاتباع يوصل إلى المرتبة الثانية: وهي محبة واتباع حضرة الرسول الأعظم صلى الله تعالى عليه وسلم، واتباع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يوصل إلى المرتبة الثالثة: وهي محبة الله تعالى: **(إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ)** [آل عمران: 31].) (نفسه: ج4، ص12)

الاتباع له غاية هي الوصول إلى مرتبة الفناء، ومن أجل بلوغ هذه المرتبة لابد من السير على خطى الشيخ الولي المرشد الكامل في القول، والحال، والفعل؛ ذلك لأن خطى الشيخ الولي المرشد الكامل هي عين خطى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم باعتبار أن الشيخ الولي المرشد الكامل فاني في الر سول صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن يفنى في الفاني فإنه يفنى في الأصل، وبذلك يعد هذا الطريق أقرب الطرق إلى الله تعالى، فمن عثر على شيخ الزمان يكون قد بلغ المنزلة التي لا ينالها إلا ذو حظ عظيم، إذا التزم وانتظم في طريقة الشيخ الولي المرشد الكامل، واستمر في هذا السفر المقدس حتى يصل إلى غايته ومنتهاه.

هناك فرق كبير بين الاتباع وبين التقليد، فالتقليد يجري في مجال الشريعة ليأخذ أول مباديء الإسلام، وهو بداية السلوك إلى الحقيقة المطلقة، في حين أن الاتباع يحصل بعد أن يكون المريد قد عرف الشريعة وحدودها، واطلع على مفرداتها، ومن أجل الاستزادة في المعارف، والتقرب من الحقيقة يجب أن يختار له وليا مرشدا كاملا عارفا بالله حق العرفان، ومن الواصلين، وأن يكون من أصحاب التمكين والتصريف أي: له مقدرة على الإشراف والتوجيه لمريديه ظاهرا وباطنا سواء كانوا قريبين منه ظاهرا أو بعيدين عنه، كما أن له من التمكين أن يوجه ويسدد مريديه إلى الصراط المستقيم، ويجنبه مكائد الشيطان، ويقيه من الزلل وقت الحاجة حتى يصل به بر الأمان بحيث يصبح المريد قادرا على مواصلة السلوك بعد أن بلغ مرتبة المخلصين كما جاء في قوله تعالى: **(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)** [الحجر:39 ـــ 40] فإذا بلغ المريد مرتبة الإخلاص عند ذاك سيكون في مأمن من مكائد الشيطان لأنه سيكشف له عن المواطن التي تشكل حجر عثرة أمام السلوك السوي، والسفر

إلى الحق تعالى، فإذا كان الشيخ الولي المرشد له هذا التمكين والتصريف؛ فإن السلوك تحت إشرافه لا يكون مضيعة للوقت، كما يجب أن يكون له باع طويل في معرفة الأحوال، والمقامات، وما يتطلبه الأمر حين يكون المريد قد ترقى في المقامات العلية أو هو في طور الترقي المستمر في المقامات، وما يصاحب ذلك الترقي من أحوال، ومعارف، وإشارات بحيث يصعب على المريد إدراك كنهها، فيكون تدخل الشيخ في هذا الوقت يعد من الضرورات المهمة التي يحتاجها المريد في مغادرة المقام إلى مقام أرقى، وفي خطاب الحق تعالى ما يؤكد هذا الموضوع كما جاء في قوله تعالى: **(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً *فَادْخُلِي فِي عِبَادِي *وَادْخُلِي جَنَّتِي)** [الفجر:27 – 30] فلو كانت مرتبة النفس المطمئنة كافية وتغري بالوقوف معها لما جاءها الزجر بعدم الوقوف مع هذا المقام، أو المرتبة طالبا منها المضي في المقامات من أجل بلوغ مرتبة النفس الراضية فالمرضية وصولا للكمال المعبر عنه بجنة الحق تعالى، إذ لو كان الشيخ دون مرتبة المريد مقاما لا فائدة ترتجى منه، ولا يستطيع أن يقدر حاجة المريد من أجل المواصلة لاستكمال مراتب الكمال؛ لأنه سيكون في منأى عن متطلبات مقام المريد وعن المعرفة اللازمة لفض بعض الإشكالات التي قد تواجه المريد أثناء سيره في قطع المقامات.

قال تعالى:

(قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة: 38]

وقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الأنفال: 64]

وقوله تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الشعراء: 215]

وقوله تعالى:

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً) [الكهف: 66]

وقوله تعالى:

(فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [إبراهيم: 36]

وقوله تعالى:

(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [آل عمران: 31]

في قوله تعالى: **(قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)** [البقرة: 38] في هذه الآية يخبرنا تعالى من حيث الظاهر عن قصة نزول آدم عليه السلام من الجنة إلى أر ض الطبيعة (الدنيا) بعد أن عاش آدم عليه السلام فترة زمنية في الجنة هو وزوجه، والهبوط له علامات مدركة من المؤكد أن آدم عليه السلام قد شخصها من خلال المقارنة بين حالي الجنة وحال معيشته في الحياة الدنيا، ووجد أن الفارق كبير بين الطرفين، الأمر الذي أدى به إلى الحزن العميق، والندم على الخطأ الذي اقترفه فأدى به إلى هذا المصير، لقد كان حال جدنا آدم بلا شك عسير جدا؛ لأن التعب بعد الراحة من الأمور التي تؤلم حقا، وحين يكاشفنا تعالى بما جرى لآدم عليه السلام إنما أراد لنا أن نكون حذرين من معصية الحق تعالى، لأن جزاء المعصية الندم والألم نتيجة العقاب الإلهي؛ لذا فإن الحذر مطلوب ونحن نشق طريقنا باتجاه معرفة الحقيقة.

في قوله تعالى: **(قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً)** الأمر هنا موجه إلى آدم وحواء عليهما السلام وإبليس، والهبوط يعني نزول عن الدرجة ظاهرا وباطنا، فالجنة لم تكن حافلة بما لذ وطاب من المأكل والمشرب بل هي كذلك حافلة بالمعارف والعلوم اللدنية بدليل قوله تعالى: **(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)** [البقرة: 31] فالعلم الممنوح لآدم افتقرت إليه الملائكة، فكان آدم عليه السلام له شرف تعليم الملائكة، كما أن له ما لذ وطاب من المأكل والمشرب كما أخبر عن هذا تعالى: **(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ)** [البقرة: 35]

فالسكن والأكل يجد آدم فيهما اللذة الظاهرية التي ليس بعدها لذة في المطعم والمشرب، وطاعة الأمر الإلهي يعطي آدم وزوجه لذة أخرى وهي لذة المعرفة، وتمام السعادة حين يجمع الإنسان سعادة الظاهر والباطن، أي العيش الكريم، والمعرفة الحقة.

ويمكن تأويل قوله تعالى فيكون المخاطب بهذا القول هو الإنسان الفرد باعتباره كون صغير ومختصر للكون الكبير، كما أن الخطاب الإلهي فاعل في كل زمان ومكان، ويخاطب جميع مراتب الوجود على اختلاف تنوعاتها وأعدادها، وإن كل مخاطب له وجه يناسبه من هذا الخطاب، وعليه أن يتدبر التأويل الذي يناسبه من هذا الخطاب من أجل تحصيل الترقي إلى أفق يقربه من معرفة الحقيقة فالخطاب الإلهي غذاء روحي لجميع الأرواح مهما اختلفت وتنوعت، تأخذ منه رزقها كلما سعت باتجاه الحقيقة كما جاء في قوله تعالى: **(وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)** [الذاريات: 22] أي في سماء الروح التي أظهرت التجليات تكمن الأرزاق فاجتهد من أجل الوصول إلى الكيفية التي تطلع فيها على ما هو مكتوب في لوحك المحفوظ، فالآية خطاب يذكر الروح الغافلة عن عالمها الحقيقي التي جاءت عنه ومن أجل ذلك جاء قوله تعالى: **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)** [إبراهيم: 5] وقوله تعالى: **(كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)** [الأعراف: 2] فالكتب والرسل عليهم السلام وسائل الحق تعالى لمن أرسلوا إليهم يذكروهم بأفاق الحقيقة والأصل الجامع لها وصولا إلى التوحيد الحقيقي؛ وعلى هذا يكون تأويل قوله تعالى: **(قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً)** أي: أن كل المراتب الوجودية التي هي ما دون الروح أو العقل الروحي إذا ما تخلت عن سعيها باتجاه تحصيل أرزاقها الروحية فإن الحق تعالى يحرمها من نصيبها المعرفي اللدني فتبقى محجوبة عن سلم الارتقاء لحين عودتها إلى السعي مرة أخرى كما جاء في قوله تعالى: **(عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً)** [الإسراء: 8] فإن جزاء من أحسن لنفسه بجعلها على طريق الاستقامة والمجاهدة الإحسان، وإن الله تعالى غني عن العباد في كل

حال، وهم الفقراء له تعالى، وبهذا فإن من عصى أمر الرب تعالى فإنه يعرض نفسه إلى إقصاء من جنة القلب والمعارف الروحية، فيكون العقل والنفس في منأى عن فيض الرحمة التي ترد على القلب من لدن الحق تعالى ويستمر هذا الحال ما زال المرء بعيدا عن رضا الحق تعالى، أما إذا تاب وعاد إلى صراطه المستقيم؛ فإن الرحمة الإلهية قريبة من المؤمنين التائبين.

وحين يقول تعالى: **(وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ)** أي: لا تقربا شجرة النفس الإمارة بالسوء وتبتعد عن صاحب الأمر الحقيقي وهو الحق تعالى المتجلي في أفق الروح فهو على سبيل الحقيقة صاحب الرقيقة الروحية الممتدة إليك الواهبة إليك الوجود الحقيقي، وبدون هذه الرقيقة الروحية فلا وجود حقيقي لك إلى الوهم، فأنت بها موجود، ألا تلاحظ فناء غيرك بدونها ولم يك شيئا بعد رجوعها إلى الحق تعالى فإن مصيرك عين هذا المصير، فيجب عليك أن تنقاد لأمر الحق تعالى ولا تجعل هوى النفس يتصرف بك شمالا وجنوبا، فالظالم هو الذي يظلم نفسه أولا حين يجهل الطريق الذي يؤدي بها إلى البر والآمان، فإذا كان موصوف بالجهل فإن أفعاله تجاه الآخر ستكون موسومة بالجهل كذلك فهو ظالم لنفسه وللآخرين، وعليه فإن المعرفة هي سراج النفس الذي ينقذها من الظلم، هذا يعني، أن عدم الطاعة لله تعالى سيكون سببا رئيسيا في ظلمة النفس، وهذا ما حصل مع آدم وزوجه حين خالفا أمر الحق تعالى.

أما قوله تعالى: **(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى)** أي وسيلة للهداية تهديهم إلى الصراط المستقيم مرة أخرى بعد أن زلت قدمهم في طريق الشيطان أو في طاعة هوى النفس؛ فإن عليهم أن لا يفرطوا فيها بل يجب عليهما أن يتمسكا بها وقد حصل هذا بالفعل كما جاء في قوله تعالى: **(فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)** [البقرة: 37]، أي: يجب على من عصى ربه أن لا يصاب باليأس من رحمة الحق تعالى، بل يجب عليه أن يحسن الظن بالله تعالى، فيتوب، ويستقيم في أول فرصة تعرض له بالتوبة، كما جاء في قوله تعالى: **(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)** [الزمر:

53] ومن أجل ذلك قال تعالى: **(فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)** أي: من تبع وسيلة الهداية التي تؤدي إلى رحمتي، فلا خوف عليه، ولا يحزن على ما فاته لأن رحمة الحق تعالى أوسع من غضبه وهو أرحم الراحمين، وقد يراد بالهداية هي العودة بعد للحق تعالى بعد الضلال وقد وصف تعالى هذه العودة بآيات كثيرة منها قوله تعالى: **(رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً)** [الإسراء: 25] وقوله تعالى: **(وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)** [ص: 30] وقوله تعالى: **(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)** [ص: 44]، والأواب كثير الرجوع إلى الله تعالى في حالة الخطأ وفي الأحوال الاعتيادية، وصفة الأواب من الصفات التي تؤدي بصاحبها إلى قيام أعلى أشكال الصلة بين العبد والرب تعالى، لأن كثرة الرجوع بالنسبة للعبد كفيلة في خلق المحبة بين المحب والمحبوب، قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)** [المائدة: 54] فصفة الأواب هي أقرب ما تكون من أعمال البر التي تقابل ولو جانب بسيط من محبة الحق تعالى للعبد ولذلك جاء في الآية **(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)** فمحبته تعالى هي السابقة ومحبة العبد هي اللاحقة وكثرة الرجوع لله تعالى هي صفة من صفات البر، فكان وصف آدم عليه السلام قد جرى على هذه الشاكلة.

ولا يرى ملا صدرا الشيرازي أن لهذه العثرات خللا كبيرا يودي إلى حسم العلاقة التي تربط بين العبد والحق تعالى فتؤدي بالنتيجة إلى سلب المقام بشكل نهائي، بل يرى أن بدايات الإنسان الكامل قد تصاحبها بعض الهفوات، والزلات، وسرعان ما تعالج بالرجوع إلى الحق تعالى، فالإنسان الكامل مقامات ودرجات، وله بدايات وأحوال كما أن له نهايات ودرجات ومقامات في نهاية كماله، وإن الحق تعالى قدر له أن يكون من ضمن خلفائه، ولآدم كان مقام مسجوديّته للملائكة؛ وذلك في جنة الأرواح وعالم القدس، وفيه صور الأسماء الإلهية كلها، أما المقام الثالث: هو أول تعلق روحه

بالبدن في عالم السماء بعد عالم الأسماء بواسطة لطيفة حيوانية متوسطة بين الروح العقلاني وهذا البدن الكثيف الظلماني. والإنسان بواسطة تلك اللطيفة الحيوانية التي تكون على صورته في عالم الأشباح له أن يدخل دار الحيوان وجنة الأبدان، فقوله تعالى: (**يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**) إشارة إلى هذا المقام، والمقام الرابع هو مرتبة هبوطه إلى عالم الأرض وتعلقه بهذا البدن الكثيف الظلماني، المركب من الأضداد، المنشأ للعداوة، والفساد، والحسد، والعناد، المحجوب عن عالم المعاد، وهذا غاية النزول عن الفطرة الأصلية، ثم يقع بعد ذلك الرجوع إلى الفطرة، والعود إلى المبدء بالسير الرجوعي على عكس السير النزولي، وبالخلاص عن هذه القيود، والتبري عن هذا الوجود، ورد الأمانات إلى أهلها، والخروج عن كل حول وقوة إلى حول الله وقوته، ففي هذا الرجوع أيضا مقامات ودرجات كما هو مذكور في عالم الآخرة. (الشيرازي، محمد بن إبراهيم: المصدر السابق، مجلد 3، ص80– 81)

ويتناول ابن عربي في تأويله لكلمة الشجرة فيرى أن المعنى اللغوي يفيد أن الشجرة جاءت من خلال معنى التشاجر لتداخل أغصانها بعضها على بعض كالمتشاجرين، يدخل كلام بعضهم في كلام بعضهم بالمخالفة والمنازعة، وربما لا يوجد في الجنة شجرة على هذه الشاكلة غير هذه الشجرة، أما باقي شجر الجنة فلا تتداخل أغصانها بهذه الصورة، فإنه تعالى جعلها منزل موافقة فقد تكون أغصانها تخرج عن الاعتدال والاستقامة، وذكر ذلك في النار فقال: (**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ**) [الصافات: 64] وقال والشجرة الملعونة، فإن جهنم دار تشاجر ونزاع، قال تعالى: (**إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ** ([ص: 64] فوصفهم بالمخاصمة وهي المشاجرة، ولم يقل شيئا من هذا في أهل الجنة، فكأنه سبحانه أشار لهما النهي عن مخالفته فيما نهاهما عنه وموافقته تنبيها لهما على ذلك، وأخبرهما أنهما إن خالفا أمره سبحانه وتعالى كانا من الظالمين لأنفسهما للعقوبة، وهذا يدلك على أن لنفسك عليك حقا. (ابن عربي: 2007، ص83 – 84)

ويذهب السبزواري أن الجنة التي سكن فيها آدم عليه السلام وزوجه هي جنة في الأرض وليس لها مكان آخر: (فالجنة هي من جنان الدنيا أعدها الله

تعالى لآدم عليه السلام وحواء إجلالا لهما، ولاحتياجهما إلى الغذاء والراحة، ويرشد إلى ذلك ما ذكرنا سابقا، من أن آدم عليه السلام خلق من الأرض وفي الأرض وللأرض، وقد سخر الله تعالى له الأرض والسماء بعد تعليمه الأسماء كلها، وجعله خليفة فيها، نعم وقع الكلام في محل هذه الجنة، ويمكن أن يراد من جنة الخلد ما ذكرناه، ومن جنة البرزخ ما ذكره الفلاسفة من أن لجميع الموجودات نحو وجود برزخي، في مقابل سائر أنحاء وجوده، وقد يظهر ذلك كله، كما يظهر جملة من الموجودات في عالم النوم للنائم. (السبزواري: 2007، مصدر سابق، مجلد1، ص، 247)

ويرى ابن عربي في تأويل آخر لقوله تعالى: **(قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)** [البقرة: 38] فقوله: **(قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً)** (كرر ذلك الأمر بالهبوط ليفيد أنه هو الذي أراد ذلك ولولا إرادته لما قدر إبليس على إغوائهم، ولهذا أسند الإهباط إلى نفسه مجردا عن التعليق بالسبب بعد إسناد إخراجهما إلى الشيطان، فهو قريب مما قاله لنبيه: **(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى)** [الأنفال: 17] فتفطن منه سر قضائه وقدره وبين وجه حكمة الإهباط بتعقيبه بقوله: **(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)** وإيراده بالفاء إذ لولا الهبوط لما أمكنهم متابعة الهدى، ولما تميز السعيد والشقي، ولا حصل استحقاق الثواب والعقاب، ولبطل دار الجزاء من الجنة والنار، بل ما وجدت. والهدى هو الشرع فمن تبعه أمن سوء العاقبة فلم يخف مما يأتي من العقاب والفناء، وتسلى عن الشهوات واللذات، فلم يحزن على ما فاته من حطام الدنيا ونعيمها لاكتحال بصيرته بنور المتابعة واهتدائه إلى ما لا يقاس بلذات الدنيا من الأذواق الروحانية، والفتوحات السرية، والمشاهدات القلبية، والعلوم العقلية، والمواجيد النفسية.) (ابن عربي: 2001، مصدر سابق، ج1، ص29)

أما في قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)** [الأنفال: 64] إن عملية الفناء في الله تعالى، أي رجوع الروح على ما كانت عليه قبل أن تكون في عالم الأشباح، يكفيها نعيم هذه الحقيقة، وإن زهدها

بالأغيار هو نتيجة طبيعية لعملية القرب، والدنو، والوحدة الحقيقية، فمن قام حاله وقوله وفعله بالله تعالى أغناه تعالى عن الحاجة للأغيار، قال تعالى: **(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَى)** [الأنفال: 17] وقوله تعالى: **(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى)** [النجم: 3] وقوله تعالى: **(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)** [الكهف: 82] وصولا إلى التحقق بقوله تعالى: **(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)** [الضحى: 3] فإذا انتفى من العبد وهم الإثنينية أدرك ذوقا وكشفا حقيقة التوحيد، وأشرق عليه نور الوحدة الذاتية، عند ذاك يقول للشيء كن فيكون، فيصبح قلبه جنة له فيها كما جاء في قوله تعالى: **(وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)** [فصلت: 31] أي: مما تشتهي الأنفس من المعارف اللدنية، والمكاشفات، والمذاقات الروحية، ولكم فيها ما تدعون من مزيد الأرزاق الروحانية.

ولا يخرج ابن عجيبة الحسني عن هذا المدار التأويلي حين يرى: أن الله تعالى كافي النبي ومن سار على قدمه من الورثة، والكاملين، ومن هو في طريق الكمال من المؤمنين، فينبغي عليهم عدم الالتفات إلى الأغيار، فالحق تعالى يريد بهذا الخطاب: لما مننت عليك بائتلاف قلوب المؤمنين في نصرتك، فلا تلتفت إليهم في محل التوحيد، فإني حسبك وحدي بغير معاونة الخلق، فينبغي أن تفرد القدم عن الحدوث في سيرك مني إلي، وأنا حسب المؤمنين من كل ما دوني، وإن كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا، ولا ينبغي في حقيقة التوحيد النظر إلى غيري، وإنما أيدتك بواسطة المؤمنين، وذكرتهم معي؛ تشريفا لأمتك، وسترا لقدرتي، وإظهارا لكمال حكمتي، وإلا فقدرتي لا يفوتها شيء، ولا تتوقف على شيء؛ "جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل" ويرى ابن عجيبة الإشارة في هذه الآية أن ما خوطب به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يخاطب به ورثته الكرام، من الاكتفاء بالله وعدم الالتفات إلى ما سواه، وتصحيح عقد التوحيد، والاعتماد على الكريم المجيد. (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد3، ص43)

أما في قوله تعالى: **(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)** [الشعراء: 215] أي: قابل مقاماتهم بمعارف تتناسب وتلك المقامات، لأن

مقامك ومنزلتك لها مطلق الاحتواء للمنازل والمقامات التي ما دونها؛ لأن مقامك محل الفيض الأقدس للعلم الإلهي ومنها يفاض إلى المراتب الأخرى التي أوجدها الحق تعالى من نورك بأمارة **(لولاك لما خلقت الكون والأفلاك)** كما أنك محل الرحمة التي توجه بها تعالى للوجود كما جاء في قوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** [الأنبياء: 107] وهذا يتطلب منك أن تخفض جناحك للمستعدين من طالبي الكمال لتفيض عليهم بما يناسب استعدادهم وقوابلهم كما هو مخصص لهم في لوح الوجود زيادة على التخصيص العام الذي عينه تعالى لكل مراتب الوجود، من منح وأرزاق روحانية وتختص المؤمنين منهم بما يقابل سعيهم بأمارة **(وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)** [النجم: 39] تطمينا لهم، وتشجيعا من أجل المواصلة في السير، وتنفيذا للوعد القائل **(وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى)** [النجم: 40]، فلولاك لا يمكنهم الترقي والوصول إلى مقام قاب قوسين؛ فبك ومن خلالك يكون الدنو، فمن لم يصل إليك لم يصل، ولا واصل يصل إليك إلا إذا أردت أنت ذلك وخفضت لهم جناحك الموسوم بالرحمة فكن لهم عونا ومددا.

كما أن الاتباع لا يتم بين طرفي التابع والمتبوع إذا كانت هناك هوة كبيرة بين الطرفين من ناحية العلم والعمل؛ فالمتبوع عالم، والتابع متعلم، والمعلم يجب أن يخفض جناحه لتلميذه بالنزول إلى مستوى مداركه المعرفية ليبدأ رحلة الرقي معه من مستواه الأدنى إلى مستوى أرقى، أي: من مستوى الخطاب المباشر البسيط إلى مستوى الخطاب الروحي وصولا إلى عملية الفناء وانتهاء الإثتينية حتى يكون التابع صورة طبق الأصل من المتبوع متحققا به.

وفي التأويلات النجمية: يرى نجم الدين كبرى: أن كل متابع مؤمن ولم يكن كل مؤمن متابعا لئلا يغتر المؤمن بدعوى الإيمان وهو بمعزل عن حقيقته التي لا تحصل إلا بالمتابعة، فعلى العاقل أن يختار صحبة الأخيار ويتابعهم في أعمالهم ويسعى في تحصيل أخلاقهم وأحوالهم ويشرف القرين يدخل عشرة من الحيوانات الجنة منها كلب أصحاب الكهف. (البروسوي: المصدر السابق، مجلد6، ص333)

في حين يرى ابن عربي في تأويله للآية: (**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ**) بالنزول إلى مرتبة من (**اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) لتخاطبه بلسانه فإن عصوك لاستحكام الرين وتكاثف الحجاب فتبرأ عن حولهم وقوتهم وحولك وقوتك بالتوكل والفناء في أفعاله تعالى فإنهم وإياك لا يقتدرون على ما لم يشأ الله ولا يكون إلا ما يريد وشاهد في توكلك وفنائك عن أفعالك مصادر أفعاله من العزة التي يقهر بها من يشاء من العصاة فيحجبهم ويمنعهم من الإيمان والرحمة التي يرحم بها ويفيض النور على من يشاء من أهل الهداية فإنه يحجب المحجوبين بقهره وجلاله ويهدي المهتدين بلطفه وجماله، وليس لك من الأمر شيء (**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**) [القصص: 56]. (ابن عربي: المصدر السابق، ج2، ص 100)

يرى الغزالي: قلَّ ما يخلو العالم عن آفة الكبر، فإنه يرى نفسه فوق الناس بالعلم الذي هو أشرف فضيلة عند الله تعالى؛ فيتكبر تارة في الدين، بأن يرى نفسه عند الله تعالى أفضل من غيره، وتارة في الدنيا، بأن يرى حقه واجبا على الناس، ويتعجب منهم إن لم يتواضعوا، وهذا بأن يسمى جاهلا أولى؛ لأن العلم الحقيقي ما يعرفه ربه ونفسه وخطر خاتمته وحجة الله تعالى وملاحظة الخاتمة، فلا يرى جاهلا إلا ويقول أنه عصى الله تعالى بجهل، وأنا عصيته بعلم وحجة الله تعالى علي أوكد. وقال أبو الدرداء: "من أزداد علما أزداد وجعا" وقال الله تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم: (**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) [الشعراء: 215]. (الغزالي: 2009، المصدر السابق، ص301)

ويذهب ابن عطاء ما ذهب إليه الغزالي في تأويله للآية فيرى: (لين لهم جانبك، فإنهم على حد الترسم بالعبادة لا التحقق به ولا متوثب على الله تعالى أشد من قارىء أُلبس قميص النسك.) (اليسوعي: المصدر السابق، ص، 108)

أما في قوله تعالى: (**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً**) [الكهف: 66] اتباع العارفين بعضهم لبعض، يختلف عن اتباع غير العارفين بعضهم لبعض؛ لأن البدايات والكشف عنها يختلف عن النهايات،

وإن اتباع العارفين يختصر الطريق نحو بلوغ المنتهى في حين أن اتباع أهل البدايات يعني بشروط ومباديء السفر إلى المنتهى.

أراد موسى عليه السلام أن ينظر للشريعة من خلال عين الروح من أجل أن يرتقي ببصره الحسي والعقلي إلى مستوى الأفق الروحي فتكون بصيرته واحدة موحدة، فلم يجد منفذا إلى ذلك غير طريقة العبد الصالح، فطلب الاتباع أولا ومن ثم العلم، لأن العلم ثمر لشجرة الطريقة، ولا يمكن للشجرة أن تنبت وتثمر بدون ماء المحبة والاتباع، قال تعالى: **(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** [آل عمران: 31] فمن اتبع العبد الصالح (شيخ الوقت) أو نائب الرسول، وأحبه؛ فإنه سيحظى بمحبة الله تعالى ومن أحبه الله كان سمعه وبصره وهذه غاية كل مطلب.

قال له موسى عليه السلام: **(عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ)** أضاف التعليم للعبد الصالح على الرغم من أن الحق تعالى قد أخبره من قبل أنه تعالى هو المعلم الحقيقي على سبيل الحقيقة أما العبد الصالح فهو المعلم على سبيل الاستعاضة، كما جاء في قوله تعالى: **(فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ من لَّدُنَّا عِلْماً)** [الكهف: 65] وهذا ما يؤكد أن نبي الله موسى عليه السلام ما كان مطلبه العلم الحصولي أو ما يسمى علم القيل والقال، بل أراد العلم الحضوري الذي لا يمكن تحصيله إلا من خلال طريقة تتصل بالحق تعالى فوجد الخبير بالطريقة التي تؤدي إلى الرحمن، قال تعالى: **(الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)** [الفرقان: 59] فقرت عيناه حين وجده عند مجمع البحرين بحر الشريعة وبحر الطريقة، وهنا تحيلنا الإشارة إلى ضرورة التعرف على من يهدينا إلى كنز الحقيقة، ويضعنا في لب المعارف اليقينية لنعرف من خلال ذلك أنفسنا حق العرفان، ومن ثم يؤدي ذلك إلى معرفة الحق تعالى؛ فالاتباع هو الوسيلة التي لا يمكن تجاهلها أو التغاضي عنها لا سيما وأنها مقترح الحق تعالى إلينا.

فالاتباع هنا يراد به الوصول إلى مرتبة الفناء من الأوصاف البشرية، وإظهار أوصاف الربوبية الكامنة في الروح المنفوخ منه تعالى، هذا يعني أن الطلب الموسوي كان يتجه إلى هذه الغاية، ولم يك يراد به اتباع العبد

الصالح، والاحتجاب به، والوقوف معه، فالغاية من الاتباع هو بلوغ المنتهى أي فناء أوصاف البشرية في الربوبية، ولم يبقى للعبد من حظوظه الدنيوية شيء، قال تعالى: **(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى)** [النجم: 42] فالعبد الصالح هنا يكون وسيلة للمستعدين، ولم يك نهاية مبتغاهم، وهذا ما جاء على لسان الحبيب المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم كما جاء في الخطاب الإلهي بقوله تعالى: **(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** [آل عمران: 31]

يرى القشيري في تأويله للآية أن موسى عليه السلام تلطف في الخطاب حيث سلك طريق الاستئذان، ثم صرح بمقصوده من الصحبة بقوله: **(عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً)**، ويقال: إن الذي خص به الخضر من العلم لم يكن تعلمه من أستاذ ولا من شخص، فما لم يكن بتعليم أحد إياه.. متى كان يعلمه غيره ؟. (القشيري: المصدر السابق، مجلد4، ص77)

ويرى نجم الدين كبرى في تأويلاته النجمية: إن من آداب المريد الصادق بعد طلب الشيخ ووجدانه أن يستجيز منه في اتباعه وملازمة صحبته تواضعا لنفسه وتعظيما لشيخه بعد مفارقة أهاليه وأوطانه وترك مناصبه واتباعه وإخوانه وأخدانه كما كان حال موسى إذ قال للخضر: **(هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً)** بإرشاد الله لك أي: تعلمني طريق الاسترشاد من الله بلا واسطة جبريل والكتاب المنزل ومكالمة الحق تعالى فإن جميع ذلك كان حاصلا له.فإن قيل فهل مرتبته فوق هذه المراتب الثلاث؟ قلنا إن هذه المراتب وإن كانت عزيزة جليلة ولكن مجيء جبريل يقتضي الواسطة وإنزال الكتاب يدل على البعد والمكالمة تنبيء عن الإثنينية والرشد الحقيقي من الله للعبد هو أن يجعله قابلا لفيض نور الله بلا واسطة وذلك يتجلى جماله وجلاله الذي كان مطلوب موسى بقوله: **(أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ)** [الأعراف: 143] فإن فيه رفع الإثنينية وإثبات الوحدة التي لا يسع العبد فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل. ومنها أن المريد إذا استعد بخدمة شيخ واصل ينبغي أن يخرج عما معه من الحسب والنسب والجاه والمنصب والفضائل

والعلوم، ويرى نفسه كأنه أعجمي لا يعرف الهر من البر أي: ما يهره مما يبره أو القط من الفار أو العقوق من اللطف أو الكراهية من الإكرام. (البروسوي: المصدر السابق، مجلد5، ص276)

أما في قوله تعالى: **(فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** [إبراهيم: 36] في قوله تعالى: **(فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي)** الاتباع هنا يعني الفناء لأن المتبع يكون والمتبوع روحا واحدة وذلك لقابلية النور في التماهي بالنور كما جاء في قوله تعالى: **(نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ)** [النور: 35] فالإشارة هنا تقضي بأن الأنوار الإلهية وإن كانت متعددة إلى أن لها كيفية التوحد في نور واحد، بدليل صيغة الجمع التي ذكرها الخطاب **(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ)** فكل عدد من الأنوار له قابلية الذوبان أو التماهي في النور الأعلى، فكذلك الحال بالنسبة للمستعدين فإن عملية اتباعهم للشيخ الولي المرشد الكامل يؤدي بهم في نهاية السفر إلى الفناء في الشيخ وانتهاء الإثنينية، كما أن الفناء في الشيخ يعني الفناء في الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وإن الفناء في الرسول صلى الله تعالى عليه يعني الفناء في الله تعالى، فالواحد هنا إذا أضيف إلى واحد يكون حاصل الجمع هنا واحد وليس إثنين، ويعني رجوع روح المريد أو المستعد إلى ما كانت عليه قبل أن تكون في عالم الأجساد، أي الروح الإلهي ما قبل تجليها في المخلوق.

أما قوله تعالى: **(وَمَنْ عَصَانِي)** أي: من خالف طريق الحق أو طريق التوحيد الحقيقي وبقي بعيدا عن عملية الانتظام في طريق الوحدة فإنه لا يخرج عن توجه الحق تعالى الموصوف بالرحمة والغفران، فإن مآل الجميع إلى الرحمة لأن الرحمة الإلهية وسعت كل شيء كما جاء في قوله تعالى: **(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)** [الأعراف: 156] والعاصي إذا لم يكن مرحوما في الدنيا فإنه في الآخرة لا يكون في منأى عن الرحمة، لأن الرحمة وسعت كل شيء، فكل شيء لابد له من حصة من الرحمة الإلهية وإن طال أمد رقيه كما جاء في قوله تعالى: **(سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً)** [المدثر: 17] فالكل يشمله الصعود، غير أن البعض يكون صعوده مصحوب بالإرهاق، في حين أن

البعض الآخر يحشر إلى الرحمن وفدا كما جاء في قوله تعالى: **(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً)** [مريم: 85].

يرى ابن عربي في تأوله للآية: إن سبب الضلالة هو الاحتجاب بالأغيار، وانجذابه إليها، والتعلق بها والبقاء معها بعيدا عن الوحدة، قوله تعالى: **(فمن تبعني)** في سلوك طريق التوحيد **(فإنه من عصاني فإنك غفور)** تستر عنه تلك الهيئة المظلمة بنورك **(رحيم)** ترحمه بإفاضة الكمال عليه بعد المغفرة. (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص 350)

ويتأول البروسوي هذه الآية فيرى: **(فمن تبعني)** منهم فيما ادعوا إليه من التوحيد وملة الإسلام **(فَإِنَّهُ مِنِّي)** من تبعيضية فالكلام على التشبيه أي كبعضي في عدم الانفكاك عني، وكذلك قوله: **(فمن غشنا فليس منا)** أي: ليس بعض المؤمنين على أن الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم **(وَمَنْ عَصَانِي)** أي: لم يتبعني فإنه في مقابلة تبعني كتفسير الكفر في مقابلة الشكر بترك الشكر **(فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** قادر على أن تغفر له وترحمه ابتداء وبعد توبته، وفي دليل على أن كل ذنب فلله تعالى أن يغفره حتى الشرك إلا أن الوعيد فرق بينه وبين غيره فالشرك لا يغفر بدليل السمع وهو قوله تعالى: **(إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ)** [النساء: 48] وإن جاز غفرانه عقلا فإن العقاب حقه تعالى فيحسن إسقاطه مع أن فيه نفعا للعبد من غير ضرر لأحد وهو مذهب الأشعري. (البروسوي: المصدر السابق، مجلد 4، ص450)

في حين يرى نجم الدين كبرى في تأويله للآية: قد حفظ نبي الله إبراهيم عليه السلام الأدب فيما قال ومن عصاني وما قال ومن عصاك لأنه بعصيان الله لا يستحق المغفرة والرحمة والإشارة فيه أن من عصاني لعلي لا أغفر له ولا أرحم عليه فإن المكافاة في الطبيعة واجبة ولكن من عصاني فتغفر له وترحم عليه فيكون من غاية كرمك ولطفك وعواطف إحسانك فإنك غفور رحيم وفي الحديث: **(ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي من قبلكم فقد وهبت لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا**

الجنة برحمتي) والتبعات جمع تبعة بكسر الباء ما اتبع به من الحق. (البروسوي: المصدر السابق، ص450)

أما قوله تعالى: **(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** [آل عمران: 31] المحب الحقيقي لا غاية له سوى الفوز بمحبة المحبوب، غير أن الوصال والفوز بمحبة المحبوب لها شرائط وطرق لا يمكن إغفالها، الحب ينشأ وليدا ويحتاج إلى رعاية من أجل بلوغ أعلى مراتب النضج والوصول إلى الهدف الأسمى.

ولما كانت المحبة هي هدف العبد لمعبوده، والمخلوق لخالقه فإن ذلك يستدعي من العبد التحلي بكيفية تليق مع هدفه، فالحق تعالى له العزة، والعزة تأبى إلا أن يكون طالبها لا حيلة له إليها إلا من خلال الذلة والمسكنة، وللذلة والمسكنة آداب وسلوك لابد من مراعاتها، وهنا تأتي أهمية المربي الحق في تربية، وتهذيب، وصياغة من طلب المحبوب، ومن أجل هذا أحالنا الحق تعالى إلى ضرورة الاتباع الانتظام في طريق المربي الحق من أجل الفوز بمحبته تعالى فقال تعالى: **(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي)** أي: قل لهم أيها المربي المأذون من قبلي أن كنتم عازمون على محبة ربكم المحبة التي تليق بجنابه، ومن أجل تكون المحبة متبادلة فيما بينكم وبينه لابد لكم من اتباعنا نحن المحبون له تعالى الفائزون بمحبته من قبل، فنحن أدرى بشرائط المحبة التي تليق بجنابه تعالى فتعالوا نعلمكم كيفية المحبة التي تليق به تعالى لتكونون مثلنا متوحدين به تعالى فانين به لا شيء يفرقنا عن محبوبنا فنوره نورنا وإرادتنا إرادته تعالى فنحن العباد الذين إذا أرادوا أراد الله، فلا تلجئوا إلى غيرنا لتأخذوا عنه طريق المحبة لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولا تجعلوا الوقت يفوتكم، فإن محبة الحق تعالى لا تتوجه إليكم إلا من خلال اتباعكم لنا نحن أهل المحبة الصحيحة.

يستدعي السلمي أقوال العارفين بالله حول موضوع المحبة وفي تأويله للآية فيرى: قيل: (محبة الله تعالى مني معرفته ودوام خشيته ودوام اشتغال القلب به ودوام انتصاب القلب بذكره، ودوام الأنس به، قال محمد بن خفيف: المحبة: الموافقة لله تعالى في التماس مرضاته، وقيل المحبة: اتباع الرسول

صلى الله تعالى عليه وسلم في أقواله وأفعاله وآدابه إلا ما خص به، لأن الله تعالى قرن محبته باتباعه، وقيل المحبة: هي الأثرة لله تعالى على جميع خلقه، قال بعضهم: المحبة هي موافقة القلوب عند بروز لطائف الجمال، قال أبو يزيد: أحببت الله تعالى حتى أبغضت نفسي وأبغضت الدنيا حتى أحببت طاعة الله، وتركت ما دون الله تعالى حتى وصلت إلى الله تعالى، واخترت الخالق على المخلوق، فاشتغل بخدمتي كل مخلوق، سئل الأنطاكي ما علامة المحبة ؟ فقال: أن يكون قليل العبارة دائم التفكر، كثير الخلوة، ظاهر الصمت، لا يبصر إذا نظر ولا يسمع إذا نودي، ولا يحزن إذا أصيب ولا يفرح إذا أصاب ولا يخشى أحدا ولا يرجوه. وسئل يحيى بن معاذ عن حقيقة المحبة فقال: الذي لا يزيد بالبر ولا ينقص بالخلوة، وقال سهل بن عبد الله: محب الله تعالى على الحقيقة من يكون اقتداؤه في أحواله وأفعاله وأقواله بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم. وقيل: قيد أسرار الصديقين بمتابعة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم لكي يعلموا أنهم وإن علت أحوالهم وارتفعت مراتبهم لا يقدرون مجاورته ولا اللحوق به، قال ابن عطاء: أمر بطلب نور الأدنى من عمى عن نور الأعلى. وقيل: لا وصول للنور الأعلى لمن لا يستدل عليه بالنور الأدنى، ومن لم يجعل السبيل إلى النور الأعلى التمسك بآداب صاحب النور الأدنى ومتابعة صلى الله تعالى عليه وسلم فقد عمي عن النورين جميعا فألبس ثوب الاغترار. وقال أبو عثمان: صدقوا محبتكم إياي بمتابعة حبيبي، فإنه لا وصول إلى محبتي إلا بتقديم محبته، واتباعه على طريقته، فإن طريقته هي الطريقة المثلى والوصلة إلى الحبيب الأعلى. وقال أبو يعقوب السوسي رحمه الله: حقيقة المحبة هي أن ينسى العبد حظه من ربه وينسى حوائجه إليه. قال الواسطي: لا تصح المحبة وللإعراض على سره أثر وللشواهد في قلبه خطر، بل صحة المحبة نسيان الكل في استغراق مشاهدة المحبوب وفناه به عنه. قال ابن منصور: حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك، وخلع أوصافك، والاتصاف بأوصافه. قال محمد بن الفضل: نفى اسم المحبة عمن يخالف شيئا من سنن الشريعة ظاهرا وباطنا، أو يترك متابعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فيما دق وجل؛ لأن المتابع له من

لا يخالفه في شيء من طريقته صلى الله تعالى عليه وسلم. قال السلامي: اشتقت المحبة من حبة القلب، وحبة القلب عين القلب، وهو مثل أن تقع الحبة في الأرض فتنبت.) (السلمي: المصدر السابق، مجلد1، ص95- 97)

قال الغزالي: (أعلم أن مفتاح السعادة، اتباع السنة، والاقتداء برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في جميع مصادره وموارده وحركاته وسكناته، حتى في هيئة أكله وقيامه ونومه وكلامه. لست أقول ذلك في العبادات فقت، فأنه لا وجه لإهمال السنن الواردة فيها، بل ذلك في أمور العادات فيه يحصل الاتباع المطلق، قال الله تعالى: **(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** [آل عمران: 31] وقال تعالى: **(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا)** [الحشر: 7].) (الغزالي: 2009، المصدر السابق، ص239)

ويرى ابن عربي: أن متابعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم هو مفتاح المحبة كما أن الاقتداء به صلى الله تعالى عليه وسلم هو الموصل العبد إلى مرتبة الفناء بالله. (ابن عربي: 2009، ص127)

وفي تأويل آخر يرى فيه ابن عربي: لما كان عليه الصلاة والسلام حبيبه فكل من يدعي المحبة لزمه اتباعه؛ لأن محبوب المحبوب محبوب، فتجب محبة النبي، ومحبته إنما تكون بمتابعته وسلوك سبيله قولا وعملا وخلقا وحالا وسيرة وعقيدة، ولا تمشي دعوى المحبة إلا بهذا فإنه قطب المحبة ومظهره وطريقته طلسم المحبة، فمن لم يكن له من طريقته نصيب لم يكن له من المحبة نصيب، وإذا تابعه حق المتابعة ناسب باطنه وسره وقلبه ونفسه باطن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وسره وقلبه ونفسه وهو مظهر المحبة فلزم بهذه أن يكون لهذا المتابع قسط من محبة الله تعالى بقدر نصيبه من المتابعة، فيلقى الله تعالى محبته عليه ويسري من باطن روح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نور تلك المحبة إليه، فيكون محبوبا لله، محبا له، ولو لم يتابعه لخالف باطنه باطن النبي صلى الله تعالى، فبعد عن وصف المحبوبية وزالة المحبية عن قلبه أسرع ما يكون، إذ لو لم يحبه الله تعالى لم يكن محبا له **(وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)** كما غفر لحبيبه، قال تعالى: **(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا**

تَأَخَّرَ) [الفتح: 2] وذنبه المتقدم ذاته، والمتأخر صفاته، فكذا ذنوب المتابعين كما قال تعالى: **(لا يزال العبد يتقرب إلي..الحديث)** إلى آخر الحديث**(وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** يمحو ذنوب صفاتكم وذواتكم يهب لكم وجودا وصفات حقانية خيرا منها. (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص101- 102)

وفي الفتوحات المكية يضيف ابن عربي تأويل آخر للآية فيرى: إن (ما يلزم الائتمام بالإمام ما دام يسمى إماما، فإذا زال عنه اسم الإمام لم يلزم اتباعه، وإمامة الرسول لا ترتفع، فالاتباع لازم ومحبة الله لمن اتبعه لازمة بلا شك، يقول تعالى: **(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)** [الأحزاب: 21] وقيل له قل: **(فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ)** وإذا أحب الله عبده كان جميع قواه وجوارحه، وهو لا يتصرف إلا بقواه وجوارحه فلا يتصرف إلا بالله، فيكون محفوظ التصرف في حركاته وسكناته، ثم لتعلم أنه من جهة اتصافه بها تكليف المكلف فقد زال عنه إما بالكلية وإما بالتعليق عند جميع الفقهاء، وعندنا ليس كذلك لأنه ما ثم حال ولا صفة في مكلف تخرج عن حكم الشرع ممن غلب عليه الحال أو الجنون أو النسيان أو النوم أو الذي لم يبلغ حد الحلم، فلم يخرج أحد من هؤلاء عن حكم الشرع، فإنه قد شرع لكل صاحب حال وصفة حكما إما بالإحاطة أو غير ذلك من أحكام الشرع، لأنه لا يخلو عن حكم مشروع لصاحب تلك الحال فما ثم إلا مكلف، فما ارتفع التكليف فإن هؤلاء الذين تقول فيهم الفقهاء قد ارتفع عنهم خطاب الشرع لم يرتفع، فإن الشرع قد أباح له التصرف فيما يقتضيه طبعه كالحيوان ولا حرج عليه في ذلك، فكيف يقال: زال عنه حكم الشرع والشرع قد حكم له بالإباحة، كما حكم للعاقل البالغ بالإباحة فيما أباح له، فإن الحكم في الأشياء للشرع لا للعقل، والشرع هو حكم الله في الأشياء، وما ثم شيء خرج عن حكم الله فيه بأمر ما، هذا نظر أهل الله لأنهم لا يزالون في كل نفس حاضرين مع الله، وأحكام الشرع وإن تعلقت بالأعيان فإنها مبنية على الأحوال، فما خوطبت عين بأمر ما إلا لحال هي عليه، لأجل ذلك الحال خوطب بما خوطب به لا لعينه، فإن العين لا تزال باقية والأحوال تتغير، فيتغير حكم الشرع على العين لتغير الحال.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد2، ص160-161)

الشيخ والوسيلة

الوسيلة لغة: يرى الراغب: (الوسيلة: هي التوصل إلى شيء برغبة وهي أخص من الوصيلة؛لتضمنها لمعنى الرغبة، قال تعالى: **(وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ)** [المائدة: 35] وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى: مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقربة، والواسل: الراغب إلى الله تعالى، ويقال إن التوسل في غير هذا: السَّرقة، يقال: أخذ فلان إبل فلان توسلا، أي: سَرقةً.) (الراغب: المصدر السابق، ص871)

الوسيلة في الاصطلاح الصوفي

يعرفها الجرجاني: (هي ما يتقرب به إلى الغير) (الجرجاني: المصدر السابق، ص176)

يرى الكسنزان: (يعرفها أبو حفص الحداد النيسابوري: الوسيلة: هي الواسطة التي يمكن بها بلوغ الهدف أو الوصول على المبتغى، وهي واسطة يستطيع الإنسان بها الوصول إلى القرب أو إزالة كرب. يعرفها عبد الكريم الجيلي: هي الواسطة للوصول إلى المطلوب، وهي الشفاعة، ولهذا المعنى منزلة صورية في الجنة المسماة بالفردوس الأعلى، وهي أرفع منازل الجنان، يكون هو صلى الله تعالى عليه وسلم فيها ليحوي الكمال صورة ومعنى، ظاهراً ومعنىً، ظاهراً وباطناً. ويعرفها محمد بن الحسن السمنودي: الوسيلة: هو العارفون بالله تعالى، وسيلة المريدين إلى الله تعالى، ويقول: الوسيلة: هو المرشد الذي هو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم المشايخ الذين يعرفون طريق الوصول إلى الله تعالى بشروطها. ويعرفها عبد القادر الجزائري: الوسيلة: وهو الشيخ الكامل بالنسبة، العارف بالطريق، وبالعلل العائقة، والأمراض المانعة في الوصول إلى العلم بالله تعالى، الحاذق الخبير بالمعالجة والأمزجة والأدوية، وما يوافق منها، وقد انعقد إجماع أهل الله تعالى: أنه لابد من الوسيلة: وهو الشيخ في طرق العلم بالله تعالى ولا تغني عنه الكتب. ويعرفها السيد محمد بن عبد الكريم الكسنزان: الوسيلة، هي كل ما يوصل إلى الحق تعالى ورضاه ويبعدنا عن سخطه وغضبه في الدنيا

والآخرة.) (الكسنزان، محمد عبد الكريم: المصدر السابق، ج21، ص465ـ 468)

ما من شك أن الله تعالى ليس له كفوا أحد كما جاء في قوله تعالى: **(وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ)** [الإخلاص: 4] لأنه تعالى نور الأنوار وهو المتجلي في كل تجلي وليس من الممكن أن يكون أحدى تجلياته كفوا له، ولما كانت التجليات لا يمكنها الصمود أمام نور الأنوار، ومن مقتضيات الرحمة الإلهية فقد جعل تعالى من نوره وسيطا بين نور ذاته الذي ليس له كفوا أحد، وأنوار تجلياته المسماة بـــ(الخلق) وجعل تعالى الوسيط هو الوسيلة القدسية ما بينه وبين خلقه، فبه يتقرب المتقربون وبه ومن خلاله يتم الوصول إلى الحقيقية.

الوسيلة نور من الله تعالى متجسد بأوصاف بشرية من أجل المناسبة لأن المرتبة الإنسانية لا تقوى على الصمود والبقاء أمام النور الإلهي، قال تعالى: **(قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ)** [المائدة: 15] أوجدته الرحمة الإلهية التي توجهت إلى الخلق، فهو بوابة الخلق إلى الحق، فمن عثر عليه ودخل في حصنه لم يبق أمامه في عملية الوصول إلى الحقيقة إلا الصدق في التوجه، والعزم الأكيد في مواصلة السفر، والجد، والاجتهاد من أجل بلوغ مرتبة المنتهى، علما أن نبي الله موسى عليه السلام على ما كان عليه من مقام ليس باستطاعته الصمود أمام النور الإلهي كما أخبرنا تعالى بذلك بقوله: **(وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـــكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)** [الأعراف: 143] فكيف هو الحال مع بقية الناس الذين هم أقل مقاما من مقام موسى عليه السلام هذا يعني أن الوسيلة قد اشتغلت هنا عوضا عن الحق تعالى بإذن الحق تعالى ومن أجل ذلك قال تعالى: **(وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً)** [الأحزاب: 46] فدعوة الوسيلة إلى الحق جرت بإذن الحق تعالى، ومن أجل ذلك كان سراجا منيرا، لأن معارفه تنزلت من النور الإلهي لتكون مناسبة بين المتلقي والداعي.

إن مرتبة الفناء ما كان لها أن تتم بشكلها الصحيح لولا وجود الوسيلة أو الوسيط؛ ذلك لأن الحق تعالى خلقه من نوره بكيفية تلائم وجود المرتبة الإنسانية من جهة، وتلائم النور الإلهي من جهة أخرى فاستحق البرزخية العظمى التي تتوسط ما بين نور الحق تعالى وأنوار الوجود، إذ لولا هذه الكيفية لما استطاع أحدا من البشر الصمود أمام نورانيته، قال تعالى: **(قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ)** [المائدة: 15]، فإن الكيفية التي جعله تعالى بها قابلة لأن تتعامل مع المرتبة الإنسانية بكل أشكالها دون استثناء بالإضافة إلى مراتب الوجود الكونية الأخرى، وهذا الوصف هو جزء مهم من الرحمة الإلهية التي توجه بها تعالى لجميع العوالم التي تشكل بمجموعها المملكة الإلهية، قال تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** [الأنبياء: 107] رحم الله العالمين حين كيف من نوره تجسيدا لينقذ العالم من جهله وغفلته، ويربيهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب ويهديهم الصراط القويم، ولولاه لكانوا في طغيانهم يعمهون.

كما جعل تعالى ومن باب الرحمة كذلك لكل زمان وسيلة، وكأنه نسخة طبق الأصل من الوسيلة التي سبقته ليكون ذلك خير ترجمة لعدالته تعالى، إذ من غير الممكن أن يعطي الحق تعالى وجه من رحمته في زمن ويمنع ذلك الوجه في زمن آخر؛ لأن ذلك يتعارض مع حجته البالغة التي أشار إليها في قوله تعالى: **(قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)** [الأنعام: 149] فالوسط أو الوسيلة هو الحجة البالغة التي جعلها الحق تعالى في كل زمان، فمن توجه إليها وانتظم في منهجها نجى من الهلاك العظيم، ومن تخلف عنها فقد أقام تعالى عليه الحجة الدنيا والآخرة فكان ترقيه ممزوج بالإرهاق كما نصت عليه الآية الكريمة: **(سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً)** [المدثر: 17]، ذلك لأنه قد اختار طريقة الوصول إلى الحق تعالى على هوى نفسه، ولم يختار طريقة الحق المثلى التي تصل به إلى الحقيقة المطلقة وهو على بر الآمان واختصارا للزمان.

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [المائدة: 35]

وقوله تعالى:

(أولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً) [الإسراء: 57]

وقوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الشورى: 52]

وقوله تعالى:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) [الفرقان: 27]

في قوله تعالى:**(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ)** يأمرنا تعالى بالتقوى، ويحيلنا في خطابه تعالى إلى الحصن الذي يحمينا من الزلل أو الاستدراج إلى جهة الأغيار، فالتقوى هو براق الوصول إلى مرتبة الفناء في الله، ولعل من أهم وسائل التقوى اللجوء إلى الوسيلة أو (شيخ الوقت) العار ف بالله حق العرفان والانتظام في طريقته لضمان السلوك والسير الصحيح، ومن أجل قال تعالى: **(وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ)** أي: ابتغوا إلى التقوى الوسيلة التي تديم عليكم حصانة التقوى، وتثبت أقدامكم على مرضاة الله وهم المشايخ الكاملين في كل زمان ومكان، فهم وسيلة العبد إلى الله تعالى، وهم كذلك وسيلة الحق تعالى في هداية الناس إلى صراطه القويم، فالوسيلة هنا لها البرزخية ما بين الحق والخلق.

قوله تعالى: **(وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)** أي: لا تنتظروا أن تأتيكم الوسيلة أو يحصل لكم رضا الحق تعالى دون سعي حثيث وجهد جهيد في سبيل الله تعالى، فاطلبوا واجتهدوا وابحثوا في سبيل العثور على الوسيلة الصحيحة التي تصل بكم إلى بر الأمان، ومن صدق وجد في مسعاه أيده تعالى في تحصيل غايته.

يستدعي السلمي الكثير من تأويلات العارفين لهذه الآية: قال الإمام جعفر الصادق: **(وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ)** أي: اطلبوا منه القربة.قال الواسطي: في

أداء الفرائض واجتناب المحارم السلامة من النار، والوسيلة القربة بآداب الإسلام إلى من وضعها وفرضها، وقال أيضا: **(وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ)** لو كشف عنهم ما عاملهم به، لنسبق أوقاتهم وأوقات من يقتدي بهم وأضاف كذلك: **(وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ)** ما توسل به إليكم بقوله: **(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)** [الأنعام: 54] وقال: الوسيلة المشار إليها النعوت فمن توسل إلى من لا وسيلة إليه إلا به فلم يبتغ إليه الوسيلة ومن توسل بما لا خطر له في الملك خسر. وقيل في تأويل الآية: هو الرضا بالقضية والصبر على الرزية والمجاهدة في سبيله والصبر على عبادته. وقال ابن عطاء: الوسيلة: هي القربة بآداب الإسلام، وأداء الفرائض لدخول الجنة، والنجاة من النار. قال فارس: اتقوه واجعلوا تقواكم سببا لقربكم إليه، قال الحلاج: **(وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ)** التي كانت لكم مني إلى لا منكم إلي، فالوسيلة منه إليك من غير سبب ولا سؤال. (السلمي: المصدر السابق، مجلد1، ص177)

لقد جاءت أغلب التأويلات بأن الوسيلة هي القربة أو العبادة، وهذه التأويلات من حيث العموم صحيحة وسليمة، غير إن هذه التأويلات لا تلغي أهمية شيخ الوقت أو المربي، إذ كما قيل " لولا المربي ما عرفت ربي " لأن المربي لديه منهج من النوافل من شأنها تقرب العبد من المعبود فلا يمكن إغفالها، قال تعالى: **(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً)** [المائدة: 48] فالشريعة ومنهج السلوك لا يمكن إهمال دورهما في عملية الوصول إلى مرتبة الفناء في الحق تعالى، من هنا يتضح أن الوسيلة هي المربي الحق أولا والعبادة والنافلة ثانيا، ولا يفهم من هذا الكلام أن هناك فواصل بين شيخ الوقت، وأصناف العبادة، والنوافل؛ فالبعض يكمل البعض ويشترك الجميع في تسهيل مهمة الوصول إلى مقامات الكمال.

ويرى ابن عربي في فتوحاته: إن الله (ما حجر الولاية عنا، ومن هذا الباب سؤال الوسيلة وإن لم يكن مثلها لكن يقرب منها، وإنما ألحقناها بها في التشبيه لقرينة حال وهي درجة في الجنة لا ينالها أو لا تنبغي إلا لرجل واحد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: **(وأرجو أن أكون أنا فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)** فلو سأل واحد منا ربه الوسيلة في حق نفسه لما سأل ما لا يستحقه

کتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران تأسیس ۱۳۷۴

لأنه ربما لا ينالها إلا شخص هو على صفة مخصوصة والله يقول لنا **(وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ)** إلا أنه لم يقل منه فقد يمكن أن يكون هذه من التوسل، وتلك الصفة إما موهوبة أو مكتسبة، ولم يعينها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا حجرها على واحد بعينه، ولم يقل أنها لا تنبغي إلا لمن هو أفضل عند الله من البشر، ونحن نعلم أنه أفضل الناس عند الله بما نص على نفسه فكان يكون ذلك تحجيرا.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد3، ص146)

إن حقيقة ما أشار إليه ابن عربي بأن الوسيلة درجة في الجنة يراد بها جنة الدنيا والآخرة، وهي جنة المعرفة، فالولي الذي تستمر معه تدفق الواردات المعرفية اللدنية يكون قد حصل على هذه الدرجة الرفيعة من الجنة ولكن الأولياء متفاضلون في المراتب ولكل مرتبة مستوى معرفي، فصاحب الوسيلة هو الأعلى مقاما لأنه برزخ المعرفة القادمة من الحق تعالى إلى الخلق والأولياء، فالوسيلة هنا لها مستويات عديدة أعلاها مستوى شيخ الوقت، والكل يفتقر إليه في التربية الروحية وما يرد للسالك من جراء انتظامه في طريق شيخ الوقت.

ويتأول ابن عربي الآية ويحيل مخاطبة الحق تعالى إلى كل واحد منا فيرى في قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ)** بالتزكية **(وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ)** بالتحلية **(وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ)** بمحو الصفات والفناء في بالذات **(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)** من ظهور بقايا الصفات والذات. (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص177)

ويراد بمحو الصفات أي التخلص من الصفات البشرية الذميمة كالحسد، والرياء، والكبر، والنفاق، والتعلق بالأغيار، والوقوف مع المراتب الدنية، في حين يجب على المرء الاتصاف بالصفات الربانية كالرحمانية، والهداية، واللطف، والصبر وغيرها من الصفات تمهيدا لمرتبة الفناء في الله الذي يشكل غاية كل باحث عن الحقيقة.

أما ابن عجيبة الحسني فيرى في تأويله للآية: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ)** ولا تسلكوا سبيل بني إسرائيل الذين جاءتهم الرسل، فعصوا وأفسدوا

(وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ) أي:اطلبوا ما تتوسلون به إلى رضوانه، والقرب من جناب قدسه من الطاعات، وترك المخالفات، **(وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ)** بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة **(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)** بالوصول إلى الله والفوز بكرامته ويرى ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية يراد بها العارفين بالله إذ ليس هناك من هو أقرب منهم لله تعالى، لذا يجب صحبتهم والجلوس بين أيديهم وخدمتهم، والتزام طاعتهم، فمن رام وسيلة توصله إلى الحضرة غير هذه فهو جاهل بعلم الطريق، ويقال: لو أن رجلا كشف له عن الغيب، ولا يكون له أستاذ لا يجيء منه شيء، وقال إبراهيم بن شيبان: لو أن رجلا جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة، من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، ومن لا يأخذ أدبه من آمر وناه يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات، وقال أبو العباس المرسي: كل من لا يكون له في هذا الطريق شيخ لا يفرح به ولو كان وافر العقل منقاد النفس، واقتصر على ما يلقى إليه شيخ التعليم فقط، فلا يكمل كمال من تقيد بالشيخ المربي، لأن النفس أبدا كثيفة الحجاب عظيمة الإشراك، فلا بد من بقاء شيء من الرعونات فيها، ولا يزول عنها ذلك، بالكلية، إلا بالانقياد للغير والدخول تحت الحكم والقهر، وكذلك لو كان سبقت إليه من الله عناية وأخذه الحق إليه، وجذبه إلى حضرته، لا يؤهل للمشيخة، ولو بلغ ما بلغ، والحاصل: أن الوسيلة العظمى، والفتح الكبير، إنما هو في التحكيم للشيخ، لأن الخضوع لمن هو من جنسك تأنفه النفس، ولا تخضع له إلا النفس المطمئنة، التي سبقت لها من الله العناية. (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد2، ص174)

من هنا فإن شيخ الوقت يعد من الضرورات المهمة للزمان والمكان، لأن العدالة الإلهية تقتضي بوجود من له خبرة في تربية المستعدين العازمين على السفر إلى مراتب الكمال العازمين على معرفة الحقيقة.

أما في قوله تعالى: **(أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ**

مَحْذُورا)[الإسراء: 57] في قوله تعالى: (**أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ**) إشارة إلى الذين يتوجهون بالدعاء، والتضرع لله تعالى من أجل تحصيل طريق الهداية، والثبات عليه، ومن الممكن تأويل هذا الخطاب ويراد به الذين يدعون الناس إلى طريق الحق تعالى، وهم المأذونين بالدعوة المشار إليهم بقوله تعالى: (**وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيرا**) [الأحزاب: 46] أي: الذين يدعون الناس إلى الله بإذن منه تعالى، إذ هناك فرق كبير بين من يدعو الناس إلى الله، وهو غير مأذون من الله تعالى، وبين من يدعو الناس إلى الله، وهو مأذون منه تعالى، وإن من علامات الإذن ظهور المعجزة أو الكرامة على الداعي، ومن علامات الداعي كذلك أنه مجاب الدعوة كما جاء في قوله تعالى: (**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**) [البقرة: 186] فإن إجابة الدعوة من جهة الحق تعالى قد خصصها الحق تعالى لدعاة الناس إلى الحق تعالى.

فإن هؤلاء الدعاة تشكل دعوتهم وسيلتهم إلى التقرب لله تعالى، من أجل الفوز بالرحمة الإلهية التي تبعدهم عن عذاب الاحتجاب، والبعد عن عالم الأنوار.

أما قوله تعالى: (**يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ**) أي: المستعدين العازمين على تحصيل كمالاتهم، الذين توسلوا السبل المؤدية إلى الحق تعالى، وبحثوا عنها، وجربوها من أجل الوصول، والفوز بالرحمة، والسعادة الأبدية، وكأن الحق تعالى يحرضنا ويحيلنا إلى الوسيلة التي تؤدي إليه، والوسيلة يراد بها الخروج من النسبي المحدود إلى المطلق الدائم الذي لا نفاد له كما جاء في قوله تعالى: (**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**) [الرحمن: 33] أي: النفاذ من المراتب الوجودية إلى خالقها، والفناء فيه تعالى، وهذا لن يتم إلا من خلال توسط سلطان الزمان أي: (**شيخ الوقت**) لأنه الوحيد الذي لديه خبرة في عملية الوصول إلى عالم الأنوار كما أن لديه التمكين والتصريف في الأرواح من أجل الرقي بها إلى مستوى الفناء بالله تعالى.

قوله تعالى: (**أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**) تفيد للتنافس، أي: يتنافس أصحاب الوسيلة كلا بحسب وسيلته من أجل الوصول إلى الكمالات، قال تعالى: (**خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**) [المطففين: 26] ختام المسك هو الوصول إلى مرتبة الفناء في الله، وتقع المنافسة في سرعة الوصول إلى الحقيقة فمنهم من يصل إلى مقام الختام وهو في الحياة الدنيا، ومنهم من يصل المقام في البرزخ ومنهم من يصل المقام في الآخرة، ومنهم من يكون صعوده عسير يصاحبه الكثير من الإرهاق كما جاء في قوله تعالى: (**سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً**) [المدثر: 17] والكل يصل إلى مطلوبه غير أن التنافس يقع في سرعة الوصول.

قوله تعالى: (**وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ**) وهم أهل مقام الرجاء، إذ أن مقام الرجاء والخوف يقابل العبد بهما ثنائية الجلال والجمال، ففي حالة الجمال يجب على العبد أن يقابل الحق تعالى بالرهبة والخوف، وإن عليه عدم الانبساط حين يجلسه الحق تعالى على بساط الأنس، كما أن عليه أن يقابل الجلال بالرجاء والجمال والانبساط لأن المحب لا يكون تعلقه بوجه دون وجه آخر بل يجب أن يكون تعلقه بالحق تعالى في كل تجلياته الجمالية والجلالية، وعلى اللبيب أن يقابل تجليات الحق تعالى بكل ما تستحقه من أدب وذلة وافتقار؛ لأن الحق تعالى له العزة والمنعة، وإن العزة لابد أن يقابلها العبد بالذلة والافتقار.

قوله تعالى: (**وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**) وهو ما يقابل به العبد الجمال الإلهي، خوفا من عذاب الاحتجاب والبعد عن الفيض المعرفي الإلهي، وهو أشد أنواع العذاب، لأن جميع أنواع العذاب الإلهي سببه الجهل فالجاهل لا يعلم ما يفعل؛ لأنه لم يستخدم إمكانياته الروحية والعقلية بشكلها الصحيح وبالنتيجة يكون عرضة للطرد والبعد والإقصاء من الوارد الرحماني.

قوله تعالى: (**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورا**) أي: أحذر عذاب الرب تعالى لأن عذابه لا يدانيه عذاب وبالأخص عذاب الاحتجاب.

يرى التستري في تأويله للآية: (رحمته جنته في الظاهر وفي الباطن حقيقة المعروف، ثم قال: إن الخوف والرجاء زمان للإنسان فإذا استوى قامت له أحواله، وإذا رجح أحدهما بطل الآخر، ألا ترى أن النبي صلى الله

تعالى عليه وسلم يقول: (لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا).) (التستري: المصدر السابق، ص95)

ويرى القشيري أن الوسيلة سواء كان نبي، أو ولي، أو شيخ وقت لم يكن هو الغاية المطلقة بل الحق تعالى هو الوسيلة المطلقة على سبيل الحقيقة، فهو تعالى وسيلة كل متوسل على سبيل التحقيق، فالمسيح والعزير والملائكة، لا يملكون نفعا لأنفسهم ولا ضرا، وهم طالبي الوسيلة إلى الله، أي يتقربون إلى الله بطاعاتهم رجاء إحسان الله، وطمعا في رحمته، ويخافون العذاب من الله، فكيف يرفعون عنكم البلاء وهم يرجون الله ويخافون في أحوال أنفسهم ؟ ويقال: تعلق الخلق بالخلق تعلق مسجون بمسجون، ويقال إذا انضم الفقير إلى الفقير ازدادا فاقة، ويقال: إذا قاد الضرير ضريرا سقطا معا في البئر، وفي معناه أنشدوا:

إذا التقى في حدب واحد سبعون أعمى بمقادير

وسيروا بعضهم قائدا فكلهم يسقط في البـــير

(القشيري: المصدر السابق، مجلد4، ص 25)

أما البروسوي فيرى في تأويل الآية: (**أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ**) أولئك مبتدأ صفته الذين وخبره يبتغون أي: أولئك الآلهة الذين يدعونهم المشركون من المذكورين (**يَبْتَغُونَ**) يطلبون لأنفسهم (**إِلَى رَبِّهِمُ**) ومالك أمورهم (**الْوَسِيلَةَ**) أي: القربة بالطاعة والعبادة (**أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**) بدل من واو يبتغون وأي موصولة أي: يبتغي من هو أقرب إلى الله منهم الوسيلة فكيف بمن دونه من غير الأقرب (**وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ**) بالوسيلة (**وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**) بتركها كدأب سائر العباد فأين هم من كشف الضر فضلا عن الإلهية (**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورا**) حقيقيا بأن يحذره كل أحد حتى الرسل والملائكة وإن لم يحذره العصاة لكمال غفلتهم بل يتعرضون له وتخصيصه بالتعليل لما أن المقام مقام التحذير من العذاب. فعلى العاقل أن يترك الاعتذار ويحذر من بطش القهار.) (البروسوي: المصدر السابق، مجلد5، ص175)

ويرى ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية يراد بها: (إن كل ما دخل عالم التكوين لزمته القهرية والعبودية، فهو عاجز عن إصلاح نفسه، فكيف يصلح غيره ؟ ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، فكيف يدفع عن غيره ؟ فارفع همتك، أيها العبد، إلى مولاك، وأنزل حوائجك كلها به دون أحد سواه، فكل ما سواه مفتقر إليه، والفقير المضطر لا ينفع لنفسه، فكيف ينفع غيره ؟ والله يتولى هدى الجميع.) (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد4، ص، 102)

أما قوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)** [الشورى: 52] قوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا)** إن أعلى أشكال الوحي، إذا كان محمل بروح منه تعالى أي: بنور صادر منه تعالى، فالنور أو الروح الإلهي له قابلية الاندماج والتماهي في النور السابق، إذ أن الروح المحمدي على صاحبه أفضل الصلاة، والتسليم، أو روحانية الوريث المحمدي هو في الأصل نور أحدي أوجده الحق تعالى على هيئة معينة ثم أوجد تعالى الكون جملة وتفصيلا بكل مراتبه من هذا النور، ثم أجرى تعالى التخصيصات، والتعيينات التي تناسب الأزمنة، والأمكنة، وجعل لكل زمان هيكلا صمدانيا نورانيا له البرزخية العظمى بين الحق والخلق، فيفيض عليه بنور جديد يطلق عليه روح من الأمر كما جاء في قوله تعالى: **(رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا)** ليقابل به الزمان والمكان من أجل ترقي المستعدين من المؤمنين إلى آفاق الكمالات، وهذا ما يطلق عليه النور المضاف كما دلت عليه الآية الكريمة: **(نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ)** [النور: 35] أي: يهدي الله للكمالات من يشاء، ويتم الكمال من خلال إشراف، وتربية الكاملين من المشايخ وكما قيل: "لولا المربي ما عرفت ربي"، أما قوله تعالى: **(مِّنْ أَمْرِنَا)** أي: ما أمر تعالى به القلم أن يسطره في اللوح المحفوظ من تخصيصات لما كان ويكون إلى يوم القيامة، وبحسب الزمان والمكان.

قوله تعالى: **(مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ)**، أي: لولا هذا التخصيص النوراني المعبر عنه بقوله تعالى: **(رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا)** الذي جاءك وهو يحمل نورانية الكتاب والإيمان، ما كنت تدري حاجة الزمان والمكان

من العلم، ونور الإيمان، فمن خلال هذا الروح النوراني علمت، وعرفت، والله ذو الفضل العظيم.

قوله تعالى: **(وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا)** حقيقة الهداية تعود لله تعلى على سبيل الحقيقة، أما الرسل والأنبياء والأولياء فلهم على سبيل الاستعاضة؛ ذلك لأنهم لا يمكنهم معرفة المهتدين إلا بالله تعالى، فلو لم يفتح الله تعالى لهم البصيرة فلا معرفة لهم أصلا، لذا فإن معرفتهم بالمهتدين تجري به ومن خلاله ومن أجل ذلك، قال تعالى: **(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)** [القصص: 56] إن الروح النوراني المضاف هو الذي يكشف للنبي أو الولي المستحقين من المستعدين للكمالات؛ فيتوجهون إليهم بالجذب والتربية حتى يبلغون أشدهم فيكونون من جملة وسائل الهداية لله تعالى.

قوله تعالى: **(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)** الهداية هنا جرت بالله تعالى بحسب الأمر الإلهي، لأن الهادي متصل به تعالى وفان فيه فلا أثر للإثنينية في هذا الموقف، وهو تماما يجري على وفق الوصف الذي جاء في قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)** [الفتح: 10]، أو كما جاء على لسان العبد الصالح من قوله تعالى: **(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)** [الكهف: 82] فكل شيء يجري بالله تعالى وبإرادته ولا اختيار للعبد في هذا المشهد.

ويرى الكتاني، أبي الفيض في تأويل الآية: إن القرآن الكريم كان مودعا في لخزانة المحمدية، وإنه أنزل عليه فيما بعد مرة تلو مرة، فإذا كان نفس نزوله ثانيا لأجل الستر على السر الرباني حتى ينصلح أمر العالم العلوي والسفلي على ذلك النزول، فكيف بالمنزل به ؟ وهذا يعني: يلزم منه علمه صلى الله تعالى عليه وسلم بجميع ما اشتمل عليه القرآن الكريم من أول ما خرج لهذا العالم الشهادي، إلى يوم شد الرحلة إلى ربه جل شأنه، إلى ما يقع في البرزخ بالنسبة لأعيان أشخاص الموجودات، إلى ما يقع في أرض الموقف، إلى ما يقع في أرض الدارين، وكل هذا قبل أن ينزل القرآن في عالم الغيب، ما كان يعلمه؛ لأنه ما خرج من العالم إذ ذاك حتى يناط به أو يطلب العلم أو تكون قابليته قابلة له. ولما خرج من بطنان العدم، وتوج بتاج

(كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد) علمه الله الشؤون المتعلقة بالأكوان بواسطة تعليم الله سبحانه له في عالم التجلي الأعظم للأرواح، إذ هي مهيأة لذلك وقابلة له. وانظر كيف صلحت جواهر الأرواح ــ من حيث هي ــ لمكالمة الرب جل شأنه في عالم الذر لما أخذ عليها العهد بالإقرار بربوبيته، فكيف لا تصلح الحقيقة الأحمدية لإيتائها ما يقوم به عالم الملك ضرورة أنها الخليفة عن الله سبحانه، لا في أراضيه ولا في سماواته ؟، والجلالة المحمدية لا تأبى ذلك. وإيتاؤه النبوة إذ ذاك شاهد لذلك، بل جعله أول موجود أوجده الله من العدم يقتضي انه لم يعرف الله سبحانه أحد قبله، سيما لما كانت الأشياء كلها من فيض نوره، فإنها ما أفيضت منه إلا وهو يعلم نفسه، ويعلم أنه الرحمة المرسلة للعالمين، ويعلم ربه المعرفة الحقيقية التي لا يتخالجها ريب الشكوك والظنون، ولا جهالات الأوهام والتلبيسات العنصرية الناشئة من انسحاب ظلمات الترابية على الروح المجاورة للذات، ولا جرم أن النبوة التي من أجلها نزل عليه الملك على رأس الأربعين: سنة من سني جسمانيته، وعلم من العلوم التي يقوم بها أود الملك، إذ هو خليفة الله جل أمره في العالم، لم يزل ملتبسا بها من يوم كان في عالم الغيب فما أعطت بالخاصية وجوده آخرا تعطي بالضرورة وجوده أولا، فكما هو نبي لما بعث، هو نبي إذ ذاك بمقتضى قوله الصادق: **(كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد)** وكل من لم يقل بهذا؛ يلزمه أنه عليه الصلاة والسلام، إما لم يكن نبيا وآدم بين الروح والجسد؛ وهو مصادمة للمنصوص المرفوع، وإنكار إحدى أعاظيم خصيصاته؛ فإنه لم يتنبأ أحد قبل بروزه غير الحقيقة الأحمدية، ومن عداها إلى وقت نزول النبوة عليه. (الكتاني، أبي الفيض: 2004، ص145ــ 146)

ويضيف الكتاني في تسائل له: إما كان نبيا في التقدير كما قيل به، ولم يكن متصفا بها في الحقيقة. ورد بأن العقول قاصرة عن إدراك مرمى تلك الحقائق، فلا سبيل لدرك العقل أنه لم يكن متصفا بها، ولما أخبر بذلك عن نفسه لم يبق مجال للكشف، فضلا عن العقل، فضلا عن التخمين، وإما أن يقول: إن النبوة التي حلل بها في عالم القدس، أزيحت عنه بعد أن ألبسها، ثم عادت إليه على رأس الأربعين سنة من سني البعث الجسماني. وهذا فيه

هجوم على حضرة النبوة، وقدح في المنصب المحمدي الذي لا عقبى له إلا دار البوار، وقطع الإمداد عن صاحبه، وارتكاسه في عالم القطيعة والهجران، وافتيات على صاحب الشرع المطاع. وليس ثم من هو أعلم بما هو عليه الأمر عليه في نفسه مثل الجناب المحمدي؛ ضرورة أنه أعرف الخلق بالله جل جلاله. وليس ثم من يعلم نفسه المصطفوية كما يعلمها هو. وليس ثم من بيده خلاف هذا النص حتى يناقضه، وعليه؛ فلا مانع من كونه علم الأشياء ثمة لما ألبس جلابيب النبوة المطلقة، وبعد علم هذا السر، لا يتوقف في سر الخطابات القرآنية المهول ظاهرها مثل هذه الآية الكريمة المكتوب فيها **(مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ)** فإنها لا تشكل على ما أبديناه؛ لما أن ذلك كأنه أول نزول، فكما خوطب به أولا في عالم الأرواح خوطب به ثانيا في عالم الأشباح، ولما خوطب به أولا في عالم الأرواح، كان أمتثال هذه الآيات الكريمات خرج مخرج الامتنان، وكأنه يقول: في حال عدمك كنت لا تدري؛ ضرورة أنك لم تكن موجودا حتى تناط بك الدراية، والآن أنت تدري. فالآية خرجت من مخرج الامتنان. فالمعنى الذي حمل عليه اللفظ أول ما كوفح به ينبغي أن يحمل عليه ثاني ما خوطب به. (الكتاني، أبي الفيض: المصدر السابق، ص146- 147)

أما الإشارة في هذه الآية فيرى ابن عجيبة الحسني مفادها: (قد تحصل للأولياء المكالمة مع الحق تعالى بواسطة تجلياته، فيسمعون خطابه تعالى من البشر والحجر، أو بلا واسطة، بحيث يسمعون الكلام من الفضاء، وإليه أشار الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه بقوله: (وهب لنا مشاهدة تصحبها مكالمة) ولا تكون هذه الحالة إلا للأكابر من أهل الفناء والبقاء. وأما مكالمة الحق من النور الأقدس، بلا واسطة، فهو خاص بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة الإسراء، قال أحد الأولياء: والذي عندي أن التكلم على المكافحة والمشابهة إنما يكون بالانخلاع عن البشرية، ومحوها، والبقاء بصفات الربوبية، وذلك إشارة إلى أنه عليه السلام إنما شوفه وكلم بعد العروج عن أرض الطبيعة إلى سماء الحقيقة، وكان بالأرض يكلم بالواسطة، وموسى كلم بغير واسطة، ولكن بغير مشافهة، ولذلك كان كلامه بالأرض ولم يعط الرؤية؛ لأنها لا

تكون في الأرض، أي في أرض البشرية، بل لا بد من الغيبة عنها.) (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد6، ص390ـ 391)

ويرى البروسوي أن المقصود بالروح الذي أوحى به تعالى من أمره هو القرآن لكون سببا للحياة الأخروية الموصوفة في قوله: **(وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)** [العنكبوت: 64] ومعنى من أمرنا: أي: روحا ناشئا ومبتدأ من أمرنا، وقيل هو جبرائيل، ومعنى إيحائه إليه عليه السلام إرساله إليه بالوحي، فإن قلت: كيف علم رسول الله عليه الصلاة والسلام في أول الأمر أن الذي تجلى له جبرائيل، وأن الذي سمعه كلام الله تعالى قلت: خلق الله تعالى له علما ضروريا علم به ذلك، والعلم الضروري يوجب الإيمان الحقيقي، ويتولد من ذلك اليقين والخشية، فإن الخشية على قدر المعرفة. (البروسوي: المصدر السابق، مجلد8، ص382)

ويرى الطوفي: (سمي الوحي والقرآن روحا لأنه سبب الروح والرحمة، ولأنه للقلوب كالروح تحيا به، أو تسمية له باسم الروح الأمين النازل به ويقول الطوفي: زعم قوم أخذوا بظاهر هذا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان قبل أن يوحى إليه غير مؤمن، كما قال: **(وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى)** [الضحى: 7] وهذا صعب شديد أن يقال فيه صلى الله تعالى عليه وسلم ــ مع قوله: **(كنت نبيا وآدم بين الترب والطين)** وأنه حين ولد خر ساجدا مشيرا بأصبعه إلى السماء، وأنه لم يزل كارها للأصنام مبغضا لها قبل النبوة، لم يحلف بها ولا أكل مما ذبح لها، وإجماع الناس على أن نبيا من الأنبياء لم يكفر بالله ولا خلا من الإيمان به طرفة عين) وقالوا: يجب تأويل الآية على ما يزيل عنها هذا المحذور، مثل المراد: ما كنت تدري ما الكتاب ولا ماهية الإيمان وحقيقته، ولا يلزم من كونه مؤمنا معرفة ذلك، بدليل أن أكثر الناس هم كذلك. أو: ما كنت تدري ما الكتاب ولا كيفية الدعاء إلى الإيمان؛ إذ كيفية دعاء الناس إلى الإيمان إنما يعلم بالوحي، فقبل الوحي من أين يعلم، ولا يلزم من كون الإنسان مؤمنا في نفسه أن يدري كيف يدعو أو إلى ما يدعو غيره، لجواز أن يتعبد الله - عز وجل - كل إنسان بأمر غير ما يتعبد به الآخر، كما اختص النبي صلى الله تعالى بخواص تعبد بها لم تكن لغيره وقوله

تعالى: **(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)** أي: ترشد، وهذا الهدى غير الهدى المسلوب في قوله ـــ عز وجل ـــ **(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)** [القصص: 56] فلا يتناقض هذا الإيجاب مع ذلك السلب، وذلك لأن من تقع عليه الهداية تقع عليه يد العناية، فتكون يد العناية هي المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم فبه يهتدي إلى الصراط المستقيم، أي بتعليمه، وتربيته، وتهذيبه، وتشذيبه، وتزكيته يصل المريد إلى مرتبة الفناء. (الطوفي، نجم الدين: المصدر السابق، ص569)

ويرى ابن عربي في تأويله للآية: **(وَكَذَلِكَ)** ومثل ذلك الإيحاء على الطرق الثلاثة: **(أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً)** تحيا به القلوب الميتة **(مِّنْ)** عالم **(أَمْرِنَا)** المنزه عن الزمان المقدس عن المكان **(مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ)** أي:العقل الفرقاني الذي هو كمالك الخاص**(وَلَا الْإِيمَانُ)** بك الخفي الذي حصل لك عند البقاء بعد الفناء حال كونك محجوبا بغواشي نشأتك وحال وصولك لفنائك وتلاشي وجودك **(وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورا)** عند استقامتك **(نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا)** المخصوصين بالعناية الأزلية، إما المحبوبين وإما المحبين**(وَإِنَّكَ)** أيها الحبيب **(لَتَهْدِي)** بنا من تشاء **(إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)** لا يبلغ كنهه ولا يدرى وصفه.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد2، ص233)

ويستدعي السلمي تأويل بعض العارفين لتأويل قوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا)** فيرى الواسطي: (أظهر الأرواح من بين جماله وجلاله مكسوة بهاتين الكسوتين لولا أنه سترها لسجد لها كل ما أظهر من الكون فمن رداه برداء الجمال فلا شيء أجمل من كونه في ستره يظهر منه كل درك وحذاقة وفطنة ومن رداه برداء الجلال وقعت الهيبة على شاهده يهابه كل من لقيه ولصحة الأرواح علامات ثلاث صحة النقية والتخلق بالأخلاق والتخطي في طريق الآداب وفي قوله تعالى: **(مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً)** يرى الواسطي: عظم في صدره في شأن أمر الله ونهيه ـــ لذلك كان يقول: من لم يؤمن بي ضربت عنقه ـــ ووجد في قتال المخالفين جهادا لم تلحقه سآمة ولا كسل لما عظم في صدره من شأن الإيمان. (السلمي: المصدر السابق، مجلد2، ص، 230)

أما ابن عطاء فيرى في قوله تعالى: **(مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ)** أي: (الكتاب: ما كتبت على خلقي من السعادة والشقاوة، والإيمان ما قسمت للخلق من القربة) (اليسوعي: المصدر السابق، ص139)

ويرى الغزالي: أن لذة العارف في الدنيا من مطالعة جمال الحضرة الربوبية، أعظم من كل لذة، يتصور أن يكون في الدنيا سواها؛ وذلك لأن اللذة على قدر الشهوة، وقوة الشهوة على قدر الملائمة والموافقة مع المشتهي، وكما أن أوفق الأشياء للأبدان الأغذية، فأوفق الأشياء للقلوب المعرفة، فالمعرفة غذاء القلب، وأعني بالقلب الروح الرباني الذي قال فيه: **(قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)** [الإسراء: 85] وقال تعالى: **(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي)** [ص: 72] فأضافه إلى نفسه. وهذا الروح لا يكون للبهائم، ومن هو مثل حالهم من الإنس، بل يختص به الأنبياء والأولياء، ولذلك قال تعالى: **(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ)** والمعرفة أوفق الأشياء لهذا الروح؛ لأن الأوفق لكل شيء خاصته، فالصوت الطيب لا يوافق البصر؛ لأنه ليس من خاصته، وخاصة الروح الإنساني معرفة الحقائق. وكلما كان المعلوم أشرف، كان العلم به ألذ، ولا أشرف من الله تعالى ولا أجل منه.) (الغزالي: 2009،المصدر السابق، ص393)

أما في قوله تعالى: **(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)** [الفرقان: 27] أي: يوم يعض الظالم الذي ظلم نفسه لابتعاده عن جهة النور، وبقائه مع جهة الطبع، وظلمة النفس لبقائه مع جهة الأغيار ففي الآخرة يعض الظالم على يديه ندما على ما فاتته من المعارف اللدنية؛ ذلك لأن المرء يحشر على قدر معرفته فعند ذاك يدرك الظالم جسامة ما فاتته من صحبة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أو رسول الرسول، ويدرك مخاطر ابتعاده عن طريقته المثلى فيندم على ذلك ولكن لا فائدة من الندم في ذلك الموقف.

قوله تعالى: **(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)** المعية هنا لا تعني بقاء الإثنينية، بل هي الفناء في الشيخ تمهيدا للفناء في الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وصولا إلى الفناء في الله تعالى، فاتخاذ السبيل يعني الفناء في الرسول ليكون ذلك وسيلة من أجل الفناء في الله؛ ذلك لأن النور الإلهي لا

يمكن أن يؤهل إليه كائن من الكائنات ما لم يتم له الفناء في الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم.

يرى ابن عربي في فتوحاته: إن المؤمن يحتاج (إلى ميزان وكشف صحيح حتى يعرف العدو الذاتي الذي ينبغي أن يعامله بمثل هذه المعاملة من العدو العرضي الذي تعرض له هذه العداوة تزول عنه لزوال ذلك العارض الذي أوجبها كما قال تعالى يخبر عن بعض العباد بما يقول يوم القيامة: **(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً)** [الفرقان:27ـ 28] يعني شيطان الإنس لا شيطان الجن **(لِلْإِنسَانِ خَذُولاً)** [الفرقان: 29] فإنه قال: ما أقلني عن الذكر إلا فلان وسمى إنسانا مثله حيث أصغى إليه وقلده في مقالته وحال بينه وبين اتباع ما أمره الله باتباعه وهو ما جاء به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وسبب ذلك ما جاءهم به عن الله من التحجير الجديد وإن كانوا في تحجير إذ لا بد منه لمصالح العالم ولكنهم كانوا قد ألفوه ونشؤوا عليه ولم يعرفوا غيره.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد5، ص399)

ويرى القشيري: أن الكافر سيندم على صحبة الكفار وأهل الضلالة، ودليل الخطاب يقتضي سرور المؤمنين بمصاحبة أخدانهم وأحبائهم في الله، وأما الكافر فيضل صاحبه فيقع معه في الثبور، ولكن المؤمن يهدي صاحبه إلى الرشد فيصل به إلى السرور. (القشيري: المصدر السابق، مجلد4، ص 307)

ويرى ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية مفادها: أنها تحرض على محبة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وشد اليد على التمسك بسنته، والاهتداء بهديه، واتباع ما جاء به، قبل أن تقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا. وفيها أيضا: الترغيب في صحبة الأبرار، والترهيب من صحبة الفجار، وأنشد بعض الحكماء

تجنب قرين السوء واصرم حباله فإن لم تجد عنه محيصا فداره

وأحبب حبيب الصدق واحذر مراءه تنل منه صفو الود ما لم تماره

(الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد 5، ص125)

الشيخ والسماع

السماع لغة: يرى الراغب: (السمع قوة في الأذن به يدرك الأصوات، وفعله يقال له السمع أيضا، وقد سمع سمعا، ويعبر به تارة عن الأذن نحو: **(خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ)** [البقرة: 7] وتارة عن فعله كالسماع نحو: **(إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)** [الشعراء: 212] وتارة عن الفهم، وتارة عن الطاعة، تقول: اسمع ما أقول لك، ولم تسمع ما قلت، وتعني لم تفهم،قال تعالى: **(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا)** [الأنفال: 31] وقوله: **(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)** [النساء: 46]، أي فهمنا قولك ولم نأتمر لك... والاستماع: الإصغاء.) (الراغب: المصدر السابق، ص425)

السماع في الاصطلاح الصوفي

يعرف البقلي السماع فيرى: (إن الله سبحانه اصطفى أشخاص الغيبيين حين خمر طينتها بصفاء مباشرة الصفة واجتبى أرواحهم حين أبرزها من مكان الغيب بتجلي الذات فصيرها جميعا بين نور الصفات ونور الذات عاشقة بجماله وجلاله والمنبي عن هذا قوله القديم جل جلاله في وصف أول فطرة الوجود ومنبع نوادر عجائب الغيوب صفيه آدم عليه السلام حيث قال: **(خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)** [ص: 75] **(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي)** [الحجر: 29]، فتلطفت الأجسام من فيض الصفات وتعشقت الأرواح من فيض الذات واتحدت الأشباح بالأرواح وأصغت أسماعها في شهود الغيب لأصوات عناديل الخطاب فسمعت بنعت العشق خطاب الخاص عند دور أزهار برقي المقامات حين قال تعالى: **(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)** [الأعراف: 172]، فطابت به في أول سقوط نور الفطرة من زند القدرة إلى أبد الأبد بنعت السرمدية فكل شاهد بقي فيه حلاوة خطاب القدم في هذا العالم عند سماع كل صوت طيب ورؤية مشاهدة كل مليح ومستحسن واستنشاق كل رائحة طيبة يسمعون بنعت الأولية عن كل صادر من فعل الحق واسطة من الصفة والذات كأنه يسمع من الحق بالحق فكل ذرة من الكون له لسان خاص متكلم له بالكلام القديم فيهيجه من وجوده إلى بقاء الحق بنعت الفناء، قال الله تعالى: **(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ**

أَحْسَنَهُ) [الزمر: 18] ومن ذلك حبيب الله صلى الله تعالى عليه وسلم أشفق على كتمان الأسرار حيث قال للحادي: (لا تكسر القوارير) وقال بعضهم: السماع سفير الحق، والعارف يقول: صفير بلابل الصفة من أغصان ورد الوصلة.) (البقلي: المصدر السابق، ص 98 – 99)

أما القاشاني فيرى في السماع: (حقيقة الانتباه لكل بحسب نصيبه فهو، أعني السماع، حاد يحدو بكل أحد إلى وطنه، أي يتنبه كل أحد منه إلى المقصود الخاص، ويقسم القاشاني السماع إلى نوعين، النوع الأول: سماع العامة، ويفيد على امتثال الأوامر، والنوع الثاني: شهودهم الحق تعالى في كل مسموع ومبصور، لأنهم لا يسمعون إلا بالحق، وفي الحق، وللحق، ومن الحق، فالسماع بالحق: هو سماع من لم تبق فيهم بقية من عالم النفس، فهم يسمعون بقيومية الله تعالى مع طهارتهم من أرجاس النفوس. السماع في الحق: هو سماع من يشاهد جمعيته تعالى لكل كمال، فهو لا يسمع شيئا من الكمالات منسوبة إلى غيره تعالى، بل إليه سبحانه لتفرده بالكمال لذاته تعالى. السماع للحق: هو سماع من يشهد بأن جميع ما يسمعه من الترغيب في بذل النفس، والغرض، والمال، وغير ذلك، إنما هو مبذول للحق لا لشيء سواه. السماع من الحق: هو سماع من يأخذ الخطاب من الله تعالى أخذ الإبقاء بالمشروع، وعلى الحد الجائز قبوله من الوجه الذي يسمع منه أهل الحقيقة، وإليه أشار سهل بقوله: منذ ثلاثين سنة أسمع من الله، والناس يظنون أني أسمع منهم، ولأجل أن سماعهم إنما هو من محبوبهم الحق تعالى، أنشد قائلهم:

من كل معنى لطيف أستقي قدحا وكل ناطقة في الكون تطربني

وذلك لأن سماعهم لما كان من المحبوب الحق صار الطرب حاصلا من كل ناطق، وليس السماع مختصا بإنشاد الشعر بالألحان وبالسماع بها، بل إنما هو اعتبارات يفهمها أهل السماع من السالكين ومعان يتمعنها أهل القلوب المشرقة بنور القرب من جناب القدس.) (القاشاني: المصدر السابق، ص254)

ويرى محمد بن أبي بكر الرازي: (إن ممن قال بإباحة سماع الأشعار بالألحان (مالك ابن أنس)، و(ابن جريج) وأهل الحجاز كلهم، وأما سماع الأشعار

بغير لحن فجائز إجماعا ولذلك قول الحداء وسماعه وذكر الأدلة فيه من الطرفين موضوعة الكتب المطولة من الفقه والرقائق، وكتب الفقه أحق بذلك، لأن علم الحقيقة والطريق لم يبن على المجادلة، والقيل والقال، بل على ترك ذلك كله ولنصدر الباب بشيء من القرآن والحديث على طريق التبرك: قال الله تعالى: **(فَبَشِّرْ عِبَادِ*الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ)** [الزمر:17– 18]، والقول: محلى بالألف واللام فيكون ظاهره العموم، فيتناول أقوال القوالين مدحهم باتباع أحسنه. فيدل ذلك على ندبه وإباحته، ويبقى أن الحسن والقبح من الأمور الإضافية، فقد يكون الشيء حسنا بالنسبة إلى شخص دون شخص، وقبيحا بالنسبة إلى شخص دون شخص، ومستندا لنسبة الأغراض، فأذن السماع تختلف باختلاف حال المستمع، فإن كان بعيدا عن الأغراض. فأذن السماع تختلف باختلاف حال المستمع، فإن كان بعيدا عن الأغراض البشرية والمقاصد البهيمية فهو لا يسمع إلا بالحق من الحق، وقال تعالى: **(فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ)** [الروم: 15] جاء في التفسير أنه السماع بالحور العين، وقيل في قوله تعالى: **(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)** [فاطر: 1] إنه الصوت الحسن، وقال عليه الصلاة والسلام: **(حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا)** وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لكل شيء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن)**، وقيل: أن داود، عليه السلام، كان يستمع بحسن قراءته الإنس والجن والوحش والطير إذا قرأ الزبور، وكان يحمل من مجلسه في بعض الأوقات أربعمائة جنازة ممن قد مات في مجلسه من لذة سماع صوته، وطيب قراءته.) (الرازي، محمد بن أبي بكر: المصدر السابق، ص237 – 238)

ويستدعي السيد الشيخ محمد الكسنزان قدس سره في موسوعته الكثير من الأحاديث الصحيحة وأقوال أئمة الصوفية وعلى النحو التالي: (عن أنس كنا عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إذ نزل عليه جبريل فقال: يا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام وهو نصف يوم ففرح فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أفيكم**

من ينشد)، فقال بدري: نعم يا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فأنشد البدري يقول:

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طبيب لها ولا راق

إلا الحبيب الذي قد شغفت به فعنده رقيتي وترياقي

فتواجد صلى الله تعالى عليه وسلم وتواجد أصحابه معه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فلما فرغوا أوى كل واحد إلى مكانه. فقال معاوية: ما أحسن لعبكم يا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: **(مه مه يا معاوية ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب)**. ويرى التستري: السماع علم استأثر الله به لا يعلمه إلا هو. أما الجنيد البغدادي فيقول: السماع: هو وارد حق يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق. أبو علي الروذباري يقول: السماع: هو مكاشفة الأسرار إلى مشاهدة المحبوب. أما الشيخ أبو يعقوب النهرجوري يقول: هو حال يبدي الرجوع إلى الأسرار من حيث الاحتراق. ويرى أبو بكر الشبلي: السماع: ظاهره فتنة وباطنه عبرة، فمن حل الإشارة حل له استماع العبرة، وإلا فقد أستدعى الفتنة، وتعرض للبلية.) (الكسنزان، محمد عبد الكريم: المصدر السابق، ج11، ص313ـــ 314)

فالسماع بعد كل هذا هو محاولة لاستمالة الروح إلى عالمها التي جاءت عنه الذي عبر عنه تعالى بقوله: **(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)** [التين: 4] وهو عالم النور المطلق أصل الأرواح ومعدن كل جمال، فالسماع غايته أن تتذكر الروح عالمها الأصلي من أجل أن تعود إليه بعد التخلي عن الأغيار والوقوف مع مراتب الوجود المحدودة، فالغاية هو المتجلي وليس التجلي لأن التجلي له أولية وآخرية في حين أن المتجلي له مطلق الأولية وله مطلق الآخرية، وبناء على هذا فإن السماع له غاية، وإن حلاله وحرامه يكمن في الغاية التي يحققها، فإذا كانت غايته الوقوف مع محبوب محدود فإن بلا شك يخرج صاحبه من سمو الغاية أو الهدف، أما إذا كانت غايته الفناء في المحبوب المطلق الذي هو حقيقة كل محبوب وغايته فإنه قد تحقق المطلوب.

فالموسقى والإيقاع سواء كانت مجردة عن الكلمات أو تلك التي تصاحبها الكلمات أو الأغاني أو الأشعار إذا حققت الهدف الثاني وهو الفناء اللحظوي في المطلق، فلا شك أنها حققت الهدف المرجو منها، أما إذا أحالتك إلى الحبيب المحدود أي: حبيب من مراتب الوجود، وليس أصل الوجود؛ فإن في ذلك نظر.

إن الموسيقى المجردة، حتى الأغاني التي تحيل إلى المطلق تحمل في طياتها رموز روحية سرعان ما تثير الوجد لدى المتلقي إذا كانت روحه قد تخلصت من أدران الشرك والغفلة، وتخلت عن تعلقاتها بالأغيار، فإذا تجردت تمام التجرد وعرفت مقصودها، فإنها تهيم بمجرد سماعها بما يذكرها بعالمها الذي أتت عنه.

كما أن للإيقاع في حلقات الذكر دور كبير ومهم في توحد الأرواح في وحدة نورانية قادرة أن تحقق مراد الحق تعالى في الوجود من خلال تطوعها للطاعة التي أشار إليها تعالى في محكم كتابه الكريم: **(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)** [الإسراء: 85] فالأرواح جنود مجندة تعمل بأمر الرب، والإيقاع والذكر وسيلة من وسائل التوحد الذي تجتمع عنده الأرواح في وحدة نورانية قادرة على فعل الأعاجيب، وكل ذلك لا يخرج عن إرادة الحق تعالى وأوامره. فالسماع في مثل هذه الأحوال هو شكل من أشكال العبادة الطوعية (النوافل)، ولذلك عمدت أغلب الطرق الصوفية والعرفانية على صياغة هذه الآداب بقالب يساعد إلى حد ما في عملية الترقي لكل المستعدين إلى أفق الكمال.

ومن العلماء من يرى أن هناك فرق بين الغناء والسماع وهذا ما ذهب إليه علي عقلة عرسان، وأشار إلى أن السماع في الإسلام مباح عند فئة من المجتهدين، ومكروه عند فئة، ويرى أن السماع ارتبط بالصوفية ارتباطا مباشرا وللأمة منهم فيه آراء وأقوال، ويرى ذي النون المصري، السماع وارد حتى يزعج القلوب إلى الله، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق، أما أبو بكر الشبلي فيرى: السماع ظاهره فتنة، وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارة حل له سماع العبرة، وإلا فقد استدعى الفتنة

وتعرض للبلية. ويرى الهجويري: أن السماع وارد من الحق وتزكية لهذا الجسد من الهزل واللهو، ولا يكون طبع المبتدىء قابلا للحديث الحق بأي حال، وبورود ذلك المعنى الرباني يكون للطبع انقلاب وحرقة وقهر، فجماعة تفقد الوعي، وجماعة تهلك، ولا يوجد أحد لا يخرج عن طبعه عن حد الاعتدال في السماع. أما الرازي، سعيد بن عثمان فيرى: أن السماع على ثلاثة أوجه، فوجه منه للمريدين والمبتدئين، يستدعون بذلك الأحوال الشريفة، ويخشى عليهم في ذلك الفتنة والمراءاة. والوجه الثاني: للصديقين يطلبون الزيادة في أحوالهم ويسمعون من ذلك ما يوافق أحوالهم وأوقاتهم، والوجه الثالث: لأهل الاستقامة من العارفين، فهم لا يعترضون ولا يتأبون على الله فيما يرد على قلوبهم في حين السماع من الحركة والسكون أو كما قال.) (باشا، عمر موسى: 1993، ص415 – 416)

وفي مقارنة يجريها عرسان بين الغناء والسماع فيرى: (من الأمور التي لابد من إدراكها، أولا: أن السماع، بالرغم من اتصاله بالغناء، يحتل مكانة خاصة وله مواصفات تجعله يتميز عن الغناء، وينفصل عنه وهذا يملي علينا أن نفرق بين مفهوم كلمة السماع في الجاهلية ومفهومها في صدر الإسلام، ومفهومها عند الصوفية، فإذا كانت في الجاهلية وصدر الإسلام تتصل بالغناء عموما وهو الغناء المصحوب ببعض آلات الموسيقى، والذي يهدف إلى الطرب والترويح عن النفس، فإنها في المفهوم الصوفي تطورت شكلا ومضمونا، وأهدافا وجمهورا أيضا، ولذلك أصبح السماع بالمفهوم الصوفي منفصلا عن الغناء في الحياة العربية. واستطرد بعد ذلك فتحدث عن السماع وانتقاله إلى الحياة العامة، وكثرة مجالس الذكر وجلسات السماع، وبذلك أصبح السماع فنا دنيويا متقنعا بقناع الدين، الأمر الذي دعا كثيرين إلى التنديد بالبدع واعتبار السماع من البدع المنكرة ولابد من الإشارة هنا إلى تطور جديد في السماع، ذلك أنه قد انتقل إلى ضرب من ضروب الرقص التراثي المقرون بالغناء، وهذا الذي اصطلح عليه بالسماح، وهو في اعتقادنا أنه السماع المتجدد.) (باشا، عمر موسى: المصدر السابق، ص416 – 417)

وهنا لابد من الإشارة إلى أن الفرق بين السماع عند الصوفية وسواهم من الناس أن الصوفي يتخذ من الحق تعالى رمز الحبيب ويكون هو المقصود من عملية هيامه وتواجده، فالصوفي لا يشتاق إلا لجهة الحق، ويرى أن الحق هو المتجلي في مرايا آفاق الوجود، فكل شيء في الوجود يذكره بالحق تعالى وهذا قصد يتناغم وينسم مع قوله تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)** [فصلت: 53] كما أن الذي يغني ويقصد بغنائه الحبيب، ويريد بذلك تحقيق حال الوصل معه فإن هذا الغناء لا يختلف من حيث إثارته الوجد في قلب المحب عند العامة والصوفي على حد سواء، فلكل واحد منهما له ليلاه، فالصوفي يرى رمز ليلى، وسعاد، وسلمى وأي أسم كان رمز لمحبوب يذكره بجهة الحق تعالى لا لغيره، وهذا التذكر فيه قدر كبير من المرابطة، أي: تحقيق نوع من الصلة بينه وبين جهة الحق تعالى، فيستنزل الوارد الإلهي من خلال هذه الصلة، ليكون ذلك مدعاة فرح فيكون تواجده أو رقصه أقل تعبير وفاعلية عن هذا الفرح المطلق الذي لا يمكن وصفه إلا ذوقا، فكل غناء يؤدي به إلى هذا التسامي من تحقيق الصلة بينه وبين الحق تعالى يطربه فما الحرام في ذلك والحق تعالى يقول: **(قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)** [يونس: 58] فشتان ما بين فرح وفرح آخر يقول فيه تعالى: **(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)** [القصص: 76] إذ أن الحق لا يحب من يكون فرحه يؤدي به إلى الهلاك والضلالة، أما إذا كان فرحه بالله تعالى وبما يرد منه تعالى فما هي المشكلة في ذلك، فالغناء حال له حدين حد يقود المتلقي إلى ذكر محبوب محدود فان، وذكر يؤدي بالمتلقي إلى الحضور مع حبيب، واحد، أزلي، دائم، باقي، كريم، لا وجود لغيره على سبيل التحقيق.

أما الغناء الذي تصحبه كلمات بذيئة خالية من اللياقة والأدب والكلمات النابية فهو قطعا حرام لأنه يفسد الذوق ويقود إلى إثارة شهوات دنيوية محدودة وزائلة، وكل فن من الفنون عليه تقع ثنائية الحلال والحرام إذا ما نظرنا إليه من كونه أحد الوسائل المهمة التي قد تساهم في عملية الترقي

والوصول، أو بعكسه، فالمرء في سير مستمر على عدد الأنفاس، أما صعودا أو هبوطا، وليس هناك غير جهة الحق في نهاية المطاف، فأما أن يسير إليها المرء بنفسه فيختصر الطريق إلى الحقيقة وإما أن تتولاه الرعاية الإلهية عن طريق الجلال ليصعد عن طريق العذاب والإرهاق كما جاء في قوله تعالى: **(سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً)** [المدثر: 17] إذ أن الضال طريق الحق لا يترك سدى في الآخرة بل يصعد في المقامات، ولكن من خلال قاهرية الجلال، ولذلك وصفه تعالى بهذا الوصف، أي: يصعد، ويترقى، ولكن من خلال التعب، والإرهاق وهذا الوصف هو من مستلزمات الرحمة كذلك ففي الرحمة وجه من أوجه الجلال من كونها وسعت كل شيء، والنار ودركاتها أشياء، والرحمة سوف تسعها، فتكون قاهرية الجلال التي عبر عنها تعالى بالصعود الذي يرافقه الإرهاق، فيكون الكل سيره إلى جهة الحق منهم من يتطوع لذلك، ومنهم من يساق بالقوة كما تقتضيه الرحمة، فالرحمن جعل الطريق إليه من خلال النور، والشيطان جعل للذين يتولونه يسيرون في طريق الظلام، وللإنسان أن يختار أحد الطريقين؛ فمن أراد الحق تعالى، عليه أن يحسن القصد في توجهه، قال تعالى: **(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)** [لقمان: 19] أي: أجعل لمشيك قصد، ولا تجعل مشيك بلا هدف تماما مثل بهيمة الأنعام، لأن للقصد أجور تقاس على حجم وقدر الذرة كما أن للسير في القصد يقلل طريق السفر إلى الله ويختصر الزمن، ويؤدي بالراغب إلى الله تعالى باللقاء ويؤدي به إلى المشاهدة بأسرع من غيره، جاء في قوله تعالى: **(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)** [الزلزلة:7 – 8]، فالقصد، والنية هي التي تحدد حقيقة الميزان الذي يزن سعي القصد في المشي، وأعلم بأن الله ليس بظلام للعبيد حاشى لله من هذا الوصف وهو الموصوف بالكرم، والرحمة لعباده.

أما من أراد طريق الضلالة فإن الرحمة ومقتضياتها ستشمله في الآخرة ولكن بعد أن يكابد الضال من مرارة قاهرية الجلال إلى أن يصل إلى المنتهى ولكن بعد جهد جهيد.

في مجال السماع يقول تعالى:

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) [الزمر: 18]

وقوله تعالى:

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) [الأحقاف: 29]

وقوله تعالى:

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [الأنعام: 36]

وقوله تعالى:

(وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) [النحل: 65]

وقوله تعالى:

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً) [مريم: 62]

في الآية الأولى يخاطبنا تعالى بقوله: **(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ)** [الزمر: 18] ففي قوله تعالى: **(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)** يحيلنا تعالى إلى تبني القول الأحسن، ومعلوم أن القول الأحسن هو قول الحق تعالى، سواء كان هذا القول هو من جملة الخطاب الإلهي الذي تضمنه كتابه العزيز أو من جملة خطابه الظاهر من خلال لسان أوليائه بأمارة **(كنت لسانه الذي ينطق به)** إن هذه الإحالة لم تخرج الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه من دائرة الخطاب الإلهي، ذلك لأن القول الحسن الجميل لا يصدر إلا عن جميل، والله جميل يحب الجمال، فلا يجعل وسيلة خطابه تناقض محبته المتوجهة للجمال، لأنه جميل يحب الجمال، وليس هناك أجمل من لسان أوليائه الذين اصطنعهم لنفسه كما جاء في قوله تعالى: **(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)** [طه: 41] فالدعوة هنا

لاتباع القول الأحسن انطلقت منه تعالى لتعود إليه، وكأنما أراد تعالى أن تكون نهايتنا في الاتباع هي عين بدايتنا المتمثلة في الفطرة، فالفطرة جمال والعودة إليها جمال، وخير من نسمع ونأخذ عنه هو الولي (الشيخ الكامل) لأنه خير تجلي للجمال المطلق.

قوله تعالى: **(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)** أي: الذين سبقت العناية بهم من قبل، وهم الذين أشار إليهم تعالى بقوله: **(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ)** [الأنبياء:101ــ 102]، وهم أيضا المشار إليهم بقوله تعالى: **(مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)** [الفتح: 29] فإن هؤلاء قد امتدت لهم يد العناية ليكونوا رحمة للعالمين، من خلال هدايتهم للناس بإزالة حجب الجهل عنهم وتزكيتهم من خلال المعارف اليقينية التي تأتي نتيجة السلوك في طريق الهداية، وهم أهل الاختصاص الذين قال تعالى فيهم: **(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)** [آل عمران: 74]، فإن من صفاتهم الاستجابة لنداء الحق تعالى أسرع من غيرهم لأنهم سريعي التذكر، والخشية، والاستجابة، كما جاء في قوله تعالى: **(سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى)** [الأعلى: 10] فهم أحق بالهداية لأنهم سيعملون في اختصاص الهداية، فهداية الحق تعالى لهم هو عنوان مهم لهداية الكثير ممن يستحقون الهداية، فهم الزمر الخيرة التي ترافق الأنبياء، والأولياء، وتسهل من مهمة الإرشاد وهداية الخلق إلى الحق، ولذلك فإن قلوبهم تتصف برهافة البصيرة والحس، والدليل على ذلك سرعة استجابتهم لنداء الحق تعالى بحسب ما جاء في قوله تعالى: **(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)** فهم يجيدون حسن الاستماع مع سرعة الاستجابة للقول الحسن الذي يؤدي إلى مرضاة الحق تعالى، أو

يقودهم إلى الهداية، ولذلك فإن الحق تعالى يقابلهم بالهداية ثوابا لهم على هذه الخصائص التي اجتمعت بهم، وهي خصائص انبثقت من صفاء الفطرة التي فطرهم عليها الحق تعالى.

قوله تعالى: (**وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ**) أي: الذين تنورت عقولهم، وعادت فطرتهم على ما كانت عليه من صفاء الاستعداد، أي تلك النفخة التي صدرت توا من روح الله تعالى كما جاء في قوله تعالى: (**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**) [الحجر: 29] فالنفخة هنا صافية نقية لم يمازجها دنس التعلق بالأغيار أو الميل لجهة غير جهة الحق تعالى، ومن أجل ذلك استحقت السجود لأنها تشكل امتداد نور الحق تعالى، فهي متصلة بالحق تعالى غير منفصلة منه تعالى وهي عين الفطرة التي فطر الحق تعالى الناس عليها كما جاء في قوله تعالى: (**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**) [الروم: 30]، فالفطرة باقية كما أراد لها تعالى لا تبديل لها غير أن التبديل يحصل من جهة الإنسان من خلال ميله لجهة غير جهة الحق.

ويذهب ابن عربي تأويله وهو يحيل المتلقي إلى مجمل الشريعة والطريقة من أجل الوصول إلى الحقيقة فيرى في قوله تعالى: (**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ**) كالعزائم والرخص والواجب والمندوب في قول الحق والغير(**فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**) كالعزائم دون الرخص والواجب دون المندوب والقول حق في الكل لا غير(**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ**) إليه بنور الهداية الأصلية (**وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ**) المميزون بين الأقوال بألبابهم المجردة فيتلقون المعاني المحققة دون غيرها. (ابن عربي: المصدر السابق، ج2، ص200)

وفي الفتوحات يرى ابن عربي في تأويل آخر للآية، وإن كان تأويله لا يبتعد كثيرا عن تأويله السابق أو لنقل أنه يجري بالسياق نفسه: (**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ**) (أي: بين لهم الحسن من ذلك من القبيح (**وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ**) أي: عقلوا ما أردنا وهو من لب الشيء المصون بالقشر، ومن لم ير وجوب ذلك عليه إن شاء

غسل، وإن شاء ترك، كمن يسمع ممن لا يقدر على رد الكلام في وجهه من ذي سلطان يخاف من تعديه عليه، فإن قدر على القيام من مجلسه انصرف فذلك غسله إن شاء، وإن ترجح عنده جلس ولم يبرح، وهذا عند من لا يرى وجوب ذلك عليه.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد1، ص، 511)

في حين يرى السلمي في تأويله (أن عيسى عليه السلام قال: من يذكركم الله رؤيته ويرغبكم في الآخرة عمله. وقد قال الله تعالى: (**فبشر عبادي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**) فضيلة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم على غيره أن الأحسن ما يأتي به وأن الكل حسنا ولما وقعت له صحبة التمكين ومقارنة الاستقرار قبل خلق الكون ظهرت عليه الأنوار في الأحوال كان معه أحسن الخطاب وله السبق في جميع المقامات ألا تراه صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: (**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**) يعني الآخرين وجودا السابقين في الخطاب الأول في الفضل في محل القدس.) (السلمي: المصدر السابق، مجلد 2، ص195)

ويرى ابن عجيبة الحسني إن الإشارة في هذه الآية تنطلق لتشمل مذاهب الصوفية، وتحرضهم باتجاه الأخذ بالعزائم، والأرجح من كل شيء عقدا، وقولا، وعملا، فأخذوا من العقائد مقام العيان، ولم يقتنعوا بالدليل والبرهان، وأخذوا من الأقوال ألينها وأطيبها، ويجمع ذلك: حسن الخلق مع كل مخلوق، فآثروا العفو على القصاص، والصفح على العتاب، وغير ذلك من عزائم الشريعة على رخصها، ومن الأذكار: أرجحها وأجمعها، وهو الاسم المفرد، الذي هو سلطان الأسماء، ومن الأعمال: أعظمها وأرجحها، وهو عمل القلوب، الذي هو الذرة منه تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح، كعبادة الفكرة والنظرة، وفي الحديث (**تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة**) فأوقاتهم كلها ليلة القدر، وكالتخلق بمكارم الأخلاق، كالرضا، والتسليم، والحلم، والسخاء، والكرم، وغير ذلك من محاسن الخلل، الذي هو من عمل القلوب، فهم الذين تحققت فيهم البشارة بقوله: (**فَبَشِّرْ عِبَادِ*الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**).(الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد6، ص350)

وفي الفتوحات يرى ابن عربي أن السمع يجري منه وبه تعالى إذا ما نظرنا إلى حقيقة المتجلي إذ أن الحق تعالى هو المتجلي في الوجود جملة وتفصيلا فالوجود جميعه يسمع به وفي قوله تعالى: **(سَمِيعٌ عَلِيمٌ)** [النور: 21] وقوله تعالى: **(سَمِيعٌ بَصِيرٌ)** [الحج: 61] قدم تعالى السمع على العلم والبصر وهذا يعني (أن أول شيء علمناه من الحق وتعلق به منا القول منه والسماع منا فكان عنه الوجود، وكذلك نقول في هذا الطريق: كل سماع لا يكون عنه وجد وعن ذلك الوجد وجود فليس بسماع، فهذه رتبة السماع التي يرجع إليها أهل الله ويسمعون، فقوله تعالى: **(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)** [النحل: 40]هو الذي يراه أهل السماع في قول القائل وتهيؤ السامع المقول له **(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)** [النحل: 40] للتكوين بمنزلة الوجد في السماع، ثم وجوده في عينه عن قوله: **(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)** كما قال تعالى: **(كُن فَيَكُونُ)** بمنزلة الوجود الذي يجده أهل السماع في قلوبهم من العلم بالله الذي أعطاهم السماع في حال الوجد. فمن لم يسمع سماع وجود فما سمع، ولهذا جعل القوم الوجود بعد الوجد، ولما لم يصح الوجود أعني وجود العالم إلا بالقول من الله والسماع من العالم لم يظهر وجود طرق السعادة. وعلم الفرق بينها وبين طرق الشقاء إلا بالقول الإلهي والسماع الكوني، فجاءت الرسل بالقول جميعهم من قرآن، وتوراة، وإنجيل، وزبور، وصحف فما ثم إلا قول وسماع غير هذين لم يكن.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد3، ص549)

ويضيف ابن عربي في فتوحاته: فلولا القول ما علم مراد المريد منا ما يريده منا، ولولا السمع ما وصلنا إلى تحصيل ما قيل لنا، فبالقول نتصرف، وعن القول نتصرف مع السماع، فهما مرتبطان لا يصح استقلال واحد منهما دون الآخر وهما نسبتان، فبالقول والسماع نعلم ما في نفس الحق إذ لا علم لنا إلا بإعلامه وإعلامه بقوله، ولا يشترط في القول الآلة ولا في السماع، بل قد يكون بآلة وبغير آلة، وأعني بآلة القول اللسان وآلة السماع الأذن، فإذا علمت مرتبة السماع في الوجود وتميزه عن غيره من النسب فاعلم أن

السماع عند أهل الله مطلق ومقيد، فالمطلق هو الذي عليه أهل الله ولكن يحتاجون فيه إلى علم عظيم بالموازين حتى يفرقوا بين قول الامتثال وبين قول الابتلاء وليس يدرك ذلك كل أحد، ومن أرسله من غير ميزان ضل وأضل، والمقيد هو السماع المقيد بالنغمات المستحسنات التي يتحرك لها الطبع بحسب قبوله، وهو الذي يريدونه غالبا بالسماع لا السماع المطلق، فالسماع على هذا الحد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: سماع إلهي، وسماع روحاني، وسماع طبيعي، فالسماع الإلهي بالأسرار وهو السماع من كل شيء، وفي كل شيء، وبكل شيء، والوجود عندهم كله كلمات الله وكلماته لا تنفد، ولهم في مقابلة هذه الكلمات أسماع لا تنفد تحدث لهم هذه الأسماع في سرائرهم بحدوث الكلمات، أما السماع الروحاني فمتعلقه صريف الأقلام الإلهية في لوح الوجود المحفوظ من التغيير والتبديل.) (ابن عربي: نفسه، ص549)

وفي ترك السماع يرى ابن عربي: (السماع المطلق لا يمكن تركه، والذي يتركه الأكابر إنما هو السماع المقيد المتعارف وهو الغناء ن قيل لسيدنا أبي السعود بن الشبلي البغدادي: ما تقول في السماع ؟ فقال: هو على المبتدىء حرام والمنتهي لا يحتاج إليه، فقيل له: فلمن ؟ فقال: لقوم متوسطين أصحاب قلوب، فهو وإن كان مباحا فالتنزيه عنه عند الأكابر أولى. وأما عندنا فيه فإن الرجل المتمكن من نفسه لا يستدعيه وإذا حضر لا يخرج بسببه وهو عندنا مباح على الإطلاق لأنه لم يثبت في تحريمه شيء عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن كان الرجل ممن لا يجد قلبه مع ربه إلا فيه فواجب عليه تركه أصلا فإنه مكر إلهي خفي.) (نفسه: ص552)

وللمدائح النبوية، والصوفية لها حضور مهم في عملية السماع، فهي تحفز المريد المستعد إلى الميل لجهة الحق تعالى عبر وسائله، وتجدد الشوق، وتثير الوجد باتجاه اختصار طريق السفر إلى الحقيقة من خلال قطع المقامات نتيجة توجهاتهم الصادقة، لا سيما، وإن هناك حكمة تفيد بأن (الطريق لمن صدق، وليس لمن سبق) فالصدق في التوجه، والعزم الأكيد هما براق الوصول إلى الحقيقة المطلقة، فالمدائح الصوفية تعمل على

تحريض المسافر إلى لقاء سريع مع جهة النور، فيلجأ المريد إلى توظيف كل السبل التي تختصر الزمان من أجل الوصول، كالرياضة، والخلوات، وأنواع المجاهدات، والعبادات، ونوافلها، وأنواع الطاعات دون ملل أو كلل حتى يصل الطالب إلى مطلوبه.

إن الطبلة، والإيقاع مع الذكر توحد القلوب باتجاه غاية محددة، وتؤدي بكيان الفرد روحا وجسدا إلى المشاركة الكلية في عملية الذكر لتعم الفائدة، وتشمل كيان الذاكر برمته، فيندمج الظاهر والباطن في هذه المشاركة الكيانية فتحصل البركة وتعم جميع كيان المريد، مما يساعد هذا الحال في عملية الوصول إلى الذوبان والتماهي في النور الإلهي؛ فتتحقق الوحدة المنشودة من جراء ذلك بعد أن يتماهى المريد في أصله، وموطنه الأصلي المعبر عنه (بأحسن تقويم) أي: ارتقاء الروح إلى مستواها الأول، مستوى الفطرة الأصلية أي: النور الذي هو أصل الوجود..

أما الآية الثانية التي قال فيها تعالى: **(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ)** [الأحقاف: 29] في قوله تعالى: **(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ)** فإن الفعل **(صرف)** يعود لله تعالى باعتباره هو الفاعل على سبيل الحقيقة، فحضور الجن وحسن استماعهم جرى بالله تعالى، ولهم أن يختاروا ما بين الإيمان، والاستجابة لما يستمعون، أو الرفض وعدم الاستجابة لذلك؛ فهم مخيرون فيما يختاروا، ومن جهة أخرى فهم مجبولين على الحضور والاستماع، قال تعالى في مثل هذا الموقف: **(وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ)** [الأنفال: 23] أسمعهم ليكون السمع حجة عليهم فإذا استجابوا لما يسمعون فنور على نور أما إذا لم يستجيبوا فهم الموصفين بقوله تعالى: **(وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ)**.

قوله تعالى: **(نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ)** حدد تعالى هوية الذين صرفهم إليه وهم مخلوقات من جنس الجن، ليخبرنا تعالى أن عملية السماع وأهميتها هي ليست لبني الإنسان حصرا بل هي كذلك مفيدة لكائنات وخلق آخرين من بينهم الجن.

ويمكن حمل الآية على تأويل آخر يختص بالإنسان بوصفه جامع لجميع مراتب الوجود الكونية، وذلك لأن له مماثلة للكون باعتباره مختصر شريف وجامع لكل مراتب الوجود الكونية، وهذا يعني أن مرتبة الجن لها مماثلة داخل الإنسان، وإن هذه المرتبة تنشط داخل الإنسان إذا تهيأ لها سبل النشاط، وذلك إذا غلب طبع على طبع ومزاج على مزاج، والطبع والمزاج نشاطهما يتوقف على طبيعة المأكل، والمشرب، والإسراف فيهما، وعلى سبيل المثال أن الإكثار من المأكولات التي تشتق من الحيوانات كالحليب أو اللبن، واللحوم الحمراء، والبيض، واللحوم البيضاء، والدهون، وغيرها فإنها تعمل على تنشيط الطبع الحيواني داخل الإنسان، فيميل الإنسان إلى الشهوات الحيوانية والطباع الحيوانية كالجنس، والغضب، والشره، والحسد، والبغض، والحقد وغيرها من الميول التي فيها إسراف، وانجراف،وخروج عن خط الوسط، أو خط الاعتدال، فيكون بذلك قد ساهم المرء في طغيان كفة الميزان على حساب الكفة الأخرى وخرج عن حد الاعتدال والعدالة التي أوكلت إليه، قال تعالى: (**وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**) [الأنعام: 152] وقوله تعالى: (**وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**) [هود: 85] وقوله تعالى: (**أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ**) [الرحمن: 8] والطغيان في الميزان هو تغليب مزاج معين على مزاج آخر، وإن عملية التغليب هذه، يدخل المأكل والمشرب فيها كركن مهم ومؤثر، ومن أجل هذا لجأ كبار المشايخ من الصوفية إلى توجيه مريديهم للتوجه إلى الرياضات، والخلوات، وأنواع المجاهدات، وإلى اللجوء إلى الأطعمة النباتية من أجل الحد من فاعلية الأمزجة الحيوانية أو طغيانها. وكذلك من أجل الحد من طغيان الصفة المارجية داخل الإنسان، فإذا نجح المريد في تحقيق العدالة داخل ذاته وسيطر على الأمزجة التي تدفعه بقوة تجاه الميل به إلى جهة الأغيار؛ فإن جن نفسه سيحسن الاستماع، ولم يشوش على المرء بأنواع من الخيالات، والأوهام الفاسدة، فتعم الفائدة للإنسان ككل ليترقى من خلال المعارف.

ويأتي السماع بأهمية من كونه يسهم إلى حد ما في تنظيم المزاج ووضعه في طريق الحق تعالى فتذعن لذلك كل أصوات الأمزجة داخل المريد، قال تعالى: **(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً)** [طه: 108] والداعي هنا هي الروح، أي: تلك الرقيقة النورانية الممتدة من النور الأصلي **(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي)** [الحجر: 29] فهي داعية إليه به أي: بإذنه لأنها منه وإليه لتسمع منه، فالإيقاع مع الذكر يذعن له كل صوت، أما إذا كانت الموسيقى أو الإيقاع قد تجردت عن ذكر الحق تعالى، فإنه يجعل للروح سيادة وسلطة بحيث يذعن لها كل صوت ويتوحد بها كل توجه وينقاد إلى حيث تتوجه، فإذا كان التوجه لحبيب غير الله تعالى احتجبت الروح بذلك الشيء الذي انقادت إليه وبقيت معه، ومن أجل التخلص والتجرد من الوقوف مع الأغيار لجأ الصوفية إلى الذكر الذي تتخلله أشعار تذكر المتلقي بالله تعالى وخاصته وأحبابه.

فالموسيقى توحد الأمزجة نحو موضوع معين، إما أن يكون الموضوع مطلق وهذا أشرف توجه، وأما أن يكون الموضوع محدود وضيق الأفق، وهذا الذي وقف ضده الشرع وحرمه، لأنه يبقي المتلقي مع المحدود النسبي على حساب المطلق الكلي.

فالسماع مهم بقدر تحريكه للمزاج، وجمعه للهمة باتجاه ذكر الله وصولا إلى مرتبة الفناء في الله تعالى، أو تقع أهميته من كونه يستجلب الواردات الملكية أو الربانية التي ترقي العبد وصولا إلى مرتبة الذوبان في الروح المطلق.

يقول الطوسي، أبي نصر في كتاب اللمع: قال تعالى: **(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)** [فاطر: 1] (قالوا في التفسير: الخُلقُ الطيب، والصوت الحسن. وروي في الحديث عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: **(ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت)** وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: **(الله أشد أذانا بالرجل حسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة بقينته)** وفي الحديث: أن داود عليه السلام قد أعطي من حسن الصوت حتى كان يستمع لقراءته إذا

قرأ الزبور الجن، والإنس، والوحش والطير، وكان بنوا إسرائيل يجتمعون فيستمعون، وكان يحمل من مجلسه أربعمائة جنازة ممن قد مات كما روي في الحديث، وفي الحديث: **(زينوا القرآن بأصواتكم)**، ويرى الطوسي أن هذا الحديث يحتمل معنيين، والله أعلم؛ أحدهما: أنه أراد بذلك، أن يزين قراءته للقرآن، وهو رفع صوته بقراءة القران، فيحسن الصوت عند قراءته، ويطيب النغمة؛ لأن القرآن كلام الله غير مخلوق فلا يزين ذلك بصوت مخلوق ونغمة مكتسبة، والمعنى الآخر: يحتمل أنه أراد بذلك أي زينوا أصواتكم بالقرآن، فيكون مقدما ومؤخرا في المعنى، كقوله: **(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا)** [الكهف: 1] معناه مقدم ومؤخر على معنى: أنزل الكتاب على عبده قيما ولم يجعل له عوجا، ومثل ذلك في القرآن كثير، وقد ذم تعالى الأصوات المنكرة محمدة للأصوات الطيبة. (الطوسي، أبي نصر: المصدر السابق، ص275ـــ 276)

قوله تعالى: **(يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ)** أي: يستمعون ما يحيل إليه القرآن، لأن الغاية من سماع الكلام إدراك بعض حقائق عن المتكلم، فالكلام وسيلة مهمة من أجل الميل أو التعلق بالمتكلم، والسماع من الوسائل التي تحقق هذا الغرض، وإن من سمات القرآن أنه يذكر الأرواح بعالمها الذي صدرت عنه، أي يذكر بالموطن الأصلي لجوهر الكائن المستمع، ومن أجل هذا وردت في القرآن الكثير من الآيات التي تتناول عملية التذكر منها قوله تعالى: **(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)** [القمر: 17] أي: يذكر الأرواح التي لا زالت فيها بقية من الفطرة السليمة، فالسماع هنا يفيد الروح في عملية التذكر عسى أن تعود وتتعلق بعالمها الأصلي بعد إذ نسيت ذلك العالم بسبب تعلقها بالأغيار، واحتجبت بها.

فالقرآن، والرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، والأولياء، والمشايخ الكاملين، مهمتهم تذكير العبد بعالم الجمال المطلق الذي هو أبهى، وأبقى، وأسعد من عالم الدنيا المحدود، ولذلك جاء في الخطاب الإلهي: **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ**

فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) [إبراهيم: 5]؛ فهذه هي مهمة الرسل عليهم السلام التذكير بأيام الله، من أجل الخروج بالناس من ظلمة الاحتجاب، والبقاء مع الميول للجهة السفلى، والرقي بها إلى مستواها الأول الذي كانت عليه وهو مستوى جهة النور.

قوله تعالى: **(فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا)** أي: أحسنوا عملية السماع، من أجل عدم الانشغال بصوت جانبية تشوش عليهم حال المرابطة مع القول الكريم، وهذا الحال (الإنصات) هو عامل مهم من آداب الصوفية، لأنهم بذلك يحاولون تحقيق أقصى فائدة ممكنة من عملية الذكر، فالذاكر يرابط مع المذكور ولا ينشغل بغيره حتى يصل إلى القيام بالمذكور، بعد أن تخلص من أوصاف البشرية، وتحقق بأوصاف الربوبية، ويتفنن الصوفية في عملية المرابطة فمنهم من يغمض عينيه ويرفع صوته بالذكر من أجل أن يمنع حواسه التشتت والميل لجهة غير جهة المذكور وصولا إلى تحقيق الفائدة المرجوة من هذا الذكر.

قوله تعالى: **(فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ)** دليل على حسن الاستماع والإصغاء، لأنهم قد أخذوا حقيقة الكلام مأخذ الجد، وعرفوا المقصود من ذلك،بدليل قولهم: **(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً* يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً)** [الجن:1ــ 2] أي: نتيجة حسن الاستماع توصوا بمساعدة الحق تعالى لهم، إلى أن قول الحق يدعوا إلى الرشد، أي: إلى الهداية للطريق المستقيم الذي يوصل السالك إلى الحقيقة المطلقة، ومعلوم أن البحث عن الحقيقة هو من المطالب المهمة لكل ذي لب، فمن كان ضالته المنشودة هي الحقيقة المطلقة فإنه سرعان ما يتبنى كل دعوة سليمة تؤدي به إلى تحقيق هذا الهدف، والجن حين سمعوا قول الحق تعالى اطمأنت له قلوبهم وتيقنوا أن الذي سمعوه لم يكن من جنس المسموعات الأخرى، فسارعوا إلى أقوامهم ليبشروهم بطريق الخلاص، وهذا حال كل من يحسن الاستماع، وغايته من ذلك الوصول إلى الحقيقة، من هنا يتضح أن للاستماع أهمية كبيرة ليس فقط للقرآن وإنما لكل حكمة تحقق الهدف السامي.

في تأويل الآية يرى ابن عربي في فتوحاته: أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين كان يقرأ عليهم القرآن من الإنس وكذا قال لأصحابه، وذلك لأنهم إلى هذه الحضرة أقرب نسبة وإلى عالم الغيب فإن لهم التحول في الصور ظاهرا وباطنا، فكان استماعهم لكلام الله أوثق، وأحسن للمشاركة في سرعة التنوع والتقلب من حال إلى حال وهو من صفات الكلام، فهم بالصفة إليه أقرب مناسبة وأعلم بكلام الله منا، ألا تراهم لما منعوا السمع وحيل بينهم وبين السماء بالرجوم قالوا: ما هذا إلا لأمر حدث، فأمر زوبعة أصحابه وغيره أن يجولوا مشارق الأرض ومغاربها لينظروا ما هذا الأمر الذي حدث وأحدث منعهم من الوصول إلى السماء، فلما وصل أصحاب زوبعة إلى تهامة مروا بنخلة فوجدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصلي صلاة الفجر وهو يقرأ فلما سمعوا القرآن أصغوا إليه وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فلولا معرفتهم برتبة القرآن وعظم قدره ما تفطنوا لذلك **(وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ*قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ *يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)** [الأحقاف:29ـــ 31]، وكذلك لما قرأ عليهم سورة الرحمن ليلة الجن ما مر بآية يقول فيها: **(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)** [الرحمن: 13] إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، ولما تلاها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ذلك على أصحابه من الإنس لم يقولوا شيئا مما قالته الجن، فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إني تلوتها على إخوانكم من الجن فكانوا أحسن استماعا لها منكم)**. (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد5، ص 70ـــ71)

وفي تأويل آخر يرى فيه ابن عربي: **(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ)** (الجن نفوس أرضية تجسدت في أبدان لطيفة مركبة من لطائف العناصر سماها حكماء الفرس الصور المعلقة، ولكونها أرضية متجسدة في أبدان عنصرية ومشاركتها الإنس في ذلك سميا ثقلين، وكما أمكن الناس التهدي

بالقرآن أمكنهم. وحكايتهم من المحققين وغيرهم أكثر من أن يمكن رد الجميع وأوضح من أن يقبل التأويل وإن شئت التطبيق فاسمع. وإذ صرفنا إليك نفر من جن القوى الروحانية من العقل والفكر والمتخيلة والوهم حال القراءة في الصلاة، أي: أملناهم نحوك واتبعناهم سرك بالإقبال بهم إليك وصرفهم عن جانب النفس والطبيعة بتطويقهم إياك وتسخيرهم لك حتى يجتمع همك ولا يتوزع قلبك ولا يتشوش بالك بحركاتهم في وقت حضورك عند طلوع فجر نور القدس (**يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ**) الوارد إليك من العالم القدسي(**فَلَمَّا حَضَرُوهُ**) أي: حضروا العقل القرآني الجامع للكمالات عند ظهور النور الفرقاني عليك (**قَالُوا أَنصِتُوا**) أي: سكنوا وسكت بعضهم بعضا عن كلامهم الخاص بهم مثل الأحاديث النفسانية والتصورات والهواجس والوساوس والخواطر والحركات الفكرية والانتقالات التخيلية، والقول هاهنا حالي كما ذكر غير مرة إذ لو لم يسكنوا وينصتوا مستمعين لما يفيض عليهم الواردات القدسية لم يبق من الوارد أثر، بل لم يكن بتلقي الغيب ولا ورود المعنى القدسي ولا تلاوة الكلام الإلهي كما ينبغي، ولأمر ما كان مبدأ الوحي منامات صادقة وذلك كون هذه القوى ساكنة متعطلة عند النوم حتى قوي على عزلها عن اشتغالها وتعطيلها في اليقظة (**فَلَمَّا قُضِيَ**) أي: الوارد المعنوي والنازل القدسي الكشفي(**وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ**) القوى النفسانية والطبيعية ينذرونهم عقاب الطغيان والعدوان على القلب بالتأثير فيهم بالملكات الفاضلة وإفاضات الهيئات النورية المستفادة من المعنى القدسي النازل، ويمنعونهم الاستيلاء على القلب بالتسخير والارتياض.) (ابن عربي: المصدر السابق، ج2، ص261-262)

ويرى ابن عجيبة إن الإشارة في هذه الآية مفادها: أن الجن قد استعملت الأدب بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم حيث قالوا: أنصتوا، فالجلوس مع الأكابر يحتاج على أدب كبير، كالصمت، والوقار، والهيبة، والخضوع، كما كانت حالة الصحابة رضي الله عنهم مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم إذا تكلم أنصتوا كأنما على رؤوسهم الطير، قال الشيخ أبو الحسن: إذا جالست

الكبراء فدع ما تعرف إلى ما لا تعرف، لتفوز بالسر المكنون) فإذا انقضى مجلس التذكير رجع كل واحد منذرا وداعيا إلى الله كل من لقيه، وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول لأصحابه: (ليبلغ الشاهد الغائب) فمن بلغه ذلك واستجاب ربح وغنم، ومن لا يجب داعي الله خاب وخسر، والاستجابة أقسام، قال القشيري: فمستجيب بنفسه، ومستجيب بقلبه، ومستجيب بروحه، ومستجيب بسره، ومن توقف عند دعاء الداعي إليه، ولم يبادر إلى الاستجابة هجر فيما كان يخاطب به. (الحسني، ابن عجيبة، مجلد7، ص101)

ويرى الفقير: (يؤيده ما ثبت أن في الجن مذاهب مختلفة كالإنس، وإن بينهم حروبا وقتالا، ولكن يشكل قولهم: إبليس أبو الجن، فإنه يقتضي أن لا يكون بينهم وبين الشياطين فرق إلا بالإيمان والكفر فاعرف، وفي الآية إشارة إلى أن من شانهم فضول الكلام واللغط كالإنس، ورمز إلى الحرص المقبول، قال بعض العارفين: هيبة الخطاب وحشمة المشاهدة حبست ألسنتهم، فإنه ليس في مقام الحضرة إلا الخمول والذبول.) (البروسوي، إسماعيل حقي: المصدر السابق، مجلد8، ص543)

أما الآية الثالثة التي يقول فيها تعالى: (**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**) [الأنعام: 36] يقارن تعالى في هذه الآية بين الذين يسمعون ويستجيبون لنداء الحق على أي لسان كان، وبين من لم يسمع نداء الحق أو لا يعطيه اهتماما، ووصف الأخير بالميت، الذي لا علاج له إلا صوت الصور الذي يسمع كل شيء كما جاء في قوله تعالى: (**وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ**) [النمل: 87].

فالمستجيب لله تعالى هو الأكثر، والأسرع سمعا، واستجابة لنداء الحق تعالى، وهنا تأكيد على أهمية السمع في عملية الإيمان فإن له دور كبير في عملية المعرفة أو البحث عن الحقيقة، وإن عملية السمع تقع هي والبصر في خط واحد من حيث الأهمية ومن ثم يأتي التأمل القلبي ثالثا، ومن فقد هذه الخواص الثلاثة أو لم يستعملها بشكل صحيح يعد من الغافلين، والغافل ينزل

عن درجة ومستوى الإنسانية إلى درجة بهائم الأنعام، قال تعالى: **(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)** [الأعراف: 179] وفي آية أخرى يقول تعالى: **(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)** [الفرقان: 44] ولم يكن نزولهم عن المستوى الحيواني كذلك من أجل المبالغة، بل أن هذا الوصف يقع عليهم من باب أن الأنعام لها إخلاص فيما كلفت به من صلاة وعلم التسبيح كما جاء في قوله تعالى: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)** [النور: 41] والإنسان الذي فقد أفضل حواسه ولم يستخدمها الاستخدام الأمثل يستحق هذا الوصف لأنه فعلا أقل شأنا من الحيوان، ومثله بذلك مثل الذي يكرم ولا يدرك أي معنى لهذا التكريم، ولا يقابله بأبسط أنواع الشكر، حقا إن الله تعالى قال: **(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)** [الإسراء: 70] غير أن الإنسان كيف قابل هذا التكريم، بسمع يتجاهل نداء الحق ؟، أم ببصر يتجاهل آيات الله ؟، أم بقلي قد شغله حب الأغيار؟.

يرى ابن عربي في تأويل الآية: (إن المشيئة الإلهية اقتضت هداية بعض وحرمان بعض لحكمة ترتب النظام وظهور الكمالات الظاهرة والباطنة، فلا يستجيب إلا من فتح الله سمع قلبه بالهداية الأصلية ووهب له الحياة الحقيقية بصفات الاستعداد ونور الفطرة، لا موتى الجهل الذين ماتت غريزتهم بالجهل المركب أو بالحجب الجبلية، أو لم يكن لهم استعداد بحسب الفطرة فإنهم لا يمكنهم السماع، بل: (يبعثهم الله) بالإعادة في النشأة الثانية **(ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)** في عين الجمع المطلق للجزاء أو المكافأة مع احتجابهم، وقد يمكن رفع الحجب في الآخرة للفريق الثاني دون الباقين **(ولكن أكثرهم لا يعلمون)** نزول الآيات، فإن ظهور كل صفة من صفاته على كل مظهر من مظاهر الأكوان

آية له يعرفه بها أهل العلم.) (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص 197ــ 198)

ويرى ابن عربي في تأويل آخر للآية يتناول فيه موضوع السماع ومجرياته من زاوية الحقيقة: قال تعالى: **(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)** [الإسراء: 15] وما هو رسول لمن أرسل إليه حتى يؤدي رسالته فإذا سمع المرسل إليه أجاب ولا بد كما أخبر الله تعالى عنه لما جاء به هذا الرسول في رسالته، فإذا رأينا من لم يجب علمنا بإخبار الله أنه ما سمع فأقام الله له حجة يحتج بها يوم يجمع الله الرسل فيقول: ماذا أجبتم ؟ فتقول الرسل عليهم السلام: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب، فعلمنا من قولهم أن العلم بالإجابة من علوم الغيب، فعلمنا أن السماع غيب، فلا يعلم من أجاب إلا من هويته غيب وليس إلا الله وما أقام الله العذر عن عباده إلا وفي نفسه أن يرحمهم، فرحم بعض الناس بما أسمعهم فاستجابوا لربهم وأقاموا الصلاة التي حكم الله فيها بالقسمة بينه وبين عبده، ومن لم يستجب اعتذر الله عنه بأنه لم يسمع، وهذا من حكم الغيرة الإلهية على الألوهة أن يقاومها أحد من عبادها بخلاف ما دعت إليه، إذ لو علم أنهم سمعوا وما استجابوا لعظمهم في أعين الناس وجعلهم في مقام المقاومة له، يعني لما علم بسابق علمه فيهم أنه لو أسمعهم لتولوا وهم معرضون فستر علمه فيهم بأن قال: **(وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ)** [الأنفال: 21] وقال: ولو شاء الله لأسمعهم فأكذبهم في قولهم سمعنا فقال: **(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ)** فلو سمعوا استجابوا فإن الله أعز وأجل من أن يقاومه مخلوق ألا تراه يقول في حق من سمع من النصارى: **(وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ)** فوصفهم بأنهم يسمعون، ثم ذكر ما كان منهم حين سمعوا فقال: **(تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ)** [المائدة: 83] فأخبر أنهم آمنوا وأخبر أنه تعالى أثابهم على إيمانهم بما ذكر في الآيات. (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد7، ص 239 – 240)

يرى البروسوي: أن الناس في الأديان على أربعة أقسام: سعيد بالنفس والروح في لباس السعادة وهم الأنبياء وأهل الطاعة، والثاني: شقي بالنفس

في لباس الشقاوة وهم الكفار والمصرون على الكبائر، والثالث: شقي بالنفس في لباس السعادة مثل (بلعم بن باعورا) و(برصيصا) و(إبليس) والرابع سعيد بالنفس في لباس الشقاوة (كبلال وصهيب وسلمان) في أوائل أمرهم ثم بدل لباسهم بلباس التقوى والهداية، فإن قلت ما الحكمة في أن الله تعالى خلق الخلق سعيدا وشقيا وقال: **(وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى)** [الأنعام: 35] قلنا: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: إن الله تعالى علم في الأزل إن فلانا في خلقه يعصي لعدم سبق استعداده للسعادة فجعله شقيا لسبق القضاء عليه بمقتضى استعداده في الأعيان الثابتة، ومظهرية استعداده لشؤون الجلال كأنه سأل بلسان الاستعداد كونه شقيا يسأله من في السماوات والأرض بلسان الحال واستعداد كل يوم هو في شأن يفيض ويعطي كل شيء ما يستعد من السعادة والشقاوة على حسب الاستعدادات في الأعيان الثابتة الغيبية العلمية وعلم سبحانه وتعالى أن عبده يطيع فجعله سعيدا، أي: بمقتضى استعداده للسعادة الإجمالي والقابلية المودعة في النشأة الإنسانية بقوله: **(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى)** [الأعراف: 172] فتلك الإجابة منهم تدل على الاستعداد السعادي الأزلي فلو لم يكن ذلك لما صح عليهم التكليف والخطاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب فإذا عرفت أن الإنسان سعيد وشقي فاستعداد السعيد لا يعطي إلا الأقوال المرضية والأفعال الحسنة والأخلاق الحميدة التي تورث الانبساط واستعداد الشقي لا يعطي إلا التي تورث الانقباض فلذا أمر الله تعالى حبيبه بالصبر وتحمل الأذى. (البروسوي، إسماعيل حقي: المصدر السابق، مجلد3، ص28 – 29)

يرى السبزواري أن هذه الآية تقسم الناس إلى صنفين: (المؤمنون وهم الذين يسمعون ويستجيبون، وهم الأحياء حقيقة. والكافرون الذين يسمعون من دون استجابة كون سماعهم لم يأتي عن تفهم وتدبر، فهم الأموات حقيقة، وإن كانوا في الظاهر أحياء فهؤلاء يبعثهم الله ويرون الحقيقة ويسمعون حينئذ حق السمع، ولا يمكنهم التنصل والإنكار كما حكي عز وجل: **(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ**

صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ) [السجدة: 12] ويدل على ذلك: أن الله عز وجل قد ذكر في غير موضع من القرآن الكريم المؤمنين ووصفهم بالحياة والسمع، والكفار ووصفهم بالموت والصم، كقوله: **(أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا)** [الأنعام: 122] وآية المقام لا تخرج عن مضمون تلك الآيات، وهي تبين حقيقة من الحقائق، وهي أن الآخرة دار ظهور الحق وعيانه، فهو عز وجل يبعثهم ويرون الحق عيانا ويستجيبون له اضطرارا، فلابد للإنسان السمع والطاعة والإيمان والإذعان للحق إن عاجلا أو آجلا.) (السبزواري: المصدر السابق، مجلد13، ص242)

أما قوله تعالى: **(وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)** [النحل: 65] قوله تعالى: **(وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)** في ظاهر الآية تشير الآية إلى ظاهرة المطر ودوره في عملية الزراعة ونشوء النباتات، ومن ثم ترحيل هذه الظاهرة إلى الموت والبعث، ومن ثم يشير كل ذلك إلى قدرة الله تعالى المطلقة في حالي الموت والحياة، كما تحيلنا هذه الآية إلى تأويل آخر مفاده، يشير إلى مقارنة بين الجهل والعلم، فالجاهل هو أقرب ما يكون شبها من الأرض التي لم يصلها الماء فهي قطعا لا يرتجى منها أن تكون صالحة للزراعة، لأن أحد أسباب الخصب والزرع قد افتقدتها، فلا يمكن جني أي ثمار منها، كذلك الحال مع الجهالة، فإن الموصوف بها أقرب منه إلى الموت كما جاء في قوله تعالى: **(أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا)** [الأنعام: 122].

وإن الماء النازل من السماء بمنزلة الحياة لموتى الجهل، وفي هذه الإشارة أن العلم الإلهي هو الذي يعول عليه في عملية الحياة لأنه علم يقيني بعيد عن الظنون ومداخلاته ولا يمكن أن يقارن بالعلوم الكسبية أو الحسية ذلك؛ لأن تلك العلوم التي تختص بالحس تبقى محدودة ولا يمكنها أن تلبي حاجة الروح من المعارف لأن الروح من جنس الأنوار وغذائها من النور

كما جاء في قوله تعالى (**وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**) وهو حقيقة حياة الروح المناقض للجهل.

قوله تعالى: (**فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**) أي: أحيا به أرض الروح بعد احتجابها بموت الجهل من خلال تدفق الواردات الإلهية القادمة من سماء روح القدس، إن في هذه الآية الظاهرة البادية للعيان التي تتكرر في الآفاق لآية لمن يتبنى البصيرة من خلال التفكر والتدبر، ويسمع ويطيع أولي الأمر القائمون بالهداية، العاملون بهدي الدراية.

ويرى القشيري بلطائف إشاراته في تأويل الآية: (إن الله تعالى أحيا بماء التوفيق قلوب العابدين فجنحت إلى جانب الوفاق، وأحيا بماء التحقيق أرواح العارفين فاستروحت على بساط الوصال، وأحيا بماء التجريد أسرار الموحدين فتحررت من رق الآثار، وانفردت بحقائق الاتصال.) (القشيري: المصدر السابق، مجلد 3، ص 315)

أما ابن عجيبة فيرى إن الإشارة في هذه الآية مفادها: (الله أنزل من سماء الغيوب ماء العلوم النافعة، فأحيا به أرض النفوس الميتة بالغفلة والجهل، فصارت مبتهجة بأنوار التوحيد وأسرار التفريد، وفي ذلك يقول الشاعر:

إن عرفان ذي الجلال لعـزّ وضيـاء وبهجة وسرور

وعلى العارفين أيضا بهاءٌ وعليـهم من المحبة نور

فهنيئا لمن عرفك إلهي هو والله دهره مسرور

(الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد4، ص36)

أما في قوله تعالى: (**لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً**) [مريم: 62] قوله تعالى: (**لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً**) قابل تعالى الذين يحسنون الاستماع في الحياة الدنيا فيتبعون أحسنه، بأحسن ما يريحهم في الجنة وأبعد عنهم تعالى اللغو، ويراد باللغو كل ما يبعد عن معرفة

الحقيقة من كلام أو قول. يرى الراغب (اللغو من الكلام: ما لا يعتد به، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر، فيجري مجرى اللغا، وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور، قال أبو عبيدة: لغو ولغا، نحو عيب وعاب. وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا.) (الراغب: المصدر السابق، ص742)

في حين يقابل الذين لا يسمعون نداء الحق أو ما يذكرهم به تعالى بعذاب وتأثيم يناسب حجم احتجابهم بالغواشي وجهة الطبع، ويقابلون بالصعود المصاحب للإرهاق كما جاء في قوله تعالى: (**سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً**) [المدثر: 17] قوله تعالى: (**إِلَّا سَلَاماً**) أي: كل ما يأتي من السلام من كرم، ولطف، وأرق المذاقات، والمكاشفات، والمعارف الذوقية وكل ما من شأنه جميل.

قوله تعالى: (**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**) إذا كان المقصود من هذا القول الجنة، فإن في الجنة أوقات كما هو عليه الحال في الحياة الدنيا، ففيها بكرة، وفيها وقت العشي، وإذا كانت المقصود بهذه الجنة جنة المعاني الخاصة بالأولياء، وهم في الحياة الدنيا كحلقات الذكر التي أشار إليها الحديث الشريف: (**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل له: يا رسول الله وما رياض الجنة.قال: حلق الذكر.**) وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (**حلقة الذكر روض من رياض الجنة**) والرزق المشار إليه في الآية رزق المعارف، والعلوم اللدنية دون انقطاع، وفي كل وقت، وهذا اللطف في مقابل عبادتهم، وذكرهم، وتسبيحهم من قبل في الحياة الدنيا، قال تعالى: (**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً**) [مريم: 11] فالتسبيح الذي يقومون به لله تعالى يقابل بعطاء إلهي كما جاء في قوله تعالى: (**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ**) [البقرة: 152] حتى يصل العبد الذاكر في مرتبة الفناء بالله تعالى، فيكون علمه من خزائن الجود الإلهي كما دلت عليه الآية الكريمة: (**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**) [الأنبياء: 7] أي: اسأل أهل الذكر عن الكيفية التي يحصلون عليها على المعارف اللدنية التي تأتي من خلال التعليم الإلهي. إن مهمة الشيخ الولي الكامل هو الوصول بالمريد من المستوى العقل الحسي إلى مستوى التعليم

الإلهي؛ ليكون تماما كالعبد الصالح الذي أشار إليه تعالى بقوله: **(عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْما)** [الكهف: 65]، أي أن البصر، والسمع، وباقي الحواس، تتحول كلها إلى حال واحدة قائمة بالله تعالى تماما مثلما عبر عن هذا الحق تعالى بقوله: **(وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ)** [الحاقة: 12] فالوعي هنا قائم بالله لأن حقيقة الوعي تشارك فيه جميع الحواس والعقل، فإذا ترقت الحواس والعقل من مستواها الحسي إلى المستوى الروحي حصل المقصود فتذوب الكثرة في الوحدة لتكون الوحدة الجامعة هي التي تعي، فيكون وعيها كلي غير نسبي، ويتسامى عن الزمان والمكان؛ لأنه قائم بالله تعالى، فيكون العقل مطلق بعد أن كان محدود ونسبي، وتكون البصيرة لها السيادة المطلقة بعد أن كانت محدودة ونسبية، فيكون وصف الإنسان العبد كما جاء في الحديث القدسي: **(ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت بصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به... الحديث).**

وقد عبر المحاسبي، أبي عبد الله عن هذا المعنى في حديث له عن البصيرة بقوله: (البصيرة، والمعرفة بتعظيم قدر الأشياء الضارة والنافعة، في الدنيا والآخرة، ومنه العقل عن الله تعالى. فمن ذلك أن تعظم معرفته، وتصير منه إلى تعظيم قدر الله تعالى، وتقدر نعمه وإحسانه، وتعظم قدر ثوابه وعقابه، لتنال به النجاة من العقاب، والظفر بالثواب، فإذا كان الله معظما، كان لله محلا هائبا، وإذا كان لله مجلا هائبا، كان منه مستحيا، وإلى طاعته مسارعا، ولمساخطه مجانبا، وإذا كان معظما لما ينال به النجاة من العقاب، والظفر بالثواب، عني بطلب العلم، ورغب في الفهم والعقل، عن الله عز وجل، بكبر همته، وإذا عني بطلب العلم بذلك، استدل به على عظم قدر المولى وقدر ثوابه وعقابه. وإذا استدل على ذلك أبصر وفهم حقائق معاني البيان، فإذا فهم وعقل عظيم قدر الله تعالى، وهيبة عرضه على الله سبحانه، وثواب عقابه، فإذا عرف ذلك رغب واشتاق، فكأنما يعاين ذلك كرأي العين، فكان عن الله تعالى عاقلا، وسمي ذلك منه عقلا.) (المحاسبي، أبي عبد الله: 2000، ص172 – 173)

ويضيف المحاسبي: (إن هذا العقل عقل عن ربه، ألم تسمعه عز وجل يقول: **(وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ)** [الحاقة: 12]. قال: أذن عقلت عن الله تعالى، يعني عقل عن الله ما سمعت أذناه، مما قال وأخبر، فهذا هو العقل، ومن زل عن ذلك، ومعه غريزة التي فرق الله تعالى بين العقلاء والمجانين، فهو غير عاقل عن الله عز وجل، وهو عاقل للبيان الذي لزمته من أجله الحجة، وقد وصف الله تعالى من هذا في كتابه رجالا، وسمي لهم عقلا، فقال تعالى: **(فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)** [الحج: 46] يعني عنه، وقال تعالى: **(وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً)** [الأحقاف: 26]يعني عقولا. **(فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ)** [الأحقاف: 26]. ثم سمي بعض الكفار من أهل الكتاب عاقلا للبيان الذي لزمتهم به الحجة، فقال تعالى: **(يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)** [البقرة: 75] فأخبر أنهم لا يعقلون، يعني عنه، وعن عظيم قدره المبين عنه، ثم قال: **(يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ)** يعني: عقل البيان في حين أن الآخرين لهم عقول الغرائز أو العقول الحسية، لا يعقلون البيان، ولا عن المبين عنه بالفهم له، إلا أنهم يسمعون بلغة يعرفونها كلاما لا يعقلون معانيه بالفهم له.) (المحاسبي: المصدر السابق، ص173)

فالشيخ الولي المرشد الكامل له إمكانية التصريف في عملية الرقي والوصول بمريديه إلى هذا المستوى من السمع أو البصيرة وبذلك يعد من الضرورات المهمة التي لا يمكن الاستغناء عنه؛ لأنه بتمكينه هذا يعد أحد أهم ركائز المعرفة الحقة التي تفيد الزمان والمكان ومن أجل ذلك قيل: (لكل زمان إمام زمان من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)؛ وذلك لأن المعرفة الحسية في أغلب مفاصلها تبنى على الظن ولم تسند معارفها على الذوق، والظن كما أشار إليه تعالى بقوله: **(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)** [يونس: 36] وهذه الأنواع من المعارف لا يعول عليها في تشيد معارف أرقى توصل إلى مراتب الكمال.

إن المنهج الذي يكفل عملية الكشف المعرفي الإلهي الذي يفيد الزمان والمكان هو من ضمن التمكينات التي مكن بها تعالى وليه الكامل ليكون ذلك بمثابة الباب المشروع للعلم اليقيني المفيد للزمان والمكان، وقد اختص تعالى بهذا المنهج لشيوخ الوقت من الأولياء كما جاء في قوله تعالى: **(فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً)** [المائدة: 48] فالمنهج هنا يؤدي إلى الرسوخ في المعارف الإلهية في حين أن المناهج الأخرى التي تأتي نتيجة الظن لم تحقق الهدف المرجو في عملية كمال الاستعداد في عملية الوصول إلى علم يقيني، وهنا تكمن ضرورة الشيخ الولي المرشد الكامل من كونه أساس السمو بالواقع من حال أدنى إلى أرقى وأسمى.

يرى القشيري في تأويل قوله تعالى: **(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً)** [مريم: 62] (كانوا يعدون من عنده طعام البكرة والعشية من جملة المياسير والأغنياء لكونهم فقراء؛ إن وجدوا غدائهم ففي الغالب يعدمون عشاءهم، وإن وجدوا عشاءهم فقلما كانوا يجدون غدائهم، ويقال في **(لهم ما يشتهون فيها)**: بمقدار الغدو والعشي من الزمان في الجنة أي كالوقت. ثم أن الأرزاق تختلف في الجنة؛ فللأشباح رزق من مطعوم ومشروب، وللأرواح رزق من سماع وشهود، ولكل ــ على قدر استحقاقه ــ قسط معلوم) (القشيري: المصدر السابق، مجلد4، ص104)

ويرى الطوفي في قوله تعالى: **(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً)** (استثناء منقطع، إذ السلام ليس من جنس اللغو، والاستثناء أحد المخصصات للعموم، وهو متصل ومنقطع؛ فالمتصل ما كان من الجنس، والمنقطع خلافه. هذا المتداول. وفي قوله تعالى: **(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً)** يحتج به من رأى أن في الجنة ليلا ونهارا، ومن أنكره احتج بقوله ــ عز وجل ــ: **(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً)** [الإنسان: 13] أي: ولا قمرا، وهما المصححان لوجود الليل والنهار، فإذا انتفيا انتفيا لانتفاء الشيء بانتفاء

علته، وتأويل هذه على معنى: أن رزقهم يأتيهم عند حاجتهم إليه في وقت هو نظير البكرة والعشي في الدنيا.) (الطوفي: المصدر السابق، ص422ــ 423)

ويرى الهاشمي، محمد بن عيسى: (رد الأشباح إلى قيمها من المطعم والمشرب بكرة وعشيا، ونزه الأرواح والأسرار عن ذلك بقوله: (**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ**) [الدخان: 51] وهو مقام لا ينزله إلا من كان ظاهر الأمانة سرا وعلانية.) (السلمي: المصدر السابق، مجلد1، ص430)

أما في الفتوحات المكية فيرى ابن عربي: في قوله تعالى: (**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ**) [الأحزاب: 43] (فأخبر أنه يصلي علينا، فالمفهوم من هذا أمران: الأمر الواحد: أنه يصلي علينا فينبغي لنا أن نذكره بالمدح والثناء ونصلي له بكرة وأصيلا فإن في ذلك غذاء العقول والأرواح، كما أن غذاء الجسم في هذه الأوقات في قوله: (**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً**) ورزق كل مخلوق بحسب ما تطلبه حقيقته فالأرواح غذاؤها في التسبيح فقيل لها سبحه أي صل له في هذه الأوقات واذكره على كل حال فقيد التسبيح، وما قيد الذكر بوقت، فعلمنا أن التسبيح ذكر خاص مربوط بهذه الأوقات. والأمر الآخر: أنكم إذا صليتم، وذكرتم الله فإنه يصلي عليكم فصلاتنا وذكرنا له سبحانه بين صلاتين من الله تعالى: صلى علينا فصلينا له فصلى علينا، فمن صلاته الأولى علينا صلينا له، ومن صلاته الثانية علينا كانت السعادة لنا بأن جنينا ثمرة صلاتنا له وذكرنا.) (ابن عربي: المصدر السابق،مجلد2، ص 238)

وفي مجال الزمن في الجنة فإن عربي يرى في فتوحاته: (أن لأهل الجنة في الجنة مقادير يعرفون بها انتهاء مدة طلوع الشمس إلى غروبها في الدنيا، وإن لم يكن في الجنة شمس فالحركة التي كانت تسير بالشمس فيظهر من أجلها طلوعها وغروبها موجودة في الفلك الأطلس الذي على الجنة وهو سقفها والحركة بعينها فيه موجودة، ولأهل الجنة كشف ورؤية إلى المقادير التي فيه المعبر عنها بالبروج، فإن ذلك الفلك هو السماء الذي أقسم به في

قوله: **(وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ)** [البروج: 1] فيعلمون بها حد ما كان عليهم في الدنيا مما يسمى بكرة وعشيا، وكان لهم في هذا الزمان في الدنيا حالة تسمى الغذاء والعشاء فيتذكرونها هنالك فيأتيهم الله عند ذلك برزق يرزقهم فيها كما قال: **(ولَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)** وهو رزق خاص في وقت خاص معلوم عندهم وما عدا ذلك فأكلهم دائم لا ينقطع، والدوام في الأكل إنما هو عين النعيم.) (ابن عربي: نفسه، مجلد 6، ص391ـــ 392)

ويذهب ابن عربي باتجاه تأويل الآية المنحى الذي ذهبنا إليه من قبل فيرى أن الجنة لها وجود في الدنيا مثلما لها وجود في الآخرة، وإن الرزق الموهوب من لدنه تعالى لأوليائه غير منقطع عنهم في الدارين، فمن لزم الذكر فإنه ينتج له معرفة وجه الحق في كل شيء، فلا يرى شيئا إلا ويرى وجه الحق فيه فإنهم ما دعوا ربهم بالغداة والعشي الذي هو زمان تحصيل الرزق في المرزوقين كما قال: **(وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)** وهو الصبوح والغبوق عند العرب فكان رزق هؤلاء بالغداة والعشي ما يحصل لهم من معرفة الوجه الذي كان مرادهم لأنه قال: **(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)** [الكهف: 28] يعني بذلك الدعاء بالغداة والعشي وجه الحق لما علموا أن **(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)** [القصص: 88] فطاعوا ما يبقى وآثروه على ما يفنى. (نفسه: مجلد7، ص250)

سئل التستري عن السماع فقال: (هو علم استأثر به تعالى، ولا يعلم حقيقته إلا هو. ويقال أن رجلا قرأ أمام سهل قوله تعالى: **(فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ)** [الحديد: 15] فارتعد وكاد يسقط على الأرض فلما عاد إلى حاله سئل عن ذلك ؟ فقال: نعم يا حبيبي قد ضعفنا وكذلك سمع مرة قوله تعالى: **(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ)** [الفرقان: 26] فاضطرب فسأله ابن سالم وكان من أصحابه فقال قد ضعفت فقيل له فإن كان هذا من ضعف فما قوة الحال فقال أن لا يرد عليه وراد إلا وهو يلتقيه بقوة حاله فلا تغيره الواردات وإن كانت قوية.) (البوسيفي، فرح حسن: 2008، ص 85)

الشيخ والبصر

البصر لغة: يرى الراغب: (البصر: يقال للجارحة الناظرة، نحو قوله تعالى: **(كَلَمْحِ الْبَصَرِ)** [النحل: 77] و**(وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ)** [الأحزاب: 10]، وللقوة التي فيها، ويقال لقوة القلب المدركة: بصيرة وبصر، نحو قوله تعالى: **(فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)** [ق: 22] وقال: **(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)** [النجم: 17] وجمع البصر أبصار، وجمع البصيرة بصائر. ولا يكاد يقال للجارحة بصيرة، ويقال من الأول: أبصرت، ومن الثاني: أبصرته وبصرت به، وقلما يقال بصرت في الحاسة إذا لم تضامه رؤية القلب.) (الراغب: المصدر السابق، ص 127)

أما ابن فارس فيرى أن البصيرة: (البصيرة: البرهان، وأصل ذلك كله وضوح الشيء، ويقال: رأيته لمحا باصرا، أي ناظرا بتحديق شديد، ويقال بصرت بالشيء إذا صرت به بصيرا عالما، وأبصرته إذا رأيته.) (ابن فارس: المصدر السابق، مجلد1، ص 133)

البصر في الاصطلاح الصوفي

البصيرة: (قوة باطنة هي للقلب كعين الرأس، ويقال: هي عين القلب عندما ينكشف حجابه، فيشاهد بها بواطن الأمور، كما يشاهد عين الرأس ظواهرها، ولهذا قالوا: البصيرة: ما يخلص من الحيرة. ويرى القاشاني في اصطلاح بصائر الاعتبار: يقال: تبصرة أولي الاعتبار. ويقال: عبرة أولي الأبصار. والمراد بالكل العبور من الظاهر إلى الباطن، ومن الباطن إلى الظاهر بحيث يرى الذات الأقدس تعالى في كل شيء ظاهر كالمخلوقات الظاهرة في المراتب الكونية وفي كل شيء باطن كالأسماء والحقائق الإلهية والكونية. فعند العبور من ظاهر كل شيء إلى باطنه يرى الوحدة في عين الكثرة، والمجمل في عين المفصل، وعند العبور من الباطن إلى الظاهر وبالعكس، أي: يرى الكثرة في الوحدة والمفصل في المجمل مع وحدة المجلى والمتجلي فيه بالعين، وإن وقع الاختلاف بالتعين، فهذا معنى بصائر العبرة

أي رؤية مضافة إلى العبرة، بحيث لا يرى شيئا إلا ويعبر من ظاهره إلى باطنه وبالعكس.) (القاشاني: المصدر السابق، ص110-111)

ويرى الجرجاني في تعريفاته: (البصر: هو القوة المودعة في العصبتين المجوفتين اللتين تتلاقيان ثم تفترقان، فيتادَّيان إلى العين تدرك بها الأضواء والألوان والأشكال. ويعرف الجرجاني البصيرة: قوة للقلب المنور بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها، بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها، وهي التي يسميها الحكماء: العاقلة النظرية، والقوة القدسية.) (الجرجاني، الشريف: المصدر السابق، ص35)

ويعرف البقلي البصيرة فيرى: حين يصل المريد أو السالك إلى مقام البصيرة: (ينفتح بصيرة سره بمفتاح نور الغيب فيبصر بها عجائب الملكوت ونوادر أنوار الجبروت، ويفهم غوامضات العلوم الدينية ويهتدي بالله إلى طريق الله الذي كان مرضيا في الأزل، قال سبحانه: (**عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**) [يوسف: 108] وقال العارف: البصيرة وقوع كحل اليقين بميل الصفاء من مكحلة الحقيقة في عين الروح المطمئنة.) (البقلي: المصدر السابق، ص49)

ويستدعي السيد الشيخ محمد عبد الكريم الكسنزان قدس سره: حشد من تعاريف العارفين فيرى: المستغانمي، ابن علوية: (البصر: هو شعاع البصيرة، فلا ينبغي للفقير أن يفتح بصره إلا إذا اتصل البصر بالبصيرة، حتى إذا اتصل وصار كله بصيرة يرى من ليس كمثله شيء بسائر أجزائه كما أنه يسمع كلامه بسائر حواسه. ويرى الباحث محمد غازي العرابي: البصر بصران: بصر ظاهر وبصر باطن. فالبصر الظاهر: الرؤية وآلته العين، وهي حاسة من الحواس المطلة على العالم الخارجي، ووظيفتها معاينة العالم الخارجي تمهيدا لتخليص اللب من القشر بالإضافة إلى مساعدة الإنسان على قضاء حاجاته، أما البصر الباطن: فيدعى البصيرة، وهي حاسة باطنة للروح، لها وجهان: وجه يطل على الظاهر، أي يمتد جسرا بين الروح والبصر الخارجي، ووجه داخلي هو كوة تطل على عالم الروح الكلي

والرؤية هنا رؤيا، أي تجل. ويرى السلمي: أهل البصر: هم الذين نظروا من الله تعالى إلى الأشياء فشاهدوها في أسر القدرة. وأهل النظر: استدلوا بالأشياء على الله تعالى، فحجبتهم عقولهم واستدلالاتهم عن بلوغ كنه المعرفة بالله تعالى. أما التجاني، أبو العباس فيرى أن بصر الروح هو النظر بالله تعالى، فإذا انفتح يطالع جميع الأكوان والعوالم فلا تختلط عليه الرؤية.) (الكسنزان، محمد عبد الكريم: المصدر السابق،ج3، ص246 – 249)

أما فيما يختص بالبصيرة: (فيرى القشيري: البصيرة: هي اليقين الذي لا مرية فيه، والبيان الذي لا شك فيه. والبصيرة: يكون صاحبها ملاطفا بالتوفيق جهرا، ومكاشفا بالتحقيق سرا. ويقال: البصيرة أن تطلع شموس العرفان، فتندرج فيها أنوار نجوم العقل. أما الغوث الأعظم عبد القادر الكيلاني فيرى: البصيرة: من عين الروح تفتح في مقام الفؤاد للأولياء، ولذلك لا تحصل بعلم الظاهر، بل بعلم اللدن الباطن، كما قال تعالى: **(وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً)** [الكهف: 65] فالواجب على الإنسان تحصيل تلك العين على أهل البصائر بأخذ التلقين من ولي مرشد من عالم اللاهوت، وللبصيرة معنيان الأول: الولاية الكاملة، وقد استنبطها من قوله تعالى: **(أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)** [يوسف: 108] فيقول: على البصيرة أنا ومن اتبعني: وهو إشارة إلى الوارث الكامل المرشد، أي الإرشاد من بعدي لمن له بصيرة باطنة مثل بصيرتي من وجه، والمراد منه الولاية الكاملة، كما أشار إليه بقوله جل جلاله: **(وَلِيّاً مُّرْشِداً)** [الكهف: 17]. والثاني: نور عين القلب، قيل للشيخ إن أحد المريدين يدعي أنه يرى الله جل جلاله، فأرسل إليه، وعنفه، ونهاه عن ذلك القول، ولما سئل عن حقيقة قول هذا المريد، وهل هو محق أو لا ؟ قال: هو محق ملبس عليه، وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال، ثم خرق من بصيرته إلى بصره منفذ، فرأى بصره ببصيرته متصل شعاعها بنور شهوده؛ فظن أن بصره بصيرته فحسب، وهو لا يدري. أما نجم الدين كبرى؛ فيرى: البصيرة: هي النظر المؤيد بنور الله، فترى به نور النبوة، والرسالة لا بالحس الظاهر.) (الكسنزان: نفسه، ج3، ص249 – 251)

ويراد بالنظر المؤيد بنور الله هو تماهي البصر المحدود النسبي ببصر الحق المطلق الكلي.

إن حقيقة ما يجب أن يكون عليه البصر هو الكمال، أي: يجب أن يكون البصر على ما كان عليه في وقت **(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا)** [الأعراف: 172] فشهدت الأرواح في عالم الذر ربها، وعاهدته بعد أن شهدت وأقرت بذلك بقولها: **(بَلَى شَهِدْنَا)**، ولما استقرت الأرواح في عالم الأجساد نسيت العهد الذي أعطته على نفسها ونسيت ما كانت عليه من بصر وبصيرة قائمة بالنور الإلهي وبقيت واقفة مع عالم الكثافة محتجبة به وهي تجهل أن هذا العالم هو أسفل سافلين العوالم الإلهية كما جاء في الخطاب الإلهي: **(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)** [التين:4ــ 5] فالبصر الذي يحمله إنسان أسفل سافلين محدود بحدود عالم الحس والكثافة المادية لأنه يناسب هذا العالم.

ومن أجل أن يخرج الإنسان من هذه المحدودية والضيق في البصر؛ لابد له أن يحرر الروح من سجن المادة، والكثافة، ويجعل لها مخرجا من أجل أن تتصل بعالمها عالم الأنوار ليكون بصرها أشمل، وأعم، ومطلق، فلابد من طريقة ما تحقق له هذا الهدف، هنا يأتي دور الشيخ الولي المرشد الكامل، وذلك لأنه خبير بالطريق المؤدي إلى هذه الرحمة، قال تعالى: **(الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)** [الفرقان: 59] إذ لا سبيل إلى تحصيل رحمة الرحمن إلا من خلال هذا الولي المخصوص. قال تعالى: **(إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)** [الرعد: 7] فلكل قوم هاد إلى عالم اللاهوت، فعلى من يريد التحرر من قيد المادة، البحث عن هذا الهادي، والانتظام في طريقه، وتبني منهجه، والقيام على خدمته وصولا إلى الفوز برضا الحق تعالى، فإذا فاز برضا الحق تعالى تحقق في عالم الحقيقة، ورجع إلى وطنه الأصلي المشار إليه بقوله تعالى: **(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)** [التين: 4] أي: ذلك المستوى الأول الذي نفخ الحق فيه من روحه كما جاء في قوله تعالى: **(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ)** [الحجر: 29] فكان لشدة صفائه، ونورانيته على صورة نافخه جل جلاله فاستحق السجود؛ لأن هذا النور من ذاك

السراج فلا تتوهم من خلال هذا القول أن هذا النور المودع في الإنسان منقطع، أو منفصل، أو متبعض بل هو امتداد نور النفخة، وهذا الامتداد هو ما يطلق عليه بالفطرة التي قال فيها تعالى: **(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)** [الروم: 30] ومن أجل أن يحافظ الإنسان على تلك الفطرة، والنور المودع فيه لابد له من اللجوء إلى طريقة، ولعل من أفضل الطرق إلى الله هي التي تصل بالمريد إلى الرحمة بأسرع وقت ممكن وهنا يأتي دور الشيخ الولي المرشد الكامل، والمنهج الذي يطبقه على مريديه في عملية الوصول إلى المطلوب، وصولا إلى البصيرة الكاملة المطلقة.

إن مفردات أغلب المناهج تعتمد على نوافل العبادات من ذكر، وتسبيح، وقيام الليل، ومجاهدات، ورياضات، وخلوات، مضافا إلى ذلك تمكين الشيخ وقدراته الروحية التي تمكنه من متابعة وملاحظة سلوك مريديه ظاهرا وباطنا؛ لأن ذلك التمكين يفيد رقابة الشيخ الولي المرشد لمريديه،وتشخيص الخلل والأمراض التي تصاحب المريدين خلال فترة السلوك، ومن ثم تقديم العلاج الناجع لهم إلى أن يبلغوا الكمال، فالشيخ الولي المرشد الكامل طبيب روحي لا يمكن الاستغناء عنه؛ لأنه هو الوحيد القادر على تشخيص المرض الذي يصيب النفس، وهو وحده القادر على وصف العلاج لها، لأنه خبير بهذا المجال، والقادر على العلاج بما مكنه تعالى من ذلك والبصر والبصيرة وما يقه بها من خلل جزء من مهامه، إذ لا يمكن أن يصل المرء إلى مراتب الكمال بدون بصيرة كاملة.

يقول الشاذلي، شمس الدين محمد بن علي: (أعلم أن الحواس الظاهرة والباطنة شبكة مشتركة بعضها ببعض، والجميع في حكم الروح والعقل والنفس، وكل واحد من النفس والعقل والروح أمير جنوده فإذا كانت الغلبة مع الروح فالعقل والملك معه، وإذا كانت الغلبة مع النفس فالشيطان معها، وإذا كانت النفس مقهورة أسيرة يكون الروح متمكنا بأمر العقل والنفس، والجنود في طاعة الله، ويكون الباطن روحانيا، والنفس مع جنودها خاضعة للروح في العقل، وهذه الأمراء الثلاثة سماها الله في كتابه بثلاثة أسماء،

سمى الروح بالنفس المطمئنة، وهي التي جاءت من عند الله فدعاها إلى معدنها بقوله: **(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً)** [الفجر:27ـ 28] وسمى العقل بالنفس اللوامة، وهي التي تلوم صاحبها بعد مباشرته المعصية، وسمى النفس الهوائية: النفس الأمارة بالسوء بقوله تعالى: **(إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)** [يوسف: 53] وأصل المملكة الظاهرة والباطنة بيد الروح، وهؤلاء مع جنودهم في حكم الوزير والخادم والشحنة والرعية عندها) (الشاذلي، شمس الدين محمد: 2008، ص 16ـ17)

كما أن البصيرة لا يمكن النظر إليها من كونها قدرة مستقلة أو منفصلة عن العقل والروح وباقي القوى، بل جميع القوى وتمكيناتها، وقدراتها، ومذاقاتها، وعلومها، ومعارفها تصب في هدف سامي، وهو الوصول إلى الحقيقة، فالبصر أو البصيرة ركن مهم من أركان المعرفة بالله حق العرفان، ووسيلة مهمة من وسائل الكشف عن الحقيقة، من هنا نستطيع القول إن صفة الكمال لا يمكن أن تصل إلى ذروتها ما لم تتماهى كل القوى سواء كانت قوة السمع، والبصر، والروح، والعقل في وحدة واحدة بحيث يصبح العارف كله أذن قابلة للسماع وكله بصر قابل للنظر بشكل مطلق، وكله عقل، وجميع هذه القوى لا يمكن أن تؤدي دورها إلا في وحدة مطلقة تحت إشراف الشيخ الولي الكامل، وكأن الشيخ الولي هنا يوحد هذه القوى لدى مريده من أجل الوصول بمريده إلى مرتبة الفناء، وهذا جزء من تمكين، وتصريف الشيخ الممنوح له من رب العزة، الذي هو موضع نظر الحق تعالى.

يقول ابن عربي في رسالة الأنوار: (إن محق المحق: لا يفوز به إلا أخص أهل الله، وهو للعقول المنورة، والمحق يفوز به أهل الخصوص وهو للنفوس المنورة، وهذه التي تسنى خلوة الحق، فإنه لا يشهد ولا يرى وإن علمه بعض الناس فلا يكون مشهودا له، ومن هذه الحقيقة أتخذ الله الخلوة للانفراد لما رأوه – تعالى – اتخذها للانفراد بعبده، ولهذا لا يكون في الزمان إلا واحدا يسمى الغوث والقطب، وهو الذي ينفرد به الحق ويخلو به دون خلقه، فإذا فارق هيكله انفرد بشخص آخر، لا ينفرد بشخصين في زمان واحد، وهذه الخلوة الإلهية من علم الأسرار التي لا تذاع ولا تفشى. وما

ذكرناها وسميناها إلا لتنبيه قلوب الغافلين عنها بل الجاهلين بها، فإني ما رأيت أحدا ذكرها قبلي ولا بلغني مع علمي بأن خاصة أهل الله بها عالمون، وذلك العبد عين الله في كل زمان، لا ينظر الحق في زمانه إلا إليه.) (ابن عربي: المصدر السابق، ص115)

فالشيخ الولي الكامل (الغوث) وكما أشار ابن عربي هو محل نظر الحق تعالى وهو في الوقت نفسه يهتم بمريديه ويختص بهم كلا بحسب مقامه واستعداده، أي: كل مريد من مريديه يختصه بنظر غير الآخر، ويجري فيه استعداد يختلف عن الآخر، وكأنما كل مريد هو محل نظر الشيخ الكامل بمعزل عن المريد الآخر؛ فيشعر كل واحد منهم بأن الشيخ مهتم به من الناحية الروحية بشكل خاص دون غيره وهذا ما يصطلح عليه (بالمحق) أما انفراد الحق تعالى بشيخ الوقت فيسمى محق المحق، فإن محق المحق يقابل به تعالى شيخ الوقت لأنه العقل النير الكوني القابل للفيض الإلهي المفيض في الوقت نفسه إلى الكثرة الكونية وعلى رأس هذه الكثرة أصحاب النفوس المنورة من الأولياء، أو الخاصة من الأولياء، فللقطب أو الغوث محق المحق، وللأولياء ما دون الغوث في المرتبة لهم تخصيص المحق حتى يستهلكوا في الحق.

ويعرف ابن عربي: المحق، بقوله: (المحق: ظهورك في الكون بطريق الاستخلاف والنيابة عنه، فلك التحكم في العالم، ومحق المحق ظهورك بطريق الستر عليه والحجاب، فأن تحجبه في محق المحق فيقع شهود الكون عليك خلقا بلا حق، لأنهم لا يعلمون أن الله أرسلك سترا دونهم حتى لا ينظرون إليه، فمحق المحق يقابل المحق، ما هو مبالغة في المحق وإنما هو مثل عدم العدم، فإذا أقيم العبد في خروجه عن حضرة الحق إلى الخلق بطريق التحكم فيهم من حيث لا يشعرون، وقد يشعرون في حق بعض الأشخاص من هذا النوع كالرسل – صلوات الله عليهم – الذين جعلهم الله تعالى خلفائه في الأرض يبلغون إليهم حكم الله فيهم، وأخفى ذلك في الورثة، فهم خلفاء من حيث لا يشعر بهم، وأعلم أن محق المحق أتم عند أهل الله في الدنيا، والمحق أتم في الآخرة، ومحق المحق لا يفوز به إلا أخص أهل الله،

وهو للعقول المنورة، والمحق يفوز به الخصوص، وهو للنفوس المنورة ــ جعلنا الله ممن محق محقه، فانفرد به حقه) (ابن عربي: نفسه، ص117)

قال تعالى:

(قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [يوسف: 108]

قوله تعالى:

(بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) [القيامة: 14]

قوله تعالى:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) [التكاثر:5ــ 6]

قوله تعالى:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) [الحج: 46]

في قوله تعالى: **(قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)** [يوسف: 108] أي: أن طريقة من كلفه الحق تعالى سواء كان رسول، أو ولي، أو شيخ كامل نائب للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بعد فترة خاتم النبوة صلى الله تعالى عليه وسلم، فأن الخطاب الإلهي قد جاء وهو يحمل صيغة النيابة عن المرشد الكامل بلسان الحق تعالى وهو تأكيد على أهمية هذا الولي المخصوص، فلو جاء الخطاب بدون فعل الأمر (قل) لكان الخطاب أقل وقعا على نفس المتلقي، فتكون الاستجابة أقل، كما أن فعل الأمر (قل) جاء هنا ليؤكد سلطته وحجته على كل متلقي، فهو أمر صادر وملزم الجميع بطاعته، وخاصة كل المستعدين الذين يبحثون عن الحقيقة عليهم طاعة الأمر والتوجه فورا إلى البحث عن هذا العبد المخصوص، والانتظام في طريقته من أجل الوصول إلى هذه البصيرة.

قوله تعالى: **(أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ)** أي: أدعو إلى معرفة حق اليقين التي لا ريب فيها حسا، وعقلا، وروحا، وتجري معارفه على وفق معارف

ذوقية خالصة من كل أنواع الشك والوهم، كما أن طلب هذه المعارف لا يقف عند حد معين محدود بل هو وارد قدسي مستمر من فيض غير منقطع أبد الآبدين في الدارين الدنيا والآخرة، والبصيرة هنا يشترك فيها كيان المريد كليا، فيصبح كله بصر ثاقب لا يمكن أن يحتجب بحجاب محدود كما أشير إليه بالحديث القدسي: **(اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله)** والحديث القدسي: **(ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فأكون بصره الذي يبصر.... الحديث)** فإذا كانت البصيرة قائمة بالله تعالى فلا يمكن أن يحتجب البصر بعد ذلك أبدا، كما أن هذه البصيرة تكون كلية، وكأن الإنسان أصبح كله بصرا، وكله سمعا وكله عقلا وكله روحا، أي: يعود إلى ما كان عليه نورا خالصا متجردا من الأغيار متصلا بأصل النور غير منفصل عنه أبد الآباد.

قوله تعالى: **(أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)** أي: يكون حال من يتبع الشيخ الولي العارف الكامل تماما هو حال الشيخ وحال الشيخ أي نورانيته هي عين النور الإلهي لأنه قدس سره فان بالله وأصبحت روحانيته متماهية بالله تعالى فهي من جنس النور، متوحدة فيه مفارقة للإثنينية، فمن يتبع الشيخ بالمحبة والإخلاص يكون وصفه روحيا بلا تعدد، فيكون هو الشيخ والشيخ هو، وهذا ما يطلق عليه بالفناء في الشيخ، فإذا بلغ هذا المستوى فإنه سيؤهل إلى الفناء القدسي الأعظم، وذلك هو الفوز العظيم، فقوله **(أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)** تفيد للوحدة الذاتي ولا تعني الإشارة للكثرة، وكأن المراد بها الاشتراك بالبصيرة الإلهية بعد الرجوع من وهم الكثرة إلى حقيقة الوحدة الذاتية، مع التجرد من وهم الحلول والاتحاد.

قوله تعالى: **(وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)** أي: تنزه الحق تعالى من تصورات الوهم والخيالات الفاسدة؛ لأنه تعالى لا يتبعض، فهو على ما كان عليه واحد أحد فرد صمد مطلق، وهو الآن كما كان، فلا يوصف بالكثرة أو التبعض أو التجزؤ، ولا يوهم هذا الوصف بالشركة في النور، وتوصف هذه الكثرة كما لو نظرنا إلى تعددية أعضاء الإنسان وكثرتها بالنسبة حقيقته الواحدة الجامعة.

يرى ابن عربي في كتاب الصلوات: إن التنزلات الكاملة الفاضلة من ذلك، (اختص بها النوع الإنساني من دون بقية الأنواع الكونية، فإن آدم عليه السلام هو أول هذا النوع الإنساني، وذريته نسخ منه، فمنهم كامل الإنسانية، ومنهم الناقص الذي استولت عليه الحيوانية، فترك اللذائذ الروحانية، وتبع الشهوات الجسمانية، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم النوع الإنساني الكامل، وورثته ملحقون به في معنى كماله، ومبنى جلاله وجماله، لأنهم أصحاب بصائر ببركة متابعتهم له، قال تعالى له صلى الله تعالى عليه وسلم: (**قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**) والمراد بمتابعتهم له، أي: فنائهم فيه. (ابن عربي: 2009، المصدر السابق، ص56)

ويرى ابن عربي في هذه الآية: (**قُلْ هَـذِهِ**) السبيل التي أسلكها، وهي سبيل توحيد الذات (**سَبِيلِي**) المخصوص بي، ليس عليه إلا أنا وحدي (**أَدْعُو إِلَى اللّهِ**) أي: إلى الذات الأحدية الموصوفة بكل الصفات في عين الجمع(**عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**) في هذه السبيل وكل من يدعو إلى هذه السبيل فهو من أتباعي،إذ الأنبياء قبلي كلهم كانوا داعين إلى المبدأ والمعاد وإلى الذات الواحدية الموصوفة ببعض الصفات إلا إبراهيم عليه السلام فإنه قطب التوحيد، ولهذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم من أتباعه باعتبار الجمع دون التفصيل، إذ لا متمم لتفاصيل الصفات إلا هو عليه الصلاة والسلام وإلا لكان غيره خاتما السبيل الحق كما ختم لأن كل أحد لا يمكنه الدعوة إلا إلى المقام الذي بلغ إليه من الكمال (**وَسُبْحَانَ اللّهِ**) أنزهه من أن يكون غيره على سبيله، بل هو السالك سبيله والداعي إلى ذاته (**وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) المثبتين للغير في مقام التوحيد الذاتي، المحتجبين عنه بالأنائية، بل أنا به، فإن عنى فهو الداعي إلى سبيله. (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص 332 – 333)

أما التستري فيرى في تأويله للآية: (**أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ**) (أي: أبلغ الرسالة ولا أملك الهداية، وإنما الهداية إليك. وقد سئل سهل التستري عن قوله عليه السلام: [**ولا ينفع ذا الجد منك الجد**] فقال: أي من جد في الطلب،

وكان منك المنع، لم ينفعه جده في الطلب وقال: إن الخلق لم يكشف لهم سر، ولو كشف لهم لأبصروا، ولم يشاهدوا وإن شاهدوا تم الأمر. وهذا شيء عظيم. ثم قال: أهل لا إله إلا الله كثير، والمخلصون منهم قليل، والله سبحانه وتعالى اعلم.) (التستري: المصدر السابق، ص 83)

في حين يرى ابن عطاء في قوله تعالى: (**أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**) (منهم من تبع محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم على الظاهر: فذاك إليه. ومنهم من اتبعه على الحقيقة والتحقيق: فذلك الذي قال الله تعالى: (**أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**). وسقمت البصائر عند وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلا رجل واحد وهو الداعي إلى الله تعالى، حيث لم يشغله موت محمد عليه الصلاة والسلام من الرجوع إلى الله. قوله تعالى: (**أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ**) البصيرة أحرقت العلوم والمواعظ المحجوبة بظلم الأطماع. أما علمت أنه لا تصح بصيرة لأحد وهو تحت رق الملك، وما دام للشواهد والأعراض عليه أثر، كانت بصيرته واهية. والبصيرة إذا صحت، سلم صاحبها من كل آفة. إن الفرق بين البصيرة والسكينة هو أن البصيرة مكشوفة والسكينة مستورة.) (اليسوعي: المصدر السابق، ص66)

أما الشيرازي، ملا صدرا: فيرى: أن طريقة الوارثين المحمديين أي المشايخ

الكاملين، تؤدي إلى البصيرة في حين أن طريقة ما سواهم تؤدي إلى استعمال آلات الفكر والروية، وإشعال نائرة الوهم، والخيال، والاشتغال بالمباحثة، والجدال، وصرف العمر في حفظ الأقوال. (الشيرازي، ملا صدرا: 1378، هجري، ص، 19)

ويرى الكيلاني: الشريف ناصر في شرحه لأحد أقوال ابن عربي في الفتوحات المكية الذي يقول فيه: (وهو للحق تعالى بمنزلة إنسان العين من العين الذي به يكون النظر، وهو): (أي: الإنسان المذكور المعبر عنه بالبصر، فيبصر بالإنسان الكامل الكمالات الأسمائية بجملتها هذا من مقام قرب الفرائض، كما أنه بقرب النوافل يكون الحق تعالى بصره الذي به يبصر،

كذلك في هذا المقام القرب الفرائض، يبصر الحق تعالى بالإنسان الكامل، وفي الأول كان الحق بصر العبد، وفي الثاني العبد بصره، وبه يبصر ويرحم، يشير إلى هذا المقام قوله تعالى حكاية عن اعلم الخلق بالله تعالى: **(إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً)** [طه: 35] وقوله تعالى: **(إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً)** [الانشقاق: 15].) (الكيلاني، الشريف ناصر: المصدر السابق، ص، 247)

أما قوله تعالى:

(بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) [القيامة: 14] لما كان الإنسان أدرى ببعض التفاصيل التي تجري بنفسه من شعور بالعطش، والجوع، والألم، وبالحاجة إلى تحقيق الكثير من المطالب الذاتية والعاطفية، والقيام بجملة فعاليات، ومطالب خاصة لا يسع البحث تناولها، وكلها مطالب للنفس، فإنه يفترض به أن يتوجه كذلك للمطالب الإلهية، ولا يتجاهلها، وعليه أن يدرك أن الحق تعالى أولى بجميع توجهاته، وإنه تعالى قد أحصى كل شيء يقوم به العبد، والحق بذلك أدق وأحصى، قال تعالى: **(وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً)** [الجن: 28] وقوله تعالى: **(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)** [يونس: 61] وهذا يعني إن على العبد أن ينيب أمره ويسلم لله تعالى التسليم الكامل.

ويمكن أخذ الآية على محمل تأويل آخر، وهو أن الله تعالى خلق الإنسان، وجعل فيه كل أسباب الكمال إذا أراد ذلك، وعمل مخلصا للوصول إلى مرتبة الفناء في الله تعالى، فإنه سيكون على بصيرة قائمة بالله تعالى، فإذا أصبح كذلك يخرج عن رجس الجهالة، ويكون من ضمن النور، والرحمة الإلهية ليحصل على سعادة الدارين الدنيا والآخرة، فقوله تعالى: **(بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)** أي: يجب على الإنسان أن يضع نفسه على جادة البصيرة، ولا يجعلها واقفة مع جهة الطبع، والأوصاف البشرية؛ فتبقى محتجبة بجهالتها، ومن أجل أن يجعل نفسه بصيرة، وجب عليه العمل باتجاه

السبيل المؤدي إلى هذه البصيرة ألا وهو الالتحاق بهدي شيخ ولي مرشد كامل له خبرة كاملة، وطريقة توصل المريد إلى أسباب الكمال بالله تعالى، قال تعالى: (**قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ**) [الأنعام: 104] يراد به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أو من ينوب عنه في كل زمان ومكان فهو الهادي إلى النور والبصيرة.

يرى القشيري في لطائف الإشارات: (للإنسان على نفسه دليل علامة وشاهد؛ فأعضاؤه تشهد عليه بما عمله، ويقال: هو بصيرة وحجة على نفسه في إنكار البعث، ويقال: إنه يعلم أنه كان جاحدا كافرا، ولو أتى بكل حجة فلن تسمع منه ولن تنفعه.) (القشيري: المصدر السابق، مجلد6، ص221)

ويرى ابن عجيبة الحسني في تأويله للآية: (**بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**) (أي: شاهد بما صدر عنه من الأعمال السيئة، كما يعرب عنه التعبير بـــ(على) وما سيأتي من الجملة الحالية، والتاء للمبالغة، كعلامة، أو: أنثه لأنه أراد به جوارحه؛ إذ هي التي تشهد عليه، أو: هو حجة على نفسه، والبصيرة: الحجة، قال الله تعالى: (**قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ**) [الأنعام: 104] وتقول لغيرك: أنت حجة على نفسك. ومعنى (بل): الترقي أي: ينبأ الإنسان بأعماله، بل هو يومئذ عالم بتفاصيل أحواله، شاهد على نفسه، لأن جوارحه تنطق بذلك. و(**بصيرة**) مبتدأ، و(**على نفسه**) خبر مقدم، والجملة: خبر الإنسان. أما الإشارة في هذه الآية كما يراها ابن عجيبة مفادها: ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم من المجاهدة، حيث يرى ثمراتها، وما أخر، حيث يرى شؤم تفريطه فيها، فالمشاهدة على قدر المجاهدة، فبقدر ما يقدم منها تعظم مشاهدته، وبقدر ما يؤخر منها تقل. بل الإنسان على نفسه بصيرة، يرى ما ينقص من قلبه وما يزيد فيه، ويشعر بضعفه وقوته، إن صحت بصيرته، وطهرت سريرته، فإذا فرط في حال سيره لا يقبل عذره، ولو ألقى معاذيره. (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد8، ص187 – 188)

أما البروسوي فيرى في تأويله للآية: (ينبأ الإنسان بأعماله بل هو لا يحتاج إلى أن يخبره غيره فإنه يومئذ عالم حواله شاهد على نفسه لأن

جوارحه تنطق بذلك، قال القاشاني: بل الإنسان حجة بينة يشهد بعلمه لبقاء هيئة أعماله المكتوبة عليه في نفسه ورسوخها في ذاته وصيرورة صفاته صور أعضائه فلا حاجة إلى أن ينبأ من خارج.) (البروسوي: المصدر السابق، مجلد10، ص250)

أما قوله تعالى: **(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)** [التكاثر:5 – 6] علم اليقين هو من أدنى العلوم الإلهية أو الروحية، إذ يعد علم اليقين هو التأسيس لعلمين أكثر رفعة منه هما علم عين اليقين، وعلم حق اليقين، ولكل علم من هذه العلوم مدخل خاص أو باب خاص يستطيع الإنسان دخوله دون غيره من الكائنات؛ وذلك لأن الإنسان مخلوق على الصورة الإلهية من كون روحه امتداد لنفخة روح الحق تعالى، وللنفخة مطلق التمكين إذا أدرك الإنسان مفتاح الباب الذي يدخل من خلاله إلى جميع العوالم المادية والروحية، فلكل عالم خصائص وطريقة تصل بالعارف إلى حقيقتها، ومن أجل ذلك أشار الحق تعالى بخطابه: **(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)** [الرحمن: 33] يرى الراغب في لفظة نفذ: (نفذ السهم في الرمية نفوذا ونفاذا، والمثقب في الخشب: إذ خرق إلى الجهة الأخرى، ونفذ فلان في الأمر نفاذا وأنفذته.) (الراغب: المصدر السابق، ص817)

أما لفظ السلطان فهو مأخوذ من السلاطة، والسلاطة كما يراها الراغب: (التمكن من القهر، يقال: سلطته فتسلط، قال تعالى: **(وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ)** [النساء: 90] وقال تعالى: **(وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ)** [الحشر: 6]، ومنه سمي السلطان، والسلطان يقال في السلاطة...وقد يقال لذي السلاطة، وهو الأكثر، وسمي الحجة سلطانا، وذلك لما يلحق من الهجوم على القلوب، لكن أكثر تسلطه على أهل العلم والحكمة والمؤمنين.) (نفسه: ص420)

ويعد خليفة الله في الأرض، أو الشيخ الولي الكامل هو سلطان الزمان لأنه خبير بالطريقة التي تؤدي بالعبد إلى النفاذ من عالم الكثافة المحدود إلى عالم اللطافة المطلق بما مكنه تعالى من هذا الأمر.

إن حقيقة العلم يجب أن لا يرتبط بالمحدود النسبي ويقف عند هذا الحد، بل يجب أن يطلب النفاذ إلى العلم الكلي المطلق؛ وذلك لأن العلم المحدود المادي له علاقة بالحياة الدنيا وعالم الحس. فهو منه نشأ وإليه يعود؛ وذلك لأن العلوم الحسية لا يمكن أن تنفذ إلى العالم الروحاني، فمن تمسك بها ووقف معها فلن تزحزحه خطوة باتجاه العلم الروحاني، فيبقى المرء يجهل الكثير من العلم، قال تعالى: (**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**) [الإسراء: 85] أي: أن العلم الذي هو ما دون العلم الروحي قليل بالنسبة إلى العلوم التي تتصل بعالم الروح، وليس إلى العلم من سبيل إلا الرب تعالى وطاعته والتقرب إليه من خلال مقام الفناء، فإذا بلغ العبد مرتبة الفناء كان علمه قائما بالله ومن يكون علمه قائما بالله تعالى، فإن علمه يكون مطلق وغير محدود، وإن صاحب العلم المطلق له من جملة العلوم علم اليقين، وعلم اليقين يعتمد على البصيرة الثاقبة المشار إليها بالحديث القدسي: (**اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله**)، ومن كانت رؤياه قائمة بنور الله فإنه يرى كل شيء، بما في ذلك رياض الجنة، ودركات الجحيم ، فالآية لا تشير إلى شيء وتحجب عن صاحب علم اليقين رؤية الجنة، بل يرى الجنة ويرى بنفس الوقت الجحيم، فيختار طريق الجنة ويتجنب طريق الجحيم.

لقد ربط تعالى بين الرؤية وعلم اليقين، وهذا دليل على أن البصيرة، والسماع، وغيرها من الحواس تشكل وحدة واحدة لا تتجزأ كما هو الحال في عالم الحس، أي: يصبح الولي كله عين، وكله سمع، وكله عقل في عالم الحقيقة، في حين أن من لا علم له بحق اليقين قد احتجب بآلات الحس وبقي معها شأنه شأن الأنعام التي خلقها تعالى محدودة بحدود عالم الحس لما أعطاها من القابليات المحدودة وجعلها مجبولة بهذا العالم.

ويستدعي السلمي الكثير من مقولات العارفين بالله في تأويل هذه الآية: (قال سهل: اليقين نارا، والإقرار باللسان من فتيله والعمل زينة، وابتداء اليقين المكاشفة ثم المعاينة، والمشاهدة. وقال يحيى بن معاذ: اليقين كشف

الغطاء عن القلب، وقال أو بكر الوراق: النفس عمياء وقائدها القلب، والقلب أعمى وقائدها الروح، والروح أعمى وقائدها المولى. وسئل بعضهم: عن اليقين وعن عين اليقين. قال: علم اليقين استجلاب الدلائل، وعين اليقين عين الحكمة، وقال بعضهم: اليقين حال التفرقة، وعين اليقين حال الجمع، وقيل: يروا علم اليقين موهبة الله. فإذا استقر اليقين فهو مشاهدة الغيوب بكشف القلوب، وملاحظة الأسرار بمخاطبة الأفكار، وقيل: اليقين علم لا تعترضه الشكوك، وقال الخراز، أبو سعيد: نجاة القلب في ثلاثة: في علم عين اليقين، وفي وجود عين اليقين، وفي شهود حق اليقين، وقال فارس: علم اليقين لا اضطراب فيه وعين اليقين هو علم تودعه الله الأسرار، وقال الحلاج: علم اليقين ما يستجلب بالدلائل وعين اليقين هو لا منازع فيه، ولا اضطراب. قال الشبلي: علم اليقين ما وصل إلينا على لسان الرسل، وعين اليقين ما أوصله إلينا من أنوار هدايته إلى أسرار القلوب من غير توسط، وحق اليقين لا سبيل إليه.) (السلمي: المصدر السابق، مجلد2، ص417 – 418)

يرى ابن عربي في تأويله للآية: **(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ)** (أي: لو ذقتم اللذات الحقيقية من العلوم اليقينية والإدراكات المستعملة على هذه الحسيات، والخيالات الفانية لكان ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والتحسر على فوات العمر العزيز فيها والذهول عنها بها**(لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)** أي: والله لترون بسبب احتجابكم بهذه المحسوسات نار جحيم الطبيعة الآثارية.) (ابن عربي: المصدر السابق ن ج2، ص455)

يرى ملا صدرا الشيرازي: أن للعلم درجات مختلفة منها: (الظن، والعلم، والإبصار، أي المشاهدة الباطنية. فالظن في هذه النشأة الأولى، والعلم في النشأة الثانية، والمشاهدة فيما فوقها. فحال الإنسان ما دام كونه في الدنيا أو من حيث كونه في الدنيا: **(أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ)** [فصلت: 54] وحاله في الآخرة: ثم نحشركم إلى يوم القيامة لا ريب فيه. وبوجه آخر العلم في الدنيا، والمشاهدة في الآخرة: **(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)** فالأثر الذي يصل أولا إلى السالك من مطلوبه، هو الإيمان بوجوده ووجوبه.

والأثر الثاني: الإيقان والتحقيق والمشاهدة: **(وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ)** [الحاقة: 51] فما أشد سخافة رأي أهل الظن والتخمين حيث يزعمون يوم القيامة بعيدا عن الإنسان بحسب الزمان، وما أظن الساعة قائمة، وبحسب المكان: **)يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)** [سبأ: 53]وأما أهل العلم واليقين فيعدونه قريبا بحسب الزمان **(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً* وَنَرَاهُ قَرِيباً)** [المعارج:6ـ 7] وكان نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يشاهد خازن الجنة ويناول بيده من ثمارها وفواكهها ولم يحكم بكون حارثة مؤمنا حقيقيا ما لم يكن مشاهدا للأمور الأخروية وأحوالها إذ قال: (أصبحت مؤمنا حقا) قال صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك ؟ قال: رأيت أهل الجنة يتزاورون، ورأيت أهل النار يتعاورون؛ ورأيت عرش ربي بارزا قال صلى الله تعالى عليه وسلم: أصبت فالزم.)** (الشيرازي، ملا صدرا: المصدر السابق582 – 583)

هذا يعني أن الجنة ليس بينها وبين المؤمن مسافة أو زمن، ذلك لأن العوالم متصلة بعضها ببعض وليست منفصلة إلا بالاعتبار فالبرازخ مسألة اعتبارية لا وجود لها للربانيين، إنما لها وجود لأهل الحجاب، وهم أهل الحس، والظنون، والأوهام الفاسدة، الذين احتجبوا بجهة الطبع والأوصاف البشرية، وليس بمقدورهم أن يغادروها إلى جهة الروح، فإنهم يشعرون باستحالة النفاذ من عالم الحس والمادة فأصابهم اليأس بذلك وتقاعسوا فأطاعوا بذلك الخيالات، والأوهام الإبليسية التي يبثها من خلال آلات التي لها تأثير باتجاه تصعيد عملية الوهم والظنون الفاسدة التي لا تغني عن الحق شيئا.

أما قوله تعالى: **(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)** [الحج: 46]

قوله تعالى: **(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ)** السير في الأرض دون التفكر فيه لم يكن هو مطلب الحق تعالى من الحقيقة الإنسانية بل جعل تعالى خلق

السماوات والأرض صور لمعاني عميقة جدا، تستحق أن يهتم بها الإنسان، ويكشف عن حقائقها الباطنة من خلال وسائل أوجدها الحق تعالى في هذا الوجود أيسرها الكشف عن المماثلة الكونية في النفس الإنسانية، قال تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)** [فصلت: 53] فالسير في الأرض يفترض أن تصاحبه رؤية دقيقة ويقينية لكل أفق يواجه السائر لأن الله تعالى قد وضع في كل أفق من الآفاق سر يقود المتأمل الصادق الباحث عن الحقيقة إلى معرفة الحق تعالى؛ إذا عرف السائر الكيفية التي من خلالها تحصل عملية الكشف عن هذا السر، وقد جعل تعالى لكل مرتبة وجودية سر يخبر عن حقيقة الحق تعالى، كما جعل تعالى في أفق النفس كذلك سر مودع يستطيع الإنسان من خلاله أن يتبين حقيقة الحق ويكشف عنها، قال تعالى: **(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)** [الذاريات: 21] لقد مدح تعالى المتفكر في عملية الخلق، ذلك لأن التفكر وسيلة من وسائل البحث عن الحقيقة، قال تعالى: **(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)** [آل عمران: 191] فطالما أن الخلق لم مخلوق بالباطل فإن هذا يعني أنه مخلوق بالحق؛ فالتفكر فيه يكشف عن الحق كما أن التفكر يجب أن يجري على وفق سياق حدده الحق تعالى وهو أثناء وبعد الذكر كما جاء في قوله تعالى: **(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)** في هذه الآية يتضح أن الذكر مفتاح مهم ويفيد في عملية الكشف عن الحقائق في عملية التفكر، ومن ثم يؤدي الذكر والتفكر بالذاكر إلى المعرفة اليقينية.

قوله تعالى: **(فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)** أي: وجدت القلوب من أجل غاية سامية، وهي الوصول إلى الحقيقة المطلقة، وليس لها أن تدبر الحاجات الحسية، أو المادية المحسوسة فحسب، ولذلك ارتبط قوله تعالى: **(فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)** بعد قوله: **(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ)** وهذا يعني أن الحق

تعالى يطلب منا أن نجرد عقولنا عن التوجهات المحدودة، ونجعلها تحلق في الآفاق وصولا إلى الحقيقة، فإذا انشغلت العقول عن هذا التوجه، فإنها تكون قد جانبت مراد الحق تعالى من إيجادها بهذه القابلية.

قوله تعالى: **(أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا)** كما أن السماع لم يخلق ليكون وسيلة إصغاء لمسموع حسي محدود بل يجب أن يتعدى ذلك إلى سمع يكون رافدا مهما من روافد العقل باتجاه الحقيقة، وإلا فإن هناك استخدام سيء للغاية لهذه الحاسة، كما أن عدم استخدامها الاستخدام الصحيح يعني تعطيلها عن الغاية التي خلقت من أجلها، وهذا عين الإفساد في أرض البدن، الذي أشارت إليه الملائكة بقولها: **(قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)** [البقرة: 30] فالإفساد هو عملية إخراج المخلوق من التوجه إلى تحقيق غايته الصحيحة النبيلة، فمن يقيد عقله باتجاه تحقيق منافع مادية محدودة يكون قد أفسد بحق العقل بسلب قدرته المطلقة للوصول إلى الحقيقة.

قوله تعالى: **(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ)** الأبصار أوجدها تعالى من أجل الكشف عن الحقائق الحسية المباشرة أي: تلك الأشياء التي نراها في العين المجردة، وقدرت الإبصار لها مهمة الكشف عن أبجديات المعارف المادية ــ الحسية، غير أن الطريق أمامها للترقي يفترض أن يكون ميسر من أجل أن تتطور إلى البصر لعوالم الروح أو ما هو مغيب عن الحس.

وحين يقول تعالى إنها لا تعمى الأبصار؛ فإن ذلك يعني أن ما يقوم به البصر من وظيفة حسية هو حد أدنى قد أعطاه الحق لهذه الحاسة، ولم يقيدها به، بل جعل إمكانية الترقي لها قائمة إذا تطورت إمكانيات القلب نتيجة الذكر، والتفكر، والتذكر حتى يصل القلب إلى البصيرة بالله تعالى، فإذا حصلت البصيرة للقلب أمد البصر بقوة البصيرة التي تتعدى حدود الحس فتنفذ من أقطار السماوات والأرض فيتحقق المطلوب.

قوله تعالى: **(وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)** إن عمى القلوب هو العقدة التي تقف أمام الإنسان، وتحول بينه وبين مطالعة الحقيقة، وتمنعه من

عملية تحقيق الصلة مع جهة الحق تعالى، لقد جاء في الحديث الشريف: **(إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد، وجلائها بذكر الله)**، وقال تعالى: **(الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)** [الرعد: 28] وإن القلب الذي لا يذكر هو في حكم الميت كما جاء في الحديث الشريف: **(الفرق بين الذاكر والغير ذاكر كالفرق بين الحي والميت)** وقد أمرنا تعالى أن نستجيب لداعي الله بقوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)** [الأنفال: 24] فمن لم يستجيب، يبقى في حكم الميت لأنه سيكون بعيدا عن الله تعالى لفقدانه الوسيلة التي تصل بينه وبين الحق، كما أنه يبقى ناسيا لله تعالى لأنه بعيد عن الذكر.

يرى التلمساني، أبي مدين: (عنايته تعالى فيك لا لشيء منك، وأين كنت حيث واجهتك عنايته، وقابليتك رعايته؛ لم يكن في أزله إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال؛ بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال، وعظيم النوال، فلا تعقد نية همتك إلى غيره. فالكريم لا تتخطاه آمال الطالبين، لا ترفعن لغيره حاجة، هو موردها عليك فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا ؟ إن لم تحسن ظنك به من أجل وصفه حسن ظنك به؛ لوجود معاملته معك، هل عودك إلا حسنا ؟ وهل أسدى إليك إلا مننا. العجب كل العجب ممن يهرب ممن لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لا بقاء له معه. قال تعالى: **(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)**. (التلمساني، أبي مدين: 2008، المصدر السابق، ص 50)

ويريد التلمساني على القلوب أن تتفكر في حكمة التساؤلات التي تعج بها الآفاق، ومن لا يتفكر بشكل صحيح أو يتأمل تلك الحكم لا يستطيع الوصول إلى الحقائق التي جعلها تعالى آية لأولي الألباب، أي: من لا يستطيع أن يلاحظ حكمة الحق تعالى في الوجود وفي الجدلية القائمة فيه، لا يمكن عده من صنف البشرية المخلوقة على الصورة الإلهية، ويكون قد أهمل ما أعطاه الحق من تمكين وقدرة في التفكر والتأمل.

ويذهب ابن عربي فتوحاته إلى تأويل الآية بقوله: (إن القلب وإن كان محل السعة الإلهية، فإن الصدر محل السعة القلبية، إذ كان إنما سمي صدرا لصدوره ولهذا قال: **(وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)** فإن القلب في حال الورود يضيق لما يقتضيه من الجلال والهيبة وما يعطيه القرب الإلهي والتجلي، وإذا صدر اتسع وانفسح لأنه كون وهو صادر إلى كون فينفسح للمناسبة وتتسع أشعة نوره بانبساطها على الأكوان ويبتهج بكونه خص بهذا التعريف الإلهي على أبناء جنسه، ولهذا إذا عرض له عارض يقبضه في غير محل القبض ينبهه الحق يذكره ما أنعم الله به عليه ليتذكر النعمة الإلهية عليه فيحول بينه وبين ما كان عليه من الضيق، فهو في الظاهر من إلهي وفي المعنى رحمة بهذا القلب، فمن هنا يقرر الحق عبده على ما امتن به عليه. فإن قلت: فإن الله قد ذكر أنه يمن على عباده. قلنا: إنما جاء هذا لما امتنوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بإسلامهم فقال الله تعالى له: قل لهم يا محمد: **(بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)** [الحجرات: 17] أي: إذا دخلتم في حضرة المن فالمن لله لا لكم.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد 4، ص419)

ومن زاوية أخرى يرى ابن عربي في فتوحاته تأويل الآية: (أن لأهل الله أعين يبصرون بها، وآذان يسمعون بها، وقلوب يعقلون بها، وألسنة يتكلمون بها، غير ما هي هذه الأعين، والآذان، والقلوب، والألسنة عليه من الصورة، فبتلك الأعين يشهدون، وبتلك الآذان يسمعون، وبتلك القلوب يعقلون، وبتلك الألسنة يتكلمون فكلامهم مصيب **(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)** عن الحق والأخذ به **(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)** [البقرة: 171] عن الله **(فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ)** [البقرة: 18] إلى الله، ووالله إن عيونهم لفي وجوههم، وإن سمعهم لفي آذانهم، وإن ألسنتهم لفي أفواههم، ولكن العناية ما سبقت لهم ولا الحسنى.) (نفسه: مجلد 5، ص، 19)

ويضيف ابن عربي: (أن رحمة الله وسعت كل شيء، ومن رحمته أن خلق الله بها قلب عبده، وجعله أوسع من رحمته، فإن قلب المؤمن وسع الحق كما ورد أن الله يقول: **(ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي**

المؤمن) فرحمته مع اتساعها يستحيل أن تتعلق به أو تسعه، فإنها وإن كانت منه فلا تعود عليه، وما أحال تعالى عليه أن يسعه قلب عبده وذلك أنه الذي يفقه عن الله ويعقل عنه وقد أمره بالعلم به وما أمره إلا بما يمكن أن يقوم به، فيكون الحق معلوما معقولا للعبد في قلبه ولا يتصف بأنه تعالى مرحوم، فهذا يدلك على أن الرحمة لا تناله من خلقه كما يناله التقوى أعني تقوى القلوب كما قال: **(وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ)** [الحج: 37] وقال تعالى: **(فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)** [الحج: 46] وما جعلها عقلا إلا ليعقل عنه العبد بها ما يخاطبه به، ومما خاطبه به أن رحمته وسعت كل شيء وأن قلبه وسعه جل جلاله، ومعلوم أن الله تعالى أخبر أنه أحب أن يعرف ومقتضى الحب معروف، فخلق الخلق وتعرف إليهم فعرفوه، فما عرفوه بنظرهم وإنما عرفوه بتعريفه إياهم.) (نفسه: مجلد7، ص 9 – 10)

ويضيف ابن عربي: إن العلم بالله على طريقين: الطريق الواحد النظر الفكري فلا يزال صاحب هذا الطريق إذا وفى النظر حقه في حيرة إلى الموت فإنه ما من دليل إلا وعليه عنده دخل وشبهة لاتساع عالم الخيال، إذ القوة المفكرة ما لها تصرف إلا في هذه الحضرة الخيالية، إما بما فيها مما اكتسبته من القوى الحسية وإما مما تصوره القوة المصورة، فإذا كان صاحب هذا النظر في الدنيا أعمى أي حائرا ويموت والإنسان إنما يموت على ما عاش عليه وهذا ما عاش إلا حائرا فيجيء في الآخرة بتلك الحيرة، فإذا وقع له الكشف هناك زاد حيرة لاختلاف الصور عليه فهو أضل من كونه في الدنيا، فإنه كان في الدنيا لو كشف له أن تزول عنه الحيرة، وأما الطريقة الثانية في العلم بالله فهو العلم عن التجلي والحق لا يتجلى في صورة مرتين، فيحار صاحب هذا العلم في الله لاختلاف صور التجلي عليه كحيرة الأول في الآخرة، فما كان لذلك في الآخرة هو لهذا الآخر في الدنيا. وأما البصيرة التي يكون عليها الداعي والبينة فإنما ذلك فيما يدعو إليه وليس إلا الطريق إلى السعادة لا إلى العلم، فإنه إذا دعا إلى العلم أيضا إنما يدعو إلى الحيرة على بصيرة أنه ما ثم إلا الحيرة في الله لأن الأمر عظيم والمدعو إليه لا يقبل الحصر ولا ينضبط، والكامل من يرى اختلاف الصور في العين الواحدة.) (نفسه: ص273)

الشيخ واللسان الناطق

اللسان لغة: يرى ابن فارس لسن: (اللام والسين والنون أصل صحيح واحد، يدل على طول لطيف غير بائن، في عضو أو غيره. من ذلك اللسان، معروف وهو مذكر والجمع ألسن، فإذا كثر فهي الألسنة؛ ويقال لسنته، إذا أخذته بلسانك، واللسن: جودة اللسان والفصاحة، واللسن: اللغة، يقال لكل قوم لسن أي لغة وقرأ ناس: **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ)** [إبراهيم: 4].) (ابن فارس: 2008، مجلد2، ص476)

اللسان في الاصطلاح الصوفي

يعرف القاشاني اللسان فيرى: (ما يقع به الإفصاح الإلهي للأسماع، ويقال بان اللسن ما يحصل في أسماع آذان العارفين من جانب إفصاح الحق لهم عما يريد تعليمهم. ويعرف القاشاني لسان الحق: فيرى هو الإنسان المتحقق بمظهرية الاسم القائل، وهو الذي تشتمل كل لفظة وكلمة تصدر منه على جميع المعاني والألفاظ لكونه مجلى للفظ الواحد، بل الحرف الواحد الذي كل الذات به، لسان محدث نفسها بنفسها بما اشتملت عليه من الشؤون والاعتبارات المندرجة في واحديتها. أما اصطلاح لسان العالم فيعرفه القاشاني: هو لسان الحق، فإنه إنما كان لسان الحق لتحققه بمظهرية الاسم القائل، فكان هو لسان العالم، إذ لا ناطق إلا بالاسم القائل تعالى.) (القاشاني: المصدر السابق، ص379)

ويعرف الجرجاني لسان الحق: (هو الإنسان الكامل المتحقق بمظهرية الاسم المتكلم. ويعرف اللسان: هو ما يقع به الإفصاح الإلهي لأذان العارفين عند خطابه تعالى لهم.) (الجرجاني: المصدر السابق، ص 135)

ويرى البقلي في مقام اللسان: (إذا شرح الله صدر الواصل بنور مشاهدته في مقام الوصل والأنس ورفع العلة عن لسانه فصار لسان القلب والظاهر واحدا فيقدر أن يتكلم بلسانه مما في لسان القلب من شرح المعارف والكواشف بعبارات فصيحة وإشارات لطيفة فيكون صاحب اللسان في المعرفة فكلامه

هناك كلام الربانيين لأن الحق سبحانه يتكلم بلسانه، قال سبحانه في هذا المعنى حاكيا عن كليمه عليه السلام: **(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي)** [طه: 27] قال عليه السلام: **(بعثت بجوامع الكلم وأنا أفصح العرب)** قال العارف: إذا ارتفعت عجمة الإنسانية عن لسان العارف يتكلم بجميع الأسرار لأن لسانه ملتبس بلطائف الأنوار.) (البقلي: المصدر السابق، ص226)

ما من شك، وكما أشرنا من قبل أن اللسان لها ارتباطات متشعبة، فهو من جهة يرتبط بالحس فيكون معبرا عنه، ويرتبط بالعقل فيكون مترجما عنه، ويرتبط بالروح فيكون لسان الحق الناطق مع الخلق، قال تعالى: **(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)** [النجم:3ـ 4] وجاء في الحديث القدسي: **(كنت لسانه الذي ينطق به...الحديث)**، ومن أجل تحقيق هذه المستويات الثلاثة لابد من طرق ثلاثة، وإن الذي يهمنا في بحثنا هذا هو الطريق، أي: كيف نجعل اللسان ينطق بالله تعالى ؟.

لا بد لنا من تحقيق هذا الهدف هو الرجوع إلى الخبير ليدلنا على الكيفية التي من خلالها يتم لنا تحقيق العلاقة التي يمكن أن تكون بين العبد والمعبود جل شأنه الكريم، لا سيما وإن الحق تعالى قد أشار إلى هذا الخبير وأحالنا إليه بقوله: **(الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)** [الفرقان: 59] فإن هذا الخبير لا يمكن أن يحيلنا إليه الحق تعالى، إلا وقد أعطاه، ومكنه تعالى بالمعرفة الذوقية اليقينية التي تؤدي بالسالك، أو المريد إلى الهدف المطلوب، ولابد للخبير أن يكون قدمه قد جرى على قدم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وذلك لسببين الأول: لقد أخبرنا الحق تعالى بقوله الكريم: **(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)** [الأحزاب: 21] ومن باب العدالة الإلهية أن يكون في كل زمان أسوة حسنة، وأن لا تكون هذه الأسوة أقل أو أرقى من تمكينات الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، كما أن من مقتضيات الرحمة الإلهية التي توجه بها الحق تعالى للعالمين أن تسع الرحمة كل زمان ومكان قبل، وبعد مجيء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كما جاء في قوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** [الأنبياء: 107]

ولما كانت من مقتضيات الرحمة الإلهية أن تتوجه للعالمين كافة كما جاء في قوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)** [سبأ: 28] فإن هذا يعني، أن الأمم السابقة واللاحقة لابد لها أن حصلت على استحقاقها من الرحمة بحسب مقتضيات العدالة، وهذا يعني أن القائمين بهذه الرحمة والعاملين عليها إما أن يكونوا جميعا ينتمون إلى حقيقة واحدة أسمها الحقيقة المحمدية، وأما أن يكونوا نوابا للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ووكلاء له وقد منحهم الحق تعالى عين ما مكن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في مجال نشر الرحمة والقيام بحقها.

السبب الثاني: أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم قام بإيصال الرحمة، وما تستلزم من عمليات إرشاد وتوضيح وتبيان للعالمين في زمنه، وكان لا ينطق عن الهوى كما جاء في قوله تعالى: **(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)** كما أن فعله كان يجري بالله: **(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى)** [الأنفال: 17] وقوله تعالى: **(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)** [الكهف: 82] كما أن حاله صلى الله تعالى عليه وسلم متصل بالله تعالى كما جاء في قوله تعالى: **(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)** [الضحى: 3]، من هنا يتضح أن الذي يمثل امتداد الرحمة الإلهية، وينوب عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يجب أن يكون على قدم الرسول في القول، والفعل، والحال، ولا ينتقص من هذا التمكين شيء؛ لأن ذلك يعد إخلال في العدل الإلهي، وتقنين لمديات الرحمة الواسعة وهذا غير ممكن لأنه يناقض الكرم واللطف الإلهيين.

من هنا يتضح أن الشيخ الولي الكامل الوارث المحمدي يعد من الضرورات المهمة التي لا يمكن للزمان والمكان الاستغناء عنه، وهو الخبير الوحيد الذي يجب أن نلجأ إليه في الزمان والمكان، ليكون قدوتنا، وأسوتنا الحسنة إلى الله تعالى، ويؤدي بنا إلى مرتبة الفناء، فإذا تحققنا في مرتبة الفناء كان الحق تعالى لساننا الذي ننطق به.

يرى الشيرازي، ملا صدرا: (إن العلم يحصل من طريقين: أحدهما التعلم والكسب، وثانيها الوهب والجذبة، وهو الإعلام الرباني، أما التعلم فهو

إما من خارج وإما من داخل، أما الأول فطريق معهود بين الناس مسلوك محسوس، وهو التعلم بحسب إلقاء الألفاظ المسموعة من الأستاذ البشري، والكتابة المنقوشة منه، وأما الثاني وهو التعلم من الداخل،فهو الاشتغال بالتفكر، إذ التفكر في الباطن بمنزلة التعلم في الظاهر، إلا أن التعلم استفادة الشخص الجزئي، والتفكر هو استفادة النفس من النفس الكلية، وهي أشد تأثيرا وأقوى تعليما من جميع العلماء والعقلاء، والعلوم مركوزة في أصل النفس، وسنخها بالقوة كالبذر في الأرض، والتعليم إخراج ذلك الشيء الذي بالقوة إلى الفعل، فالعالم بالإفادة كالزارع، ونفس المتعلم كالأرض المزروعة، والعلم بالقوة فيها كالبذر والنواة في الأرض، يثمرها المعلم بسقي التعليمات المتتالية، وإزالة أشواك الشكوك، وتهذيبها عن نباتات الاعتقادات الرديئة المفسدة وإذ كملت نفس المتعلم، يكون كالشجر المثمر.) (الشيرازي، ملا صدرا: 2008، ص221 – 222)

هنا إشارة إلى أهمية المعلم في عملية العلم، سواء كان ذلك يختص بالظاهر أو يختص بالباطن ففي كلا الحالتين لا يمكن أن يهمل دور المعلم في هذا الميدان فالشيخ الولي المرشد الكامل له دور مهم في الاتجاهين الظاهر والباطن، ففي الظاهر تأتي أهمية اللسان في عملية إيصال العلم، وفي الباطن فإن لسان الحال له أهمية أوسع في عملية التعليم، وهذا ما لم يستطيع إليه سبيلا المعلم الذي يعتمد على تمكينات الحس الاعتيادية لأنه محدود بحدود الحس.

وفي مجال الكشف فإن الشيرازي يرى: (أن الكشف قسمان: صوري ومعنوي، وأعني بالصوري ما يحصل له في عالم المثال من طريق الحواس الخمس، إن للنفس في ذاتها سمعا وبصرا وشما وذوقا ولمسا، فالمكاشفة الصورية قد تكون على طريق المشاهدة البصرية، كرؤية المكاشف صور الأرواح المتجسدة والأنوار الروحانية، وإما أن يكون على طريق السماع، كسماع النبي صلى الله عليه وسلم الوحي النازل عليه كلاما منظوما، أو مثل صلصلة الجرس ودوي النحل، كما جاء في الحديث، فإنه صلى الله تعالى

عليه وسلم كان يسمع ذلك ويفهم المراد منه، أو على سبيل الاستنشاق، وهو التنسم بالنفحات الإلهية، والتنشق بالفتوحات الربوبية، كما أخبر عنه بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إن لله في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها)** وقال أيضا: **(إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن)** أو على سبيل الملامسة وهي بالإتصال بين النورين أو بين الجسدين المثاليين.) (الشيرازي، ملا صدرا: المصدر السابق، ص225)

هذا يعني أن الكشف يعتمد أساسا على نوعين من الحس، ظاهري وباطني، أي: يشترك فيه قوى الحس الظاهرية والباطنية في وقت واحد.

قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [إبراهيم: 4]

وقوله تعالى:

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي) [طه: 27]

وقوله تعالى:

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:3ـــ 4]

وقوله تعالى:

(وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً) [مريم: 50]

وقوله تعالى:

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً) [مريم: 97]

في الآية الأولى جاء قوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** [إبراهيم: 4] تؤكد على أن لسان الرسول أو النبي، وإن كان ينطق بلغة القوم إلا أن المعارف التي يتكلم بها لسان الرسول هي من عند الله، فاللسان هنا وسيلة الحق تعالى في إيصال مقتضيات الرحمة الإلهية إلى الناس كافة،

فلسان الرسول يتوسط بين الحق تعالى والخلق في بيان المراد الإلهي منهم بما يجعلهم من المرحومين.

قوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَا من رَّسُولٍ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ)** جاء قوله تعالى: **(بلسان قومه)** وكأنه تطبيق لما جاء في الحديث القدسي: **(كنت لسانه الذي ينطق به...الحديث)** هذا يعني أن الرسول أو النبي يتحقق بالحق تعالى إما من خلال العبادة ونافلتها ليكون الحق تعالى لسانه الذي ينطق به كما جاء في بداية الحديث: **(ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت لسانه الذي ينطق به...الحديث)** وأما أن يكون هذا الرسول أو النبي مجتبى وقد اختصه تعالى بالرسالة إلى هؤلاء القوم فكان الحق لسانه الذي ينطق به، قال تعالى: **(شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ)** [الشورى: 13] وقوله تعالى: **(وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)** [البقرة: 105].

قوله تعالى: **(لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)** إن مهمة الرسول عليه السلام أو الولي أو الشيخ الولي المرشد الكامل هو التبيين والتوضيح للمراد الإلهي، أما مسألة الهداية فهي من اختصاص الحق تعالى، ولا شأن للشيخ فيها، فالشيخ يوضح طريق الحق، ويرشدهم إلى الصراط المستقيم، ويترك الخيار لهم فمنهم من يستجيب ومنهم من لا يستجيب، قال تعالى: **(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)** [القصص: 56] إذ أن الكثير من الناس قد احتجب بمحبة الدنيا ومال إليها فأصبح من الصعب عليه أن يفضل ما هو مغيب عنه ويترك ما بيده من وسائل تحقق له في الحال شكل من أشكال الراحة والسعادة، وهؤلاء هم الذين أشار تعالى إليهم بقوله: **(وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ)** [الأنفال: 23] انتفت الخيرية عنهم لميلهم إلى جهة الدنيا ونسيانهم جهة الآخرة ومن أجل هذا

يكون موقف الحق تعالى منهم منع ما ينطلق من لسان رسله من مواعظ وحكمة تجاه مسامعهم لأنهم منشغلون عن الحق بغيره، وليس على الرسول أو الشيخ الولي المرشد إلا أن يدع المعاند منهم على عناده، قال تعالى: **(مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)** [الأعراف: 186].

قوله تعالى: **(فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** في دعوة الرسول أو الولي تتحدد هوية الضال من المهتدي، فمن يستجيب لنداء الحق تعالى على لسان الشيخ؛ فهو المهتد، ومن لا يستجيب، فهو الضال، فإن الله تعالى وللمؤمنين العزة والحكمة في عملية الاهتداء، فالعزة تتطلب من المخاطب أن يستجيب طوعا لنداء الحق على لسان رسله، أو أنبيائه، أو أوليائه دون أن يبذل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم جهدا كبيرا في ذلك أو توسلا من أجل ذلك، لأن عملية الاهتداء هي من قبيل المن الإلهي على المهتدي، قال تعالى: **(قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)** [إبراهيم: 11]

يرى الكيلاني، الشريف ناصر: أن للحق في مشاهدة عباده إياه نسبتين: نسبة تنزيه، ونسبة تشبيه، فنسبة التنزيه تجليه في: **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)** [الشورى: 11]، والنسبة الأخرى تجليه في قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إن تعبد الله كأنك تراه)** وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إن الله في قبلة المصلي)** وقوله تعالى: **(فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ)** [البقرة: 115] والأحاديث الواردة لو لم تستصحب بمعانيها الموضوعة لها المفهومة من الاصطلاح، فما معنى قوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ)** فما وقعت الفائدة بذلك عند المخاطب لها خصوص العموم من الناس، فإذا تقرر عندك هاتين النسبتين للحق المشروعتين وأنت المطلوب بالتوجه بقلبك وبعبادتك إلى هاتين النسبتين، فلا تعدل عنهما إن كنت ناصحا نفسك، فإن الإنسان ما جمع الحقائق المذكورة إلا بهاتين النسبتين، فلما توجهت هاتان النسبتان فخرج بنو

آدم لهذا على ثلاث مراتب: (كامل) وهو الجامع للنسبتين، أو (واقف) مع دليل عقله، ونظره، وفكره، وهو المنزه خاصة، أو (مشبه) مما أعطاه اللفظ الوارد ولا رابع لهم. (الكيلاني، الشريف ناصر: المصدر السابق، ص336)

ويرى ابن عربي في تأويل قوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ)** أي: بكلام يناسب ما عليه حالهم بحسب استعدادهم وعلى قدر عقولهم وإلا لم يفهموا لبعد ذلك المعنى عن أفهامهم وعدم مناسبته لمقامهم، فلم يمكنه أن يبين لهم ما في استعدادهم الأول بالقوة من الكمال اللائق به وما تقتضيه هوياتهم بحسب الفطرة **(لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ)** لزوال استعداده بالهيئات الظلمانية ورسوخها والاعتقادات الباطلة واستقرارها **(وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ)** ممن بقي على استعداده أو لم يترسخ فيه حواجب هيئاته وصور اعتقاداته **(وَهُوَ الْعَزِيزُ)** القوي الذي لا يغلب على مشيئته فيهدي من يشاء هدايته ويضل من يشاء ضلالته **(الْحَكِيمُ)** الذي يدبر أمر هداية المهتدي بأنواع اللطف وأمر ضلال الضال بأصناف الخذلان على مقتضى الحكمة البالغة . (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص346)

وفي الفتوحات يرى ابن عربي: (كان إنزال الوعيد بعلم الله الذي سبق بإنزاله ولم يكن في حق قوم إنفاذه في علم الله، ولو كان في علم الله لنفذ فيهم كما ينفذ الوعد الذي هو في الخير لأن الإيعاد لا يكون إلا في الشر، والوعد يكون في الخير وفي الشر معا، يقال: أوعدته في الشر، ووعدته في الشر والخير، وقال تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ)** فما بين لهم تعالى التجاوز عن السيئات في حق من أساء من عباده والأخذ بالسيئة من شاء من عباده، ولم يفعل ذلك في الوعد بالخير، فأعلمنا ما في علمه، فكما هو واحد في ألوهيته هو واحد في أمره، فما أنزل إلا بعلم الله سواء نفذ أو لم ينفذ.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد 4، ص60)

وفي تأويل آخر في الفتوحات يرى فيه ابن عربي: (ما من جنس من أجناس المخلوقين إلا وقد أرسل إليه من ملك، وجن، وإنسان، وحيوان،

ونبات، وجماد، فذكر من الحيوان النحل، ومن الجماد السماء والأرض، وإن كان الكل عندنا أحياء، ولكن نجري على المعهود المتعارف في الحس الغالب وقال تعالى: **(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ)** [الإسراء: 44] وقوله: **(وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ)** [فاطر: 24] وقال: **(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً)** [الأنعام: 9] وقال: **(لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً)** [الإسراء: 95] وقال: **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ)** أي بلحنهم، والوحي على ضروب شتى، ويتضمنه هذا المنزل، فمنه ما يكون متلقى بالخيال كالمبشرات في عالم الخيال وهو الوحي في النوم، فالمتلقي خيال، والنازل كذلك، والوحي كذلك، ومنه ما يكون خيالا في حس على ذي حس، ومنه ما يكون معنى يجده الموحى إليه في نفسه من غير تعلق حس ولا خيال بمن نزل به، وقد يكون كتابة، ويقع لكثير من الأولياء.) (نفسه: مجلد 4، ص390)

ويضيف ابن عربي في فتوحاته: **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيبين لهم)** وأبلغ من هذا الإفصاح من الله لعباده ما يكون، فلابد أن يفهم من هذه العبارات ما تدل عليه في ذلك اللسان بما وقع الإخبار به عن الكون، فيعرف المعنى الذي يدل عليه ذلك الكلام وتعرف النسبة وما وقع الإخبار به عن الله يعرف المعنى الذي يدل عليه ذلك الكلام، وتجهل النسبة لما أعطى الدليل العقلي والدليل الشرعي من نفي المماثلة، فإذا تحققت ما قررناه تبينت أن كلام الله هو هذا المتلو المسموع المتلفظ به المسمى قرآناً وتوراة وزبور وإنجيلا، فحروفه تعين مراتب كلمة من حيث مفرداتها، ثم للكلمة من حيث جمعيتها معنى ليس لآحاد حروف الكلمة، فللكلمة أثر في نفس السامع، لهذا سميت في اللسان العربي مشتقة من الكلم وهم الجرح وهو أثر في جسم المكلوم، كذلك للكلمة أثر في نفس السامع أعطاه ذلك الأثر استعداد السمع لقبول الكلام بواسطة الفهم لابد من ذلك، فإذا انتظمت كلمتان فصاعدا سمي المجموع آية أي علامة على أمر لم يعط ذلك الأمر كل كلمة على انفرادها مثل الحروف مع الكلمة، إذ تقرر أن للمجموع حكما لا يكون لمفردات ذلك

المجموع، فإذا انتظمت الآيات بالغا ما أراد المتكلم أن يبلغ بها سمي المجموع سورة معناها منزلة ظهرت عن مجموع هذه الآيات. (نفسه: مجلد5، ص139 – 140)

ويضيف ابن عربي إن عملية الاستجابة، والطاعة، ونقيضها إنما تخضع لحال الاستعداد الذي عليه المتلقي عن الرسول أو المرسل، فإن الله يبعث رسله إلى هذه النفوس الناطقة وهي التي تنفذ في الجوارح ما تنفذ من طاعة ومخالفته ولها قبول الرسالة والإقبال على الرسول والتحفي به أو الإهانة وقد يكون الرد بحسب ما أعطاها الله من الاستعداد من توفيق أو خذلان، فجعل النفوس ملوكا على أبدانها وأتاها ما لم يؤت أحدا من العالمين وهو طاعة رعاياها لها، فالجوارح والقوى لا تعصي لها أمرا بوجه من الوجوه، وسائر الملوك الذين رعاياهم غير متصلين بهم قد يعصون أوامر ملوكهم، كما أن من هؤلاء الملوك قد يعصي ما أمره به الملك الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله إليهم وقد يطيع، فتوجيه الرسل وبعث الله إليهم أثبت لهم كونهم ملوكا، فلما أنزلهم منزلته في الملك علمنا انه لولا ما ثم مناسبة تقتضيه ما كان هذا، فإذا المناسبة في أصل الخلقة وهي قوله تعالى: **(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي)** [الحجر: 29]، فهو ولاه وملكه وجعله خليفة عنه، فمنهم من خرج عليه كفرعون وأمثاله، ومنهم من لم يخرج عليه فما كانت الرسل إلا إلى ولاته. (نفسه: مجلد7، ص408)

وفي اللسان تتركز حاسة الذوق التي تفيد في الكشف عن المذاقات لأصناف الأطعمة والفاكهة والأشربة، وجعل تعالى في الإنسان رغبة جامحة في عملية التذوق فكل ما يقع أمام العين أو تنبعث منه رائحة زكية يتمنى المر أن يتذوقه، والقليل من الناس من يتعدى ذوقه فيطمع في تخطي الأطر الحسية في عالم الدنيا ليذوق فاكهة العالم الروحاني أو فاكهة الآخرة، فجاء القرآن ليذكر أن هناك نوع من الطعام أرقى وأشهى مذاقا من هذه الأطعمة التي هي من مركبات الطين أو التراب، قال تعالى: **(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)**

[فصلت: 31] وقوله تعالى: (**وَبَشِّرِ الَّذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) [البقرة: 25].

إن حاسة الذوق أوجدها الله تعالى لا لتكون واقفة مع المحدود من الأطعمة والأشربة بل أراد لها تعالى أن ترتقي من مستوى إلى مستوى أرقى وصول إلى الذوق الذي يتجرد من جميع الأغيار ليستقر في أحضان الحقيقة المطلقة، وهذا يعني أن على الذوق أن يرافق الإنسان في عملية التخلي والتحلي، ويلازمه في رحلته إلى الذوق المعرفي الذي يأتي من الله تعالى نتيجة عملية الفناء في الله تعالى، فإذا بلغ الذوق هذه المرتبة من الترقي يكون قد حقق مراد الحق فيه.

يرى القاشاني: إن الذوق يطلق ويراد به: (أول مبادىء التجليات، والشرب أوسطها، والري نهايتها، واعلم أنهم يعبرون عن حال العبد الواصل في سيره في منازل القرب إلى منزل البرق، الذي مر ذكره بأنه ذاق قطرة نازلة في ضمن ذلك البرق الصادق، فإن البرق الكاذب المسمى بالخلب هو الذي لا مطر معه، وتلك القطرة تسكن حرقة العطش الذي سنذكره، واعلم أن الأذواق التي يشير إليها القوم هي علوم لا تنال إلا لمن كان خالي القلب عن جميع العلائق والعوائق كلها. وتقرير ذلك، هو أنه لما استحال على القوة الذائقة أن تدرك شيئا من الطعوم ما لم تكن خالية عن التكيف بجميعها لكون الرطوبة اللعابية المنبعثة من الآلة المسماة بالملعبة إذا لم تكن عديمة الطعم، فإنه لا يمكن لها أن تؤدي المطعوم على وجهه كما يشاهد ذلك من حال المرضى إذا تكيفت قوتهم الذائقة بكيفية طعم الخلط الغالب، فإن طعم الأشياء المأكولة والمشروبة لا تتأدى إلا مشوبة بطعم ذلك الخلط الغالب. فكذا حال القوة المدركة للحقائق من الإنسان فإنها ما لم تكن خالية عن التكيف بشيء من العقائد، والآراء المترسخة فيها فإنها لا محالة يستحيل عليها أن تؤدي إلى نفس كيفية تلك الحقائق على ما هي عليه في أنفسها ليمكن النفس من الاطلاع على وجه الحق فيها.) (القاشاني: المصدر السابق، ص218)

في حين يرى البقلي: (أن بدو مقام العشاق ذوق كؤوس بحار التجلي فإذا ترصدوا لوقوع أنوار القرب في قلوبهم واستنشقوا روائح الغيوب تنكشف أوائل بوادي نور الصفات فيجدون منها بعد مباشرتها صميم أسرار أرواحهم طيب ذوق سناء المشاهدة في المكاشفة، قال ذو النون: لما أراد أن يسقيهم من كأس محبته ذوقهم من لذاذته وألعقهم من حلاوته، قال العار ف: الذوق حياة المريدين وفيه عيش الماكرين، وفي اللذة: يرى البقلي: فإذا شرب العاشق شراب القرب من أقداح الأفراح استلذه وصار فوق أهل الذوق بوجدانه بعد ذوق الحلاوة وهي سير نور المشاهدة في معادن السر، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام كيف سأل سبحانه قوله: (أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم) فإذا دنا عليه السلام أن اللذة مقرونة بكشف المشاهدة وهي أتم من الذوق، قال العارف: اللذة وجدان طعم الوصال في رؤية الجمال. فإذا امتلأ العاشق من خوان المشاهدة وجلس على بساط المؤانسة فقد طعم ثمرات أشجار المشاهدة، وعرف حقائق الوصلة فحاله من حيث الرؤية لا من حيث الخبر ولا من حيث الأثر وهو أقوى حالا من أهل اللذة ن قال العارف: وجدان المشاهدة بشرط الانبساط طعم.) (البقلي: المصدر السابق، ص، 129)

قال تعالى:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ) [الروم: 36] هنا تعدى الذوق الجانب المادي ليكون أشمل في معناه، فالرحمة مفهوم لا يتموضع في مجال دون مجال آخر بل وسع كل شيء، قال تعالى: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) [الأعراف: 156]، وهذا يعني أن علينا أن لا نضيق على الذوق فنجعله وقفا على الأمور النسبية المحدودة من الأطعمة والأشربة، بل يجب أن نخرجه عن هذه الأطر لنجعله موافقا للمطلق الذي لا يحده حد، ولن يتم ذلك إلا من خلال الفناء في الحق تعالى.

أما في قوله تعالى: **(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)** [النجم:3ـــ 4] إن عملية إغراق الحواس في الأهواء المادية يغلق عليها أبواب الرحمة الإلهية المطلقة، فمن قيد نفسه بمطلب محدود أبقاه الحق تعالى في حدود ذلك الشيء، ومن طلب الحق تعالى أعطاه الحق تعالى كل شيء، لأنه

تعالى حقيقة كل شيء باعتباره هو المتجلي في الوجود ظاهرا وباطنا، فإذا بلغ العبد في ترقيه إلى مرتبة الفناء، كان الحق لسانه وذوقه وبصيرته، غير عملية الفناء تعني التخلي المطلق عن مراتب الوجود، قال تعالى: **(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)** [النجم: 17] أي: إن على السالك أن لا يزيغ بصره عن الهدف الأسمى (الحق تعالى) فإليه القصد ولا غيره مقصود، قال تعالى: **(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)** [لقمان: 19] أي أجعل لسيرك مقصود، ويفترض أن يكون المقصود مستحق أن تقصده لتحصل على لطف كرمه؛ إذ ليس كل مقصود يستحق أن تقصده. كما أن الوقوف مع مرتبة وجودية يفترض أن لا يستغرق الحال فيها، بل يمر عليها مرور الكرام كما يقال في المثل الدارج، ولا يطغي على تفكيره وقصده إلا الحق تعالى، فإذا بلغ العبد هذا المستوى فإنه على أبواب الفناء في الحق تعالى.

يرى ابن عربي إن على طالب العلم والمعارف حين يلقى كبار العارفين والمشايخ الكاملين عليه أن لا يجالسهم وهو قد استولى عليه حدود فهمه، وميزان وعيه عند من يتكلم بالأسرار؛ لأن هذا يعني الوقوف مع الفهم الذي بحوزتك لا مع حقيقة العلم الذي أتى به صاحب السر، فمن أراد أن ينتفع بكلام أهل الطريق فليدخل عليهم فقيرا مضطرا كدخول على الله، لأنهم أهل الله، لا يخبرون عن أحد إلا عن الله، ولا ينظرون إلى شيء إلا إلى الله، ولا يتلقون من شيء إلا من الله، فمن سمع منهم إنما سمع من الله ومن أخذ منهم فإنما أخذ عن الله فمن رد عليهم فإنما رد على الله، **(مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ)** [النساء: 80] **(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى)**.

(ابن عربي: 2009، ص83)

ويرى الشيرازي، ملا صدرا أن نفس النبي محمد صلى الله قد جعلها الله برهانا ينبجس عنها العلم والحال والفعل فيظهر أثرها الواضح لمن يسير على قدمه من الورثة الكاملين أو مشايخ الطرق العارفين، في حين أن جميع الأنبياء ظهرت براهينهم في أشياء غير أنفسهم، كما هو الحال مع نبي الله موسى عليه السلام في عصاه وفي يده وفي الحجر الذي **(انبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ)** [الأعراف: 160] فإذا كانت نفس

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم برهانا بالكلية، فيكون كل عضو من أعضائه الظاهرة والباطنة برهانا، فبرهان قوة علمه ما قاله علي بن أبي طالب عليه السلام: (علمني رسول الله – صلى الله تعالى عليه وسلم – ألف باب من العلم فاستنبطت من كل باب ألف باب) فإذا كان حال الوصي هكذا فكيف حال النبي المعلم له. وأما برهان عقله العملي، فقوله تعالى: **(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)** [القلم: 4] وقس عليها سائر براهين أعضائه وقواه الظاهرية والباطنية، قال تعالى: **(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)** وينبه ملا صدرا الكثير ممن يظنوا أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم غير عالم بالروح فيقول: (لا تظنن أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن عالما بالروح، فكيف يكون برهانا ومظهرا لجميع الصفات، كما توهمه جماعة من أهل الله، فهو صلى الله تعالى عليه وسلم الهم علم الروح على الخلق واستأثره لنفسه، حتى قالوا لفرط جهلهم بمنصب النبوة ـــ: إن النبي ـــ صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن عالما به؛ جل منصب حبيب الله عن أن يكون جاهلا بالروح وقد من الله عليه بقوله: **(عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)** [النساء: 113] واعلم أن سكوته عن جواب السؤال عن الروح وتوقفه انتظارا للوحي حين سألته اليهود، فقد كان لغموضه فيرى في مغزى الجواب دقة لا يفهمها اليهود، لبلادة طباعهم، وقساوة قلوبهم، وفساد عقائدهم؛ فإن المدرك لا يدرك شيئا ليس من جنسه، فالحس لا يدرك إلا المحسوسات، والخيال لا يدرك إلا المتخيلات، والوهم لا يدرك إلا المعقولات.) (الشيرازي، ملا صدرا: 1378ه، ص74 – 75)

ولما كان رسول الله صلى الله تعالى بهذا الوصف، وهو يعلم أنه رحمة للعالمين، وإن ليس للرحمة حد تنتهي إليه لا في الدنيا ولا في الآخرة، فكان من البديهي أن يكون الوارث المحمدي من الشيوخ الكاملين وارثين له صلى الله تعالى عليه وسلم، لأن جواهر نورهم من جوهر نور الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، قال تعالى: **(يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)** [التوبة: 32] وجاء في الحديث: **(حسين مني وأنا من حسين)** فالنور المحمدي لا يجد محل قدسي أشرف

وأقدس من قلب الشيخ الولي الكامل كوارث له ليكون امتداد حقيقي لهذا النور، فيكون الوارث عين الموروث، لأنه التعبير الحقيقي الذي يليق بالرحمة الإلهية، إذ من المستحيل أن يجعل الله تعالى حامل رحمته جاهلا، وهو القائل: (**عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً**) [الكهف: 65] ولم يقل تعالى أتيناه رحمة بدون تعليمه له، فكل ولي حامل للرحمة قد حظي بشكل مسبق بتعليم الحق تعالى له ليكون خير معبر عن الرحمة الإلهية، وهنا تكمن ضرورة الشيخ الولي الكامل للزمان والمكان، وهنا تكمن جمالية هذا الولي المخصوص فإنه المعلم الفرد الأحد في زمانه، ومنه تنبجس العيون المتنوعة، ومنه يجري التخصيص لأهل المشارب، فيشرب كل واحد منهم ما تخصص له من هذا العلم المطلق، ولن يتوقف هذا الحال حتى قيام الساعة

وليعلم أهل الجهالة أن الوارث لا يرث حتى يكون نسخة طبق الأصل عن الموروث، تماما كالصور المتقابلة في المرايا التي لا ينقص من الثانية شيء موجود في الأولى، فإذا نقص شيء صار إخلالا في العدل وفي الرحمة، وهذا لن يكون لأن الله تعالى أكرم الأكرمين وهو الجواد الذي لا نفاد لجوده جل في علاه.

وفي رسالة الأنوار يرى ابن عربي: (إن مقيم الأمور الشرعية الواردة عنه، كالعلامة التي تنصب ليهتدى بها (ومشرِّعِه) أي: ومسننه للاهتداء، وكم لله من علامة موصلة إليه ولم يسنها للاهتداء، بل عاقب من اهتدى بها مع أنها كلها موصلة إليه، وهي من هذه الحيثية مستقيمة لا اعوجاج فيها، ألا تراه كيف قال: (**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**) [الفاتحة: 6] وما صدرت الشرائع إلا عنه، وإن كان للرسل بحسب الظاهر دخل في شيء منها فإنه راجع إليه حقيقة: (**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**) كنت لسانه، قال الله على لسان عبده: سمع الله لمن حمده. وقدم هبة العقل على نصب النقل وتشريعه لأن العقل مناط التكليف، له القوة على هبة العقل وإبداعه. (ابن عربي: 2009، ص83)

وفي قوله تعالى: **(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى)** يرى التستري: أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينطق بالباطل قط، وكيف ينطق بالباطل، وهو حجة الله تعالى على خلقه، وإن حجة الله ناطقة بلسان الحق تعالى، فمن أين يأتيها الباطل وليس لها من الهوى مقدار ذرة ؟ وكيف يكون للهوى والشيطان اعتراض للفاني في الله تعالى، وقد غادر الأثنينية، وغاب عن أوصاف البشرية؛ فتحلى بأوصاف الربوبية. (التستري: المصدر السابق، ص156)

ويستدعي السلمي قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام الذي يقول فيه: **(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى)** أي: كيف ينطق عن الهوى من هو ناطق بإظهار التوحيد، وإتمام الشريعة، وإيجاب الأمر والنهي بل ما ينطق إلا بأمر، ولا سكت إلا بأمر، وكان أمره قربة من الحق تعالى، وكان نهيه أدبا وزجرا. ويستدعي السلمي كذلك قول الحلاج الذي يرى: (من عرف اللطائف علت أخطاره وجلت أقداره، وصار الشبح عليه فتنة قال لصفيه: **(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى)** أخذته النعوت مبتدلا في شواهد شعاعها فلا يهتم لآدم ومن دونه لفنائهم عنده ومن لبس الأولية بتيقنه وارتدى الآخرية بتودده ارتفع كل حدث عن صفاته وأحواله.) (السلمي: المصدر السابق، مجلد2، ص283)

أما القشيري فيرى في تأويل قوله تعالى: **(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى)** (ومتى ينطق عن الهوى وهو في محل النجوى ؟ في الظاهر مزموم بزمام التقوى، وفي السرائر في إيواء المولى، مصفى عن كدورات البشرية، مرقى إلى شهود الأحدية، مكاشف بجلال الصمدية، مختطف عنه بالكلية، لم تبق منه إلا للحق بالحق بقية..ومن كان بهذا النعت.. متى ينطق عن الهوى ؟.) (القشيري: المصدر السابق، مجلد6، ص 47)

قوله تعالى:

(وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً) [مريم: 50]

قوله: **(وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا)** توجهت الرحمة الإلهية لهم ليكونوا الترجمان عنها في مجمل سلوكهم تماما كما كان العبد الصالح عليه السلام

ترجمان الرحمة الإلهية في زمن موسى عليه السلام، قال تعالى: **(عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً)** [الكهف: 65] أعاب السفينة، وقتل الغلام، وبنى الجدار في القرية رحمة بجميع الأطراف، فلو لم يقتل الغلام: لكبر الغلام وتوجه لأبويه المؤمنين فكان سببا لهما في الطغيان والكفر، وأصبح مصير الجميع إلى العذاب، فقتله العبد الصالح فكان هذا الفعل سببا لمحافظة الأبوين على إيمانهما، وتخلص الغلام من عقاب كان يمكن أن يحصل بسبب سلوكه المنحرف فيما بعد، وعوض الحق تعالى الأبوين ببركة دعاء العبد الصالح بمن هو أقرب رحم، وموصوف بالبر للأبوين، وكل ذلك جرى من خلال توجه الرحمة التي وهبها تعالى للعبد الصالح بقوله: **(آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا)**.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن الكرم الإلهي أعطى من خزانة جوده الموصوفين بقوله: **(وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا)** وجاء الحرف (من) للتبعيض؛ لأن مفهوم الرحمة وسعتها أوسع من أن تعطى لعبد من عباده، لأنها توجهت ووسعت كل شيء في الدنيا والآخرة، في حين أعطيت للحبيب المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** [الأنبياء: 107] لأن الحقيقة المحمدية هي أصل الوجود الكوني جملة وتفصيلا، وإن المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم نبي وآدم بين الترب والطين، وله في الآخرة الشفاعة العظمى يتوجه بها إلى الخلق فتشملهم الرحمة.

قوله تعالى: **(وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً)** أي: أن لسان الصدق الذي يتعاملون به مع الخلق، وليس لدى الخلق لسان صدق موصوفين به مثل لسانهم لأنه: **(لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً)** كما أن هذا اللسان هو من قبيل الجعل الإلهي، فهو صناعة إلهية تطابقت أقواله مع المراد والفعل الإلهي، لأنه باختصار ينطق بالحق من كونه لسان الحق، ولما كان لسان الحق، فلا يمكن أن يقارن بلسان آخر فانفرد بتفرده وتميزه.

في تأويل هذه الآية يرى البروسوي: (أن من فارق محبوبه ابتغاء لمرضاة الله تعالى فإن الله تعالى يجعل له بدلا خيرا من ذلك وأحب؛ فيأنس به،

ويتوحش عما ألف به فيما مضى؛ فيحصل الحل والعقد على مراد الله اللهم اجعلنا من المنقطعين إليك، والمستوحشين عما سواك، والسالكين إلى سبيل الفناء، والطالبين لرضاك.) (البروسوي: المصدر السابق، مجلد5، ص341)

في حين يرى ابن عجيبة الحسني في تأويله للآية: (إن المراد باللسان: ما يوجد به الكلام في لسان العرب ولغتهم، وإضافته إلى الصدق، ووصفه بالعلو؛ للدلالة على أنهم أحقاء لما يثنون عليهم صادقون في مدحهم وذكر محاسنهم وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار، وتبدل الدول، وتحول الملل والنحل. ويرى الحسني: أن الإشارة في هذه الآية تنطلق إلى كل من اعتزل عن الخلق وانفرد بالملك الحق، طلبا في الوصول إلى مشاهدة الحق، لابد أن تفيض عليه المواهب القدسية والأسرار الوهبية والعلوم اللدنية، وهي نتائج فكرة القلوب الصافية.) (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد4، ص229)

في حين يرى ابن عطاء تأويل قوله تعالى: **(وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً)** أي: أصدق الألسنة هي المعبرة عن الحق بالصواب، والذاكرة على الدوام لنعمائه، والناصرة لآلائه. (اليسوعي: المصدر السابق، ص87)

أما قوله تعالى: **(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً)** [مريم: 97]

قوله تعالى: **(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ)** أي: يسرنا لك تأويله من أجل أن تبين لهم ما يلائم استحقاق مقامات المتقين منه، فإن من مهام الكتاب الناطق (الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم) هداية المتقين والوصول بهم إلى مرتبة الفناء بالله تعالى كما جاء في الخطاب الإلهي: **(ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)** [البقرة: 2] فالمتقين قد خصهم تعالى بالهداية إلى الحقيقة، وللرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أو من ينوب منابه أن يتكفل هذه المهمة ليهدي المتقين إلى مرتبة الفناء.

إن عملية التسيير في اللسان تعني قيام الحق تعالى واستيلائه عليه فتكون عملية التأويل قائمة بالله، فالحق تعالى له الخطاب، وله تعالى مجموع

التأويلات، وأقول التأويلات لأن لكل شيخ وقت، أو نائب عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم تأويل يناسب الزمان والمكان قائم بالله تعالى كما جاء في قوله تعالى: **(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى)** فبما أن الشيخ الولي المرشد الكامل لا ينطق عن الهوى وهو بهذا الحال على قدم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، كما أن الحق قد حدد المنبع الذي يعطي النطق بقوله تعالى: **(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)** أي: أن ما ينطق به هو ترجمة عن الوحي الإلهي، وهذا يعني أن عملية التأويل لقول الحق تعالى تجري بالحق تعالى، وهذا هو عين التيسير.

قوله تعالى: **(لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ)** فالمتقي لا يستأنس إلا بالحق تعالى وما يأتيه منه من واردات، والرسول أو الشيخ الكامل له البرزخية العظمى بين الحق والخلق، وإن ما يأتيه من واردات من لدن الحق تعالى يكون أول المبادرين باتجاه إيصال تلك الواردات إلى المتقين لأنهم أحباب الله، والحبيب أولى بما يعطيه محبوبه، فهو أحق بالبشرى من سواه.

قوله تعالى: **(وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً)** يرى الراغب: (الألد: الخصيم الشديد التأبي، وجمعه لدّ، قال تعالى: **(وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً)** [مريم: 97] وأصل الألد: الشديد اللدد، أي: العنق، وذلك إذا لم يمكن صرفه عما يريده.) (الراغب: المصدر السابق، ص739)

هذا يعني أن التيسير باللسان له حدين حد يمثل البشرى للمتقين والحد الآخر بمثابة التحذير للقوم الذين يعادون أهل الحق، فالتيسير يحمل ثنائية الجمال والجلال، ولكل قوم ما خصص لهم من جهة الحق تعالى.

الشيخ وكرامة الشم

الشم لغة: (هو قوة مودعة في الزائدتين الثابتتين في مقدم الدماغ، الشبيهتين بحلمتي الثدي، يدرك بها الروائح بطريق وصول الهواء المتكيف بكيفية ذي الرائحة إلى الخيشوم.) (الجرجاني: المصدر السابق، ص93)

الشم في الاصطلاح الصوفي

يعرفه الباحث إجرائيا: الترقي في هذه الحاسة من الشم للأشياء المادية من عطور وطيب لتشمل الطيب الذي جعله تعالى في رسله، وأنبيائه وأوليائه، كما هو حال نبي الله يعقوب حين انكشف له ريح يوسف في قميصه عن بعد أميال، وقد جعل الله تعالى لكل نبي أو ولي نوع من الطيب يميزه عن الآخر، قال تعالى: ﴿**قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ**﴾ [يوسف: 94]

وشم الطيب يعد شكل من أشكال الكشف، إذ من خلاله يتعرف المريد أو السالك على شخصية الولي أو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، الذي يكون له الحضور روحانيا، وقد جاء في الحديث: حبب إلي من دنياكم ثلاث، وذكر من بين الثلاث الطيب، ويرى ابن عربي في فصوصه: (وأما حكمة الطيب وجعله بعد النساء فلما في النساء من روائح التكوين، فإنه أطيب الطيب عناق الحبيب، كذا قالوا في المثل السائر، ولما خُلق عبدا بالأصالة، لم يرفع رأسا قط إلى السيادة، بل لم يزل ساجدا واقفا مع كونه منفعلا حتى كون الله عنه ما كون، فأعطاه رتبة الفاعلية في عالم الأنفاس التي هي الأعراف الطيبة، فحبب إليه الطيب، فلذلك جعله بعد النساء فراعى الدرجات التي للحق في قوله: (**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ**) [غافر: 15] لاستوائه عليه باسمه (الرحمن) فلا يبقى فيمن حواه العرش من لا تصيبه الرحمة الإلهية، وهو قوله: (**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**) [الأعراف: 156] والعرش وسع كل شيء والمستوى الرحمن فبحقيقته يكون سريان الرحمة في العالم، وقد جعل الطيب تعالى في هذا الالتحام النكاحي في براءة عائشة فقال: (**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ**

مِمَّا يَقُولُونَ) [النور: 26] فجعل روائحهم طيبة وأقوالهم صادقة؛ لأن القول نفس وهو عين الرائحة، فيخرج الخبيث والطيب على حسب ما يظهر به في صورة النطق، فمن حيث هو إلهي بالأصالة كله طيب، فهو طيب ومن حيث ما يحمد ويذم، فهو طيب وخبيث، فقال في خبث الثوم: **(شجرة أكره ريحها)** ولم يقل أكرهها، فالعين لا تكره وإنما يكره ما يظهر منها، والكراهة لذلك، إما عرفا بملاءمة طبع أو غرض أو شرع أو نقص عن كمال مطلوب، وما ثم غير ما ذكرناه) (الجندي، مؤيد الدين: 2007، ص577 ــ 578)

ويضيف ابن عربي: (لما انقسم الأمر إلى خبيث وطيب حبب إليه الطيب دون الخبيث، ووصف الملائكة بأنها تتأذى بالروائح الخبيثة؛ لما في هذه النشأة العنصرية من التعفين، فإنه مخلوق من صلصال من حماء مسنون، أي متغير الريح، فتكرهه الملائكة بالذات، كما أن مزاج الجعل يتضرر برائحة الورد وهي من الروائح الطيبة، فليس ريح الورد عند الجعل بريح طيبة، ومن كان على مثل هذا المزاج معنى وصورة، أضر به الحق إذا سمعه وسر بالباطل وهو قوله: **(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّه)** ووصفهم بالخسران، قال: **(أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)** [العنكبوت: 52] قال: **(الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ)** [الأنعام: 12] فإنه من لم يدرك الطيب من الخبيث، فلا إدراك له، فما حبب إلى رسول الله إلا الطيب من كل شيء وما ثم إلا هو، وهل يتصور أن يكون في العالم مزاج لا يجد إلا الطيب من كل شيء ولا يعرف الخبيث أم لا ؟.) (نفسه: ص579)

يوضح الجندي ما ذهب إليه ابن عربي فيرى: (إن برزخية الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم جامعة لما كان منفعلا عن عين العين الجامعة ببرزخيته وفعله وأنفعاله، ظهر صلى الله تعالى عليه وسلم بتحقق العبدانية المنفعلة بالأصالة عن الربوبية الفعالة المؤثرة، ولم يظهر بالربوبية والسيادة، فآتاه الله الفعل من عين العين، فتساوى فيه طرفا الفعل والأنفعال، فكان قاب قوسي بحر الوجوب والإمكان بوجوده، كما كان جامعا بين التعين واللاتعين برتبته، وأوتي السيادة العظمى لما تحقق بالعبودة الكاملة الكبرى، فكان فاعليته في عالم الأنفاس لكونه أوتي جوامع الكلم، وهي هيئات اجتماعية

نفسية بحقائق الحروف كما علمت، فلهذا حبب الطيب إليه، وتأخيره عن النساء ــ كشفا ــ من حيث أن النفس متأخر عن الأصل والأم الذي هو المتعين الأول الذاتي، وأول ما تعين وخرج من غير انتقال عن هذا الأم هو النفس الذي نفس الله عن الحقائق كلها به، فظهرت به، فهو مسبوق بالمتنفس بذلك النفس المنفس عن نفسه وعما في نفسه، ثم الكراهة والطيب المتقابلان عارضان على حقيقة النفس من جهة المتنفس والمحل القابل، فهو من حيث الصالة النفسية طيب كله، ثم غير الطيب والطيب بحسب المُدرِك والمدرَك، فيحمد ويذم، ويكره ويحب بحسب القابل ومزاجه.) (نفسه: ص578)

ويضيف الجندي في شرحه: (يشير ابن عربي إلى ارتفاع الخبيث عن الإدراك، وإلا فمن حيث أعيان الأشياء وما به هي هي، ومن حيث الوجود الحق المتعين بكل شيء فليس شيء في العالم خبيثا وما يكون بعض الأمور طيبا أو خبيثا عند طيبا أو خبيثا عند الحق فذلك من حيث تعينه في مرتبة ما، فيطيب له ما يشاكل الحال والوصف والنعت والخصيص بتلك المرتبة، وتكره أيضا كذلك من حيث هي ما يضارها ويناقضها ويباينها وينافيها لا غير، والكل – من حيث هو هو – طيب له وعنده، وهو عند الكل طيب كله؛ لأن رحمة الله في الخبيث والطيب يعني بالنسبة والإضافة.) (نفسه: ص579)

قال تعالى:

(وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ) [يوسف: 94]

يرى القشيري في تأويله للآية: (ما دام البلاء مقبلا كان أمر يوسف وحديثه – على يعقوب – مشكلا، فلما زالت المحنة بعثرت بكل وجه حاله. ويقال: لم يكن يوسف بعيدا عن يعقوب حين ألقوه في الجب ولكن اشتبه عليه خبره وحاله، فلما زال البلاء وجد ريحه وبينهما مسافة ثمانين فرسخا من مصر إلى كنعان. ويقال: إنما انفرد يعقوب عليه السلام بوجدان ريح يوسف لانفراده بالأسف عند فقدان يوسف. وإنما يجد ريح يوسف من وجد على فراق يوسف؛ فلا يعرف ريح الأحباب إلا الأحباب، وأما على الأجانب فهذا

حديث مشكل.. إذ أنى يكون للإنسان ريح ؟ ويقال: لفظ الريح ها هنا توسع، فيقال: هبت رياح فلان، ويقال إني لأجد ريح الفتنة.. وغير ذلك.) (القشيري: المصدر السابق، مجلد4، ص211)

أما البروسوي فيرى: (أوجده الله ريح ما عبق أي لزق ولصق من ريح يوسف من ثمانين فرسخا حين أقبل به أخوه يهودا، إن العاشق يستنشق من كل مظهر ريح سر من الأسرار ويدخل في خيشومه من روائح النفس الرحماني ما لو عاش الزاهد ألف سنة على حاله ما شم شيئا منها، قال أهل المعاني: إن الله أوصل إليه رائحة يوسف عند انقضاء المحنة ومجيء وقت الروح والفرح من المكان البعيد، ومنع من وصول خبره إليه مع قرب إحدى البلدتين من الأخرى، وذلك يدل على أن كل سهل فهو في زمان المحنة صعب وكل صعب فهو في زمان الإقبال سهل. وذكر أن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص، فأذن لها فأتته بها، ولذلك يستروح كل مخزون بريح الصبا ويتنسمها المكروبون، فيجدون لها روحا وهي التي تأتي من ناحية المشرق وفيها لين إذا هبت على الأبدان نعمتها ولينتها وهيجت الأشواق إلى الأحباب والحنين إلى الأوطان. وفي التبيان هاجت الريح فحملت ريح القميص من مسافة ثمانين فرسخا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص) (البروسوي: المصدر السابق، مجلد4، ص333)

ويستدعي البروسوي أقوال الكثير من العارفين في تأويل هذه الآية: (يقول الفقير: هذا موافق لما ذكر من أنه كان في القميص ريح الجنة لا يقع على مبتلى إلا صح فالخاصية في ريح الجنة لا في ريح يوسف كما ذهب إليه البيضاوي. أما الإمام الجلدكي فيقول في كتاب الإنسان من كتاب (البرهان) لعمري كلما كشفت طينة الإنسان وزادت كثافتها نقصت حواسه في مدركاتها لحجب الكثافة الطارئة على ذات الإنسان من أصل فطرته، وأما جوهر ذات الإنسان إذا لطف وتزايدت لطافته فإن جميع حواسه تقوى ويزيد إدراكها وكثير من أشخاص النوع الإنساني يدركون بحاسة الشم الروائح العطرة من بعد المسافة على مسافة

ميل، أو أكثر من ذلك على مسيرة أميال، ولعل من تزايدت لطافته يدرك رائحة ما لا رائحة له من الروائح المعتادة كما قال الله تعالى حكاية عن يعقوب (**إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ**).) (البروسوي: نفسه، ص334)

ويرى ابن عجيبة الحسني إن الإشارة في هذه الآية مفادها: (إن الحق تعالى جعل للبشرية عينين حسيين: تبصر بهما الحسيات، وجعل للقلب عينين معنويين يرى بهما المعاني. فالأول: يسمى البصر، والثاني: البصيرة. فأحد عيني القلب تبصر أنوار الشريعة، والأخرى تبصر أسرار الحقيقة. وقد يغشى القلب ظلمة الكفر، فتغطيهما معا، وهو: عمى البصيرة، وقد يغشاه ظلمة المعاصي، واتباع الحظوظ والهوى، فتعمى عين الحقيقة، وتضعف عين الشريعة، ودواؤهما: إلقاء قميص المعرفة على وجه عين الحقيقة، وجلباب العصمة على عين الشريعة، فيرجع القلب بصيرا. ولابد من صحبة شيخ عارف يعطيه هذا القميص، ويقول: اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه بصيرتكم، تأتي بصيرة عارفة، فإذا قرب منها هذا القميص هب عليها نسيم الوصال، وهاج عليها الوجد والحال. وأنشدت بلسان المقال:

سويداء قلبي أصبحت حرما لكم　　تطوف بها الأسرار من عالم اللطف

وسائل ما بين المحبين أصبحت　　تجل عن التعريف والرسم والعزف

رسائل جاءتنا برؤيا جنابكم　　عوارف عرف فاق كل شذا عرف

(الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد3، ص306)

فالشم إذا ما ارتبط بالروح من بعد ارتباطه بالحس يكون خارقا للعادة، وله أن يستطيع الشم عن بعد أو يشم ما يشمه الآخر الذي يجلس معه، ويتعرف من خلال الشم على أشخاص لهم درجة في الولاية متيقنا من حضورهم مجلس علم أو حلقة ذكر، فإن هذا يعد من الأمور الخارقة لنواميس العقل.

إن هذا التمكين يحصل من خلال السلوك في طريق الحق تعالى، وتحت إشراف الشيخ الولي العرف الكامل له خبرة كبيرة في هذا الميدان بما مكنه تعالى من ذلك.

الشيخ والحكمة

الحكمة لغة: يرى الراغب: (الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفة الموجودات وفعل الخيرات. وهذا هو الذي وصف به لقمان في قوله تعالى: **(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)** [لقمان: 12] ونبه على جملتها بما وصفه بها، فإذا قيل في الله تعالى: هو حكيم، فمعناه بخلاف معناه إذا وصف به غيره، ومن هذا الوجه قال تعالى: **(أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)** [التين: 8]، وإذا وصف به القرآن فلتضمنه الحكمة، نحو: **(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)** [يونس: 1]، وقيل معنى الحكيم: المحكم، نحو: **(أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)** [هود: 1] وكلاهما صحيح، فإنه محكم ومفيد للحكم، والحكم أعم من الحكمة، فكل حكمة حكم، وليس كل حكم حكمة.) (الراغب: المصدر السابق، ص249)

الحكمة في الاصطلاح الصوفي

يعرفها القاشاني: (هي الاطلاع على أسرار الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، ومعرفة ما ينبغي بالشروط التي تنبغي، فمن عرف الحكمة، ويسر للعمل بها، فذلك الحكيم الذي أتاه الله الحكمة فأحكم وضع الأشياء في مواضعها، قال تعالى: **(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ)** [البقرة: 269]. أما الحكمة الجامعة: معرفة الحق، والعمل به، ومعرفة الباطل وتجنبه، وإلى ذلك أشار صلى الله تعالى عليه وسلم: **(اللهم أرنا الحق حقا وأعنا على اتباعه،وأرنا الباطل باطلا ووفقنا لاجتنابه)**. أما الحكمة المتصرف بها: يعني بها ما ينتفع به كل من سمعه، وذلك كعلم الشريعة والطريقة. أما الحكمة المسكوت عنها: يعني بها ما يدق على إفهام العوام، وأصحاب الفطانة البتراء فهمه من أسرار علوم الحقيقة التي بها هلك من سمعها لسوء فهمه لمعاني أسرارها وبنو إحساسه عن إدراكها. أما الحكمة المجهولة: هي ما خفي عن العباد وجه الحكمة في إيجاده مثل إيلام بعض الحيوان، وخلود أهل النار فيها، فإنه تعالى أن تصل فائدة من شيء من الأشياء مع قدرته على إيصال المنافع إلى العبيد من غير إيلام لأحد منهم، فلكونه تعالى لا يفعل إلا المحكم

المتقن صار ما يعد من هذا القبيل من الحكمة المجهولة عندنا. أما الحكيم: هو الإنسان الذي رزقه الله الضبط والتمييز، فهو يميز بين الحق والباطل، والحسن والقبيح، ويضبط نفسه على ما ينبغي من اعتقاد الحق، وفعل الجميل، فلا يرسلها فيما لا ينبغي من الباطل علما وعملا ولا يفعل قبيحا، رزقنا الله التمييز بعونه، والضبط بصونه، إنه جواد كريم.) (القاشاني: المصدر السابق، ص199 – 200)

ويعرف الأنصاري الحكمة: قال تعالى: **(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)** [البقرة: 269] (الحكمة اسم لإحكام وضع الشيء في موضعه وهي على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: أن تعطي كل شيء حقه ولا تعديه حده ولا تعجله وقته. والدرجة الثانية: أن تشهد نظر الله في وعيده وتعرف عدله في حكمه وتلحظ بره في منعه. والدرجة الثالثة: أن تبلغ في استدلالك البصيرة وفي إرشادك الحقيقة وفي إشاراتك الغاية.) (الأنصاري، عبد الله: المصدر السابق، ص53)

ويعرف البقلي الحكمة فيرى: (إذا نظر العارف بنور المعرفة إلى عالم الأفعال فيعرف من الآيات حقائقها ويرى منها وجه عرائس حكمته الأزلية فيعلم حكم الربانية في الأشياء وخواصها ولطائفها التي خلقها في كل ذرة، وقد أشار بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الحقيقة بقوله: **(اللهم أرنا الأشياء كما هي)** ثم يظهر له حكمة المعرفة التي تتعلق بمعرفة المعاملات والمقامات وهذه الحكمة تتعلق بالإلهام الإلهي وهي مستفادة من تجلي الحكمة الخاصة التي هي صفات الأزلية، قال تعالى: **(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ)** وقال عليه السلام: **(من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)** قال العارف: الحكمة لب المعرفة.) (البقلي: المصدر السابق، ص158)

أما الجرجاني فيعرف الحكمة: (علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية، فهي علم نظري غير آلي، والحكمة أيضا: هي هيئة القوة العقلية العلمية المتوسطة بين الغريزة التي هي

إفراط هذه القوة، والبلادة التي هي تفريطها. وتجيء على ثلاثة معان، الأول الإيجاد، والثاني: العلم، والثالث: الأفعال المثلثة، كالشمس، والقمر وغيرهما. وقد فسر ابن عباس الحكمة في القرآن: بتعلم الحلال والحرام. وقيل: الحكمة في اللغة: العلم مع العمل. وقيل: الحكمة يستفاد منها ما هو الحق في نفس الأمر بحسب طاقة الإنسان، وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة، وقيل: الحكمة هي الكلام المعقول المصون عن الحشو. وقيل: هي وضع شيء في موضعه. وقيل: هي ما له عاقبة محمودة. الحكمة الإلهية: علم يبحث عن أحوال الموجودات الخارجية المجردة عن المادة التي لا بقدرتنا واختيارنا. وقيل: هي العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاه، ولذا انقسمت إلى العلمية والعملية.) (الجرجاني: المصدر السابق، ص 66)

قال تعالى: **(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)** [البقرة: 269] قوله تعالى: **(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ)** إن هذا الخطاب الكريم قابل لوجهين، الوجه الأول: وهو الأعم، أن أساس الحكمة موهبة إلهية يعطيها تعالى لمن يريد من كونه تعالى: **(فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ)** [هود: 107] ولا يشترط في هذا العطاء أن تكون في مؤمن أو كافر أو عاقل أو مجنون، لا سيما وقد جاء في الحديث الشريف: **(خذوا الحكمة من أفواه المجانين)** فلم يقيد تعالى طالب الحكمة بجهة، وخاصة لمن كانت ضالته الحكمة أن يتوجه إلى جهة دون جهة أخرى، بل عليه أن يجعل لسيره قصد وهو طلب الحكمة أينما تكون، قال تعالى: **(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)** [لقمان: 19] أي: أجعل لقصدك هدف سامي لأن الوقت الذي تقطعه هو جزء زمان وجودك فلا تجعله يذهب هدرا، ومن أجل ذلك أجعل لسعيك هدفا سامي يكون سببا لسعادتك في الدارين، الدنيا والآخرة، ولا تضيع الوقت في طلب المحدود الذي لا يجديك نفعا في دنياك وآخرتك.

الوجه الثاني: وهو الأخص، أن يكون هبة ولطف إلهيين إلى عباد مخصوصين تنحصر مهمتهم في هداية الخلق إلى مرضاة الحق تعالى، وينحصر سعيهم في نشر الرحمة الإلهية في عامة الخلق، كالرسل والأنبياء

وكبار الأولياء من المشايخ الكاملين في كل زمان ومكان، ولا يخلو زمان منهم لمقتضيات العدالة الإلهية وتوجهات الرحمة التي تقتضي أن تسع كل شيء.

قال تعالى:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) [البقرة: 129]

وقوله تعالى:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ) [البقرة: 151]

قال تعالى:

(وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) [البقرة: 251]

ولما كانت **(الحكمة ضالة المؤمن)** كما جاء في الحديث الشريف فإن أقرب عنوان يدل عليها، هو الرسول أو النبي أو شيخ الوقت من الكاملين، فمن أراد الحكمة عليه أن يتوجه إلى هذا العنوان لطلب الحكمة، وإن من علامات الحكمة حتى لا يقع الالتباس أو الشك في صاحبها (شيخ الوقت) وخاصة في الأزمنة التي تلت ختم النبوة عليه أفضل الصلاة والسلام، ولأن المشايخ قد كثرت وتنوعت، ومن أجل أن نعثر على الوارث المحمدي لابد من مراعاة ما يلي: أولا: أن يكون الشيخ الذي نقصده ظاهر بأخلاق الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عاملا فيها، قال تعالى: **(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)** [القلم: 4] عاملا بشريعته، وسنته، قولا، وفعلا، وحالا صادقا، وحاملا للبرهان، **(قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)** [البقرة: 111] أي وارث الكرامة (المعجزة التي للأنبياء) وهذه نقطة مهمة في مدار البحث، لأن الله تعالى يختص الصادقين من المشايخ بهذا اللطف، ويجعله علامة دالة على موطن الحكمة من أجل أن يقصده المستعدين والباحثين عن الحقيقة، فإذا

توفرت هذه الشروط في الشيخ، فإن الحكمة لا تفارقه، فمن أحب أن يصل إلى ضالته من الحكمة، فليصحبه ويقوم بخدمته، والانتظام في طريقته.

إن للحكمة طريقة ومفاتيح ومن أجل الحصول عليها لابد من برنامج أو منهج عملي – نظري يصل بطالب الحكمة إلى مرضاة الله ولم لم تكن الحكمة منهج يستطيع المر أن يتعلم الكيفية التي توصل إليه لما جاء في قوله تعالى: **(وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)** فالحكمة تعلم من خلال منهج قد وضعه خبير مختص قد حصل على رضا منبع الحكمة، قال تعالى: **(الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)** [الفرقان: 59] فمن أراد المنهج عليه بالتوجه إلى هذا الخبير المخصوص، قال تعالى: **(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً)** [المائدة: 48] فالمنهج هو ليس من وضع الشيخ الكامل بل هو كذلك منحة إلهية لهذا الشيخ المخصوص، وإن صحبة الشيخ الولي الكامل والقيام بخدمته، ولزوم طاعته وأوامره كفيلة في عملية تذليل الصعوبات التي تحقق لك هدفك، وهو الفوز بطريق الحكمة، التي هي ضالة كل مؤمن.

والحكمة يمكن تعريفها باختصار هي عملية الفناء والتماهي أو الذوبان في صفة من صفات الحق تعالى (الحكيم) فمن تحقق في هذه الاسم يكون قد أشرقت في قلبه الحكمة وتحقق بها وانتفع ونفع بها كل من صاحبه، والشيخ الولي الكامل هو أول المتحققين بها.

وتعني الحكمة ارتقاء الحواس الظاهرة والباطنة من مستواها المحدود إلى المستوى المطلق أي: تحريرها من المقيد لتصبح قائمة بالحق تعالى، وهذا لن يتم غلا إذا أصبح العبد نورانيا، أي: كله روح أو لنقل في مستوى الروح المنفوخ **(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ)** [الحجر: 29] أي: بمستوى ذلك الروح المنفوخ توا من روح الحق تعالى فاستحق سجود الملائكة، فإذا أصبح كله روح كما كان من قبل استحق بذلك سجود مراتب كيانه، وطاعته، وانقادت له، وأذعنت له، وحين تكون كذلك شملتها الرعاية النورانية فحولتها إلى نور، وحين تتحول إلى نور تجانست مع النور الأعظم

وتماهت فيه واندمجت؛ ذلك لأن من خاصية النور أن يذوب في النور الآخر دون أن تظهر للنور من ثنائية، قال تعالى: **(نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ)** [النور: 35] فلو لم تتجانس الأنوار وتصبح واحدة لقال تعالى: يهدي الله لنوريه بدلا من قوله تعالى: **(نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ)** فهذا يعني أن نور المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم ونور الله واحد لا يتبعض ولا يتجزأ لأنه من جنس نور الحق تعالى وعاد إليه، وإن من تحقق بالفناء في نور الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يكون قد تحقق في نور الله الأعظم، والشيخ الولي المرشد الكامل ما وصل إلى الكمال إلا وقد تحقق في نور الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو نور الله تعالى، قال تعالى: **(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** [النور: 35] وقوله تعالى: **(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ)** [المائدة: 15] فنور الرسول صلى الله تعالى عليه جاء من الله وإليه عاد، ومن أراد السفر إلى فلا يمكن لمركبة أن تقله غير النور المحمدي على صاحبه أفضل الصلاة والتسليم، وإن الطريق إلى هذا النور هو الهيكل المتجسد الذي يسمى (الشيخ الولي المرشد الكامل) فله النيابة عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا يخلو زمان منه،أي: كلما ينتقل شيخ ولي مرشد كامل يأتي من بعده شيخ ولي مرشد كامل آخر على امتداد الأزمنة، فالشيخ الكامل هو براق المستعدين الباحثين عن الحقيقة، فمن لم يجد هذا الولي المخصوص، فإنه يتعذر عليه الوصول إلى الحقيقة المطلقة إلا ما شاء الله تعالى رب العالمين. فالحكمة كل الحكمة أن يجد المرء ضالته من خلال البحث عن هذا الولي المخصوص والانتظام في طريقته، ولزوم طاعته وخدمته، والانتفاع بصحبته، قال تعالى: **(مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً)**

[الكهف: 17] وقوله تعالى: **(إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)** [الرعد: 7] فالشيخ هادي القوم إلى الحق تعالى حيث منبع الحكمة.

لقد قلنا من قبل أن المنهج الذي يتبناه الشيخ الولي المرشد الكامل هو الذي يؤدي إلى الحكمة، فقد جاء في الحديث الشريف: **(من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)** وهذا العدد من الأيام التي يخلص بها العبد لله تعالى وهي الأربعين صباحا لها مماثلة في قوله تعالى: **(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)** [الأعراف: 142] هي التي يطلق عليها لدى المتصوفة بالرياضة والخلوة، التي يشرف عليها الشيخ الولي المرشد الكامل، وفيها تتم بعض المجاهدات وتجرى فيها أنواع من العبادات والتسبيح، قال تعالى: **(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)** [العنكبوت: 69] فمن التزم بشروطها وشرائطها تحت إشراف الشيخ الولي الكامل انتفع بها، وتفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، فأصبح الحق تعالى لسانه الذي ينطق به، فإذا كان بهذا الوصف فإن الحكمة ستكون حتما كلامه لأن الحق تعالى لا ينطق إلا بالحكمة، وهو المتكلم بلسانه.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: (أدخلت لساني في فمي فانفتح في قلبي ألف باب من العلم مع كل باب ألف باب، وقال: لو وضعت لي وسادة وجلست عليها لحكمت لأهل التوراة بتوراتهم، ولأهل الإنجيل بإنجيلهم، ولأهل القرآن بقرآنهم.) ويرى الغزالي: (أن هذه المرتبة لا تنال بمجرد التعلم الإنساني، بل يتحلى المرء بهذه المرتبة بقوة العلم اللدني، وقال أيضا رضي الله عنه يحكي عن عهد موسى عليه السلام أن شرح كتابه أربعون حملا فلو يأذن في معاني الفاتحة لأشرع فيها حتى تبلغ مثل ذلك، يعني أربعين وقرا، وهذه الكثرة والسعة والانفتاح في العلم لا يكون إلا لدنيا إلهيا سماويا. فإذا أراد الله تعالى بعبد خيرا رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس التي هي اللوح، فيظهر فيها أسرار بعض المكنونات وانتقش فيها معاني تلك المكنونات فتعبر النفس عنها كما تشاء لمن يشاء من عباده وحقيقة الحكمة تنال

من العلم اللدني وما لم يبلغ الإنسان هذه المرتبة لا يكون حكميا لأن الحكمة من مواهب الله تعالى: (**يُؤتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**) [البقرة: 269]؛ وذلك لأن الواصلين إلى مرتبة العلم اللدني مستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعليم فيتعلمون قليلا ويعلمون كثيرا ويتعبون يسيرا ويستريحون طويلا.) (الغزالي:2003، ص 232 – 233)

ويرى الشيرازي، ملا صدرا في الحكمة: (لقد وصف تعالى نفسه حكيما في مواضع شتى من كتابه الكريم الحكيم، رغما لأنوف المعرضين عنها لفظا ومعنى وهي لفظ تطلق على كل كامل في علمه وعمله فإن أمعن النظر في أفعاله المحكمة وعلمه التام الذي هو سبب صدور أفعاله نظرا شافيا، وتأمل تأملا وافيا، تلحظ جنابا تبهر عجائبه، وتبصر بحرا تغرقك غرائبه، وانظر إلى هيئة العالمين وشكلي الإقليمين، عالم الأنفس وعالم الآفاق لترى فيهما عجائب الملك والملكوت، ومفاتحهما هو عالك الصغير الإنساني، فإنه تعالى أراك إشراطهما ودلائلهما مخبوة كلها في ذاتك، مخزونة جلها في صفاتك وآياتك، فإنك نسخة وجيزة من كل كتابي الآفاق والأنفس، أما نفسك الناطقة فهي زبدة أنوذج من مفصل عالم الأرواح وأما صورة هيكلك فهي خلاصة مختصرة من مشروع عالم الأشباح، على ما أخبر الله تعالى: (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**) [فصلت: 53] وبقوله: (**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**) [الذاريات: 21].) (الشيرازي، ملا صدرا: المصدر السابق، ص351)

ويضيف الشيرازي بقوله بصدد الحكمة: (الحكمة تطلق أسمها لكل علم حسن وعمل صالح، وهو بالعلم أخص منه بالعلم النظري، وتارة يطلق على نفس العمل في كثير من الاستعمالات، وفيها يقال: أحكم العمل إحكاما، إذا أتقنه، وحكم بكذا حكما، والحكمة من الله تعالى خلق ما فيه منفعة العباد ورعاية مصالحهم في الحال أو في المال، ومن العباد أيضا كذلك، ثم قد حددت الحكمة بألفاظ مختلفة، فقيل: هي معرفة الأشياء بحقائقها، وهذا إشارة إلى أن إدراك الجزئيات لا كمال فيه، لأنها إدراكات متغيرة، فأما إدراك

الحقائق والماهيات، فإنها باقية مصونة عن النسخ والتغيير، وقيل: هي الإتيان بالفعل الذي له عاقبة محمودة، وقيل: هي الاقتداء بالخالق تعالى في السياسة بقدر الطاقة البشرية، وقيل: هي التشبه بالإله بقدر الطاقة البشرية، وذلك بأن يجتهد في أن ينزه علمه عن الجهل، وفعله عن الجور، وجوده عن البخل، وحلمه عن السفه.) (نفسه: ص214ـ 215)

قال تعالى:

(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ) [البقرة: 269]

وقال تعالى:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) [البقرة: 129]

وقوله تعالى:

(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ) [آل عمران: 48]

وقوله تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ) [آل عمران: 164]

وقوله تعالى:

(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [النحل: 125]

وقوله تعالى:

(وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) [الزخرف: 63]

في قوله تعالى: **(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ)** [البقرة: 269] قوله تعالى: **(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ)** تخصيص الحكمة لم تقيد لجهة دون جهة إلا بما تقتضيه الحكمة الإلهية، فالإرادة الإلهية هي التي تقضي بأن تكون الحكمة في جهة دون جهة، هذا الكلام ينطبق على عامة البشر أما الخواص الذين اختصهم تعالى بقيومته فيهم، أي: الأولياء الذين جرى عليهم استيلاء صفات الربوبية بعد تخليهم عن جهة الطبع، وأوصاف البشرية فهم الذين استثناهم الحق تعالى من عدم التخصيص لأن أحوالهم قائمة به تعالى، وإن الحكمة ديدنهم في كل حال من أحوالهم، مثلهم بذلك مثل العبد الصالح الذي جاء قول على لسانه: **(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)** [الكهف: 82] فمن كان فعله قائم بالله تعالى، فإن حكمته لابد لها أن تكون قائمة بالله، ومن كانت حكمته قائمة بالله تعالى فلا انقطاع لها، فالحكمة هي حال الأولياء المستمر.

قوله تعالى: **(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)** الخير الكثير هي الصلة الغير منقطعة بالله تعالى، مع قيومية الحق في حقيقة العبد فإذا كان الحال بهذا الوصف؛ فإن الخير لا حدود له.

وقوله تعالى: **(وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ)** أي: يتذكر أيام الوصال قبل الانفصال، فيحن لها ويعمل جاهدا من أجل عودتها، فلم يجد إليها من سبيل غير براق الحكمة.

ويرى الكيلاني، الشريف ناصر في تأويل الآية: **(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)** (قيل: هي الفهم. أما ترى في قوله تعالى: **(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً)** [الأنبياء: 79] إنه خص سليمان عليه السلام بالفهم، وإن أوتي داود عليه السلام فصل الخطاب فسليمان أوتي الفهم وبالفهم اجتهد، وأصاب في حكم الحرث **(إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ)** [الأنبياء: 78]، فإن كل من رزق علما كان صاحب فهم، فالفهم درجة عليا بحسب ما يقتضي استعمال ذلك المعقول المعلوم، فأرباب الفهم أصحاب لب، وبالفهم عن الله تعالى يقع التفاضل بين العلماء بالله، ورد عن سيد الأولياء علي

المرتضى رضي الله عنه قال: إن الوحي قد انقطع فما بقي منه إلا الفهم في القرآن وهو فتح عين فهمه في القرآن وذلك ليس بشرع جديد في الكتاب والسنة، ولم يكن غيره فهم هذا منهما، فللرسل صلوات الله عليهم العلم، ولنا الفهم وهو علم خاص.) (الكيلاني، الشريف ناصر: المصدر السابق، ص185)

ويرى السلمي في قوله تعالى: (**يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ**) (قال بعضهم: الحكمة: العلم اللدني. وقيل: الحكمة إشارة لا علة فيها. وقيل: الحكمة إشهاد الحق على جميع الأحوال. وقيل الحكمة تجريد السر لورود الإلهام. وقال أبو عثمان: الحكمة هي النور المفرق بين الإلهام والوسواس. سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الكتاني يقول: إن الله بعث الرسل بالنصح لأنفس خلقه وأنزل الكتاب لتنبيه قلوبهم، وأنزل الحكمة لسكون أرواحهم، فالرسول داع إلى أمره، والكتاب داع إلى أحكامه والحكمة مشيرة إلى فضله، وقال القاسم: الحكمة أن يحكم عليك خاطر الحق ولا يحكم عليك شهودك. وقيل: (يؤتي الحكمة من يشاء)، الفهم في كتاب الله، ومن أوتي الفهم في كتاب الله أعطي عطاء عظيم من قربه، وقال ابن عطاء: يؤتي الحكمة من يشاء إنها النبوة وذلك قوله: (**آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**) [الأنعام: 89] قال الجنيد: أحيا الله أقواما بالحكمة ومدحهم عليها فقال: (**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**)، ويقال: الحكمة هي الحسنة.) (السلمي: المصدر السابق، مجلد1، ص79 – 80)

ويرى الغزالي: أن قوة العلم تكمن في اعتدالها، وأن حسنها أن يصير بحيث يرك بها الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأعمال، فإذا حصلت هذه القوة حصلت منها ثمرة الحكمة، وهي رأس الفضائل، قال الله تعالى: (**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**). (الغزالي، أبو حامد: 2009، ص320)

في حين يرى الشيرازي، ملا صدرا: (إن المراد من الحكمة، هو استعداد النفس بها للارتقاء إلى الملأ الأعلى، والغاية القصوى، وهي عناية ربانية وموهوبة إلهية لا يؤتى بها إلا من قبله – تعالى – كما قال: (**وَمَن**

يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) وهي الحكمة المعبر عنها تارة بـــ(القرآن) وتارة بـــ(النور) عند العرفاء، (وبالعقل البسيط) عند الحكماء، وهي من (فضل الله) وكمال ذاته، ورشحات وجوده آتاها الله لمن اختاره واصطفاه من خواص عباده ومحبوبيه؛ لا ينالها أحد من الخلق إلا بعد تجرده عن الدنيا، وعن نفسه بالتقوى والورع والزهد الحقيقي والانخراط في سلك المقربين من ملائكته وعباده الصالحين، حتى يعلمه الله من لدنه علما ويؤتيه الحكمة وخيرا، ويحييه حياة طيبة وجعل له نورا يمشي به في ظلمات الدنيا.) (الشيرازي، ملا صدرا: 1378، هجري، ص7– 8)

ويضيف الشيرازي في مكان آخر: (أن من لم يكن دينه دين الأنبياء – عليهم السلام – فليس من الحكمة في شيء. ولا يُعدّمن الحكماء من ليس له قدم راسخ في معرفة الحقائق؛ إذ الحكيم من كان عارفا بالحقائق على ما هي عليه من أحوال المبدأ والمعاد وكيفية صدور الموجودات عنه – تعالى – وكيفية رجوعها إليه؛ فالأول يقال له (علم التوحيد) و(علم الإلهيات) والثاني يقال له (علم النبوات) و(علم النفس) وهذه المعرفة بقسميها هي الحكمة التي جاء في الوحي الإلهي إشارة إلى تعظيمها وتوقير أهلها: **(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)** وهي من أعظم المواهب والمنح، وأجل العطايا، وأشرف الذخائر والسعادات للنفس الإنساني، وبها قيام العالم العلوي والسفلي، وابتهاجات جميع الموجودات، ولا سعد من سعد إلا بالحكمة، ولا شقي من شقي إلا بجحودها؛ لأنها أم الفضائل، وأفضل الوسائل، ورأس العبادات، ومعدن الطاعات.) (الشيرازي، ملا صدرا: رسالة في الحدوث، المصدر السابق، ص 149)

أما ابن عربي فيرى في تأويله للآية: **(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ)** (لإخلاصه في الإنفاق وكونه فيه بالله، فيعطيه حكمة الإنفاق لينفق من الحكمة الإلهية لكونه متصفا بصفاته **(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)** لأنها أخص صفات الله **(وما يذكر)** أن الحكمة أشرف الأشياء، وأخص الصفات

(إلا أولوا الألباب) الذين نور الله عقولهم بنور الهداية؛ فصفاها عن شوائب الوهم، وقشور الرسوم، والعادات، وهو النفس فجزاء الإنفاق الأول هو الأضعاف، وجزاء الثاني هو الجنة الصفاتية المثمرة للإضعاف، وجزاء الثالث هو الحكمة اللازمة للوجود والموهوب، فانظر كم بينها من التفاوت. (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص89ـ 90)

وفي معنى حرف لا يرى ابن عربي: (لما كانت الحكمة العلية المحيطة الدائرة في أنهى باطن إلى أظهر ظاهر، ومن باطن أظهر ظاهر إلى أدنى ظاهر باطن قد نظمت هذه الحروف نظما وأقامت بها الكون إقامة ختم الحق جملتها، وما أحاطت به من الحروف المندمجة أثناءها مما نطقت به العرب وغيرها من الأمم.. فكان ما ينبيء عن مصير الحروف كلها حرفا واحدا هو ما يعبر عنه لام الألف محيطا بما ظهرت إحاطته عند مشرع التفصيل في جوامع تفصيل الحروف كلها حرف واحد، لأن سلسلة الحكمة في العروج مشتهرة، وعودها من تكميلها الخاص بتكملة الحكمة بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم أعلى له الأمر بجميع هذه الإحاطة الفسيحة أي لمح ثم محو فصارت الحكمة في جنب ما أوتي من الخير الأكمل الأعم خير كثير، كما قال تعالى: **(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)**.) (ابن عربي: 2006، ص73)

ويرى التستري في تأويله للآية: **(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ)** أي: يؤتي الإصابة في كتابه من يشاء، كما قال تعالى لأزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، عند تعداد النعم عليهن: **(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ)** [الأحزاب: 34] فالآيات القرآن، والحكمة ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من المستبط منها، كما قال علي رضي الله عنه: الآيات رجل أتاه الله فهما في كتابه. (التستري: المصدر السابق، ص43)

ويرى الطوفي: بأن الحكمة: (هو العلم الموصل إلى معرفة وجود الله ــ عز وجل ــ وما يجوز عليه، وما لا يجوز، وإلى معرفة معاملته، فالأول:

علم أصول الدين، والثاني: علم الفقه لأدب الظاهر، وعلم الأخلاق وأعمال القلوب لأدب الباطن؛ وذلك لأن المكلف لابد له من اعتقاد يلقى الله ــ عز وجل ــ به، وعمل ظاهر يقيم به رسوم التكليف، وأدب باطن يقيم به رسم العبودية، فهذه العلوم الثلاثة هي أركان الحكمة، والقيم بالأول المتكلمون، وبالثاني: الفقهاء، وبالثالث: محققوا الصوفية كشيخ الإسلام في مقاماته ونحوه. فأما الحكمة التي هي عبارة عن المنطق والإلهي والطبيعي والرياضي، فهي حكمة فلسفية باصطلاحهم والخطر في الإلهي منها عظيم على رأيهم، فلا يليق النظر إلا لمتضلع من الحكمة الأولى وعلوم الشرع. وقد يحتج الفلاسفة على أن الحكمة في الآية هي حكمتهم المذكورة لقوله: عقيب ذلك: **(وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ)** والتذكر: النظر، والألباب: العقول، فهو إذن إشارة إلى أن الحكمة المذكورة إنما طريق إدراكها نظر العقل. وحكتنا أحق بذلك؛ لأنها مؤسسة على النظر والاستدلال العقلي.) (الطوفي: المصدر السابق، ص 111)

أما في قوله تعالى: **(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)** [البقرة: 129]

قوله تعالى: **(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ)** كان هذا دعاء نبي الله إبراهيم عليه السلام، وقد جاء في الحديث الشريف عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أنا دعاء نبي الله إبراهيم وبشرى عيسى ابن مريم)**، تؤكد هذه الآية ملازمة الرسول للأمة ملازمة مستمرة إلى يوم القيامة، وقد جاءت الدعوة بصيغة استخدم فيها لفظة الرسول بدلا من النبي، ذلك لأن النبوة اختتمت كما جاء في قوله تعالى: **(مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)** [الأحزاب: 40] فالرسول محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان قد ختم النبيين، وهو أيضا قد اختتم الرسل من أصحاب الشرائع، أما الرسل الذين يحملون شرائعه كما هي عليه ويتواصلون معها في الزمان والمكان؛ فإن هذه الرسالة مستمرة، وهي عين

قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) فإن علي عليه السلام في الأمة المحمدية رسول الرسول، وإن رسول الرسول رسول، وهو من حيث الحقيقة المشار إليه بقوله تعالى: (**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ**) فهو رسولا منهم، أي: من طرف الرسول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو كذلك من ضمن الأمة ولم يكن خارجا عنها، ليكون الأقرب إلى التفاهم معهم وإقناعهم في عملية تبني منطق الحكمة، فكل رسول الرسول فهو رسول منهم، وهكذا في كل زمان، وهو الشيخ الولي المرشد الكامل مهمته قد حددها الحق تعالى وجاءت على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام بقوله: (**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ**) أي: يظهر لهم الآيات التي أمرت بها أن تظهر، والآيات إنما جعلها تعالى في الآفاق وفي النفس، وهي تقابل الآيات التي تتلى في القرآن، قال تعالى: (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) [فصلت: 53] وقال تعالى: (**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**) [فصلت: 3] فكتاب الوجود (اللوح المحفوظ) فصله تعالى قرآنا عربيا، ويدرك ذلك من كان علمه يجري بالله تعالى، أي عارفا بالله تعالى حق العرفان، هذا يعني أن على الشيخ الولي المرشد الكامل أن يحيل المتلقي قدر الإمكان إلى تأمل تلك الآيات، فتكون له دليلا إلى المعرفة الكلية للحقيقة المطلقة.

قوله تعالى: (**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**) أي: التفصيل الذي تنطوي عليه الحكمة، والغاية الكامنة خلف ذلك، وتقريب ذلك على الأفهام لكي تتذكر، وتعلم، وتعمل العمل الذي يقربها من الحقيقة فيكون ذلك بمثابة التسهيل في عملية الوصول إلى الحقيقة، كما أن تعليم الحكمة تبدأ أولا عن طريق التعلم والاكتساب، ومن ثم تكون عن طريق السلوك، وتبني الطريقة الموصلة إلى الحقيقة عن طريق المكاشفات، والمشاهدات، والمعارف الذوقية، والعلوم اللدنية، فكل مستوى من مستويات عملية الإدراك لها خط تجاه الحكمة، فالحس والعقل الحسي، والروح والعقل الروحي كلها قنواة مهمة وروافد

أوجدها تعالى من أجل الحصول على الحكمة ولكل قناة خاصية لوجه من أوجه الحكمة التي جعلها تعالى في الآفاق وفي النفس، فاللون، والجنس، والحياة مع يعج بها من مراتب الموجودات كلها تنطوي على أصناف الحكمة، وما على المرء إلا اللحاق بها ورصدها والعمل على تحصيلها.

قوله تعالى: **(وَيُزَكِّيهِمْ)** التزكية، التزكية على نوعين أما أن يكون بالخلقة والتكوين كما جاء في قوله تعالى: **(قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً)** [مريم: 19] وإما أن مزكى بفعل معلم خاص أو مربي مخصوص. يرى الراغب في قوله تعالى: **(لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً)** (أي: مزكى بالخلقة، وذلك على طريق ما ذكرنا من الاجتباء، وهو أن يجعل بعض عباده عالما وطاهر الخلق لا بالتعلم والممارسة بل بتوفيق إلهي، كما يكون لجل الأنبياء والرسل، ويجوز يكون تسميته بالمزكى لما يكون عليه في الاستقبال لا في الحال، والمعنى سيتزكى، **(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)** [المؤمنون: 4] أي: يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله، أو ليزكوا أنفسهم.) (الراغب: المصدر السابق، ص 381)

فقوله تعالى: **(وَيُزَكِّيهِمْ)** أي: يعلمهم الكيفية التي من خلالها تزكية دواخلهم، عن طريق التخلي والتحلي، وأنواع المجاهدات، والرياضات، والخلوات، وأصناف العبادات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وطاعة أولي الأمر من المؤمنين، والانتظام في طريق شيخ ولي مرشد كامل، عارف بطريق الحق تعالى ولها دراية واسعة في عملية التربية، ويستطيع أن يرقي مريديه في مقامات العناية حتى يصلوا إلى مرغوبهم ومطلوبهم.

قوله تعالى: **(إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** أي: أنك منيع الحمى في عزتك لا يستطيع أحد من العالمين أن يملي عليك إلا بما ترضى وتحب، فإذا أردت وفعلت؛ فأنت الحكيم الممد لكل حكمة، والواضع للحكمة في نصابها الصحيح.

يرى ابن عربي في تأويله للآية: **(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ)** فالسؤال في أن يكون الرسول منهم **(يَتْلُو عَلَيْهِمْ)** ذلك الرسول **(آيَاتِكَ)** ما

أنزلت عليه من الصحف والكتب **(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ)** أي: ما في الكتاب مما خاطبهم به، أو يأمرهم بتعليم الكتاب حتى يعرفوا ما كتب لهم في الصحف المنزلة **(وَالْحِكْمَةَ)** أن يضعوا العبادات التي كلفتهم مواضعها، ويرتبوها كما شرعتها زمانا وحالا ومكانا وقولا وفعلا وعقدا، فإن الحكيم هو الذي يضع الأشياء مواضعها قال: **(وَيُزَكِّيهِمْ)** أي: يطهرهم ويكثر الخير لهم. قال تعالى: **(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا)** [التوبة: 103] ثم قال: **(إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** الذي لا تغالب ولا يمتنع عليك شيء، فإنه يقول تعالى: **(لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ)** [الروم: 43] ثم نعته بالحكيم تسليما له في فعله لعلمه بالأمور، فإن اقتضت حكمته سبحانه فيما دعاه به خليله أجابه، وإن لم يكن فالأمر إليه، فهو سبحانه أعلم بمصالح العباد، ولا سيما وقد تقدم له عليه السلام قوله: **(لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)** [البقرة: 124] في سؤاله الأول في الإمامة لذريته.) (ابن عربي: 2007، ص158)

أما البروسوي فيرى في تأويله: من عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله تعالى لم يستحق أن يسمى حكيما لأنه لم يعرف أجل الأشياء وأفضلها والحكمة أجل العلوم وجلالة العلم بقدر جلالة المعلوم ولا أجل من الله ومن عرف الله فهو حكيم وإن كان ضعيف المنة في سائر العلوم الرسمية كليل اللسان قاصر البيان فيها إلا أن نسبة حكمة العبد إلى حكمة الله تعالى كنسبة معرفته إلى معرفته بذاته، وشتان بين المعرفتين فشتان بين الحكمتين، ولكنه مع بعده عنه فهو أنفس المعارف وأكثرها خيرا، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، وما يتذكر إلا أولوا الألباب نعم من عرف الله كان كلامه مخالفا لكلام غيره فإنه قلما يتعرض للجزئيات بل يكون كلامه جمليا ولا يتعرض لمصالح العاجلة بل يتعرض لما ينفع في العاقبة ولما كانت الكلمات الكلية أظهر عند الناس من أحوال الحكيم من معرفته بالله ربما أطلق الناس اسم الحكمة على مثل تلك الكلمات الكلية، ويقال للناطق بها الحكيم، وذلك مثل قول سيد الأنبياء عليه السلام: **(رأس الحكمة مخافة الله)** ثم أن في الآية إشارة إلى أن في إرسال الرسل حكمة، أي: مصلحة وعاقبة حميدة لأن عمارة الظاهر وإنارة الباطن

ونظام العالم بهم لا بغيرهم ولورثتهم من الأولياء الكاملين حظ أوفى في باب التزكية فلابد للعبد من دليل ومشد يهتدي به إلى مقصوده ومن لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان، والمرشد الكامل يزكي نفس السالك بإذن الله ويطهرها من دنس الالتفات إلى ما سوى الله ويتلو عليه الآيات الأنفسية والآفاقية ليكون من الموقنين ويغتنم النعيم الروحاني ويدخل في زمرة الصديقين. (البروسوي: المصدر السابق، مجلد1، ص 237 – 238)

ويرى ابن عجيبة الحسني: (تضمن دعاؤهما عليهما السلام ثلاثة أمور يطلب التماسها والتحقق بها من كل أحد؛ أولها: الانقياد لله في الظاهر والباطن، بامتثال أمره والاستسلام لقهره، حتى يسري ذلك في الأصل إلى فروعه، وهي غاية المنة، قال في الحكم: (متى جعلك في الظاهر ممتثلا لأمره، وفي الباطن مستسلما لقهره، فقد أعظم منته عليك) والثاني: معرفته الطريق، والسلوك على جادتها، كارتكاب مشاق الطاعات، ومعانقة مخالفة الهوى والشهوات، ورؤية التقصير في ذلك، وطلب التوبة مما هنالك، وهذه هي مناسك حج القلوب، والطريق الموصل إلى عرفة حضرة الغيوب، والثالث: الظفر بالداعي إلى الله والدال عليه، وهو المعلم الأكبر، صحبته تطهر من العيوب، ورؤيته تغني القلوب، وتدخلها إلى حضرة الغيوب، ظاهره قائم الحكمة، وباطنه مشاهد لتصاريف القدرة، وهذا هو القائم بالتربية النبوية.) (الحسني، ابن عجيبة، المصدر السابق، مجلد 1، ص142)

أما في قوله تعالى: **(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ)** [آل عمران: 48] التعليم الإلهي له شروط فمن أقامها حظي بالتعليم الإلهي منها بحسب ما جاء في قوله تعالى: **(وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** [البقرة: 282] فالتقوى أساس مهم لتحصيل العلم الإلهي، والتقوى مفتاح مهم من مفاتيح الاهتداء كما جاء في قوله تعالى: **(ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)** [البقرة: 2] ومن أجل الوصول إلى مرتبة التقوى لابد من تحقيق جملة أمور منها ما جاء في قوله تعالى: **(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا**

أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) [البقرة:3 – 4] فمن أقام هذه القواعد بشكل صحيح ودقيق تحقق بمقام التقوى لأنه سيكون موصوفا بقوله تعالى: **(أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** [البقرة: 5] مفلحون لأنهم قد حققوا صلة مع الحق تعالى لن تنقطع، ولهم منه تعالى أنواع المعارف، والعلوم اللدنية التي تشكل بمجموعها الحكمة.

في قوله تعالى: **(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ)** هل المقصود بالكتاب هو القرآن؟، علما أن المخاطب في هذه الآية هو نبي الله عيسى عليه السلام، وكتابه الإنجيل، وقد ورد في هذه الآية الكتاب، والحكمة، والتوراة، والإنجيل، إن هذه الآية تحيلنا إلى تصورين، الأول أما أن يكون عيسى عليه السلام من المشمولين بعملية الخلود في الدنيا والآخرة وهو من ضمن المشار إليهم بقوله تعالى: **(وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)** [آل عمران: 169] وقوله تعالى: **(وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ)** [البقرة: 154] ففي كلا الآيتين إشارة واضحة إلى أن عيسى عليه السلام مشمول بمضامينها، فهو حي ولا نشعر به، ويجري له تخصيص من الرزق بنوعيه المادي والروحي، ومن بين أهم هذه الأرزاق التعليم الإلهي له القرآن، والحكمة، والتوراة، والإنجيل، وجميع هذه الأمور هي التي تشكل الكتاب المشار إليه في بداية الآية: **(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ)** وأما أن يكون عيسى قد تلقى علم القرآن من الحق تعالى روحيا قبل نزوله على هيئة حروف تقرأ، فإن الحروف إذا قرأناها صار المقروء قرآنا، أما الكتاب فيراد به وجوده في القلب روحيا، وهو المشار إليه بالجملة الواحدة، قبل التفصيل، فإذا فصلناه أصبح كلمات والكلمات تصبح حروفا ولكل حرف وكلمة دلالة، ونبي الله عيسى عليه السلام قد تلقى تلك المعرفة من الحق تعالى فعمل بها لنفسه بما أمره تعالى، وليس له الحق أن يعطيها لقومه، لأن الوقت لم يأتي بعد ليكونوا قومه جاهزين لهذه المعارف التي أعطيت لعيسى عليه السلام، فكانت تلك المعارف العيسوية من حصة الورثة المحمديين، وخصصت جزء منها للأمة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام لأن الوقت قد حان أن تتقبل العقول تلك المكاشفات.

قوله تعالى: (**وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ**) أي: يعلمه توراة الظاهر وما يتصل بها من أحكام، وإنجيل الباطن وما يحيل إليه من الحقائق الإلهية ليكون الجمع بين الحقيقتين يؤدي إلى الوسطية التي دعا إليها الدين المحمدي، كما جاء في قوله تعالى: (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**) [البقرة: 143] فمن سلم نفسه وانقاد لله تعالى على يد شيخ ولي عارف بالله تحقق في هذه الوسطية ووجد الحكمة التي كان يبحث عنها.

والحكمة وجدت من أجل أن يستخدمها الإنسان للوصول إلى الحقيقة، لا أن يسخرها في عملية انتفاع دنيوي؛ لأن هذا من شأنه إفساد لحقيقة الحكمة، وفي هذا الموضوع يرى ابن عربي في رسالته الإنباه على طريق الله فيقول: الصمت عن النطق بالحكمة في موضعها دليل على الأمانة المُحقَّقة، ما لم يؤد إلى مفسدة في دين أي: عدم مشاركة الحكمة في الوقت الذي يستدعي مشاركتها أو حضورها، وذلك لأن عدم مشاركتها وحضورها في تلك اللحظة يؤدي إلى ضلالة عن الصراط المستقيم المؤدي إلى الحقيقة. ويرى ابن عربي: إن النطق بالحكمة في موضعها من غير ضرورة دليل على الخيانة، لأن الحكمة وجدت من اجل الضرورة التي توصل إلى الحقيقة، فهي ضرورية لكونها تؤدي إلى الاستقامة والوصول إلى الحقيقة، أما إذا كان استخدامها لا يحقق هذا الهدف، فإن استخدامها يعد خيانة للحكمة لأنك وضعتها في الاتجاه الغير ضروري. ويرى ابن عربي: ليس الحكيم من يتكلم بالحكمة ولا يستعملها، وإنما الحكيم من يصرفها وإن كان لا يعلمها، وقال: الحكمة ضالَّةٌ شريفة الوجود، يسيرة المأخذ لمن عرف كيف يأخذها. أي: أن الحكمة ضالة المؤمن، ولولا أنها شريفة الوجود لما أصبحت ضالة المؤمن، وهي شريفة الوجود لأن منبعها هو الحكيم، وإن الطريق إليها يحتاج إلى منهج تحت إشراف شيخ ولي كامل، فهي يسيرة المأخذ لمن عرف شيخ الوقت وسلك في طريقته، وهي عصية لمن طلبها عن طريق الكسب. وقال ابن عربي: (يا عجبا كيف صارت الحكمة

ضالة ؟ وليست الحكمة سوى فعل الحكيم أو قوله، وليس في الوجود فاعل إلا الله، وهو الحكيم المطلق، وكيف تكون الحكمة ضالة ؟ والوجود كله حكمة، وإنما وقع الطلب من الحكماء عليها، لطلبهم حكمة مخصوصة بعينها. قال تعالى: **(وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)** [يوسف: 105] وقال تعالى: **(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)** [البقرة: 164] والجهال لا يعرفون آية الإحراق المعتاد، ومن لم يدري جري العادات وحكمها فليس بعاقل لأن الله تعالى جعلها آيات لقوم يعقلون. وقال: إذا نظرت على الحقيقة وجدت الإنسان ضالة الحكمة، وإن الحكمة تطلبه، لا أن الحكمة ضالته، ونعوذ بالله من هذه الإنسانية التي لا تعرف الحكمة إلا مقيدة بغرض ما.) (ابن عربي: 2009، ص126 – 130)

ويريد ابن عربي بقوله: بأن الحكمة هي التي تطلب الإنسان من كون الإنسان مختصر شريف للكون الجامع، فكل حكمة قد انطوت عليها الآفاق الكونية والمراتب الوجودية فلها في الإنسان مماثلة، ومن أجل ذلك قيل: **(من عرف نفسه فقد عرف ربه)** لأن الإنسان مخلوق على الصورة الكونية، والصورة الكونية مخلوقة على صورة الحق تعالى، وإن آدم خلقه تعالى على صورته، فمن عرف نفسه عرف الكون وعرف الحق تعالى، فالإنسان هو الحاوي للحكمة الجامع لها، فإذا المرء أن يجد الحكمة فعليه البحث في ذاته، وإذا توجه المرء للبحث جديا في ذاته فإن هذا يعني أن الحكمة ساقته للبحث عن كنزية الذات الإنسانية، فيكون الوصف حينئذ أن الحكمة هي التي تطلب وليس العكس.

يرى السبزواري في تأويله للآية: **(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ)** [آل عمران: 48] (الكتاب يمكن أن يكون من قبيل ذكر العام قبل الخاص، والمجمل قبل المفصل، إعلاما بشأن الكتاب وتثبيتا لدرجته، وبيان أهمية الخاص، ويمكن أن يكون المراد به كليات أسرار القضاء والقدر الثابتة في العلم الأزلي مع إحاطته عز وجل بتمام الجزئيات إحاطة واقعية حقيقية.

أما الحكمة فيراد بها الحقائق التي تكون نافعة للإنسان اعتقادا وعملا ولها دخل في سعادته في الدارين، والتوراة هي الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام في الميقات، وهي تتضمن التشريعات التي شرعها الله تعالى لموسى عليه السلام، والإنجيل هو الكتاب المنزل على عيسى ابن مريم، ومعناه في اليونانية القديمة التعليم، وقيل معناه البشارة، وإنما ذكر عز وجل الإنجيل لأنه كان موعودا به عند الأنبياء ومعلوما لديهم، ويختلف التوراة عن الإنجيل في أن الأول تشتمل على الأحكام الإلهية والإنجيل يتضمن على النواسخ وبعض الأحكام الإثباتية، قال تعالى: **(وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)** [الزخرف: 63] وقال تعالى: **(وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)** [المائدة: 46].) (السبزواري: المصدر السابق، مجلد5، ص353)

الإشارة في هذه الآية كما يراها ابن عجيبة: (قال صلى الله تعالى عليه وسلم: **(من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله تعالى إليها)** قال بعضهم: صدق المجاهدة: الانقطاع إليه من كل شيء سواه. فالانقطاع إلى الله في الصغر يخدم على الإنسان في حال الكبر، ومعاصي الصغر تجر الوبال إلى الكبر، فكما أن عيسى عليه السلام كان يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله، كذلك من انقطع بكليته إلى الله أبرأ القلوب السقيمة بإذن الله، وأحيا موتى القلوب بذكر الله، وأخبر بالغيوب وما تدخره ضمائر القلوب، يدل على طاعة الله، ويدعو بحاله ومقاله إلى الله إلى الله، يهدي الناس إلى الصراط المستقيم، ويوصل من اتبعه إلى حضرة النعيم.) (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ص 322)

أما في قوله تعالى: **(لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)** [آل عمران: 164]

قوله تعالى: **(لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ)** المنة هنا تجري مجرى التخصيص للمؤمنين دون غيرهم ممن هم أقل مقاما منهم، وهذا يعني أن

التخصيصات الإلهية تلازم كل مقام من مقامات الارتقاء حيث تبدأ هذه التخصيصات من أبسط مقام وصولا إلى مرتبة الفناء في الله تعالى.

قوله تعالى: **(إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ)** أي: من أنفس المؤمنين أو بالأحرى أن نفوس المؤمنين من نوره وهو من نور الله تعالى كما جاء في الخطاب الإلهي: **(قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ)** [المائدة: 15] وجاء في الحديث الشريف: **(أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة)**، وقد بعث تعالى الرسول صلى الله تعالى من نفس القوم ليسهل ذلك من عملية التعليم، والترقي في العقيدة وصولا إلى عملية الفناء في الله تعالى، كما وأن لفظة الرسول تفيد الاستمرار في الرسالة كما أشرنا إلى هذا من قبل؛ إذ أن رسول الرسول رسول، وهكذا تستمر الرسالة لتشمل الرحمة العوالم جميعها.

قوله تعالى: **(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)** أي: يتلو عليهم آيات الله تعالى الكامنة في نفس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كما جاء في قوله تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)** [فصلت: 53] وقوله تعالى: **(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)** [الذاريات: 21] أو الآيات الكامنة في نفس الشيخ الولي المرشد الكامل، وهي المعارف اللدنية وأنواع المذاقات التي من شأنها ترقي المريد السالك وتزكيه من رجس الجهل، وعمى الطبع.

قوله تعالى: **(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)** أي: يضعهم على طريق الحقيقة التي تؤدي بهم إلى جنة ثمار الحكمة، وروض المعارف القدسية التي فيها ما لذ وطاب من الواردات المعرفية، فيكون ذلك سببا في الإطلاع على تفصيل الكتاب الحاوي على مراتب الحكمة، ووسيلة إلى الترقي المستمر الذي يقابله تعالى بالمواهب اللدنية من خزانة الجود والكرم بمزيد من العطايا.

قوله تعالى: **(وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)** بعد أن كانوا في ظلمة الجهل، وأسارى الحجب الظلمانية لأنهم فيها يتخبطون، قال تعالى: **(وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)** [آل عمران: 103] فشتان ما بين الحكمة، والجهالة، وما بين الإيمان وجناته، وبين الضلالة وعذاباتها.

يرى القشيري في لطائف إشاراته: لقد أجزل تعالى لديهم العارفة، وأحسن إليهم النعم حيث أرسل إليهم مثل المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم، وعرفهم دينهم، وأوضح لهم براهينهم، وكان لهم بكل وجه فلا نعمه شكروا، ولا حقه وقروا، ولا بما أرشدهم استبصروا، ولا ضلالتهم أقصروا.. هذا وصف أعدائه الذين جحدوا واستكبروا. وأما المؤمنون فتقلدوا المنة في الاختيار، وقبلوا الأمر بالسمع والطاعة عن كنه الاقتدار، فسعدوا في الدنيا والعقبى، واستوجبوا من الله الكرامة والزلفى. (القشيري: المصدر السابق، مجلد1، ص281)

وأما قوله تعالى: **(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)** [النحل: 125]

قوله تعالى: **(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ)** لقد أمر تعالى أن يدعو الداعي إلى الله بالحكمة، وهذا يعني أن هوية الداعي هنا تحددت وتعينت؛ إذ ليس كل داعي يمتلك الحكمة، بل قليل من الدعاة من يمتلك الحكمة، والحكمة هنا اقتران الجانب النظري (القول) مع العملي (إظهار المعجزة أو الكرامة)، وذلك اعتمادا على سيرة النبوة والرسالة عليهم السلام باعتبارهم أول من دعا إلى بالحكمة الجامعة للقول والبرهان، نظريا وعمليا، والداعي يفترض أن يكون وارث لشروط الحكمة، فمن لم يجد في نفسه هذا التمكين فإن دعوته تكون ناقصة في مجال الحكمة، فإنه لا يستطيع أن يقول في دعوته أنه يستخدم الحكمة، لأنه إذا قال ذلك فإنه سيواجه بمطلب يطالبه بالبرهان، كما جاء في قوله تعالى: **(قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)** [البقرة: 111] وقوله تعالى: **(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)** [الجمعة: 6] ومعلوم أن الذي يمتلك الحكمة، ويدعو بها الناس إلى الله تعالى، إما أن يكون نبي، أو رسول، أو ولي، فمن كانت هويته ومقامه الولاية تكون دعوته مصحوبة بالكرامة الخارقة لنواميس العقل، ومن بينها تمني الموت، أي: لا يخشى من الموت لأن من أهل الله وخاصته وهذا يعني أنه مشمول بقوله تعالى: **(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)** [يونس: 62] فإذا كان الخوف والحزن

لا يقع عليه حين يتوجه للموت ويتمناه؛ فهو من أرباب الحكمة الذين شملهم الحق تعالى بشرف الدعوة إليه من خلال الحكمة، وهم الذين أشار إليهم تعالى بقوله: **(وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً)** [الأحزاب: 46] وهم الذين أحال تعالى إليهم أسباب الهداية فأحال الناس إليهم، وبالأخص ممن طلب طريق الهداية، قال تعالى: **(وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)** [الأحقاف: 32]، فهم دعاة إلى الحق بأذنه وعلامة الأذن كونهم يملكون الحكمة، فتظهر على يديهم الكرامة التي لا يعطيها تعالى إلا لأوليائه بعد أن اختتمت النبوة بخاتم النبيين محمد المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم.

قوله تعالى: **(وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)** وهو مستوى ثاني من الدعاة، وهو أنزل من حيث المقام عن المستوى الأول وهو مستوى الحكمة، بل جعل تعالى الموعظة تمهيدا وإعدادا للناس ليكونوا مستعدين إلى التحول للمستوى الأول أي: طلب الحكمة، وذلك لأن الحكمة ترتبط بالمؤمنين، وبالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وترتبط بالله، والكل لهم العزة كما جاء في قوله تعالى: **(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)** [المنافقون: 8] فالواعظ هو المعلم الذي لديه إمكانية الإعداد، والتدريب، والتهيأة للمستعدين ليكونوا جاهزين للسفر والسير إلى جهة الحكمة وهي الحق تعالى: أي: (الله تعالى والرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين) يقصودنهم ويطلبونهم لأن العزة مقصودة ومطلوبة وليس العكس، والواعظ له مهمة الإحالة إلى هذه الجهة من خلال اتباع صيغ الوعظ التي تؤثر في النفوس، فتجعلها محبة ومشتاقة لطلب الحكمة، وتعمل على تحصيلها من اجل التخلق بها قولا وعملا.

قوله تعالى: **(وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** وهو أسلوب قد يواجه الواعظ خلال وعظه، فإن عليه أن يلقي الحجة من خلال الجدل الدائر بشكل دون أن يثير حفيظة المقابل، أو الآخر، بل يحاول أن يستدرجه من خلال الأسلوب إلى منطقته فيجعله يسلم لمنطقه بشكل لطيف، فإذا استطاع ذلك فإنه قد جادل بالحق، فيسهل له تعالى مهمته الوعظية.

ويمكن أن يكون الشيخ الولي المرشد الكامل هو الجامع لهذه الثلاثية، أي الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدل بالتي هي أحسن، غير أن تسهيل مهمة الدعوة إلى الله على وفق الصيغ الثلاثة ومن خلال ثلاث متخصصين تكون أسهل، لأن الشيخ الكامل واحد في كل زمان، والناس كثرة عديدة فلا يمكن من الناحية العملية تغطية عملية الإرشاد بشكل صحيح إلا من خلال هذه التخصصات الثلاثة.

قوله تعالى: **(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)** إن العمل بالأساليب الثلاثة لا يعني أبدا أن تعالى عليم بمن ضل عن سبيل الحق تعالى، أو بالمهتدين، فإنه تعالى لا يغيب عنه شيء وهو بكل شيء محيط.

يرى ابن عربي في فتوحاته: أن (العالم الصالح من استبرأ لدينه في كل أحواله في حق نفسه وفي حق غيره، وإلى الآن ما رأيت أحدا من أهل الانتماء إلى الدين وإلى العلم على هذا القدم، ولولا ما في ذكر هذا من المنفعة لعباد الله والنصيحة لهم ما بسطنا القول فيه هذا البسط وإن كان الفصل يقتضيه فإنه فصل الموعظة والله يقول لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم فيما أنزل عليه: **(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)** مثل هذه التي ذكرناها فإنها وصية منا إلى عباد الله جمعت بين الحكمة لأنا أنزلناها منزلتها، وبين الحكم والحكيم من ينزل الأمر منزلته ولا يتعدى به مرتبته. وأما الموعظة الحسنة فهي الموعظة التي تكون عند المذكر بها عن شهود، فإن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فكيف بمن حقق أنه يراه فإن ذلك أعظم وأحسن، وقد يكون قوله مثنى يريد به التعاون في القيام لله تعالى في ذلك الأمر، وصورة التعاون فيه أن الشرع في نفس الأمر قد أنكر هذا الفعل ممن صدر عنه عليه، فينبغي للعالم المؤمن أن يقوم مع المشرع في ذلك فيعينه فيكون أثنان هو والشرع.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد6، ص390)

وفي تأويل آخر يرى فيه ابن عربي لقوله تعالى: **(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن**

ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [النحل: 125] فيقول: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ) أي: لتكن دعوتك منحصرة في هذه الوجوه الثلاثة لأن المدعو إما أن يكون خاليا عن الإنكار أو لا، فإن كان خاليا لكونه في مقام الجهل البسيط غير معتقد لشيء، فإما أن يكون مستعدا غير قاصر عن درك البرهان والحجة واهده إلى صراط التوحيد بالمعرفة، وإن كان قاصر الاستعداد فادعه بالموعظة الحسنة والنصيحة البالغة من الإنذار والبشارة والوعد والوعيد والزجر والترهيب واللطف والترغيب، وإن كان منكرا ذا جهل مركب واعتقاد باطل فجادله بالطريقة التي هي أحسن من إبطال معتقده بما يلزم من مذهبه بالرفق والمداراة على وجه يلوح له أنك تثبت الحق وتبطل الباطل لا غرض لك سواه (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِه) في الأزل لشقاوته الأصلية فلا ينجع فيه أحد هذه الطرق الثلاثة (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) المستعدين، القابلين للهداية لصفاء الفطرة.) (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص371 – 372)

ويستدعي السلمي مجموعة من التأويلات في تأويله للآية: (قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: (**أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم.**) قال بعضهم: خاطب كلا على قدره، والموعظة الحسنة فيها ترغيب وتهديد. وقيل: الموعظة الحسنة ما اتعظت بها أولا ثم أمرت. سئل بعضهم: لم قدم الله تعالى الحكمة ؟ فقال: لأن الحكمة إصابة القول باللسان وإصابة الفكرة بالجنان، وإصابة الحركة بالأركان، وأن تكلم بكلام الحكمة، وأن تفكر بفكر بحكمة. قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: الدعوة بالحكمة أن يدعوه من الله إلى الله بالله، والموعظة الحسنة أن يرى الخلق في أسر القدرة فيشكر من أجاب ويعذر من أبى. وقيل: لا يكون الرجل حكيما حتى يكون حكيما في أفعاله، حكيما في أقواله، حكيما في أحواله، فإنه يقال له ناطق بالحكمة، ولا يقال له حكيما، قوله تعالى: (وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) قال: هي التي ليس فيها من حظوظ النفس شيء، ولا ترى أنه الممتنع من قبول الموعظة فتغضب عليه، إن ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله: فلا ينجع فيه قولك: (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) الموفقين الذين شرحت صدورهم بقبول ما أثبت به.) (السلمي: المصدر السابق، مجلد1، ص377 – 3789)

كتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران تاسیس ۱۳۷۴

أما قوله تعالى: **(وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)** [الزخرف: 63]

قوله تعالى: **(وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ)** أي: أظهر المعجزات العظام مع القول الذي لا يقبل الجدل (الحكمة)بحيث اقتنع الجميع أن ما أجراه عيسى عليه السلام هو من جهة الحق تعالى لا ريب فيه، ولا رجعة في هذه القناعة **(قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ)** أي: أن ما رأيتموه من معجزات، وما سمعتموه من قول يؤكد تطابق القول مع الفعل هو عين الحكمة التي تقتضي منكم أن تؤمنوا بالله تعالى، وبالطريق المؤدي إلى رضاه، وأن الحكمة التي أبديتها لكم تكون قد حلت لكم إشكالية الاختلاف الذي وقع بينكم، أما الآن وبعد أن وضحت لكم **(وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ)** فإن من الواجب عليكم إعلان الطاعة، والموافقة على السير معي من أجل الارتقاء بكم إلى مراتب كمالاتكم **(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)** أي: أجعلوا مخافة الله نصب أعينكم في كل خطوة تخطوها؛ وذلك لأن: **(رأس الحكمة مخافة الله)** وأطيعوني بالانقياد لما فيه صلاح ذواتكم المحجوبة مع جهة الطبع والغواشي، والواقفة مع جهة الأغيار، فإن في طاعتكم لي خلاصكم من جميع العلائق، حتى تبلغوا أعلى مراحل التجرد من جميع العلائق بالتخلي الذي يقود إلى التحلي بالأخلاق الإلهية.

وهذا شأن كل ولي مرشد كامل فإن مهمته الرقي باتباعه من أجل الوصول بهم إلى مراتب الكمال، والرقي بهم من الوقوف مع جهة الحس أو المحدود إلى المطلق الأبدي.

ويرى البروسوي في تأويله للآية: (إن البعض التي وردة في هذه الآية تعني الكل، كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال بعض أهل المعاني: كانوا يسألون عن أشياء لا فائدة فيها. فقال: ولأبين لكم.يعني: أجيبكم عن الأسئلة التي لكم فيها فوائد، وفي الآية إشارة إلى أن الأنبياء، كما يجيئون بالكتاب من عند الله يجيئون بالحكمة مما آتاهم، كما قال: **(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)** [البقرة: 129] ولذا قال: **(ولأبين لكم)** لأن البيان عما يختلفون فيه هو الحكمة **(فاتقوا الله)** في مخالفتي **(وأطيعون)** فيما أبلغه عنه تعالى، فإن طاعتي طاعة الحق.) (البروسوي: المصدر السابق، مجلد8، ص428)

الشيخ والصبر

الصبر لغة: يرى ابن فارس: (الصبر: وهو الحبس، يقال صبرت نفسي على ذلك الأمر أي حبستها، قال عنترة بن شداد:

فصَبَرتَ عارفةً لذلك حُرّةً ترسُو إذا نَفسُ الجَبـــــان تَطَلَّعُ

والمصبورة المحبوسة على الموت.) (ابن فارس: المصدر السابق، ج2، ص31)

الصبر في الاصطلاح الصوفي

الصبر: كما يراه الهروي: قال تعالى: **(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ)** [النحل: 127] (الصبر: حبس النفس على جزعٍ كامنٍ عن الشكوى، وهو أيضا من أصعب المنازل على العامة، وأوحشها في طريق المحبة، وأنكرها في طريق التوحيد، وهو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد، إبقاء على الإيمان، وحذرا من الجزاء، وأحسن منها الصبر عن المعصية حياءً، والدرجة الثانية: الصبر على الطاعة، بالمحافظة عليها دواما، وبرعايتها إخلاصا، وبتحسينها علما. والدرجة الثالثة: الصبر في البلاء بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج، وتهوين البلية بعد أيادي المنن، وتذكر سوالف النعيم، وفي هذه الدرجات الثلاث من الصبر نزلت **(اصْبِرُواْ)** [آل عمران: 200] يعني في البلاء، **(وَصَابِرُواْ)** [آل عمران: 200]، **(وَرَابِطُواْ)** [آل عمران: 200] يعني على الطاعة، وأضعف الصبر، الصبر لله، وهو صبر العامة، وفوقه الصبر بالله، وهو صبر المريد، وفوقها الصبر على الله، وهو صبر السالك.) (الهروي: المصدر السابق، ص49 – 50)

وفي الصبر يرى الجرجاني في تعريفاته: (هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله، لأن الله تعالى أثنى على أيوب عليه السلام، بالصبر بقوله: **(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)** [ص: 44] مع دعائه في رفع الضر عنه بقوله: **(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)** [الأنبياء: 83] فعلمنا أن العبد إذا دعا الله تعالى في كشف الضر

عنه لا يقدح في صبره، ولئلا يكون كالمقاومة مع الله تعالى، ودعوى العمل بمشاقه، قال تعالى: **(وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)** [المؤمنون: 76] فإن الرضا بالقضاء لا يقدح فيه الشكوى إلى الله ولا إلى غيره، وإنما يقدح بالرضا في المقتضي، ونحن ما خوطبنا بالرضا بالمقتضي، والضر هو المقضي به، وهو مقضي به على العبد، سواء رضي به أو لم يرضى، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: (من وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) وإنما لزم الرضا بالقضاء، لأن العبد لابد أن يرضى بحكم سيده.) (الجرجاني: المصدر السابق، ص94)

يعرفه القاشاني: (عبارة عن حبس النفس على الطاعات، ولزوم الأمر والنهي ثم على ترك رؤية الأعمال، وترك الدعوى مع مطالبة الباطن بذلك، وعلى الإعراض عن إظهار العلوم والأحوال، وكل ما يبدو للروح من المواجيد والأسرار، ثم حبس السر والروح عن الاضطراب في كل ما يبدو من الإلهامات والواردات والتجليات، والثبات على ذلك كله، وعلى مقامات البلايا لرؤيتها رافعة للحجب النورانية الرفيعة حتى يصير كل بلاء ومحنة بتلك الرؤية عطاء ومنحة، ويصير وظيفة السالك ومقامه شكرا، بعد أن كان صبرا، فالصبر يشمل جميع المقامات، والأخلاق، والأعمال، والأحوال، فإن جميع ذلك لا يتحقق إلا بحمل النفس على الثبات في التوجه إلى تحققه، وعلى مقاساة الشدة في تصحيحه، وتنقيحه، فلا يخرج شيء عن الصبر لأنه أعم المقامات حكما، وأشمل الأخلاق أثرا لكونه لا يتم شيء من الأمور إلا به.) (القاشاني: المصدر السابق، ص267 – 268)

أما البقلي فيرى في الصبر: (إذا سكن السر يتجلد القلب في تحمل مشقة البلاء بنشف سر الصميم ندارة مزن هواء الأنس ولا يتأذى بورود أحكام الاختيار وذلك حقيقة الصبر حيث طابت القلوب بمباشرة أنوار رؤية المبلي عند نزول البلاء، قال تعالى: **(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)** [الطور: 48] قال عليه السلام: **(الصبر نصف اليقين)** وقال بعضهم: الصبر الوقوف عند البلاء والعكوف على الصفاء.) (البقلي: المصدر السابق، ص42)

وفي قوت القلوب يرى أبو طالب المكي: (لقد جعل تعالى الصابرين أئمة المتقين وتمم كلمته الحسنى عليهم في الدين فقال تعالى: **(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ) (بِأَمْرِنَا)** [الأنبياء: 73] لما صبروا. وقال تعالى: **(وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ)** [الأعراف: 137]وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: (إن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا. وقال المسيح عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون. وقال بعض الصحابة: ماذا جعل الله تعالى من الشقاء والفضل في التقى والصبر. وقال ابن مسعود الصبر نصف الإيمان، وقد جعل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الصبر ركنا من أركان الإيمان وقرنه بالجهاد والعدل والإيقان فقال: بني الإسلام على أربع دعائم، على اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل، وقال كرم الله وجهه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد لا جسد لمن لا راس له ولا إيمان من لا صبر له، ورفع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم: الصبر في العلو والفضل إلى مقام اليقين وقرنه به. وأخبر عليه السلام: إن الصبر كمال العمل والأجر.) (المكي، أبو طالب: 1995، ج1، ص 390)

ويرى الكاشاني، محسن فيض: (يقول الحسين عليه السلام: إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره والبر مطل عليه ويتنحى الصبر ناحية فإذا دخل عليه الملكان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة والزكاة والبر: دونكم صاحبكم فإن عجزتم عنه فأنا دونه، وعنه عليه السلام: **(من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد)** وعنه عليه السلام: **(إن الله تعالى أنعم على قوم فلم يشكروا فصارت عليهم وبالا، وابتلى قوما بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمة)**، وعن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: **(سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر ولا الغنى إلا بالغضب والبخل ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة، وصبر**

على الذل وهو يقدر على العز آتاه الله ثواب خمسين صديقا ممن صدق بي.) (الكاشاني، محسن الفيض: 1384هجري، ج4، ص75)

ويضيف الفيض: إن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين، وجميع مقامات الدين إنما ينتظم في ثلاثة أمور: معارف وأحوال وأعمال، فالمعارف هي الأصول وهي تورث الأحوال والأحوال تثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالثمار، وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله، واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف، وتارة يطلق على الكل، وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة أما في البهائم فلنقصانها، وأما في الملائكة فلكمالها. وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات، وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا. وأما الملائكة فإنهم جردوا للشوق إلى الحضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف، وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبي ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضاهما ومطالبهما. (الكاشاني: المصدر السابق، ج4، ص 76)

ولما كان الصبر نصف الإيمان، أو منزلته منزلة الرأس من الجسد بالنسبة للإيمان، فإن الشيخ الولي العارف له باع طويل وتجربة عميقة في هذا الباب، فهو قد ذاق مرارة وحلاوة الصبر من خلال مجاهداته الطويلة حتى بلغ مستوى المشيخة أو الولاية الكاملة، وحين يتوجه المريد إلى الشيخ

من أجل إرشاده على أفضل الطرق التي توصله إلى الحقيقة؛ فإن مقام الصبر له الأولية في مساحة التربية والتهذيب والتشذيب التي يتضمنها منهج الشيخ الولي الكامل، فيبدأ مع مريده بالإشراف على تطبيقات برنامجه المتضمن الرياضة والخلوة ومجاهدة النفس، والمواظبة على العبادة، والتوجه طوعا لنوافل العبادات، حتى يذيق مريدة مرارة الصبر قسطا بعد قسط، ويشرف عليه ليتحمل قاهرية جلاله، حتى يصل به إلى جماله، فإذا بلغ المريد هذا المستوى من المعرفة الذوقية، وعرف أن قيمة الجمال تأتي من تحمله لقاهرية الجلال عبد ذاك يكون قد بلغ مرحلة الفطام فلم يكن الخوف عليه له مبرر، فيشق الطريق تحت إشراف الشيخ الكامل ليؤول به الأمر إلى المنتهى، ويعد الصبر براق القاصدين أو المسافرين، فكل مقام من مقامات السالكين لا يمكن أن يتخلى عن مقام الصبر طالما أن للسالك عزم أكيد في مواصلة السفر إلى مرتبة الفناء في الحق تعالى، فالصبر مع كل المقامات جملة وتفصيلا، قال تعالى:

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) [ص: 44]

وصف قد وقع على نبي لكثرة صبره، وكثرة رجوعه إلى الله.

قوله تعالى:

(وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ) [الأنبياء: 85]

قوله تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر: 10]

قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [البقرة: 153]

قوله تعالى:

(وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [البقرة: 177]

في قوله تعالى:

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) [ص: 44]

الضغث: (قبضة ريحان، أو حشيش أو قضبان، وجمعه أضغاث. قال تعالى: **(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً)** [ص: 44] وبه شبه الأحلام المختلطة التي لا يتبين حقائقها، **(قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ)** [يوسف: 44] حِزَمُ أخلاطٍ من الأحلام.) (الراغب: المصدر السابق، ص509).

يشير تعالى في هذه الآية إلى أيوب الصبر، حين اشتد عليه المرض وقاهرية الجلال ففرج الله تعالى عليه بعد طول الصبر بمباسطة الجمال، وكذلك الحال مع سالك ومريد إن عليه الصبر في الملمات، مع المرابطة والثبات مع جهة الحق تعالى،حتى تطلع شمس المعارف فتزيل ظلمة الحجب. إن مقام الصبر هنا قد رافق مقام النبوة، وهذه إشارة إلى أن مقام الصبر من المقامات المهمة التي من خلالها يتم استنزال المعارف والعلوم اللدنية التي هي بمثابة الشفاء لعلل الاحتجاب التي ترافق النفس فالصبر مؤداه إلى تطهير النفس من الغواشي والعلائق والأغيار، والطباع التي من شأنها تديم عملية الاحتجاب.

يرى ابن عربي في تأويله للآية: (قيل إنه حلف في مرضه ليضربن امرأته مائة إن برىء، واختلف في سبب حلفه فقيل: أبطأت ذاهبة في حاجة، وقيل: أوهمها الشيطان أن تسجد له سجدة ليرد أموالهم الذاهبة، وقيل باعت ذؤابتين لها برغيفين وكانتا متعلق أيوب عند قيامه، وقيل: إشارة إليه ليشرب **(قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ)** [يوسف: 44] الخمرة، كلها إشارات إلى التلوين المذكور بظهور النفس بإبطائها وتكاسلها في الطاعات أو طاعة شيطان الوهم وانقيادها له في تمني الحظوظ وترك ما يتعلق به القلب في القيام عن مرقد البدن والتجرد عن الهيئات المنشطة

المشجعة من العلوم النافعة والأعمال الفضيلة، واستبدال الحظوظ القليلة المقدار، اليسيرة الوقع، والخطر بها، أو المراءاة بها، لاستجلاب حظ النفس أو شرب خمر الهوى والميل إلى ما يخالف العقل. وحلفه إشارة إلى نذره المخالفات والرياضات المتعبة والمجاهدات المؤلمة أو ما ركز في استعداده في محبته التجريد والتزكية بالرياضة وعزيمة تأديب النفس بالأخلاق والآداب بالمخالفات المؤلمة بمقتضى العهد الأول وحكم ميثاق الفطرة وأخذ الضغث، والضرب به إشارة إلى الرخصة، والطريقة السهلة السمحة من تعديل الأخلاق بالاقتصار على الأوساط والاعتدالات من الرياضات والمخالفات لصفاء الاستعداد وشرف النفس ونجابة جوهرها دون الإفراط فيها، والأخذ بالعزائم الصعبة كما قال عليه الصلاة والسلام: **(بعثت بالحنفية السمحة السهلة)** (ولا تحنث) بترك التأديب بالكلية ونقص العزيمة في طلب الكمال، وترك الوفاء بالنذر الفطري **(إنا وجدناه صابرا)** في بليته وطلبه للكمال فرحمناه، وليس كل طالب صابرا **(نعم العبد إنه)** رجاع إلى الله بالتجرد والمحو والفناء.) (ابن عربي:المصدر السابق، ج2، ص192- 193)

ويرى الرازي، محمد بن أبي بكر: (إنما قال الله تعالى في حق أيوب عليه السلام: **(إنا وجدناه صابرا)**، ولم يقل صبورا، والصبور أبلغ في معنى الصبر من الصابر، لأنه لم يمكن جميع أحواله الصبر، بل كان في بعض أحواله يلتذ بالبلاء، ويستعذبه، فلم يكن في تلك الحال صابرا، لأن الصبر لا يكون إلا مع المشقة والكراهة. (فإن قيل: كيف شكى أيوب عليه السلام فقال: **(مسني الضر)** وقلتم: إن الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى. فجوابه: أنه ورد في الخبر أن الله تعالى كان يعوده في الأسحار أيام البلاء بغير واسطة، ولا قطع مسافة، فيقول له: حبيبي أيوب، كيف أنت في بلائي وحلول الأوابي، فلما شم أيوب عليه السلام رائحة العافية تأوه حسرة على مفارقة أنس تلك العيادة، فاستوحش لذلك وشكى، وقيل: إنما قال في شكواه: **(وأنت أرحم الراحمين)** ولم يقل أرحمني، حفظا للأدب، فطلب الرحمة تعريضا لا تصريحا، وقيل: الأحسن للعابد الصبر، وللمحب ترك الصبر.) (الرازي، محمد بن أبي بكر: المصدر السابق، ص108)

إن النفس لتركن إلى جهة الطبع، وقد جعل تعالى في تركيبة الإنسان ثلاث تمكينات، التمكين الأول: هو التمكين الحسي الذي تشارك فيه الحواس الخمسة تجاه مظاهر الطبيعة المادية، كحاسة الذوق للأطعمة والأشربة، والأذن للسماع، واللمس لإدراك ملمس الأشياء، والشم للتمييز ما بين أنواع المشمومات والروائح، والبصر لإدراك الألوان وما يجري بينها من علاقات في الطبيعة. غير إن هذه الحواس لا تستطيع أن تخرق الشيء الخارجي للأشياء فتتعرف على بواطن تلك الأشياء الظاهرة في الطبيعة، فأعطى الله تعالى العقل وجعل له إمكانية النفاذ بشكل محدود ليطلع على بعض خواص تلك الأشياء التي تتعلق أيضا بحدودها المادية، وقد أعطى تعالى الروح لتقابل الجانب الروحي في تلك الأشياء، وجعل للرقيقة الروحية السلطة في النفاذ إلى روح الوجود إذا تمكنت الروح من ذلك، وهي تتمكن إذا بلغت مستوى الفناء في الرب تعالى فيكون هو السمع والبصر والذوق والعقل كما ورد في الحديث القدسي، ويكون العبد قد يطلع من خلال الحق على علم الروح كما ورد في قوله تعالى: **(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)** [الإسراء: 85] فالروح من أمر الرب تعالى والرب أعلم بها، فإذا تحقق العبد بالرب صار ربانيا فيكون علمه قائما بالله تعالى، ومن كان علمه قائما بالله لا يخفى عليه شيء، فإذا العبد بهذا الوصف يكون قد ارتقى بحواسه الخمسة إلى مستوى يطلع في على الكون جملة وتفصيلا، ومن هذا الباب قال أحد الأولياء ويقّال الشيخ أبو بكر الشبلي : (لو دبت نملة سوداء في ليلة ظلماء على صخرة صماء ولم أسمع بها ولم أراها لقلت ممكورا بي) فانظر كم هو عظيم هذا التحقق والفناء في الحق، ومن أجل أن يصل المرء إلى هذا المقام فإن الصبر لابد له أن يلازم العبد في هذه الرحلة والتحولات من الحس المقيد إلى العقل الحسي المحدود نسبيا إلى العقل الروحي المطلق الذي لا يحده حد، فالصبر في العبادة يتضح من هنا أن له دور كبير في عملية الارتقاء من مستوى مقيد إلى مستوى مطلق، فالصبر وتحت إشراف شيخ ولي مرشد كامل هو الكفيل بهذا الترقي الذي يؤدي إلى

الحقيقة المطلقة، ويختصر المسافة والزمن في عملية الوصول، فالصبر صاحب المسافر إلى الله، كلما احتاج المسافر إلى وسيلة تقربه من الله تعالى أكثر فأكثر قال الصبر له: أنا عونك في ذلك.

ويستدعي البوسيفي رأي العارف بالله التستري في موضوع الصبر فيرى: في قول نبي الله يعقوب عليه السلام **(فصبر جميل)** [يوسف: 18] الصبر مع الرضا. قيل: ما علامته ؟ قال: أن لا يجزع فيه. فسئل: بأي شيء يحصل التجمل بالصبر ؟ قال: بالمعرفة بأن الله تعالى معك، وبراحة العافية، فإنما مثل الصبر مثل قدح أعلاه الصبر وأسفله العسل. ثم قال: عجبت ممن لم يصبروا كيف لم يصبروا للحال، ورب العزة يقول: **(إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)** [البقرة: 153]. (البوسيفي، فرح حسن: المصدر السابق، ص17)

قوله تعالى:

(وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ) [الأنبياء: 85] تشير هذه الآية إلى أن مرتبة الأنبياء على ما هي عليه من منزلة؛ فإن لها الشرف أن توصف بالصبر، وهذا الوصف بطبيعة الحال يحيل به الحق تعالى إلى ضرورة تبني الصبر في كل مقام مهما بلغ العبد في ترقيه في المقامات، ويبدو أن الصبر سيرافق العبد في الآخرة كذلك، فإن البعض سيواجه الصعوبات تلو الصعوبات حتى يصل إلى مرتبة الفناء، قال تعالى: **(سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً)** [المدثر: 17] والإرهاق هو شكل من أشكال العذاب، على الآخر أن يتحمله كرها إلى أن يصل إلى مرتبة الفناء، أما أهل الجنة من الذين لم يصلوا إلى مقام المشاهدة، فإن عليهم الصبر في عملية الترقي حتى يصلوا مرتبة **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)** [القيامة:22ـــ 23] وبذلك فإن من جملة دعائهم: **(ومِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)** [البقرة: 201] فإن حسنة الدنيا هي التي تنجي من عذاب النار، أما حسنة الآخرة فإنها ترقي أهل الجنة في المقامات حتى يصلوا إلى مرتبة **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)**، وإن عملية الانتظار هي عين الصبر، ويبدو أن الحق تعالى ومن باب العدالة في مجال

الصبر يكافيء الصابرين في الحياة الدنيا بشكل طوعي فيعطيهم العطاء الأوفى بغير حساب كما جاء في قوله تعالى: (**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**) [الزمر: 10] وفي مقابل ذلك فإن الحق تعالى ومن باب عدالته يذيق الذين لم يعطوا مقام الصبر حقه واستحقاقه شيئا منه في الآخرة حتى يستوفوا هذا المقام حقه واستحقاقه، قال تعالى بحق الصابرين: (**سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**) [الرعد: 24]

الصبر من أصعب المنازل على أهل البداية: (ومن أنقصها عند أهل النهاية، إذ هو مثمر للوحشة في منازل المحبة، وموجب للشرك في مشهد التوحيد، ومع ذلك فهو قوام الأعمال، وزينة الأحوال، وعمارة القلوب، وتخفيف لأعباء أثقال الكروب، يجب الاهتمام به على كل أحد، إذ هو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإن بعث عليه خوف وعيد، كان صبرا على المعصية، أو أدى إلى أحكام طاعة بتحسينها بالإخلاص، ورعايتها بالتحفظ عليها من الشوائب النقصية، وأوصل إلى تحصينها بمعالي الاستقامة، كان صبرا على الطاعة، وإن فتح للعامل باب ملاحظة حسن الجزاء، وترقب فرح يعمر روحه أجساد الحقائق والأحوال، كان صبرا على البلاء، وأدناه ما كان لله، وأوسطه ما كان بالله، وأعلاه ما كان على الله، وقد يكون في الله، وقد يكون مع الله، وقد يكون عن الله، وهذا الأخير يكون في أخص مقامات المشاهدة، وذلك بأنه قد يرجع العبد إلى مولاه إجلالا واستحياء، فتنطبق بصيرته خجلا وذوبانا، ويخفي إحساسه لعظيم ما يشهده من سر معنى التجلي، وهذا من أشد الصبر؛ لأنه يتمنى دوام هذا الحال؛ وفاءً لحق الجلال، وهو منية الروح، إذ هي تحب استمرار تمتعها بنور الجمال.) (الشاذلي، شمس الدين محمد: المصدر السابق، ص112)

ويرى الغزالي: أن حقيقة الصبر: (ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى، وهو من خاصية الآدمي الذي هو مركب من شهوية وملكية وبهيمية؛ لأن البهيمية لم يسلط عليها إلا دواعي الشهوة، والملك لم تسلط عليه الشهوة بل جردوا للشوق إلى مطالعة جمال الحضرة الربوبية...والصبر له ثلاث

درجات: الدرجة الأولى: أن يقمع داعية الهوى بالكلية، حتى لا يبقى لها قوة المنازعة، ويتوصل إليها بدوام الصبر وحلول المجاهدة، وهم الذين قيل فيهم: (**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**) [فصلت: 30] وإياهم ينادي: (**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**) [الفجر:27_ 28] الدرجة السفلى: أن يعجز عن داعية الهوى، فيسقط منازعة باعث الدين، ويغلب الهوى، ويسلم القلب لجند الشيطان، وهم الذين قال فيهم: (**وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) [السجدة: 13] وعلامته شيئان: أحدهما: أن يقول أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها تعذرت علي، فلست أطمع فيها، وهذا هو القانط، وهو الهالك، الثاني: أن لا يبقى فيها أيضا شوق إلى التوبة، ولكن يقول أن الله تعالى كريم رحيم، وهو مستغني عن توبتي، ولا يضيق الجنة الواسعة والمغفرة الشاملة عني، وهذا المسكين قد صار عقله أسير لشهوته. الدرجة الوسطى: أن لا تفتر عن المحاربة، ولكن يكون الحرب سجالا تارة له اليد وتارة عليه، وهذا من المجاهدين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. وعلامة هذه أن يترك من الشهوات ما هو أضعف، ويعجز عما هو أغلب، وربما يغلبها في بعض الأوقات دون بعض، وهو في طريق جميع الأحوال متحسر على عجزه، ومتشمر للمعاودة إلى مجاهدته وقتاله، وذلك هو الجهاد الأكبر، ومهما أتقى وصدق بالحسنى فسيسره الله تعالى لليسرى. وبالجملة فقد قصر عن البهيمة، وأنس من لم يقاوم بقوة عقله شهوته، وقد أمد بالعقل وحرم عنه البهيمية) (الغزالي: المصدر السابق، ص352 – 353)

وفي روضة الطالبين وعمدة السالكين يرى الغزالي: (يجب تصديق الله تعالى فيما أخبرنا تعالى به من عداوة النفس والشهوات للعقل والمعرفة والملك الملهم للخير، وأن القتال بينهم دائم فمن خذل جند الشيطان ونصر حزب الله أدخله جنته، وهذا واجب لأنه من الإيمان بالله تعالى. وأما الحال الناشيء عن هذا الإيمان، فهو ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى والقدر الواجب منه تقويته بالوعد والوعيد إلى أن يغلب حزب الله تعالى جند

الشيطان. **(أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** [المجادلة: 22] وأما الرياضة: فهو تمرين النفس على الخير ونقلها من الخفيف إلى الثقيل باللطف والتدريج إلى أن يرتقي إلى حالة يصير ما كان عنده من الأحوال والأعمال شاقا سهلا هينا. وأما التهذيب: فهو امتحان النفس واختيار أحوالها في دعوى المقامات هل صدقت أو كذبت، وعلامة اعتدال مقام الصبر أن تصدر عنه الأعمال بسهولة بلا مانع ولا منازع.) (الغزالي: 2003، ص149)

أما في قوله تعالى: **(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)** [الزمر: 10] قوله تعالى: **(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)** الخطاب هنا موجه منه تعالى للمؤمنين، وهذا دليل على أن الصبر هو أحد المقامات التي يجب أن تلازم مقام الإيمان وصولا إلى مرتبة التقوى، لأن هذا الترقي يفيد التعليم الإلهي للمتقي، إذ أن مقام التقوى يستنزل علم الهداية من لدن الحق، قال تعالى: **(وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** [البقرة: 282] وقال تعالى: **(ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)** [البقرة: 2] فالصبر من خلال هذا يكون براق العبد باتجاه تحصيل الهداية من لدن الحق تعالى ومن ثم فهو وسيلة العبد لتحصيل المعارف والعلوم الإلهيتين، فالخطاب الإلهي: **(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ)** يمثل دعوة لله تعالى ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم للمؤمنين على ضرورة التسليم والانقياد لهذه الدعوة من أجل الوصول لمقام التقوى من خلال الصبر في عملية الطاعة والانقياد لله تعالى حتى يفتح عليه تعالى بعلم الهداية الذي يؤدي إلى مرتبة الفناء في الله تعالى.

قوله تعالى: **(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ)** أي: الذين عملوا بما يقتضيه مقام الإحسان، ومقام الإحسان من المقامات التي هي أرقى من مقام التقوى؛ وذلك لأن مقام الإحسان هو مقام المشاهدة لا سيما وقد جاء في الخبر عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم: **(الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وإن لم تكن تراه فهو يراك)** وهو من المقامات العلية التي تؤدي إلى مقام

الصدّيقية، فمن عمل بمقتضيات مرتبة الإحسان أعطاه تعالى حسنة الوصول وهو في الحياة الدنيا، أي: له سعادة الدارين الدنيا والآخرة؛ وذلك لأن التنعم بالمشاهدة هو غاية كل قاصد لله تعالى، قال تعالى: **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)** [القيامة:22ـ 23] وهم الذين قال تعالى فيهم: **(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)** [القمر: 55] فإن هذا المقام هو من أرقى المقامات؛ لأنه مقام مشاهدة وتحقق في النور المطلق، وهذه أمنية كل طالب للحقيقة، ويشكل مقام الصبر أحد أهم أركان هذه المرتبة وواحد من أهم الوسائل المودية إليه. وإن مهمة الشيخ الولي المرشد الكامل لها أهمية كبيرة في ترقي المريد، أو المستعد لهذه المرتبة الشريفة، وبدون هذا الولي المخصوص يتعذر على المستعدين بلوغ هذا المقام إلا ما شاء الله تعالى.

قوله تعالى: **(وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ)** أي: أرض الحقيقة لا يمكن حدها بمستوى معرفي محدد بل لها الإطلاق، فمن كان مقصوده الله تعالى حصل له هذا الاستعداد من التحقق في الحقيقة المطلقة، وللصبر دور كبير في تحقيق هذه الغاية بدليل قوله تعالى: **(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)** أي: لهم مطلق الثواب الذي أشار إليه تعالى بقوله: **(وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ)** فلا ضيق لهم في أرض الحقيقة، ولا تقييد يمنعهم من تلقي الحقائق إلا ما شاء الله تعالى.

يرى ابن عربي في فتوحاته: (أن الصابرون والصابرات رضي الله عنهم تولاهم الله بالصبر، وهم الذين حبسوا أنفسهم مع الله على طاعته من غير توقيت، فجعل الله جزاءهم على ذلك من غير توقيت فقال تعالى: **(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)** فما وقت لهم فإنهم لم يوقتوا فعم صبرهم جميع المواطن التي يطلبها الصبر، فكما حبسوا نفوسهم عند وقوع البلايا والرزايا بهم عن سؤال ما سوى الله في رفعها عنهم بدعاء الغير أو شفاعة أو طب إن كان من البلاء الموقوف إزالته على الطب، ولا يقدح في صبرهم شكواهم إلى الله في رفع ذلك البلاء عنهم، ألا ترى أيوب سأل ربه رفع البلاء عنه بقوله: **(مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)** [الأنبياء: 83]

أي: أصاب مني، فشكا ذلك إلى ربه عز وجل وقال له: **(وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)** [الأنبياء: 83] ففي هذه الكلمات إثبات وضع الأسباب وعرض فيها لربه برفع البلاء عنه، فاستجاب له ربه وكشف ما به من الضر.) (ابن عربي: المصدر السابق، مجلد3، ص44)

وفي تأويل آخر يرى فيه ابن عربي لقوله تعالى: **(قُلْ يَا عِبَادِ)** المخصوصين فيّ من أهل العناية **(الَّذِينَ آمَنُوا)** الإيمان العملي**(اتَّقُوا رَبَّكُمْ)** بمحو صفاتكم **(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا)** أي: اتصفوا بالصفات الإلهية فعبدوه على المشاهدة **(فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ)** لا يكتنه كنهها في الآخرة وهي شهود الوجه الباقي وجماله الكريم **(وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ)** أي: النفس المطمئنة المخصوصة بالله لانقيادها له وقبولها لنوره واطمئنانها إليه، ذات سعة بيقينها لا تتقيد بشيء، ولا تلبث في ضيق من عادة ومألوف وأمر غير حق **(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ)** الذين صبروا مع الله في فناء صفاتهم، وأفعالهم، وسلوكهم فيه، وسيرهم في منازل النفس الواسعة باليقين **(أَجْرَهُم)** من جنات الصفات **(بِغَيْرِ حِسَابٍ)** إذ الأجر الموفى بحسب الأعمال في مقام النفس مقدر بالأعمال في جنة النفوس، متناه لكونه من باب الآثار محصورا في المواد. وأما الذي يوفى بحسب الأخلاق، والأحوال، فهو غير متناه لكونه من باب تجليات الصفات في جنة القلب، وعالم القدس مجردا عن المواد.) (ابن عربي: المصدر السابق، ج2، ص 199 ــ200)

وفي هذا التأويل لا ينأى ابن عربي فيه عن السياقات التي ترد دائما في تأويلاته، من كون القرآن الكريم هو خطاب توجه به تعالى للإنسان ليكون منهج تطبيق من أجل الترقي والوصول إلى مراتب الكمال، فالقرآن الكريم هو منهج عملي أمثل لمن يريد الوصول إلى الحقيقة، وهو ليس مجرد قول مثالي متعالي عن إمكانية التطبيق، بل أن مجال التطبيق لما جاء في القرآن قد برهن للكثير بعد التجربة الذوقية والسلوكية العرفانية أن أبواب الحقيقة هي الأقرب لمن يتبنى الخطاب الإلهي قولا وعملا، فكل العارفين قد ذاقوا وعرفوا بعد تطبيقاتهم للمنهج الذي أوصى به الحق تعالى سواء في القرآن

الكريم، أو على لسان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، أو على لسان المشايخ الكاملين قدست أسرارهم جميعا.

ويوصي التلمساني، أبي مدين: (أن نجعل الصبر زادنا، والرضا مطيتنا، وأن يكون الحق مقصدنا) أي: يبين لنا التلمساني: (أسباب سفر الطريق، ويوضح آدابه، فالزاد في هذه الطريق هو الصبر، فمن لا صبر له لا زاد له، ومن لا زاد له قطعته المجاعة، ونزع عنه الخدمة، ولم يستقم في الطاعة، قال تعالى: (**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**) وقال الله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**) [آل عمران: 200] والمطية هي: الرضا، وهي أسرع المطايا، وأوصلها إلى المقصود، قال الله تعالى: (**رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**) [المائدة: 119] فنبه تعالى أن الرضا من العبد ناشىء من رضاه؛ إذ لو لم يرض عن عبده، ويتجلى عليه بصفة؛ لم يمكن العبد أن يتخلق بصفة الرضا، ومن رضي عنه مولاه؛ كيف لا يقطع الطريق بسرعة، وينال ما يتمناه، والقصد والقبلة هو الله تعالى: (**قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**) [الأنعام: 91].) (التلمساني، أبي مدين: المصدر السابق، ص، 112)

ويستدعي السلمي جملة من تأويلات العارفين من مشايخ الصوفية في تأويل قوله تعالى: (**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**) (قال الحارث المحاسبي: الصبر التهدف بسهام البلاء. وقال الجنيد قدس سره: الصبر ذم الجوارح والحركات عن جميع المخالفات أجمع لالتماس ما وعد الله عليه بقوله: (**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**). وقال طاهر المقدسي: الصبر على وجوه: صبر منه وصبر له وصبر عليه وصبر فيه وأهونه الصبر على أوامره ونواهيه وهو الذي بين الله ثوابه في قوله تعالى: (**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**). سئل الجنيد قدس سره: عن الصبر ؟ فقال: حمل المؤن حتى تنقضي أيام المكروه. وقال الخواص: كذب أكثر الخلق في حمل أثقال الصبر بما لحوا إلى الطلب والأسباب، واعتمدوا عليها كأنها أرباب.) (السلمي: المصدر السابق، مجلد2، ص193- 194)

أما في قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**) [البقرة: 153] في هذا الخطاب يحيلنا تعالى إلى أقرب الطرق إليه، فإن على الباحث عن الحقيقة، أن يتبنى مقام الصبر من خلال تحمله أنواع الابتلاءات التي تأتيه من جهة الحق تعالى، كما يجب عليه أن يحقق الصلة الحية بينه وبين الحق من خلال الصلاة، والذكر، والنوافل، وأنواع الطاعات، والرياضات، والخلوات، ومجاهدة النفس، وكل ذلك يدخل في أطار طاعة الشيخ الولي المرشد الكامل ومحبته: قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**) [النساء: 59] فإن طاعة الشيخ يعني طاعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم؛ ذلك لأن الشيخ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما أنه هو الآمر بتطبيق شريعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو أول القائمين بها العاملين بها على الوجه الدقيق الصحيح ومن أجل ذلك؛ فإنه هو أسوة لنا في الزمان والمكان لأنه خير من تأسى برسول الله تعالى، وسار على نهجه، فطاعته من هذا الباب هو عين طاعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو رسول الرسول كما قلنا من قبل، وهو العارف بتفاصيل المقامات ومن بينها مقام الصبر فمن حظي بصحبته فإن له الانتفاع في سفره إلى الله تعالى.

يرى ابن عربي في عجائب العرفان: (لما تقدم مقالات أهل الكتاب وغيرهم مما آذوا به الله ورسوله والمؤمنين، قال للمؤمنين: استعينوا على ما تجدونه في أنفسكم من الآلام لذلك وطلب الانتقام منهم ومؤاخذتهم بالصبر، أي بحبس نفوسكم عن الاشتغال بهم إن الله صبور مع الصابرين، فتخلقوا بأخلاقه مع كونه قادرا على أخذهم، ويسمع أذاهم ويعلم في ذلك سرهم ونجواهم وأنتم تسمعون ذلك منهم في أوقات متفرقة، واستعينوا أيضا بالصلاة، أي اشتغلوا بمناجاتي والحديث معي عن ذلك، وقصد إلى الصلاة دون سائر العبادات من الفرائض والنوافل لوجهين: الواحد أنه ما ثم عبادة تتضمن مناجاة الحق والحديث معه وأن يقول لك وتقول له إلا الصلاة فهي

مشغلة للعبد عما سواها، فقيل له: استعن بالصلاة فإن الصوم ليس فيه شغل بحديث مع الله ولا غيره. ووجه آخر: أن الصبر هنا في هذه الآية هو جهادهم وقتالهم، أي: أحبسوا نفوسكم على قتالهم والفتك فيهم، فإن الله معكم مؤيد وناصر وهو الأظهر.) (ابن عربي: 2007، ص181– 182)

قال عصام الدين في التفسير الأجل: (إن الله مع الصابرين لأن الصابرين لا يذهلون عن ذكره بخلاف المجتنبين عن الصبر فإن قلوبهم لاهية عن ذكر الله والقلب اللاهي عنه ممتلىء من هموم الدنيا وإن كانت الدنيا بأسرها له.إن قيل: لم قال: (**إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**) ولم يقل مع المصلين وقال في الآية الأخرى (**وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ**) [البقرة: 45] فاعتبر الصلاة ولا تنفك الصلاة عن الصبر ذكر ها هنا الصابرين فمعلوم أنه تعالى إذا كان مع الصابرين فهو لا محالة يكون مع المصلين بطريق الأولى وقال هناك لكبيرة فذكر الصلاة دون الصبر تنبيها على أنها أشرف منزلة من الصبر، واعلم أن الصبر الذي هو تحمل المشاق من غير جزع واضطراب ذريعة إلى فعل كل خير ومبدأ كل فضل فإن أول التوبة الصبر عن المعاصي، وأول الزهد الصبر عن المباحات وأول الإرادة الصبر وطلب ترك ما سوى الله تعالى.) (البروسوي: المصدر السابق، مجلد1، ص260)

ويرى ابن عجيبة الحسني أن الإشارة في هذه الآية مفادها: (يا أيها الذين آمنوا بطريق الخصوص استعينوا على سلوك طريق حضرتنا ومشاهدة أنوار قدسنا بالصبر على ما تكره النفوس؛ من ترك الحظوظ والشهوات، والميل إلى العادات والمألوفات، وبالصلاة الدائمة وهي صلاة القلوب بالعكوف في حضرة الغيوب (**إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**) بالمعونة والتأييد، وإشراق نور التوحيد، ولا تقولوا لمن ترونه قتل نفسه بالذل والافتقار، وخرق العوائد وخلع العذار: أنه قد مات، بل هو حي لا يموت، قال الله تعالى: (**لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى**) [الدخان: 56] فإذا ماتت نفس المريد، واستوى عنده الذل والعز والمدح والذم، والغنى والفقر، والموت والحياة، فقد حييت روحه واتسع عليها فضاء الشهود، وتمتعت بالنظرة إلى الملك المعبود، فلا يزيدها الموت الحسي إلا اتصالا وتمتعا وشهودا، فهي في الترقي أبدا سرمدا،

ولكن لا تشعرون بما هم فيه في هذه الدار وفي تلك الدار.) (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، مجلد1، ص160)

وفي قوله تعالى: **(وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)** [البقرة: 177] لقد أوضح الحق تعالى سمات المتقين في هذه الآية الكريمة، وعلى النحو التالي: **(وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء)** أي: الصابرين حين تشتد عليهم قاهرية الجلال بكل أشكاله، كالمصائب، والابتلاءات، ونقص في الأولاد، والثمرات، والأموال، والملمات الصعبة كالمرض، والعوز بكل أشكاله، والجوع.

(وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء) أي: في الأحوال التي ذكرت، والضراء: وهو سوء الحال ويرى الراغب: (أن سوء الحال إما في نفسه لقلة العلم والفضل والعفة، وإما في بدنه لعدم جارحة ونقص، وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه، وقوله: **(فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ)** [الأنبياء: 84] وهو محتمل لثلاثتها، وقوله: **(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ)** [يونس: 12] يقال: ضره ضرا: جلب إليه ضرا.) (الراغب: ص 504)

(وَحِينَ الْبَأْسِ) يرى ابن فارس: (بأس: الشدة وما ضارعها. فالبأس الشدة في الحرب، ورجل ذو بأس وبئيس أي شجاع، وقد بأس بأسا؛ فإن نعته بالبؤس قلت بؤس، والبؤس: الشدة في العيش.والمبتئس المفتعل من الكراهة والحزن.) (ابن فارس: المصدر السابق، ج1، ص 170)

(أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا) أي: صدقوا في محبتهم لله فصبروا على كل حال مروا به، لأن جميع ذلك يمثل جلال الحق تعالى، وإن محبة الله تعالى يجب أن تكون في السراء والضراء، وكما جاء في الخبر إن الله يحمد في كل حال، (ولا يحمد على مكروه سواه) فإذا اجتمعت كل هذه الأمور بعبد فإن ذلك من علامات المتقين، وهذا يعني أن المتقي هو الذي يلازم الصبر بحب كملازمته للسراء، فإذا استوت لديه الحالتين فإن ذلك من علامات التقوى.

يرى ابن عربي في عجائب العرفان: **(وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء)** في حال الشدائد **(والضَّرَّاء)** فيما يتضررون به مما فيه قربة إلى الله **(وَحِينَ الْبَأْسِ)**

المجاهدين في سبيل الله (**أُولَـئِكَ**) إشارة إلى القائمين بهذه العبارات (**الَّذِينَ صَدَقُوا**) أي: أخذوها بقوة وصلابة في الدين. يقال: رمح صدق أي صلب. يقول: صدقوا مع الله في ذلك (**وَأُولَـئِكَ هُمُ**) الذين سميناهم بأنهم (**الْمُتَّقُونَ**) من عبادي الذين كتبت لهم رحمتي، وأن ما ذكره في هذه الآية صفة المتقي. (ابن عربي: 2007، ص 200)

وفي تأويل آخر يرى فيه ابن عربي: (**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء**) أي: الشدة والفقر(**والضَّرَّاء**) أي: المرض والزمانة (**وَحِينَ الْبَأْسِ**) أي: الحرب من باب الشجاعة التي هي كمال القوة الغضبية (**أُولَـئِكَ**) الموصوفون بهذه الفضائل كلها، الثابتون في مقام الاستقامة (**الَّذِينَ صَدَقُوا**) الله في مواطن التجريد بأفعالهم التي هي البر كله (**وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**) عن محبة غير الله حتى النفس المجردون عن غواشي النشأة والطبيعة. ويمكن تأويلها كما يلي: (الصابرين في بأساء الافتقار إلى الله دائما، وضراء كسر النفس وقمع الهوى، وحين بأس محاربة الشيطان، أولئك الذين صدقوا الله في الوفاء بعهده وعزيمة السلوك وعقده، وأولئك هم المتقون عن الشرك، المنزهون عن البقية.) (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص67)

الإشارة في هذه الآية كما يراها ابن عجيبة: (ليس المطلوب من العبد أن يتوجه إلى الحق بجهة مخصوصة، كما إذا توجه إليه بالظاهر وأهمل الباطن، أو توجه بالباطن وأهمل الظاهر، ولكن المطلوب منه أن يزين باطنه بأنوار الإيمان واليقين، ويزين ظاهره بسائر وظائف الدين، ويزكي نفسه من الرذائل؛ كالشح والبخل والغش والخيانة والكذب والخوف والجزع، ويحليها بأنواع الفضائل؛ كالسخاء والكرم والوفاء بالعهد والأمانة، والصبر والشجاعة، والعفة والقناعة، وسائر أنواع الفضائل، فإذا تخلى عن الرذائل وتحلى بأضدادها من الفضائل استحق الدخول مع الأبرار، وكان من العارفين الكبار، أولئك الذين ظفروا بصدق الطلب فنالوا الغاية من كل مطلب، وأولئك هم المتقون حق التقاة، فنالوا أعلى الدرجات.) (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ص 180)

الشيخ والتبتل

التبتل لغة: يعرفه الراغب: (قال تعالى: **(وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً)** [المزمّل: 8] أي: انقطع في العبادة وإخلاص النية انقطاعا يختص به، وإلى هذا المعنى أشار بقوله عز وجل: **(قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)** [الأنعام: 91] وليس هذا منافيا لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لا رهبانية ولا تبتل في الإسلام)** فإن التبتل ها هنا هو الانقطاع عن النكاح، ومنه قيل لمريم العذراء: البتول، أي: المنقطعة عن الرجال، والانقطاع عن النكاح والرغبة عنه محظور لقوله عز وجل: **(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ)** [النور: 32].) (الراغب: المصدر السابق، ص107)

التبتل في الاصطلاح الصوفي

يعرفه القاشاني: التبتل: (هو الانقطاع إلى الله بالكلية، والإشارة إليه بقوله تعالى: **(وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً)** [المزمّل: 8] فقوله: إليه، دعوة إلى التجريد المحض وهو على ثلاثة أقسام تبتل العامة: هو التجريد عن اللواحظ للناس. تبتل المريد: التجريد عن اللواحظ إلى ما تدعو النفس إليه. تبتل الواصل: انقطاعه عما سوى الحق.) (القاشاني: المصدر السابق، ص116)

يعرفه التابعي، زيد بن أسلم: (التبتل: هو رفض الدنيا مع كل ما فيها. ويعرفه فخر الدين الرازي: إن جميع المفسرين فسروا التبتل بالإخلاص.. فالمشغول بطلب الآخرة غير متبتل إلى الله تعالى بل متبتل إلى الآخرة، والمشغول بعبادة الله متبتل إلى العبادة لا على الله.. فمن آثر العبادة لنفس العبادة أو لطلب الثواب أو ليصير متعبدا كاملا بتلك العبودية: فهو متبتل إلى غير الله.. إن التبتل إليه لا يحصل إلا بعد حصول المحبة، والمحبة لا تليق إلا بالله تعالى. ويعرفه الشاذلي محمد بن وفا: التبتل: هو لزوم الانقطاع في خلوة التجلي. ويعرفه النقشبندي، أحمد: التبتل: هو قطع العلائق الظاهرة والباطنة. فأما الظاهرة: فهو الانقطاع إلى الله تعالى عن الخلق والدنيا وأمورها، وأما الباطنة: فهو الانقطاع عما سوى الله تعالى، والتوجه إليه، والمراقبة والحضور معه في كل حال، وقطع كل قاطع ومنع كل مانع حتى

تصل إليه.) (الكسنزان، السيد محمد عبد الكريم: المصدر السابق، ج3، ص22 – 23)

ويعرفه السيد الشيخ محمد عبد الكريم الكسنزان قدس سره: (التبتل: هو الفناء بمراتبه الثلاث: الفناء في الشيخ – الفناء في الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم – الفناء في الله جل جلاله، وهذا الفناء يعني الانقطاع الكلي روحيا من الشجرة الإنسية الآدمية والارتباط بشجرة النور المحمدي صلى الله تعالى عليه وسلم المباركة. وعن اصطلاح المتبتل: يرى الشيخ قدس سره: المتبتل: هو المنقطع لمعرفة الحق تعالى عن طريق الفناء في الشيخ الكامل.) (الكسنزان: المصدر السابق، ج3، ص 24ـــ 27)

ويضيف الكسنزان قدس سره في موسوعته: (يرى أبو حامد الغزالي: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أول متبتل، حين أقبل إلى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد، حتى قالت العرب: إن محمدا عشق ربه. وفي حقيقة التبتل وغايته يرى الشاذلي، محمد بن وفا: حقيقة التبتل: رسوخ قدم صدق الطلب على صراط الاستقامة. وغايته: استدامة النظر في حل رموز أسرار القدر.) (نفسه: ج3، ص27)

ويعرفه الهروي، عبد الله: (قال تعالى: **(وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً)** [المزّمّل: 8] التبتل: الانقطاع بالكلية وقوله: إليه دعوة إلى التجريد المحض. وهو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: تجريد الانقطاع عن الحظوظ واللحوظ إلى العالم، خوفا، أو رجاء، أو مبالاة بحال: بحسم الرجاء بالرضى، وقطع الخوف بالتسليم، ورفض المبالاة بشهود الحقيقة. والدرجة الثانية: تجريد الانقطاع عن التعريج على النفس بمجانبة الهوى، وتنسم روح الأنس، وشيم برق الكشف. والدرجة الثالثة: تجريد الانقطاع إلى السبق بتصحيح الاستقامة، والاستغراق في قصد الوصول، والنظر إلى أوائل الجمع.) (الهروي، عبد الله: المصدر السابق، ص32 – 33)

ويرى البقلي: أن المريد إذا صفا بنور الإخلاص: (تبتل من الحق إلى الحق بنعت فناء وجوده في وجود الحق، قال تعالى: **(وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً)**، وقال

شيخ الإسلام: التبتل تجريد الانقطاع عن التعويج على النفس بمجانبة الهوى وتنسم روح الأنس وشيم برق الكشف.) (البقلي: المصدر السابق، ص50)

إن حقيقة التبتل والغاية منه هو تخليص الروح من شوائب التعلقات والميول بجهة الأغيار، والعودة بها إلى مستواها الأول، وهو مستوى أحسن تقويم، قال تعالى: **(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)** [التين: 4] وهو مستوى الروح حين كانت امتداد للروح الإلهي أو النور المطلق، قال تعالى: **(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي)** [الحجر: 29] فلما وضعت كأمانة في الجسد الإنساني نسيت ما كانت عليه من حقيقة نورانية، فتآلفت مع ظلمة الطين واحتجبت به ورضخت وانقادت لخدمته، فنزلت عن مستواها الأول **(أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)** فأصبحت في مستوى **(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)** [التين: 5] فالرد الإلهي هنا هو محل الاختبار، فإذا ركن المرء إلى الطين ووقف مع حاجاته، وصار حبيس الطبع الطيني ونسي ما كان عليه فقد فشل في عملية الاختبار فينال جزاء عاقبة ذلك، أما إذا بحث عن الطريقة التي من خلالها أن يعود إلى مستوى أحسن تقويم فإنه يكون قد نجح في الاختبار، وقد أشار تعالى للثلة التي تنجح في الاختبار بقوله تعالى: **(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)** [التين: 6] فإن الاستثناء وقع على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهنا تكمن مسألة مهمة لا يمكن التغاضي عنها، وهي عملية الإيمان، والكيفية التي تؤدي إليه، وقد أشار تعالى بخطابه أن عملية الإيمان تتم من خلال البيع والشراء (العهد) مع جهة الله تعالى، قال تعالى: **(إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)** [التوبة: 111] فإن العهد مع الله تعالى هو الذي يكفل للعبد مقام الإيمان، ويتم العهد من خلال الشيخ الولي المرشد باعتباره خليفة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في الزمان والمكان، قال تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا**

عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) [الفتح: 10]، ومن حصل على مقام الإيمان عليه بالصدق والثبات على بنود العهد، فإذا صدق وثبت المؤمن يصل من خلال هذا الثبات على العهد إلى مستوى أحسن تقويم، أي: يعود إلى مستواه الأول النوراني فيكون من ضمن الذين استثناهم الحق تعالى بقوله: **(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)** [التين: 6] فيكون حينئذ من المنقطعين لله تعالى أي: المتبتلين.

هنا يظهر دور وأهمية الشيخ الولي المرشد الكامل في هذه المسألة الهامة، فالشيخ هو المبين للسالك المسالك المختصرة التي تؤدي به إلى الحضرة الإلهية ليحقق من خلالها الصلة الروحية الصافية التي لا تعتريها شائبة، ويتم ذلك من خلال التربية الصحيحة القائمة على النصيحة والحكمة.

ودور الشيخ الولي المرشد الكامل هنا هو دور مساعد بالهمة العلية الممنوحة إليه من لدن الحق تعالى، فإن له التمكين الروحي كما أشرنا إلى هذا من قبل في عملية الإشراف، والتأهيل لمريديه في عملية الفناء أو الذوبان في النور المطلق بعد صقل روحانية مريده، وجعلها من جنس النور المطلق أي: الرجوع بها إلى مرتبة أحسن تقويم.

قال تعالى:

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) [المزمّل: 8]

وقوله تعالى:

(قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) [الأنعام: 91]

وقوله تعالى:

(رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً) [الإسراء: 25]

وقوله تعالى:

(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) [البقرة: 46]

ففي قوله تعالى: **(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً)** [المزمّل: 8] الذكر باللسان، والذكر بالقلب، والذكر بالسر، والذكر في أخفى السر، كلها وسائل للعبد باتجاه الحق تعالى، وكل مستوى من مستويات الذكر تتحقق بها فائدة للعبد، لأن تعالى يقول: **(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ)** [البقرة: 152] قابل تعالى في هذه الآية الذاكر بالمثل، فإذا ذكره العبد بنية تحصيل فائدة، أو شفاء، أو كشف ضر أعطاه الحق تعالى على قدر النية إذا كانت النية مؤداها خيرا في النتيجة؛ وذلك لأن الإنسان لا يمكنه الولوج في عالم الغيب، ولا يعرف ما يضره وما ينفعه في ختام أمره أو في طلبه، قال تعالى: **(وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)** [البقرة: 216]، ومن باب الأدب مع الله تعالى أن يترك صاحب الطلب الخيار لله تعالى فيما يختاره للعبد لأنه هو الأدرى بحقيقة حاجة عباده، ومن هنا فإنه يجب أن ينيب إليه الأمر.

إن من أفضل الذاكرين من كان مقصوده من الذكر هو التحقق بالحق تعالى والفناء فيه، أي قيام المذكور فيه، فيصبح قلبه عرش الرحمن كما جاء في الحديث القدسي: **(السماء والأرض لا تسعني ويسعني قلب عبدي المؤمن)** وفي حديث آخر: **(قلب المؤمن عرش الرحمن)**، فإذا بلغ العبد من خلال ذكره هذا المستوى، أصبح العبد لسانه الذي ينطق به، وقلبه الذي يعقل به، وبصره الذي يبصر به، فيكون ربانيا يقول للشيء كن فيكون، فإذا بلغ العبد هذه المرتبة يكون من المتبتلين إلى الحق تعالى، وذلك لخلوه من الأوصاف البشرية بعد تحليه بأوصاف الربوبية، قال تعالى: **(وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ)** [آل عمران: 79] وهذه غاية ونتيجة كل من تبنى منهجا يؤدي به إلى التبتل والانقطاع التام إلى الله تعالى، فالتبتل هنا لم يكن مقاما بل هو صيغة فناء تام في النور الإلهي، يرافق العبد في الدنيا والآخرة، وبه تتم سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

ففي قوله تعالى: **(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ)** إشارة إلى ذكر اسم ولم يذكر أي اسم يذكره الذاكر، كما لم يحدد تعالى العدد الذي نذكر به الاسم، وهذا يعني أن

الحق تعالى قد أحالنا إلى من هو مكلف ببيان متطلبات هذا الأمر، تماما مثل هذا مثل الأمر الإلهي الذي يقول فيه تعالى: **(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)** [طه: 14] وكل هذه الأوامر تحتاج إلى علم يختص بها، كما أنها تحتاج إلى تبيان وتفصيل؛ ذلك لأن قول لا إله إلا الله يحتاج إلى تبيان وعلم يختص به، كما جاء في قوله تعالى: **(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** [محمد: 19] كما أن العبادة تحتاج إلى توضيح لمعرفة الكيفية التي تجري بها كما أرادها الله تعالى، وإقامة الصلاة هي الأخرى تحتاج إلى تبيان وتفصيل، فكان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذي قام بالتوضيح، والتفصيل، والتبيان، كذلك الحال مع الذكر فإنه يحتاج إلى توضيح أكثر؛ ذلك لأن أسماء الله كثيرة لا حصر لها؛ فبأي اسم تجري عملية الذكر كما جاء في قوله تعالى: **(قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى)** [الإسراء: 110] من هنا فإن علينا أن نلجأ إلى معلم مخصوص له دراية وعلم واسع بالأسماء مع أسرارها الكامن في العدد، علما بأن هذه الدراية والعلم هي كذلك قائمة بالله تعالى كما أشار تعالى بقوله: **(عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً)** [الكهف: 65] وهذا يعني أن الأمر الإلهي، ومجال تفصيلاته، وتوضيحه لا يخرج من دائرة الحق تعالى؛ ذلك لأن العلم الممنوح للعبد الذي كلف بتوضيح المنهاج والشريعة هو من الله تعالى، وما على هذا العبد المخصوص إلا أن يبلغ بالتفصيل الذي كلفه به تعالى كما جاء في قوله: **(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)** [المائدة: 67] وإن من ضمن التنزيل العلم التفصيلي، ومن ضمن العلم التفصيلي علم التسبيح أو ما يطلق عليه (الذكر) وما يرافق الذكر من علم واسع نظريا وعمليا، قال تعالى: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)** [النور: 41] ففي قوله تعالى: **(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)** يعني أن للصلاة والتسبيح علم يختص به، ولا يعلمه إلا خبير بهذا العلم،

وخبرته جاءت من قبل الحق تعالى كما جاء في قوله تعالى: (**الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً**) [الفرقان: 59] فالخبير لولا الحق ما كان خبير به تعالى، ولما كان هناك خبير بالحق تعالى فمن الأولى أن نلجأ إليه ونسأله عن علم الأسماء، وما يتعلق بها من أعداد وما يتعلق بها من كيفية، لا سيما وأن الحق تعالى قد أحالنا إليه لا إلى غيره في قوله تعالى: (**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**) [الأنبياء: 7] هنا يتبين لنا من أراد الاستزادة بالعلم عليه أن يقصد أهل الذكر ليسألهم حتى يحصل على مراده في العلم، وإن عليه أن لا يذهب إلى أحد سواهم لأن ذلك سيؤدي به إلى الضلالة حتما، من كونهم ليسوا بمحل التنزيل والتفصيل، ومن يتخذ غير هؤلاء العباد محلا للتوضيح والتبيان كمن سيره هواه لذلك؛ وذلك لأنه لم يكن مأمورا باتباعهم، وإن اتباعه لهم جرى على هواه وليس على الأمر الإلهي، ومن ثم هو الذي يتحمل نتيجة ضلالته.

فإذا تعرف المرء على هذا الشيخ الولي المرشد الكامل عليه أن يباشر فورا بصحبته، كما أن عليه أن ينتظم في طريقته ولا يخالفها أبدا، وأن يعمل بالمنهج الذي يلقنه إياه الشيخ حتى يصل إلى مرتبة التبتل، أو الانقطاع لله تعالى.

يرى الغزالي: طريق السلوك إلى الله تعالى يتم بالتبتل كما قال الله تعالى: (**وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً**) [المزمّل: 8]، أي انقطع إليه انقطاعا، والانقطاع إليه يكون بالإقبال عليه، والإعراض عن غيره، وترجمته قوله: (**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً**) [المزمّل: 9]، والإقبال عليه إنما يكون بملازمة الذكر، والإعراض عن غيره يكون بمخالفة الهوى والتنقي عن كدورات الدنيا وتزكية القلب عنها، والفلاح نتيجتها كما قال الله تعالى: (**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**) [الأعلى:14ـ 15] فعمدة الطريق أمران: الملازمة، والمخالفة؛ الملازمة لذكر الله تعالى، والمخالفة لما يشغل عن الله، وهذا هو السفر إلى الله، وليس في هذا السفر حركة، لا من جانب المسافر، ولا من جانب المسافر إليه، فإنهما معا، أو ما سمعت قول الله تعالى وهو أصدق القائلين: (**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**) [ق: 16].) (الغزالي: 2009، ص29 – 30)

ويضيف الغزالي في مكان آخر: اعلم (أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الذكر أفضل الأعمال، ولكن له أيضا قشور ثلاثة بعضها أقرب إلى اللب من بعض، وله لب وراء القشور الثلاثة، وإنما فضل القشور لكونها طريقا إليه. فالقشرة الأعلى منه: ذكر اللسان فقط. والثاني: ذكر القلب إذا كان القلب يحتاج إلى مراقبة حتى يحضر مع الذكر، ولو ترك وظيفته لأسترسل في أودية الأفكار. والثالث: أن يستمكن الذكر من القلب ويستولي عليه، بحيث يحتاج إلى تكلف في صرفه عنه إلى غيره، كما يحتاج في الثاني إلى تكلف في قراره معه ودوامه عليه. والرابع: أن يستمكن المذكور من القلب، وينمحي الذكر وخفى، وهو اللباب، وذلك بأن لا يلتفت القلب إلى الذكر ولا إلى القلب، بل يستغرق المذكور جملته ومهما ظهر له في أثناء ذلك التفات إلى الذكر فذلك حجاب شاغل، وهذه الحالة يعبر عنها العارفون بالفناء، وذلك بأن يفنى عن نفسه حتى لا يحس بشيء من ظاهر جوارحه ولا من الأشياء الخارجة عنه، ولا من العوارض الباطنة فيه، بل يغيب عن جميع ذلك.) (نفسه: ص208 - 209)

وقال التلمساني، أبي مدين: **(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً)** [المزّمّل: 8]: أي انقطع إليه انقطاعا كاملا، وأي هم يبقى لك يا أخي في طلب الدنيا، وقد ضمن لك الله الرزق، ورفع عنك مشقة الطلب، فاجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك؛ دليل على انطماس البصيرة منك، وأرح نفسك من التدبير، فما قام به عنك؛ لا تقم به أنت لنفسك. قال أبو الحسن الشاذلي: لو أقسمت على الله بالنبيين والصديقين أن ينقصك ذرة مما قسم لك ما فعل، فكيف وأنت تطلب ذلك بلسان حالك وقالك. (التلمساني، أبي مدين: 2008، ص124 - 129)

ويرى ابن عربي المراد بالتبتل هو البحث عن ربوبيتك فيك فالمراد بقوله تعالى: **(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ)** الذي هو أنت، أي: اعرف نفسك واذكرها ولا تنساها فينساك الله واجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها **(وَتَبَتَّلْ)** وانقطع إلى الله بالإعراض عما سواه انقطاعا تاما معتدا به، فإذا عرفت نفسك بهذا

الانقطاع تكون قد عرفت ربك، فإذا عرفت ربك أدركت معنى الفناء وذقت ذلك، فلم يعد حينذاك وجود للأثنينية، لأنك ستدرك أن الوجود الحق لله تعالى، ولا وجود لغيره على سبيل التحقيق، ولم يكن وجودك إلا وهم لأن جميع التجليات الكونية ما هي إلا ظل للحقيقة. (ابن عربي: 2001، ج2، ص382)

يرى نجم الدين كبرى في التأويلات النجمية: (واذكر اسم ربك بفناء صفاتك وأفعالك، وتبتل إليه تبتيلا بفناء ذاتك وبقاء ذاته، ثم أن التبتل يكون من الدنيا إما ظاهرا فقط فهو مذموم كبعض الحفاة العراة الذين أظهروا الفقر في ظواهرهم، وأبطنوا الحرص في ضمائرهم وإما باطنا فقط وهو ممدوح كالأغنياء من الأنبياء والأولياء عليهم السلام فإنهم انقطعوا عن الدنيا باطنا؛ إذ ليس فيهم حب الدنيا أصلا، وإنما لم ينقطعوا ظاهرا لأن إرادتهم تابعة لإرادة الله والله تعالى أراد ملكهم ودولتهم كسليمان ويوسف وداود وأيوب والإسكندر وغيرهم عليهم السلام، وإما ظاهرا وباطنا كأكثر الأنبياء والأولياء، وقد يكون التبتل من الخلق إما ظاهرا فقط كتبتل بعض المتعبدة في قلل الجبال وأجواف المغارات لجذب القلوب وجلب الهدايا، وإما باطنا لا ظاهرا كأهل الإرشاد وهم عامة الأنبياء وبعض الأولياء إذ لا بد في إرشاد الخلق من مخالطتهم وإما ظاهرا وباطنا كبعض الأولياء الذين اختاروا العزلة وسكنوا في المواضع الخالية عن الناس.) (البروسوي: 2003، مجلد10، ص214)

ويرى بعض العارفين: (السلوك إلى الله تعالى يكون بالتبتل، ومعناه الإقبال على الله بملازمة الذكر والإعراض عن غيره بمخالفة الهوى وهذا هو السفر بالحركة المعنوية من جانب المسافر إلى جانب المسافر إليه وإن كان الله أقرب إلى العبد من حبل الوريد، فإن أمثال الطالب والمطلوب مثال صورة حاضرة مع مرآة لكن لا تتجلى فيها لصدأ في وجهها فمتى صقلتها تجلت فيها الصورة لا بارتحال الصورة إليها ولا بحركتها إلى جانب الصورة ولكن بزوال الحجاب، فالحجاب في عين العبد وإلا فالله متجل بنوره غير خفي على أهل البصيرة وإن كان فرق بين تجل وتجل بحسب المحل، وهناك نوعين من التجلي، التجلي للعامة والتجلي للخاصة، فتجلي العامة كتجلي صورة واحدة في مرائي كثيرة في حالة واحدة، وتجلي الخاصة كتجلي

صورة واحدة في مرآة واحدة، وإليه الإشارة بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لي مع الله وقت)** إذ لا يخفى أن التجلي في ذلك الوقت مخصوص به صلى الله تعالى عليه وسلم لا يزاحمه غيره فيه.) (نفسه: ص 214)

أما في قوله تعالى: **(قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)** [الأنعام: 91] يدعونا الحق تعالى إلى التوجه للوحدة من خلال التبتل والفناء؛ لأنها هي الحقيقة التي لا يمكن التغاضي عنها أو الحياد عنها، والوحدة والتوحيد هو الغاية لكل جاد في عملية البحث، وما عدا هذه الحقيقة ليس إلا اللعب والوهم، ومن أجل أن لا يضيع العبد فرصة التبتل فيطيل عليه عذاب الاحتجاب يجب عليه التوجه إلى الوسيلة التي بمساعدتها يتم له التبتل بشكله الصحيح.

فالشيخ الولي المرشد الكامل هو عنوان التوحيد، والهداية إلى الوحدة الحقيقة، قال تعالى: **(إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)** [الرعد: 7] وقوله تعالى: **(مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً)** [الكهف: 17]، إذ لولا هذا الولي المخصوص (شيخ الوقت) فمن أين له أن يجد باب الهداية؟ لا سيما وأن باب مدينة العلم الإلهي واحد في كل زمان ومكان، فقد خصص تعالى للقوم هاد حتى لا يقع الاختلاف بسبب اختلاف المقامات فيكون ذلك سببا في عدم الاعتصام بحبل الله، قال تعالى: **(وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)** [آل عمران: 103] فالوحدة بالله تعالى، والأخوة بالله، والألفة كل ذلك يؤدي إلى الجنة، وأن نقيض ذلك يعني التقاطع، والتناحر، والبغض، والكراهية والحسد فتكون هذه الأوصاف سببا يؤدي إلى النار، وهذا ما عبر عنه تعالى بقوله: **(وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ)** أي: ما يؤدي إلى النار، غير أن الرحمة الإلهية امتدت لمن كان لديه استعداد واستجابة لنداء الرحمة فأنقذته من قاهرية الجلال، ووضعته في طريق الجمال.

ففي قوله تعالى: **(قُلِ اللّهُ)** قد أحالنا تعالى إلى الاسم الجامع وترك لوليه الشيخ الولي المرشد الكامل أن يعطينا ويعلمنا بالكيفية التي نذكر بها الاسم

ومن ثم الأسماء التي نذكر بها، هل نذكر باسمه (الواحد) أم (العزيز) أم (الرحمن) أم (الودود)، وكم هو عدد المرات التي نذكر بها هذا الاسم لنحصل على سر، وبركة، ومفتاح هذا الاسم ؟ وما هي الكيفية والحركة التي نذكر بها ؟ كل هذا التفصيل مناط بالشيخ الولي المرشد الكامل؛ ذلك لأن الشيخ له النيابة عن الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم في هذا الأمر، ومن أجل هذا وجب علينا البحث عنه ولزوم طاعته طوعا، والتوجه لخدمته، وبذل كل ما نستطيع من الوقت لصحبته من أجل الانتفاع به؛ لأنه وسيلنا الوحيدة إلى الله تعالى، وقدوتنا إليه.

قال بعضهم: (دعا خواصه بهذه الآية إلى انقطاع من كشف ما له إلى الكشف عما به، وقد قال الله إشارة إلى جريان السر **(قل الله)** في سرك وذر ما في لسانك. قال الواسطي: كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مكافحا في سره، وكان يسمع له أزيز كأزيز المرجل فلذلك كل من تحقق بذكره امتحق ما دونه من سره، قال الله عز من قائل: **(قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ)** وقال بعضهم من أصحاب الشبلي قلت له: أوصني وقت مفارقتي له ؟ فقال: عليك بالله، ودع ما سواه، معه، و**(قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)**.) (السلمي: 2001، ج1، ص 208)

وممن يذكره الغزالي من جواهر القران ما حكاه عن بشير الحافي، يقول: (إن بشير الحافي كان لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها السلاطين، وأطفأ بعضهم سراجا أشعله غلامه من بيت ظالم أو شرب بعضهم الدواء فأشارت إليه امرأته بالمشي والتردد، فقال: هذه مشية لا أعرف لها وجها وأنا أحاسب نفسي على جميع حركاتي، وهذه رتبة قوم وفوا بقوله تعالى: **(قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)**، وكل ما لم يكن لله تعالى وحده حراما وليس هذا من عشك وعش ناصحك فاجتهد وأدرج أن تفي بورع العدول الذي يفتي به العلماء.) (الغزالي: 2009، ص218)

ويرى التلمساني، أبي مدين: إن الله تعالى نبه أن الرضا من العبد ناشيء من رضاه، ومن رضي عنه مولاه؛ وينجلي عليه بصفة؛ لم يمكن العبد أن

يتخلق بصفة الرضا، ومن رضي عنه مولاه؛ كيف لا يقطع الطريق بسرعة، وينال ما يتمناه، والقصد والقبلة هو الله تعالى: **(قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)**، قال صلى الله تعالى عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله) فلا تفقد نية همتك يا أخي إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه آمال الطالبين، لا ترحل من كون إلى كون؛ فتكون كحمار الرحى يسير، والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل عنه، ولكن ارتحل من الأكوان إلى المكون، ولله در القائل:

ولا تلتفت في السير غيرا فكلما   سوى الله غير واتخذ ذكره حصنا

(التلمساني، أبي مدين: 2008، ص112ـــ 113)

ويرى ابن عربي في فتوحاته: أن هناك صنف من الرجال (الأولياء) يرون الأفعال كلها لله تعالى، وأنه لا فعل لهم أصلا فزال عنهم الرياء جملة واحدة، وإذا سألتهم في شيء مما يحذره أهل الطريق يقولون: **(أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)** [الأنعام: 40] ويقولون: **(قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ)** وهم مثل العباد في الجد والاجتهاد والورع والزهد والتوكل وغير ذلك، غير أنهم مع ذلك يرون أن ثم شيئا فوق ما هم عليه من الأحوال والمقامات والعلوم والأسرار والكشوف والكرامات فتتعلق هممهم بنيلها، فإذا نالوا شيئا من ذلك ظهروا به في العامة من الكرامات لأنهم لا يرون غير الله وهم أهل خلق وفتوة، وهذا الصنف يسمى الصوفية، وهم بالنظر إلى الطبقة الثالثة أهل رعونة وأصحاب نفوس وتلامذتهم مثلهم أصحاب دعاوى يشمرون على كل أحد من خلق الله ويظهرون الرياسة على رجال الله.) (ابن عربي: 2006، مجلد5، ص51)

ويضيف ابن عربي في تأويل آخر له: (أمرنا الحق تعالى أن نقول الله ثم نذرهم أي نترك ضميرهم، وهو ضميرهم ضمير الجمع لا هو الذي هو ضمير الأفراد، فإنا للفرد نخلص العبادة من الجمع، فإن الجمع أظهر القسمة بين الله وبين عبده في العبادة وهي لله لا للمكلف من حيث صورته، وإن كانت له من حيث جمعيته بالله فهاهنا رسخت أقدام الشيخ أبو مدين رضي الله

عنه ولم يتعد، وغيره يتمم الآية: **(فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)** فوقف أبي مدين مع قوله: **(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا)** [الأنعام: 68] وكل ما في العالم آياته فإنها دلائل عليه **(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ)** [الأنعام: 68] فامتثل أمر الله فأعرض ووقف غيره مع أمره أن يتركهم في خوضهم يلعبون فامتثلنا أمر الله وتركناهم فكشف الغطاء عن أبصارنا فعلمنا على الشهود من الخائض اللاعب، وما هو هذا الجمع الذي أظهره ضمير لفظة هم في قوله: **(ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)**.) (نفسه: مجلد7، ص209)

أما قوله تعالى: **(رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً)** [الإسراء: 25]

قوله تعالى: **(رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)** الروح الإنساني هو الرقيقة الربانية الممتدة، والمتصلة بالنور الإلهي **(الروح الإلهي)** المعبر عنها بقوله تعالى: **(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي)** [الحجر: 29] وقوله تعالى: **(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ)** [النساء: 171] وحين يقول تعالى: **(وَرُوحٌ مِّنْهُ)** وروح الله تعالى لا يقع عليها التبعض أو التجزئة بل تتصف بالوحدة المطلقة القابلة لأن تتجلى في التنوعات والكثرة من دون أن يضعف هذا التجلي من حكمها الواحدي، أو يخرجها من عزة تفردها فهي كانت، ولم تزل على ما كانت عليه إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين لها الأولية والآخرية ظاهرا وباطنا في كل تجلي ساري في الوجود، فلا وجود حقيقي إلا وهي الموصوفة به، وهذا يعني أنها هي لا غيرها الحية التي لها القيومية في كل وجود، فإن لها وحدها العلم والتفرد بفاعليتها، وفاعلية إرادتها إذ لا علم يحيط بمراتب الوجود إلا بها، ومن خلالها، ذلك لأنه لا وجود للغير على سبيل الحقيقة يشاركها في العلم والوجود، وحين يقول تعالى: **(رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)** لأن نفوسنا لم تكن موجودة إلا بوجوده سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: **(إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ)** الصلاح صفة إلهية اقتضى الرب سبحانه أن تظهر في بعض تجلياته فظهرت كصفة جمالية تقابل صفات

أخرى ظهرت من خلاله تعالى في تجليات أخرى، إذ أن الإرادة الإلهية لها في نفسها مطلق التوجهات ولما كان الوجود بتفصيلاته مظهرا للإرادة ظاهرا وباطنا فلابد أن يكون موصوفا بأوصاف الإرادة المتجلية به، مثل ذلك تماما مثل الإنسان الذي يمتلك من القابليات، والتمكينات الكثيرة وهو واحد في ذاته غير متعدد، ويستطيع أن يظهر جميع القبليات دون أن يكون ذلك مخلا في وجوده الحقيقي، وعلى سبيل المثال يستطيع أن يكون طبيبا، وفنانا، وكاتبا، ورياضيا وهو واحد ولا يمكن لنا أن نصف ذاته بالكثرة؛ لأنه ثابت في الحس والعقل أنه واحد.

والصالح هو الذي كان قلبه صالحا لأن يكون عرشا لله، كما جاء في الحديث القدسي: **(السماء والأرض لا تسعني ويسعني قلب عبدي المؤمن)** والسعة هنا لا تعني بمعناها الفيزياوي، بل يراد بها مجال التجلي للنور الإلهي، فإذا تجلى النور في قلب عبد من العباد منحه الرؤية بالحق، والسمع بالحق، والنطق بالحق، فيكون العبد ربانيا يقول للشيء كن فيكون أي: تكون القيومية فيه لله الواحد جل جلاله، ولا قيومية للعبد؛ لأن الأثنينية هنا لا وجود لها، وكما قال الشيخ الجنيد قدس سره : (إذا اقترن الحادث بالقديم فلا وجود للحادث) وهذا ما يطلق على مرتبة الفناء، أي: فناء العبد في الحق.

قوله تعالى: **(فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً)** قال الرازي، محمد بن أبي بكر في صحاحه: (أوب – (آب) رجع..والأواب: التائب.) (الرازي: 1983، ص32) وهذا يعني أن الحق تعالى كان كثير الغفران لمن يرجع إليه، هنا لابد من الإشارة إلى جانب في غاية الأهمية وهو الميل القلبي، فالقلب سمي قلبا لتقلبه في الميول من كونه عاشق للجمال، فالقلب مجبول على محبة الجمال، وكل ما في الكون جميل، والقلب ما أن ينفك من ميله لجمال مرتبة وجودية، حتى مال إلى غيرها وتعشق بها وهكذا بشكل مستمر، غير أن الحق تعالى وفي مقبل هذه الجبلة التي أوجدها في القلب، جعل تعالى باب الغفران مشرعا لمن عاد ورجع إليه، فكلما توجه القلب إلى جهة الأغيار فتذكر جهة الحق، وعاد، غفر له الحق تعالى تعلقه السابق، فالأوابين هم الأقرب إلى الله تعالى

من سواهم الذين وقفوا مع جهة الأغيار، قال تعالى: **(اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ)** [ص: 17] وقوله تعالى: **(وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)** [ص: 30].

في تأويل الآية يرى البروسوي: **(رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)** بما في ضمائركم من قصد البر والتقوى وكأنه تهديد على أن يضمر لهما كراهة واستثقالا **(إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ)** قاصدين الصلاح والبر دون العقوق والفساد**(فَإِنَّهُ)** تعالى**(كَانَ لِلأَوَّابِينَ)** أي: الرجاعين إليه تعالى مهما فرط منهم مما لا يكاد يخلو عنه البشر **(غَفُوراً)** لما وقع منهم من نوع تقصير أو أذية فعلية أو قولية. قال الإمام الغزالي: أكثر العلماء على أن طاعة الوالدين واجبة في الشبهات ولم تجب في الحرام المحض لأن ترك الشبهة ورع ورضى الوالدين حتم أي: واجب. قيل: إذا تعذر مراعاة حق الوالدين جميعا بأن يتأذى أحدهما بمراعاة الآخر يرجح حق الأب فيما يرجع إلى التعظيم والاحترام لأن النسب منه ويرجح حق الأم فيما يرجح إلى الخدمة والإنعام حتى لو دخلا عليه يقوم للأب. وفي الحديث الشريف قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لولا أني أخاف تغير الأحوال عليكم بعدي لأمرتكم أن تشهدوا لأربعة أصناف بالجنة: أولهما امرأة وهبت صداقها من زوجها لأجل الله تعالى وزوجها راض، والثاني: ذو عيال كثير يجهد في المعيشة لأجلهم حتى يطعمهم الحلال، والثالث: التائب على أن لا يعود إليه أبدا كاللبن لا يعود إلى الثدي، والرابع البار بوالديه)** ويجب على الأبوين أن لا يحملا الولد على العقوق بسوء المعاملة والجفاء ويعيناه على البر. حكي عن بعض العرفاء أنه قال: إن لي أبناً منذ ثلاثين سنة ما أمرته بأمر مخافة أن يعصيني فيحق عليه العذاب. يقول الفقير: فسد الزمان وتغير الإخوان ولنبك على أنفسنا من سوء الأخلاق وقد كانت الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ وهم هم يبكون دما من أخلاق النفس فما لنا لا نبكي ونحن منغمسون في بحر الخطايا والذنوب متورطون في بئر القبائح والعيوب لا إنصاف لنا في حق أنفسنا ولا في حق الغير. (البروسوي: 2003، مجلد5، ص149)

أما الإشارة في هذه الآية فيرى الحسني، ابن عجيبة: (كل ما أوحى الله تعالى به في حق والدي البشرية، يجري مثله في والد الروحانية، وهو الشيخ، ويزيد؛ لأنه أوكد منه؛ لأن أب البشرية كان السبب في خروجه إلى دار الدنيا، معرضا للعطب أو السلامة، وأب الروحانية كان سببا في خروجه من ظلمة الجهل إلى نور العلم والوصلة، وهما السبب في التخليد في النعيم الذي لا يفنى ولا يبيد، وقد تقدم في سورة النساء تمام هذه الإشارة.) (الحسني، ابن عجيبة: 2005، مجلد4، ص 88)

ويذهب القشيري في لطائف إشاراته: (إذا علم الله صدق قلب عبد أمده بحسن الأمجاد، وأكرمه بجميل الامتداد، ويسر عليه العسير من الأمور، وحفظه عن الشرور، وعطف عليه قلوب الجمهور.) (القشيري: 1999، مجلد4، ص16)

أما في قوله تعالى: **(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)** [البقرة: 46]، الظن في هذه الآية لا يعني الشك، أو الريب، أو احتمال من احتمالين، بل هنا يراد به ظن يقيني، وقوله تعالى: **(يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ)** فيه شيء من المرابطة، أي دوام الصلة الروحية، واستدعاء للحضور الإلهي، وهو أقرب ما يكون من قول بعض الصالحين من أمثال السيد الشيخ الكيلاني، والشيخ معروف الكرخي قدس الله أسرارهما: (الله حاضري، الله ناظري، الله شاهدا علي، الله معي، الله معيني، وهو بكل شيء محيط) وجميع هذا يدخل في قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)** [آل عمران: 200] وحقيقة اللقاء لم يكن مؤجلا إلى عالم الآخرة فحسب بل يجري مع المسافرين المستعدين وهم في الحياة الدنيا كما جاء في قوله تعالى: **(لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)** [يونس: 64] فاللقاء هنا يعني يقيني ولم يكن من قبيل الظن الذي يدخل فيه الشك وعدم اليقين.

قوله تعالى: **(وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)** يعني التبتل والانقطاع الكلي له تعالى، والرجوع هنا عين البدء، كما أشرنا إلى هذا من قبل، فلقد خلقنا الله تعالى في

أحسن تقويم عندما كنا عين النفخة الإلهية الممتدة من روح الله، أما الآن فالمطلوب منا أن نتجرد ونعود إلى ما كنا عليه من خلال التبتل بعد الخلاص من أوصاف البشرية بتوسط العبودية لنتحلى بأوصاف الربوبية، عند ذلك تكون النهاية كالبداية، تماما مثل النقطة التي تقع على محيط الدائرة؛ فإنها تمثل البداية، وهي في الوقت نفسه تمثل النهاية، إذ لا رجعة صحيحة إلا الرجعة لله تعالى، والمؤمن يدرك، ويؤمن إيمان قطعي بأنه راجع إلى الله تعالى، قال تعالى: **(إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)** [العلق: 8] وقوله تعالى: **(إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا)** [النازعات: 44] فعلى المرء أن يتحسب لهذا الأمر ويعد العدة، ويقيم في نفسه الاستعداد لهذه الرجعى التي لا مفر عنها؛ فإنها أما تحصل طوعا أو كرها، والطوع منها أن يتطوع الإنسان للوصول إليها من خلال العبادة، والنوافل، والمجاهدات، والرياضات، والخلوات، وإما أن يصل إليها بالإكراه أي: الصعود الذي يصاحبه إرهاق كما جاء في الآية الكريمة: **(سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً)** [المدّثر: 17]، وإن على المرء أن يختار الأيسر منها، أي: من خلال سلسلة عوالم تؤدي به إلى سعادة الدارين بتوسط الشيخ الولي المرشد الكامل.

يرى ابن عربي في عجائب العرفان في قوله تعالى: **(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)** (العلم: القطع على أحد الأمرين، والشك: التردد بين الأمرين من غير ترجيح، والظن: ترجيح أحد الأمرين من غير قطع، والظن هنا على بابه، وله هنا وجهان: الوجه الواحد: أن المؤمنين قاطعون بأنهم إلى ربهم راجعون وأنه قال: **(وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ)** [البقرة: 281] والكافر والمؤمن كلهم يرجعون إلى الله، غير أنه ما كل من يرجع إليه يلقاه، قال تعالى: **(كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)** [المطففين: 15] فلهذا قيل فيهم: أنهم يظنون أنهم ملاقوا ربهم أي: يغلب على ظنهم أن الله بكرمه يختم لهم بما هم عليه أهل السعادة فيكونون ممن يلقى ربه. والوجه الآخر: أنهم يظنون أنهم ملاقوا ربهم من حيث الاسم، فإن العبد المطيع لسيده يغلب على ظنه أن سيده لا يلقاه بمكروه بأن مدلول هذا الاسم خير كله، فإنه يجوز أن يلقوا يوم القيامة الاسم المنتقم أو الضار، فالأدب

والمعرفة حكمت عليهم بأن يظنوا، فإن عاد عليه الضمير في إليه راجعون فتكون واو العطف تشرك في الظن، وإن كان الضمير يعود عليه من كونه إلها فيكون وأنهم إليه راجعون، الواو بمعنى مع، أي مع علمهم بأنهم إليه راجعون. وقد تكون الجملة في موضع الحال، تقدير الكلام: يظنون أنهم ملاقوا ربهم حال رجوعهم إليه الذي لا بد منه.) (ابن عربي: 2007، ص94)

ويرى القشيري: (الظن يذكر، ويقال المراد به اليقين، وهو الأظهر هاهنا. ويذكر ويراد به الحسبان فمن ظنَّ ظن يقين فصاحب وصلة، ومن ظنَّ ظن تخمين فصاحب فرقة. ملاقوا ربهم، صيغة تصلح لماضي الزمان والحاضر وهم ملاقون ربهم في المستقبل. ولكن القوم لتحققهم بما يكون من أحكام الغيب صاروا كأن الوعد لهم تقرر، والغيب لهم حضور.) (القشيري: 1999، مجلد1، ص70)

في حين يرى ابن عجيبة الحسني في تأويله للآية: (الذين يتيقنون (**أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ**) فيتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم، ويتيقنون أيضا أنهم راجعون إليه تعالى بالبعث والنشور والحشر للثواب والعقاب، وإنما عبر الحق تعالى هنا بالظن في موضع اليقين إبقاء على المذنبين، وتوفرا على العاصين، الذين ليس لهم صفاء اليقين؛ إذ لو ذكر اليقين صرفا لخرجوا من الجملة، فسبحانه من رب حليم، وجواد كريم.) (الحسني، ابن عجيبة: 2005، مجلد1، ص81)

ومن الممكن أن الظن ذكر هنا ويراد به بقاء الأثنينية، إذ من اعتقد أنه سيلاقي ربه ملاقاة الفرد للفرد فإن الوصف قد دخل في مجال الظن لأنه بعيد عن حق اليقين، في حين أن الحقيقة سيكون اللقاء ولا وجود بعد الفناء إلا الوجود الحق وتنتهي الأثنينية، لأن الروح ستعود إلى ما كانت عليه فلا أثنينية يومئذ ستكون، فإذا أدرك المرء هذه الحقيقة فلا يعتقد أنه سيلاقي ربه على وفق هذا الوصف بل اللقاء سيكون بذوبان العبد في المعبود والتماهي فيه.

ولا ينأى البروسوي عن إطار التأويلين السابقين فهو يرى: (**الَّذِينَ يَظُنُّونَ**) أي: يوقنون لأن الظن يكون يقينا ويكون شكا فهو من الأضداد كالرجاء يكون أمنا وخوفا (**أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ**) معاينوه وهو كناية عن شهود مشهد العرض والسؤال يوم القيامة وهو الوجه فيما يروى في الأخبار لقي الله وهو عليه غضبان وما يجري مجراه. وقيل: أي: يعلمون أنهم يموتون، قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**) وأراد به الموت (**وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**) أي: ويعلمون أنهم راجعون يوم القيامة إلى الله تعالى، أي: إلى جزائه إياهم على أعمالهم وأما الذين لا يوقنون بالجزاء ولا يرجون الثواب ولا يخافون العقاب كانت عليهم مشقة خالصة فتثقل عليهم كالمنافقين والمرائين. فالصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها عن تطاولها وهم من أخلاق الأنبياء والصالحين.) (البروسوي: 2003، مجلد1، ص127)

قيل: من وحد الله بأفعاله وطاعته كان توحيده على الظن، ألا تراه يقول: (**وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ**) [البقرة: 45] وقال بعضهم: الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم أي: لو حققوا التوحيد كانت صلواتهم وخشوعهم عليهم ريناً، فلما ركنوا على أفعالهم كان توحيدهم ظنا وطاعتهم عليهم شينا، قال الله تعالى: (**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً**) [الفرقان: 23]. (السلمي: 2001، مجلد1، ص59)

ويرى الطوفي في تأويل الآية: (**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**) أي: يعلمون أو يعتقدون، وإلا فالظن المجرد لا يكفي في العقائد، والفرق بين الثلاثة أن العلم جازم لا يقبل التشكيك (كالعلم بأن الواحد نصف الاثنين، والظن غير جازم، ويقبل التشكيك كظن أن النية شرط في الوضوء، والاعتقاد جازم لكنه يقبل التشكيك، ولهذا ينتقل أهله عنه كالقدري يصير جبريا والمعتزلي أشعريا ونحوه. والظن لغة الاعتقاد غير الجازم

راجحا كان أو مرجوحا؛ لأنهم قالوا: الظن خلاف العلم وهو يتناول ذلك، وفي الاصطلاح، وهو الحكم الراجح في أحد الاحتمالين، والمرجوح وهم والمساوي شك، وقد يستعمل الظن بمعنى العلم وفي القرآن منه مواضع هذا الموضع **(وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً)** [الكهف: 53]. (الطوفي: 2005، ص52 – 53)

يرى ملا صدرا الشيرازي في رسالة الحدوث: أن النفس لما كانت متقدمة الوجود على الطبيعة من كون مرتبتها أعلى وأقدم، وإن لها إمكانية العودة إلى مستواها الأول المعبر عنه (الفطرة الأصلية) إذا انتهجت وعزمت من خلال العمل الصالح على هذا الرجوع الطوعي، أما في حالة الموت فإن النفس إذا خرجت من هذه الدار ورجعت إلى عالمها عند بارئها، رجعت الطبيعة (أي الجسد) إلى عالم الدثور هاوية إلى الهاوية. وإنما تخاف النفس من ذلك ولا تأنس إلى الخروج من هذا الحبس لأنها استوحشت مخافة أن تنتقل إلى ما هو شر منه. وإنما يطلب الموت الموقنون الذين علموا أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون كما جاء في قوله تعالى: **(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)** فيتمنون الموت تشوقا إلى لقاء الله في الدار الآخرة، لكونهم يتولون الله ويحبونه كما جاء في قوله تعالى: **(إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)** [الجمعة: 6]. وأما الذين نسوا الله واليوم الآخر وأنساهم الشيطان ذكر ربهم ـــ لإخلادهم إلى أرض الطبيعة وركونهم إلى نشأة الدنيا وعالم الحس ـــ فحالهم كما قال الله عنهم: **(يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)** [الممتحنة: 13]. (الشيرازي، ملا صدرا: 1378ه، ص135 – 136)

الشيخ والجمال

الجمال لغة: يرى ابن فارس: (الجمال: ضد القبح، ورجل جميل وجُمَّال؛ قال ابن قتيبة: أصله من الجميل وهو ودك الشحم المذاب، يراد أن ماء السمن يجري في وجهه. ويقال جَمَالَكَ أن تفعل كذا، أي أجمل ولا تفعله؛ قال أبو ذؤيب:

جمالَكَ أيها القلب الجريح   ستلقى من تحب فتستريح

(ابن فارس: 2008، ج1، ص 246 – 247)

الجمال في الاصطلاح الصوفي

يعرفه ابن عربي: الجمال: نعوت الرحمة والألطاف من الحضرة الإلهية. (الجبوري، نظلة: 1998، ص134)

الجمال كما يراه البقلي: (كشف الجمال موضع غارات الأرواح بالعشق والشوق والمحبة وبه يطيق العارف السير في الصفات والاستقامة في رؤية القدم والبقاء، قال العارف: مقام مشاهدة الجمال يوجب السكر والوجد والهيجان.) (البقلي: 2005، ص272)

يعرفه الغزالي: الجمال: (هي صفات الجلال إذا نسبت إلى البصيرة المدركة لها، ويسمى المتصف بها: جميلا. ويعرفه الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره: الجمال: هو تجلي القلوب بالأنوار، والسرور، والألطاف، والكلام اللذيذ، والحديث الأنيس، والبشارة بالمواهب الجسام، والمنازل العالية، والقرب منه عز وجل. ويعرفه كمال الدين القاشاني: الجمال: هو نور الوجه من دون الحجاب. والجمال: هو تجليه تعالى بوجهه لذاته، فلجماله المطلق جلال: هو قهاريته للكل عند تجليه بوجهه، فلم يبق أحد حتى يراه، وهو علو الجمال، وله دنو يدنو به منا وهو ظهوره في الكل. ويعرفه الجيلي، عبد الكريم قدس سره: الجمال: راجع إلى وصفين العلم، واللطف، الجمال الظاهر للخلق إنما هو جمال الجلال.) (الكسنزان، السيد محمد: 2005، ج4، ص361 – 362)

يعرفه القشيري: (الله سبحانه وتعالى كاشف القلوب مرة بوصف جلاله، ومرة بوصف جماله، فإذا كاشفها بنعت جماله صارت أحواله (العبد) عطشا

في عطش، وإذا كاشفها بوصف جلاله صارت أحواله دهشا في دهش، ومن كاشفه بجلاله أفناه، ومن كاشفه بجماله أحياه، فكشف الجلال يوجب محوا وغيبة.. وكشف الجمال يوجب صحوا وقربة. وكشف الجلال يوجب اجتياحا وثبورا، وكشف الجمال يوجب ارتياحا وسرورا، والعارفون كاشفهم بجلاله فغابوا، والمحبون كاشفهم بجماله فطابوا، فمن غاب فهو مهيم، ومن طاب فهو مقيم. فالجلال إذا كوشف العبد به، يفنى عن نفسه في ذات الحق تعالى، فينقطع عنه إحساس وجوده، ويغلب عليه خشية الحق سبحانه، والتجرد من حوله وقوته إلى ربه، فلا يحس إلا بوجود الله، فتحصل له حلاوة من الجلال والجمال يغيب فيها دون أن يدري، ولا يوقظه منها إلا الله جل جلاله.) (الكسنزان: المصدر السابق، ج4، ص366)

ويرى الأنصاري، عبد الرحمن: أن الجمال ينقسم إلى قسمين، مطلق ومقيد، والمطلق هو الذي ينفرد به الحق تعالى دون خلقه ولا يشاركه فيه مخلوق، وهو المعبر عنه بالجمال الإلهي جل عن تمثيل وتكييف وتشبيه، لأن كل تشبيه وتمثيل يقع على جمال التجليات وليس على جمال المتجلي لأن الأولون والآخرون عجزوا عن إدراك كنه ذاته، فلا يدركه غيره ولا يعلمه سواه، أما الجمال المقيد فإنه ينقسم إلى كلي وجزئي، أما الكلي: فهو نور قدسي فائض من جمال الحضرة الإلهية سرى في سائر الموجودات علوا وسفلا باطنا وظاهرا. فأول إشراقه على عالم الملكوت، ثم على عالم الجبروت وهو عالم النفوس الإنسانية، ثم على القوى الحيوانية فالنباتية ثم على سائر أجسام العالم السفلي على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها، فما من ذرة من العالم إلا وقد أشرق عليها من هذا النور الإلهي والجمال القدسي بقدر احتمالها؛ لكن قبول الأشياء له بقدر العناية الأزلية، ولولا ذلك لم يكن للأشياء ظهور، ولو فرض عدمه لم يكن موجودا في العالم، وهو أظهر الأشياء فلا أظهر منه، ومثلما أن نور الشمس به ظهرت الألوان والأشكال والصور ولولاه لم تظهر للحس فهو شيء زائد عليها، فكذلك الجمال الكلي لم يخل عنه موجود، لكن لا يدركه على الحقيقة إلا من كانت ذاته كلية، كما أن من كانت ذاته جزئية لا يدرك إلا الجمال الجزئي، والكلي الذات هو الذي

تناسب ذاته جميع الذوات فيكون كلها وتكون كله؛ وذلك أن العارف لما ناسب الأشياء كلها بما له معها من الاشتراك في النور الإلهي الذي لم يخل عنه موجود لم ير ذاته شيئا غير ذلك النور، وكذلك سائر الأشياء لا يراها شيئا إلا ذلك أو لا يرى لها من ذاتها سوى العدم المحض، وإنما الوجود لها من ذلك النور ويراه مع هذا شيئا واحدا فيعلم يقينا أنه هو ذلك النور الواحد الذي غمر سائر الأشياء فكان كلها وكانت كله، ثم أنه يفنى عن الكل برؤية موجد الكل، ولا يصح هذا إلا لمن كان الحق تعالى سمعه وبصره إذ لا يشهد الكل إلا الكل. (الأنصاري، عبد الرحمن: ب ت، ص42 – 43)

ويضيف الأنصاري: فيما يخص الجمال الجزئي ويرى أنه نور علوي يسنح للنفس الإنسانية عند إدراك الصورة الجميلة الحاصلة في لوح الخيال المنتقش بقلم الحس البصري تتهيج به فتستعد بذلك الابتهاج لقبول إشراق نور آخر أشد روحانية منه من عالم الأنوار المقدسة، إذ النور يستدعي النور فينجذب إليه للمناسبة بينهما. فذلك الابتهاج هو المعبر عنه بالمحبة التي تفضي بالنفس إلى العشق وإلا فليس في قوى الأجسام ما يؤثر في النفس الإنسانية ذلك التأثير، إذ لا يفعل الكثيف في اللطيف، وينقسم هذا الجمال أي: الجزئي إلى ظاهر وباطن، فالظاهر منه ما يتعلق بالأجسام فلا يدرك إلا معها، والباطن ما لا علاقة له معها، وهو الجمال العقلي المجرد، والجمال الظاهر: وإن كان له تعلق بظاهر الجسم فهو منزه عن الحلول فيه، وإنما معناه نفسٍ إنسانية وإشراقها على بدنها بأنوار الجمال ولا يدرك مجردا بالحواس وإنما يدرك بنور العقل لدقة معناه ولطافته، فإن العقل نور والجمال نور، ولا يدرك النور إلا بالنور؛ ذلك لأن الحواس إنما هي قوى النفس الحيوانية وهي جسمانية فلا تدرك شيئا إلا مع أشكال الجسم وأوضاعه، فصح أن الذي يدركه البصر مظهر الجمال لا ذاته.(الأنصاري: نفسه، ص44)

لقد خلق الله تعالى المراتب الوجودية الكونية المادية منها واللطيفة على صورة جماله، فقد ثبت في الحديث أن الله جميل ويحب الجمال، ولما كان الله تعالى جميل؛ فإن مطلق تجلياته جميلة، والكون بجميع مراتبه ما هو إلا تجلي من تجلياته فهو على الإطلاق جميل من حيث العموم، ولما كانت المراتب

الوجودية جميعها جميلة وإن لها تنزلات من أعلى عليين إلى أسفل سافلين كما جاء في قوله تعالى: **(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)** [المطففين: 18]، وقوله تعالى: **(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)** [التين: 5] فقد تباينت تبعا لذلك في جمالها، فأصبح لهذا التباين نسبة واعتبار، فظهر القبح نتيجة النسبة والاعتبار ليس إلا، فإذا ارتفع الاعتبار والنسبة فإن الكون بكل مراتبه جميل لأنه مخلوق على الصورة الجمالية.

لقد جعل تعالى المراتب الوجودية متباينة في الجمال من أجل أن لا يبقى الإنسان واقفا مع مرتبة وجودية محدودة الجمال بل عليه أن يستمر في عملية الكشف عن مراتب جمالية أرقى حتى يصل إلى الجمال المطلق، فللجمال غاية وهدف هو الخروج من الجمال النسبي المحدود إلى الجمال المطلق.

لقد خلق الله القلب، وجعله ميالا بطبعه إلى مراتب الجمال، ولكثرة تقلبه سمي قلبا، وجعل تعالى العقل دليلا له في التأمل، والتفكر من أجل معرفة الجمال الأسمى، فهو ما أن يرى جمال أسمى حتى انقلب إليه وتعشق به وحين يتأمل هذا الجمال ويتفكر به يجد في النتيجة أن فيه نقصا في جانب من جوانبه، فيكون ذلك محفزا للبحث عن جمال أرقى وأتم، وهكذا يستمر القلب في تنقله في مراتب الوجود، وفي رحلته للكشف عن معاني الجمال.

ولما كانت المراتب الوجودية جميعها جميلة، فقد رافق هذا الجمال شيء من الافتتان، فوجد الشيطان عليه اللعنة مجالا يدخل منه إلى استدراج الإنسان بواسطة الوهم، والخيالات الفاسدة التي تغرر بالإنسان إلى الوقوف مع المراتب الوجودية الأدنى، ومنعه أو تأخيره من مواصلة عملية الكشف عن المراتب الوجودية الجميلة الأسمى، وصولا إلى جمال الحقيقة، وهذا يعني أن هناك قوة تغري من خلال جمال وهمي (التزيين) أضيف إلى جمال المرتبة الوجودية لتبدو أكثر جمالا عسى أن تشغل القلب لزمن آخر فيشكل ذلك تأخيرا له عن مواصلة البحث عن الجمال الأسمى، قال تعالى: **(فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)** [التوبة: 37] وقوله تعالى: **(وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)** [النمل: 24]، ففي الآية

الأولى أجرى تعالى التحريم على قبح العقائد لأنها تبقي معتنقيها مع مراتب الجمال الأدنى، والله سبحانه وتعالى يريد لهم جمال الرحمة المطلق، فدخل الشيطان ومن خلال الوهم الذي يبثه فيهم عسى أن يترك أثرا فاعلا سلبيا يديم عليهم تمسكهم بالعقائد الفاسدة، ويشغلهم عن مواصلة البحث عن جمال الحقيقة، أما الآية الثانية فقد زين الشيطان لقوم بلقيس جمال عبادة مرتبة وجودية وهي الشمس معتقدين أن فيها أسباب الحياة والهداية.

من هنا يتبين لنا أنه من الضروري أن يكون طرفا من جهة الحق يبصر الناس بحقيقة الأمر، ويكشف عن زيف الجمال الوهمي الذي صنعه الشيطان **(زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ)** فكان له الأثر الكبير في عرقلة السير باتجاه الحقيقة، فأرسل تعالى الرسل والأنبياء والأولياء عليهم السلام ليبينوا للناس حقيقة الوهم الشيطاني، ومكائده، وأساليب استدراجه والطرق التي يستخدمها في عملية الضلالة فيضل بها الكثير من الناس.

فالنبي، أو الرسول، أو الولي تنحصر مهمته في تبصير الناس على حقيقة الجمال، وعن الكيفية التي يعرج بها الإنسان، ويسمو، ويترقى في مراتب الجمال وصولا إلى الجمال المطلق، أي على العكس من التوجهات الشيطانية، أو الإبليسية، ولعل من الطريف بالأمر أن كلا الطرفين يغري بالجمال، بيد أن الشيطان يغري بالجمال الوهمي، والولي يغري بالجمال الحقيقي، قال تعالى: **(وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)** [الحجرات: 7] فقوله تعالى: **(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ)** فالزينة في القلب لا يمكن أن تدرك إلا بعد مذاق معين، وإن المؤمن يتذوق نتائج إيمانه؛ فيكون ذلك محفزا له على التمسك والاستمرار في عقيدته كما أن تمسكه يؤدي به في الآخرة كذلك إلى جمال الجنان، في حين أن الجمال الوهمي الذي صوره الشيطان في الخيال الإنساني ليس له مذاق غير الوهم، ومؤداه في نهاية الأمر إلى قبح الاحتجاب في الدارين الدنيا والآخرة.

فإن جهة الحق تعمل على جذب محبوا الحق تعالى، ومطالعة جماله من خلال الجمال، أي: من خلال مد السالك، أو المريد بالمذاقات، والمكاشفات، وتدفق الواردات، ذلك بما مكنها تعالى من ذلك، قال تعالى: **(هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)** [ص: 39] والعطاء الإلهي لخليفته لم يكن محدود كما جاء في قوله تعالى: **(وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ)** [هود: 108] والجنة هنا غير محددة بدار معينة بل هي مطلقة لأهل الله تعالى، وإن العطاء الإلهي لأهل الجنة غير مجدوذ أي: منقطع أو ممنوع، وهذا يعني أن الشيخ الولي المرشد الكامل مكنه تعالى بعطاء مطلق لا ينقطع، فمن أراد هذا العطاء عليه بالتوجه إلى شيخ الوقت.

هنا يتبين لنا أن الشيخ الولي المرشد الكامل ضرورة مهمة، لأنه الوسيلة الوحيدة من كونه البرزخية العظمى باتجاه تحصيل الجمال المطلق، وإن الانتظام في طريقته، وتبني منهجه، والعمل بما يأمر به، وصحبته كل ذلك كفيل بتحصيل المذاقات الجمالية التي ليس لها حد، وصولا إلى الجمال المطلق.

فالشيخ إن صح القول هو بوابة الحق تعالى التي تحتضن الخلق الراغبين في الله، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أنا مدينة العلم وعلي بابها)** فصح لنا من خلال هذا الحديث أن مدينة العلم الإلهي (الجنة المعنوية) لها في كل زمان باب يؤدي إليها وهو الشيخ المرشد أو الهادي، قال تعالى: (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) [الرعد: 7] وقوله تعالى: **(مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً** ([الكهف: 17] وإن مهمة الهادي هو الوصول بمن يهديه إلى جمال الحقيقة.

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً) [الأحزاب: 28]

قوله تعالى

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) [الحجر: 85]

قوله تعالى:

(فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً) [المعارج: 5]

قوله تعالى:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً) [المزمّل: 10]

وقوله تعالى:

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) [النحل: 6]

وقوله تعالى:

(وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [الأعراف: 180]

وقوله تعالى:

(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [النحل: 125]

وقوله تعالى:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) [فصلت: 34]

ففي الآية الأولى: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً)** [الأحزاب: 28]

الأمر الإلهي هنا وإن كان صادر ويراد به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا أنه كذلك موجه لكل نائب، أو وكيل لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأعني به أنه يخاطب كل شيخ ولي كامل توجه في خدمة المستعدين من الراغبين في السفر إلى الله تعالى، وذلك من أجل أن يكون الخطاب الإلهي

يلائم كل زمان ومكان، ودخل الجمال هنا ليكون هو وسيلة الجمع والافتراق كبديل عن قبح الكراهية، أو الإكراه، ويمكن أن يكون السراح الذي اشتق من سراح الإبل، وهو الخيار، والانطلاق وهذا يعني أن لها الخيار فيما تختار بحسب ميل قلبها، وإن حقيقة الميل لا يقع إلا على الجمال بكل أشكاله، فإن أرادة الحياة الدنيا فالدنيا جميلة، والقلب فيه ميل إلى الجمال ومحبته، وإن اختارت الله تعالى فإنه غاية الجمال، والسراح يقع فيه القرار، ومهما يكن نوع القرار فإنه لا محال يتوجه للجمال، غير أن اختيار الجمال المطلق هو الخيار الأسمى والأصح، فالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كان أسوة لنا في التعامل مع كل مرتبة وجودية، وكان كل تعامله ينطلق من الجمال إلى الجمال الأسمى، والأرق، والأعذب، وهذا يقع في اختصاص التربية الذوقية، والجمالية فعلينا أن نقتدي به صلى الله تعالى عليه وسلم.

ويمكن تأويل الآية على النحو التالي: يا أيها الولي المخاطب قل لقواك النفسية أن كنتن تردن الوقوف والاحتجاب مع جمال جهة الحس المحدودة بدلا من جمال المتجلي في جميع المراتب الوجودية فتعالين أذيقكن ما يتمخض من جمال المذاقات الروحية، والمكاشفات بعد الرياضات، والعبادات، والنوافل التي تصل بين الروح وبارئها، وصولا إلى الجمال الحق، والفناء فيه فإذا طلبن البقاء، والوقوف مع المراتب الجمالية المحدودة فلم يكن أمام الولي إلا إماتة هذه الرغبات، والتجرد عنها من خلال المجاهدة، والمخالفة.

يرى ابن عربي: في تأويله للآية: اختبر النساء هو إحدى خصال التجريد وأقدام الفتوة التي يجب متابعته فيها، فإنه عليه السلام مع ميله إليهن لقوله: **(حبب إلي من دنياكم ثلاث)** إذ شوشن وقته بميلهن إلى الحياة الدنيا وزينتها خيرهن وجرد نفسه عنهن وحكمهن بين اختيار الدنيا ونفسه، فإن اخترنه لقوة إيمانهن بقين معه بلا تفريق لجمعيته وتشويش لوقته بطلب الزينة والميل إليها، بل على التجرد والتوجه إلى الحق كقوى نفسه، وإن اخترن الدنيا وزينتها متعهن وسرحهن وفرغ قلبه عنهن بمثابة إماتة القوى المستولية. (ابن عربي: 2001، ج1، ص 154)

يقول ابن عجيبة: (قيل: سبب نزولها: أنهن سألنه زيادة النفقة، وقيل: آذينه بغيرة بعضهن من بعض، فاغتم - عليه الصلاة والسلام - لذلك. وقيل: هجرهن شهرا، فنزلت. وهي آية التخيير. فبدأ بعائشة رضي الله عنها وكانت أحبهن إليه. فخيرها، وقرأ عليها القرآن، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، فرؤي الفرح في وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم اختارت جميعهن اختيارها. وحكم التخيير في الطلاق: أنه إذا قال لها: اختاري، فقالت: اخترت نفسي، أن تقع تطليقة واحدة بائنة، وإذا اختارت زوجها؛ لم يقع شيء. قاله النسفي: وإذا اختارت المرأة الطلاق؛ فمذهب مالك: أنه ثلاث، وقيل طلقة بائنة. وقيل: رجعية. ووصف السراح بالجميل؛ يحتمل أنه يكون دون الثلاث، أو يريد الثلاث، وجماله: حسن المرعى، والثناء وحفظ العهد. ويرى ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية مفادها: أنه ينبغي لمن قلده الله نساء متعددة أن يخيرهن، إقتداء برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ لا يخلو من حال الغيرة، فإذا خيرهن فينبغي أن يغيب عن تشغيبهن، ولم يصغ إلى حديثهن، ولا ينبغي أن يغتم من أجل الغيرة، فإنها طبع لازم للبشر، وليقدر في نفسه: أنه إذا تزوجت زوجته غيره، وهي في عصمته، هل يقدر على ذلك أم لا، فالأمر واحد. قال القشيري: لم يرد أن يكون قلب واحد من المؤمنين والمؤمنات منه في شغل، أو يعود إلى واحد منهم أذى، أو تعب من الدنيا، فخير صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر نسائه، ووفق الله عائشة، حتى أخبرت عن صدق قلبها، وكمال دينها ويقينها، وما هو المنتظر من أصلها ونيتها. والباقيات جرين على منهاجها، ونسجن على منوالها.) (الحسني، ابن عجيبة: 2005، مجلد6، ص، 22)

أما في قوله تعالى: (**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**) [الحجر: 85]

قوله تعالى: (**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**) أي: جميع مراتب الوجود خلقها الله تعالى بالحق لأنه تعالى هو المتجلي فيها ظاهرا وباطنا، فمن أين يأتيها الباطل والحق تعالى هو القائم فيها، كما أنها

مخلوقة على صورة جمال الحق تعالى، قال تعالى: **(رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)** [آل عمران: 191] وطالما أنها مخلوقة بالحق، والحق تعالى جميل يحب الجمال فهذا يعني، أن جميع مراتب الوجود عاشقة معشوقة لأنها جميلة محبة للجمال.

فالجمال هو حقيقة الوجود، ولا وجود للقبح إلا للنسبة والتناسب، ومن أجل هذا يجب أن تكون القوانين التي تحكم الأشياء هي الأخرى جميلة لأنها تصدر من الجمال إلى الجمال **(وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ)** وإن الساعة التي يتبين فيها حقائق وجمال الأشياء آتية لا ريب فيها، وهذا القول يتناسب تماما مع قوله تعالى: **(لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)** [ق: 22] كشف الغطاء (الحجب) عنه فيرى جمال الحق الساري في الوجود على ما هو عليه.

قوله تعالى: **(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)** الذي يتناسب مع طبيعة المحتجب الذي يتصرف مع العارف من خلال قوى العمى المستولية عليه، فلو كان ذا بصيرة لتصرف معك على وفق ما تمليه بصيرته، والصفح الجميل هو الذي يقابل المسيء بالإحسان، ويحاول أن يبصره بحقائق الأمور من أجل أن يكون بينهما شيء من التناسب فيقبل منه مستوى معرفي معين، جاء في الحديث: (نحن معاشر الأنبياء بعثنا نكلم الناس على قدر عقولهم).

كما أن من حسنات الصفح الجميل ترك المجال أمام الآخر، وعدم حسم العلاقة التي تربط بينهما عسى أن يعود بعد القطيعة، أي: يجعل للآخر خطوة للرجعى أو العودة، كما أن الجبلة التي خلق عليها الإنسان قابلة للخطأ كما جاء في الحديث الشريف: **(كل ابن آدم خطاء، وخير الخطاءون التوابون)** فالصفح الجميل قد أخذ هذا الجانب في الاعتبار.

يرى ابن عجيبة في تأويل الآية: **(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا)** من الكائنات **(إِلاَّ بِالْحَقِّ)** إي: إلا خلقا ملتبسا بالحق، وهو الدلالة على كمال قدرتنا وباهر حكمتنا، فمن كمال القدرة: إهلاك أهل الفساد، ودفع شرورهم وإبطال فسادهم، ومن باهر حكمته أنه لم يهلكهم إلا بسبب عتوهم

وفسادهم. فالحكمة رداء للقدرة، والقدرة تبرز، والحكمة تستر، فإظهار الكائنات يدل على كمال القدرة، وترتيبها على أسباب وشروط يدل على باهر الحكمة. ومن مقتضيات الحكمة: ترتيب الجزاء على العمل، بحيث لا يهمل عملا، فأهل الإكرام يترتب إكرامهم وإنعامهم على عملهم الصالح، واعتقادهم الصحيح، وما قاسوه من المجاهدة والمكابدة، وأهل الانتقام يترتب الانتقام منهم على عملهم الفاسد، واعتقادهم الباطل، وعلى ما قالوا في الدنيا، التي هي مزرعة الآخرة، من الدعة والحظوظ الفانية، ولذلك رتب عليه قوله: **(وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ)** فيجازي فيها من يستحق الإكرام، ويعاقب من يستحق الانتقام، وينتقم لك فيها ممن يكذبونك**(فَاصْفَحِ)** اليوم **(الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)** ولا تعجل بالانتقام، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم. وكان هذا قبل الأمر بالقتال.) (الحسني، ابن عجيبة: 2005، مجلد3، ص 410)

ويرى ابن عجيبة إن الإشارة التي تحيلنا إليها الآية مفادها: (ما نصبت لك الكائنات لتراها بعين الفرق، بل لترى فيها مولاها بعين الجمع. وما جعل لك هذه الدار لتتخذها دار القرار، وإنما جعلها قنطرة ومعبرا لدار القرار. إنما جعل لك الدنيا الفانية مزرعة للدار الباقية. وإن الساعة لآتية، فاصبر في هذه الدار اللمحة اليسيرة على شدائد الزمان، وجفوة الإخوان، واصفح الصفح الجميل، حتى ترد النعيم الباقي، والجزاء الجزيل، وتخلق بأخلاق الحليم الكريم، إن ربك هو الخلاق العليم، فلا قدرة لك على شيء إلا بقدرة السميع العليم.) (نفسه: مجلد4، ص410)

أما القشيرى فيرى في لطائف إشاراته: أن الآية دلت على أن العباد مخلوقة لله لأنها بين السماوات والأرض وقوله تعالى: **(إِلاَّ بِالْحَقِّ)** أي: وأنا محق فيه ويقال: **)بِالْحَقِّ)** بالأمر العظيم الكائن أن الساعة لآتية يعني القيامة، وقوله تعالى: **(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)** يقال: الصفح الجميل الذي تذكر الزلة فيه. ويقال: الصفح الجميل سحب ذيل الكرم على ما كان من غير عقد الزلة، بلا ذكر لما سلف من الذنب، ويقال الصفح الجميل الاعتذار عن الجرم بلا عد الذنوب من المجرم والإقرار بأن الذنب كان منك لا من العاصي. (القشيري: 1999، مجلد3، ص289)

ويرى السلمي في قوله: (**فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**) (صفح لا توبيخ، ولا حقد بعده، الرجوع إلى ما كان قبل ملابسته المخالفة. وعن محمد ابن الحنفية ابن علي بن أبي طالب عليه السلام: (**فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**) قال: هو الرضا بلا عتاب.) (السلمي: 2001، ج1، ص359)

يرى ابن عربي في كتاب الصلاة: (إن القرآن كله مجموع في الفاتحة لأنها أم الكتاب، والفاتحة مجموعة في البسملة، والبسملة مجموعة في الباء، والباء مجموعة في النقطة. وذلك لأنه لولا النقطة ما عرفت الباء، ولولا الباء ما عرفت الأكوان، قال الله تعالى: (**أنزَلَهُ بعِلْمِه**) [النساء: 166] وقال تعالى: (**وَبِالْحَقِّ أنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ**) [الإسراء: 105] وقال تعالى: (**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**) [الحجر: 85] ولولا الأكوان ما عرف القرآن، ولولا القرآن ما عرف الله تعالى.) (ابن عربي: 2009، ص65)

وفي الفتوحات المكية يرى ابن عربي أن العدل: (هو الحق المخلوق به السماوات والأرض، قال تعالى: (**وَبِالْحَقِّ أنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ**) [الإسراء: 105] أي بما يجب لذلك المخلوق مما تقتضيه حالة خاصة بقوله تعالى: (**ثُمَّ هَدَى**) [طه: 50] أي بين أنه (**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ**) [طه: 50] أي: ما خلقه إلا بالحق وهو ما يجب له، فالعالم على الحقيقة هو الله الذي علم ما تستحقه الأعيان في حال عدمها، وميز بعضها عن بعض بهذه النسبة، الإحاطية، ولولا ذلك لكانت نسبة الممكنات في قضية العقل فيما يجب لها من الوجود نسبة واحدة، وليس الأمر كذلك، ولا وقع كذلك، بل علم سبحانه ما يتقيد من الممكنات في وجوده بأمس لا يمكن عنده أن يوجده اليوم ولا في غد، فإنه من تمام خلقه تعيين زمانه وهو القدر وهي الأقدار أي مواقيت الإيجاد، فهو سبحانه يخلق من غير حكم قدر عليه في خلقه، والمخلوقات تطلب الأقدار بذاتها (**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ**) [طه: 50] من زمانه فيمن يتقيد وجوده بالزمان، ومن حاله فيمن يتقيد وجوده بالحال، ومن صفته فيمن يتقيد وجوده بالصفة.) (ابن عربي: 2006، مجلد3، ص91)

ويضيف ابن عربي في فتوحاته: (إن هذا الوجود المستفاد إما أن يكون موجودا وما هو الله، ولا أعيان الممكنات. وإما أن يكون عبارة عن وجود الحق، فإن كان أمرا زائدا ما هو الحق ولا عين الممكنات فلا يخلو أن يكون هذا الوجود موجودا فيكون موصوفا بنفسه وذلك هو الحق لأنه قد قام الدليل، على أنه ما ثم وجود أزلا إلا وجود الحق فهو واجب الوجود لنفسه، فثبت ما ثم موجود لنفسه غير الله، فقبلت أعيان الممكنات بحقائقها وجود الحق لأنه ما ثم وجود إلا هو وهو قوله: **(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ)** وهو الوجود الصرف فانطلق عليه ما تعطيه حقائق الأعيان، فحدث الحدود، وظهرت المقادير، ونفذ الحكم والقضاء، وظهر العلو، والسفل، والوسط، والمختلفات، والمتقابلات، وأصناف الموجودات أجناسها، وأنواعها، وأشخاصها، وأحوالها، وأحكامها في عين واحدة، فتميزت الأشكال فيها، وظهرت أسماء الحق، وكان لها الأثر فيما ظهر في الوجود غيرة أن تنسب تلك الآثار إلى أعيان الممكنات في الظاهر فيها.) (نفسه: مجلد3، ص325)

أما في قوله تعالى: **(فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً)** [المعارج: 5] لقد أمر تعالى في هذه الآية، وهو يخاطب خاصته، أو من سار على هديهم أن يصبروا الصبر الجميل، وقد وصفه تعالى بالجميل لما يقتضيه هذا الوصف من الصبر من تحصيل معرفي إلهي – لدني.

في المحاورة التي جرت بين موسى والعبد الصالح عليهما السلام، أراد موسى عليه السلام من العبد الصالح أن يعلمه الطريقة التي من خلالها يتم تحصيل العلم اللدني فقال: **(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً)** [الكهف: 66] أجابه العبد الصالح بقوله: **(إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً* وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً)** [الكهف:67– 68] وهنا إشارة مفادها أن الصبر الجميل هو صبر العبد مع شيخ الزمان إلا وهو العبد الصالح، وصحبته، والقيام بخدمته إلا ترى كيف طاع نبي الله موسى العبد الصالح عليهما السلام في بناء الجدار كما جاء في قوله تعالى: **(فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً)** [الكهف: 77].

فالصبر مع أهل الله وخاصته، ولزوم طاعتهم، وخدمتهم هو الكفيل لتحصيل الحكمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، وهذا يعني أن هذا الخطاب خاطب به تعالى المستعدين الراغبين في تحصيل كمالاتهم مع مشايخهم الكاملين، وأقصد بالمعية هنا لزوم الصبر في كل الأحوال وليس مع الشيخ فقط، بل على المريد أن يصبر طالما هو في طريق الشيخ الكامل؛ لأن ذلك من شأنه أن يرقي المستعد في المقامات بشكل مستمر، ومن يترقى في المقامات لابد أن يحصل على كنزية المقامات وما تخفيه من أسرار العلوم والمعارف، وهكذا صعودا حتى يصل المريد من الدنو والقرب ما يجعله مؤهلا لعملية الفناء أو التبتل.

ولا ينأى في استدعائه لأقوال العارفين عن هذا المفهوم، فيرى سهل التستري في تأويل الآية: **(فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً)** أي: رضا بغير شكوى، لأن الشكوى نقيض الصبر، أو تعني الخروج عن دائرة الصبر والدخول في حد الجزع أو الملل. أما أبو عثمان فيرى: الصبر الجميل مخ العبادة، والعبودية لله. أي: بالصبر يصل المريد إلى المعارف التي تمكنه من معرفة ما يؤول إليه الصبر من سعادة في الدارين الدنيا والآخرة، وتحقق له العبودية لله، أي: الفناء في الله تعالى.وقال ابن عطاء: صبرا على ما ابتليتك به جميلا علما أن رؤيتي إليك أسبق من البلاء، أما الواسطي فيرى: ارض بما يصيبك رضى جامعا لا تسخط فيه بحال فهو الصبر الجميل الذي يورث الرضا التام. (السلمي: 2001، مجلد2، ص350)

ويرى الرازي، محمد بن أبي بكر: قال الجنيد: الصبر تجرع المرارة من غير تعبس. وقيل: هو ترك الشكوى. وقيل: هو استقبال البلاء بالرضى والثبات. وعلامته: أن يكون بين أصحابه لا يفرق بينه وبينهم وهو في غمرات البلاء، وبهذا فسر قوله تعالى: **(فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً)**، وقيل: علامته أن تستوي عنده النعمة والنقمة. (الرازي، محمد: 2001، ص105)

ويرى ملا صدرا الشيرازي في المظاهر الإلهية: (أعلم أن (أيام الإلهية) غير (أيام الربوبية) لأن (اليوم الإلهي) هي (يوم ذي المعارج) مقداره خمسين

ألف سنة: (**لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ *مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً**) [المعارج:2 – 5] واعلم أن سبب وقوع النفوس الإنسانية في هذا العالم وابتلائها بهذه البليات الدنيوية، التي أحاطت بهم فيها، هو الخطيئة التي اكتسبها – لنقص إمكاني في جوهره وقصور طبيعي في ذاته – أبوهم آدم – لما ذاق الشجرة وبدت سوآته، وهي الشجرة المنهية عن أكلها.. فاجتهد، أيها السالك إلى الله – تعالى – وطر بجناحي العلم والعمل، لعلك توفق للخروج من جنة إبليس، فترجع إلى جنة أبيك آدم عليه السلام) واجعل من الصبر براقك في الوصول. (الشيرازي: ملا صدرا: 1378هجري، ص68 – 69)

قوله تعالى: (**وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً**) [المزمّل: 10] لأن قولهم لم يكن قائم بالله تعالى، بل هو حديث نفس، أو من الوحي الشيطاني، فإن الحق تعالى يوصي الخاصة من دعاته من الأنبياء، والرسل، والأولياء بعدم التقاطع التام مع هذا الصنف من البشر لعله يرجع من بعد عناده إلى جادة الصواب، حين أمر تعالى نبي الله موسى وأخيه هارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون طلب منهم أن يتعاملا معه بالقول اللين؛ لأن الكلام اللين فيه حضور للجمال، ومن خلال سلطة الجمال عسى أن يرسخ الكلام في القلب الفرعوني فيستجيب لنداء الحق، قال تعالى: (**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**) [طه:43 – 44] والقول اللين لم يكن في بداية الدعوة فحسب، بل يجب أن يختتم به في نهاية الإرشاد، فإذا حصل هذا الوصف فإن الهجر الجميل حاصل تحصيل لهذا الشكل من الإرشاد، من خلال هذا يتضح أن الهجر الجميل: هو التعامل اللين قولا وفعلا سواء كان في حالة الإرشاد، أو في حال عدم استجابة الآخر أو المتلقي. فالمرشد أو الداعية لله يجب أن يتحلى بكل الأبعاد، والتمكينات الجمالية في تعامله مع الناس؛ لأن ذلك لابد له أن يترك أثر إيجابي لدى الآخر ولابد أن يكون لهذا التعامل من أثر إيجابي يظهر في الحال أو في المستقبل.

إذ أن الجمال محبوب لذاته فأضيف له جمال اللين فيكون جمال على جمال، فلابد أن تكون له سلطة تأثير على الآخر حتى ولو كانت بنسبة بسيطة.

ويحيل ابن عربي الخطاب الإلهي في هذه الآية إلى أنه يخاطب به تعالى كل فرد إنساني، فيرى: (**وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ**) واحبس نفسك عن الطيش، والاضطراب والحركة في طلب الرزق، والاهتمام به على ما توسوس إليك قوى نفسك وتلقي إليك من خواطر الوهم ودواعي الشهوة، ونوازغ الهوى فتبعثك وتتعبك في حوائجك(**وَاهْجُرْهُمْ**) بالإعراض عنهم(**هَجْراً جَمِيلاً**) مبنيا على العلم الشرعي والعقلي لا على الهوى والرعونة. (ابن عربي: 2001، ج2، ص382)

أما قوله تعالى: (**وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**) [النحل: 6] يرى الراغب: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: (**إن الله جميل يحب الجمال**) تنبيها أنه منه تفيض الخيرات الكثيرة، فيحب من يختص بذلك قال تعالى: (**وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**) يشير تعالى في هذه الآية من حيث الظاهر إلى جمال الراحة التي تأتي نتيجة النظر إلى مناظر الطبيعة والتمتع في مناظرها وجمال زينتها من ماء وخضار وثمار، ويمكن ترحيل الآية إلى تأويل آخر، ويراد به النفس أو الروح حين يرقى بها الإنسان إلى مستوى الكمال، فينكشف لها من جمال المعاني والمعارف، والمشاهدات، والمذاقات الروحية التي لا مثيل لها في عالم الحس، كما أنها غير موصوفة بالحدود الزمانية أو المكانية، بل هي مطلقة.

إن الغاية من جمال الطبيعة هو تفكر الإنسان وتأملاته التي يفترض بها أن تتصاعد من تجليات الجمال إلى المتجلي فيها، ومن أجل ذلك قيل: (**تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة**) وقال تعالى: (**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**) [آل عمران: 191] فالتفكر في الجمال المحدود قد يقود إلى الجمال المطلق.

يرى القشيري في لطائف إشاراته: (أن الغنى له جمال بماله، والفقير له استقلال بحاله.. وشتان ما هما ؟ فالأغنياء يتجملون بأنعامهم حين يريحون وحين يستريحون، والفقراء يستقلون بمولاهم حين يصبحون وحين يمسون. أولئك تحمل أثقالهم جمالهم، وهؤلاء يحمل الحق عن قلوبهم أثقالهم.) (القشيري: 1999، مجلد3، ص 296 – 297)

ويرى ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية: (هذه العوالم من العرش إلى الفرش كلها نصبت للآدمي، وخلقت من أجله، السماوات تظله، والأرض تقله، والحيوانات تخدمه وتنفعه، يتصرف فيها؛ خليفة عن الله في ملكه، فالواجب عليه شكر هذه النعم، وألا يقف معها، ويشتغل بها عن خدمة خالقها. يقول الحق تعالى، في بعض كلامه في لسان الحال: (يا ابن آدم، خلقت الأشياء لأجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما خلق لأجلك عما خلقت لأجله) والواجب عليه أيضا من طريق الخصوص: ألا يقف مع حس أجرامها، دون النفوذ إلى أسرار معاني خالقها ومظهرها؛ لئلا يبقى مسجونا بمحيطاته، محصورا في هيكل ذاته، بل ينفذ إلى فضاء شهود بحر المعاني، المحيط بالأواني، والمفني لها، بصحبة شيخ كامل، يخرجه من سجن الأكوان إلى فضاء شهود المكون.) (الحسني، ابن عجيبة: 2005، مجلد4، ص8)

وفي قوله: **(وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)** [الأعراف: 180]

قوله تعالى: **(وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى)** لله تعالى: الأسماء الحسنى (الجمالية) وله تعالى الأسماء الجلالية وله تعالى الأسماء النفسية، فكل الأسماء التي تقع في كفة الرحمة واللطف فهي أسماء جمالية، ولذلك قال تعالى: **(قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى)** [الإسراء: 110] والله سبحانه هو الاسم الجامع لكل الأسماء ومن ضمنها الأسماء الحسنى، وأمرنا تعالى أن ندعوه بالأسماء الحسنى لأنها من مقتضيات الرحمة التي وسعت كل شيء، قال تعالى: **(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)** [الأعراف: 156] أي قبلت وأعطت مراتب الوجود جميعها هذا ما ألزم الله تعالى نفسه، فلا يجوز أن ندعو الله طالبين منه قاهرية بحق مرتبة من المراتب، فالأسماء الجلالية ادخرها الله للمجرمين، قال تعالى: **(فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)** [الأنعام: 147] وبأسه تعالى يراد به قاهرية جلاله وهو مخصص للمجرمين في الدارين، ففي دار الدنيا عذاب وقاهرية الاحتجاب، وفي الآخرة عذاب البعد وإرهاق الصعود.

قوله تعالى: (**فَادْعُوهُ بِهَا**) يأمرنا تعالى أن لا ندعوه إلا بأسمائه الجمالية (الحسنى) لأنها منسجمة مع توجهات الرحمة التي توجه تعالى بها لجميع مراتب الوجود، فإن على المرء أن يتأدب في دعوته، ولا يخالف الأمر الإلهي الداعي إلى التوجه إليه تعالى بأسمائه الحسنى.

قوله تعالى: (**وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ**) يرى الراغب: اللحد: (حفرة مائلة عن الوسط، وقد لحد القبر: حفره، كذلك وألحده. وألحد فلان: مال عن الحق، والإلحاد ضربان: إلحاد إلى الشرك بالله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب فالأول ينافي الإيمان ويبطله، والثاني يوهن عراه ولا يبطله.) (الراغب: 1408هـ، ص 737) هذا يعني أن الله تعالى يخاطب خاصته بعدم المبالاة للذين يميلون إلى جهة غير جهة الحق تعالى.

قوله تعالى: (**سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) يحشر المرء على قدر معرفته، وصعوده وترقيه في المقامات لا يقف عند حد، وشتان بين من قطع مقامات عديدة وشريفة وهو في الحياة الدنيا، وبين من احتجب بالغواشي ووقف مع المقامات المحدودة، إذ أن حقيقة الروح تطلب المزيد من المقامات من أجل اللحاق بالنور والتماهي فيه، وموانع النفس وأهوائها ووقوفها يحول دون هذا الترقي الروحي، فمن بقي على ما هو عليه، واتبع هواه، وآثر الكسل على المجاهدة، فإنه في الآخرة من زمرة المشمولين بالصعود الذي يرافقه الإرهاق، قال تعالى: (**سَأُرْهِقُهُ صَعُودا**) [المدثر: 17] في حين قال تعالى بحق المجاهدين الذين خالفوا أهوائهم: (**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**) [العنكبوت: 69] وشتان ما بين أن يحشر المرء وهو عارف بالله كما جاء في قوله تعالى، وبين حشره مع زمرة المجرمين، قال تعالى: (**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً**) [مريم: 85] وقال تعالى بحق الآخر: (**وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً*لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً**) [مريم:86ـ 87] فالمعرفة الذوقية لدى المتقي أتم وأكمل في حين يعاني الآخر في الآخرة من حال العمى كما جاء في قوله تعالى: (**قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً *قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا**

وكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى) [طه:125ـ 126] فمن ارتقى ذوقه فوصل إلى بمعرفته الذوقية إلى مرتبة الكشف عن الآيات التي في الآفاق وفي النفس نجا من العمى الأكبر، وكان من زمرة المتقين الذين يحشرون إلى الرحمن وفدا ومن احتجب مع مرتبة من المراتب وبقي واقفا معها فإن العمى نصيبه الأكبر، قال تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)** [فصلت: 53].

إن الترقي الجمالي والذوقي له أهمية كبيرة جدا، وإن لهذا الترقي سبيلين يجب أن يكونا في وقت واحد، الأول: كسبي ويتم من خلال أستاذ عارف بالله حق العرفان؛ وذلك لأن العلم الكسبي يفضل أن يؤخذ من أستاذ أكثر علما من سواه، ألا ترى أن نبي الله موسى عليه السلام لما أراد الزيادة من العلم قصد العبد الصالح وطلب منه ذلك بقوله: **(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً)** [الكهف: 66]. والثاني: علم الأحوال، وهذا يتم من خلال السلوك، والأتباع لولي مرشد كامل، وكلا السبيلين يلتقيان بشيخ الوقت، ومنه يحصل المريد على المزيد من العلم الكسبي والحضوري على حد سواء، ولو لم تحصل الفائدة للمستعد على هذا الشكل لما أحالنا تعالى إلى أهل الذكر بقوله تعالى: **(فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)** [النحل: 43] والسؤال يقوم بتحصيل العلم الكسبي، والمنهج والسلوك يقوم بتحصيل العلم اللدني كما جاء في قوله تعالى: **(عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً)** [الكهف: 65] وقوله تعالى: **(وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** [البقرة: 282] والشيخ الولي الكامل هو الجامع لطرفي العلم الكسبي والحضوري، ومن أجل ذلك فهو الضرورة لكل زمان ومكان، فمن أرشده الله تعالى إليه فقد وجد ضالته، قال تعالى: **(مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً)** [الكهف: 17] فإن من علامة المهتدي هو الفوز بالولي المرشد الكامل.

فالشيخ هو الذي يتولاك ليرقيك في مجال الذوق، والذوق هو الذي يساعدك في عملية الكشف عن مراتب الجمال، والكشف عن مراتب الجمال

هو الذي يرقيك إلى مراتب الجمال السامية، وسيرك في مقامات الجمال هو المستمر ودون انقطاع هو الذي يصل بك إلى جمال الذات الذي لا يدانيه جمال، وكيف يدانيه جمال ؟ وهو علة كل جمال، ولابد من الإشارة إلى أن فاقد الشيء لا يعطيه، فمن التحق بشيخ غير كامل لا يعطيه ما يرقيه إلى هذا المقام؛ لأنه هو قاصر عن عملية الوصول، ومثله بذلك مثل الأعمى الذي يقود أعمى فاحرص كل الحرص على أن تجد الشيخ الولي الكامل، وابذل بذلك كل سعيك من أجل الوصول هذا الولي المخصوص واستعن بالقرآن الكريم ليكون لك خير دليل، قال تعالى: **(وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى*وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى)** [النجم:39 – 40] فإذا كان مسعاك باتجاه الحق تعالى فإن الحق سيهديك إلى من يرشدك، لأنه تعالى يحب العبد الذي يقبل إليه ويهم نفسه في هذا الاتجاه، وهو المعين في كل حال.

فقوله تعالى: **(سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)** أي: يكون جزائهم على قدر مقامهم، فإذا كانوا من أصحاب المقامات العالية فإن جزائهم الإحسان في الدنيا والآخرة، وهناك من يجازى في عالم البرزخ، ومنهم من يجازى في الآخرة، ومنهم من يجازى بعد العقاب، ولله تعالى ترجع عاقبة الأمور، ولكل مستوى، أو مرتبة، أو مقام جمال يناسبه.

يرى ابن عربي: (أن كل اسم هو الذات مع صفة، والله يدبر كل أمر باسم من أسمائه **(فَادْعُوهُ)**عند الافتقار إلى ذلك الاسم به إما بلسان الحال كما أن الجاهل إذا طلب الغنى يدعوه باسمه المغني، كل بتحصيل الاستعداد الذي استلزم قبوله لتأثير ذلك الاسم وأثر تلك الصفة. وأما بلسان القال كما إذا قال الأول: يا رب، يريد به يا عليم، لاختصاص ربوبيته بذلك الاسم. والثاني: يريد بيا رب يا شافي. والثالث: يا مغني. وأما بلسان الفعل كما يدعوه الطالب السالك باتصافه بتلك الصفة فإذا فنى عن علمه بعلمه دعاه باسمه: العليم، وإذا وجد شفاء دائه منه وطلب منه أن يشفي غيره باتصافه بصفة الشفاء دعاه باسمه: الشافي، وإذا استغنى عن فقره به دعاه باسمه: الغني. وهذه هي الدعوة المأمور بها الموحدون من المؤمنين فليمتثلوا. **(وَذَرُواْ الَّذِينَ**

يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ) يطلبون هذه الصفات من غيره ويضيفونها إليه فيشركون به. المراد بالساعة: وقت ظهور القيامة الكبرى، أي: الوحدة الذاتية بوجود المهدي ولا يعلم وقتها إلا الله كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في وقت خروج المهدي: **(كذب الوقاتون)** ما يعلمها عند وقوعها إلا الله كما هي قبل وقوعها.) (ابن عربي: 2001، مجلد1، ص245)

ويرى الكيلاني، الشريف ناصر: (أنظر حكمة الله تعالى في كونه لم يحصل له صفة في كتبه، بل نزه نفسه عن الوصف فقال: **(وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى)** فجعلها اسماً، ولم يجعلها نعوتا وصفاتاً ولكن هي لنا نعوت وصفات يثني علينا بها، قال تعالى: **(بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)** [التوبة: 128] وأذن لنا بالتخلق في الأسماء الحسنى وهو عين ما قلنا، ثم أثنينا به عليه؛ لأنه حميد وله عواقب الثناء، فأثنى الله على نفسه بها. وقال: **(إن الكبرياء ردائي)** وهي صفة عبده وهو رداؤه، فإنه من منزل ثناء الحق على نفسه بغناه عن خلقه بخلقه، فافهم. إن هذا عين ما سيقوله ابن عربي: (فما وصفناه بوصف إلا كنا نحن ذلك الوصف، وهكذا الأمر لما كان استناد المستند إلى المستند لذاته اقتضى أن يكون على صورته فيما ينسب إليه من الأسماء، وهو التخلق بأخلاق الله تعالى وإحصاء الأسماء الحسنى، وفيما لا ينسب إليه كالصفات؛ لأنه تعالى جمع له التقييد والإطلاق، كما جمع لنفسه بين التنزيه والتشبيه)، فقال تعالى: **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)** [الشورى: 11].) (الكيلاني، الشريف ناصر: 2007، ص305 – 306)

وفي الفتوحات يرى ابن عربي: (أن الصبر أعم من الشكر والبلاء أعم من النعم في هذه الدار، وإذا عمت الرحمة وارتفعت الآثار التي تناقض الرحمة ارتفعت نسب الأسماء التي عينتها الآثار لأنها راجعة إلى عين واحدة كما بين تعالى في قوله: **(وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى)** وقال: **(قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى)** [الإسراء: 110] والأسماء وضعية وضعتها حقائق الممكنات بما تطلبه، فعلى قدر ما تكون عليه من الاستعداد تطلب ما يناسب ذلك من الفيض الإلهي، فإذا أعطيته

وضعت لكل عين من ذلك أسماء، فإذا لم يبق لها استعداد تقبل به الألم والعذاب لم يوجد للألم ولا للعذاب عين لعدم القابل فترتفع نسب الأسماء المختصة بهذه الأحكام لارتفاع القوابل، وما كان له من الأسماء حكمان في القابل فإنه يبقى كالغافر وهو الساتر، فلم يبق ذنب يطلب الغافر، وللغافر حكم الحجاب من كونه حجابا مطلقا فيبقى الغافر وإن زال المذنب فإن الغفر لا بد منه.) (ابن عربي: 2006، مجلد5، ص311)

وفي قوله تعالى: **(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)** [النحل: 125]

قوله تعالى: **(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ)** أي: بالجمال؛ وذلك لأن الحكمة تعني وضع الأمور في نصابها الصحيح، فإذا حصل هذا وتم في أكمل الوجوه كان ذلك دليلا واضحا إلى الحق، والحق جمال مطلق، وليس هناك ما يدل على الجمال غير الجمال، فالحكمة هنا أسلوب جميل غايته الوصول بالمتلقي إلى الجمال المطلق، وقوله تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)** [فصلت: 53] فإذا عرف المرء ما انطوت عليه الآفاق والنفس من حكمة يكون قد عرف الله تعالى، وبما أن جميع مراتب الوجود مخلوقة على صورة جمال الحق تعالى، فإن ما يتبين للعارف في هذه الآفاق هو عين الجمال، فالجمال خير دليل يوصل إلى الله تعالى.

الدعوة إلى سبيل الرب هنا جرت والمأمور بها صاحب الحكمة، ومعلوم أن الحكمة هي من اختصاص مقام النبوة، والرسالة، والولاية، والحكمة كما جرى تعريفها من قبل هي اقتران القول بما يهبه الحال، أو الوارد الإلهي مع الفعل (المعجزة أو الكرامة) والحكمة من مقتضيات الجمال الإلهي الممنوح للخاصة من الناس، وكلها جمال في جمال؛ وذلك لأن الجمال المطلق هو الذي أبدع الجمال عبر تنزلاته، وهو الذي أعطى الطريقة التي من خلالها يتم الكشف عن الجمال، ومعرفة مقاماته، ومدارج الارتقاء إليه.

أما قوله تعالى: **(وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)** إن الموعظة الحسنة ومن خلال تسميتها (الحسنة) أي: الجميلة، وهي مستوى جميل من مستويات الحكمة فهي أنزل من الحكمة من كونها تخاطب عقول غير مؤهلة بعد للحكمة، أي: أن الموعظة تصلح أن تكون مقدمات للحكمة، والمواعظ كثيرة، وأفضل المواعظ ما كان لله خالصا، وهذا النوع من أجمل المواعظ؛ ولذلك وصفه الحق تعالى بالحسن أي: الجميل، والموعظة الحسنة لا تخلو من كونها واردات إلهية تعطى لعباد مخصوصين من أجل أن يكون لها أثر إيجابي لمن يسمعها، وهي مؤثرة لأن فيها مسحة جمالية، ومعلوم ما للجمال من سلطة روحية على المتلقي؛ وذلك لأن الجمال محبوب لذاته، وأضيف له معاني جميلة من الوعظ فلابد أن يترك أثرا طيبا لدى المتلقي.

أما قوله تعالى: **(وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** حتى الجدل هنا أضيف إليه شيء من الجمال، ولولا الجمال المضاف إليه لكان مكروها، فإن من شأن الجدل أن يخلق فجوة بين الخائضين به، ويؤدي في النتيجة إلى التخاصم أو إلى التقاطع أحيانا، وساحات الجدل يشغلها الشيطان لأنها محل تخاصم، غير القول هنا يختلف فالمجادل قد أضاف لمادة جداله مسحة جمالية من شأنها أن تقلل من حدود التخاصم، أو التنازع لأن الداعي قد استدعى من الجميل ما يؤيده في جداله فكان حضور الجمال قد قلل من حدة أثر الجدل على نفسية المقابل، فيكون الداعي في منأى عن أحقاد الذي يجادله.

فالجدل بالتي هي أحسن أسند توجهه إلى الموعظة الحسنة، ولم يغيب عنه الحكمة بل للحكمة حضور واضح في جميع ميادين جداله مع الآخر، والجدل لا يمكن أن يثمر إلا مع أهل الحقائق، أو مع الباحثين عن الحقيقة المستعدين لها؛ وذلك لأن غيرهم قد التزم بقناعات وهو لا يريد لها أن تتزحزح، ولا يريد البحث عن غيرها حتى لو كانت القناعات الجديدة قائمة بالحق وناسخة لقناعاته، وكثيرا ما نجد أمثال هؤلاء هم الذين يكثرون الجدل مع الرسل والأنبياء دون طائل قال تعالى: **(قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)** [هود: 32]، وقوله تعالى:

(**يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ**) [الأنفال: 6]، وقوله تعالى: (**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**) [غافر: 56]

قوله تعالى: (**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ**) أي: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن السبيل المؤدي إلى جمال الحقيقة، وبقي واقفا مع المراتب الجمالية المحدودة، إذ أن من شأن الجمال، وفي بعض مراتبه يغري باتجاه الوقوف، والاحتجاب مع البقاء مع تلك المرتبة، وحين أوصانا الحق تعالى بالمعية مع الصادقين بقوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ**) [التوبة: 119] أي كونوا مع الذين يصلون بك إلى الجمال المطلق، ويخرجونك من عملية من حال الاحتجاب، والوقوف مع المراتب الوجودية (**وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**) أي: المهتدين إلى الجمال المطلق؛ وذلك لأن المتجلي لابد أن يكون محيطا بتجلياته، وهم أعلم بمن احتجب منها، وهو أعلم بمن اهتدى إلى الحقيقة.

يرى ابن عربي في فتوحاته: أنت إذا كنت مأمور بالدعوة إلى الله (فادعوه كما أمر نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يدعو الناس تعليما له ولنا فإنا مخاطبون بالدعاء إلى الله كما قال: (**أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**) [يوسف: 108] وقال له: (**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**) وقال: (**وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**) [آل عمران: 159] هذه هي الصفة اللازمة التي ينبغي أن يكون الداعي عليها، ولا يجعل في نفسه عند دعائه لمن هذه نعوته من عباد الله طمعا فيما في أيديهم من عرض الدنيا ولا فيما هو عليه من الجاه (**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**) [المنافقون: 8] فلا تخلعن ثوبا ألبسكه الله، وليس له تصرف إلا في هذا الموطن فهذا معنى الحكمة، وما عتب الله نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم في الأول إلا لعزة قامت بنفس أولئك النفر

مثل الأقرع بن حابس وغيره فقالوا: لو أفرد لنا محمد مجلسا جلسنا إليه فإنا نأنف أن نجالس هؤلاء الأعبد يعنون بذلك بلالا وخبابا وغيرهما فرغب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لحرصه على إيمانهم ولعلمه أنه يرجع لرجوعهم إلى الله بشير كثير فأجابهم إلى ما سألوا وتصدى إليهم لما حضروا وأعرض عن الفقراء فانكسرت قلوبهم لذلك فأنزل الله ما أنزل جبرا لقلوب الفقراء... فطريقة الإرشاد والدعاء إلى الله ميزانها الغنى بالله عما في أيديهم وما يكون في سببهم، فإن لم تكن في نفسك بهذه المثابة فلا تدع واشتغل بدعاء نفسك إلى الاتصاف بهذه الصفات المحمودة عند الله، ولا تتعدى الحد الذي أنت عليه ولا تخط في غير ما تملكه فتكون غاصبا.) (ابن عربي: 2006، مجلد3، ص399 – 400)

وفي مجال آخر يضيف ابن عربي في فتوحاته: قال تعالى: (**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**) وقوله تعالى: (**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**) [آل عمران: 159] فهذا جدال في الله لين مأمور به وتعطف والترجي من الله إذا ورد واقع بلا شك، ولهذا قال العلماء: أن كلمة عسى من الله واجبة وقد ترجى من فرعون التذكر والخشية فلابد أن يتذكر فرعون ذلك في نفسه وأن يخشى، ولكن لم يظهر من ذلك شيئا على ظاهره، وإن كان قد حكم التذكر والخشية على باطنه ولذلك لم يبطش بموسى ولا بأخيه في المجلس فإنه صاحب السلطان والقهر في ذلك الوقت فما منعه إلا ما قام به من التذكر والخشية من الحق، ومانع آخر فلم يكن هناك إذ لو كان هناك مانع آخر ظاهر يجأ إليه موسى عليه السلام ما قال: (**إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى**) [طه: 45] لعدم التكافؤ في القوة الظاهرة، فأيده بما أوصاهما به من القول باللين، فكانت هذه المخاطبة من جنود الله قابل بها جنود باطن فرعون فهزمهم بإذن الله فتذكر وخشي لما انهزم جيشه الذي كان يتقوى به فذل في نفسه فشغلته تلك الذلة والمعرفة عن أن يحكم بقوة ظاهرة فلم يبطش بهما.) (ابن عربي: 2006، مجلد5، ص390 – 391)

ويرى القشيري في لطائف إشاراته: (الدعاء إلى سبيل الله بحث الناس على طاعة الله، وزجرهم عن مخالفة أمر الله، والدعاء بالحكمة ألا يخالف بالفعل ما يأمر به الناس بالنطق، والموعظة الحسنة ما يكون صادرا من علم وصواب، ولا يكون فيها تعنيف، وجادلهم بالتي هي أحسن أي: بالحجة الأقوى، والطريقة الأوضح. قال تعالى: (**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ**) [هود: 88] فشرط الأمر بالمعروف استعمال ما تأمر به، والانتهاء عما تنهى عنه.) (القشيري: 1999، مجلد3، ص337)

ويرى ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية مفادها: (الدعاء بالحكمة هو الدعاء بالهمة والحال، يكون من أهل الحق والتحقيق، لأهل الصدق والتصديق. والدعاء بالموعظة الحسنة هو الدعاء بالمقال من طريق الترغيب والتشويق، يكون لأهل التردد في سلوك الطريق، والدعاء بالمجادلة الحسنة هو الدعاء بالوعظ والتذكير. وذكر بيان الطريق، وفضيلة علم التحقيق، يكون لأهل الإنكار؛ إن وصلوا إلى أهل التحقيق. والحاصل: أن الدعاء بالحكمة؛ لأهل المحبة والتصديق، والدعاء بالموعظة: لأهل التردد في الطريق. والدعاء بالمجادلة: لأهل الإنكار؛ حتى يعرفوا الحق من الباطل. وإن شئت قلت: الدعاء بالحكمة هو للعارفين الكبار، والدعاء بالموعظة الحسنة هو لأهل الوعظ والتذكار من الصالحين الأبرار، والدعاء بالمجادلة الحسنة هو للعلماء الأخيار. وقد تجتمع في واحد؛ إن جمع بين الظاهر والباطن.) (الحسني، ابن عجيبة: 2005، مجلد4، ص69)

أما في قوله تعالى: (**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**) [فصلت: 34]

قوله تعالى: (**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ**) الحسنة من الحسن أي الجميل وهي صفة من الصفات التي تطلق على كل شيء جميل سواء ماديا أم معنويا أم من الجنس الروحي، فالجمال صفة تطلق على الوجود الكوني جملة وتفصيلا، أما القبح فهو صفة تطلق على بعض الأشياء من باب النسبة

والتناسب ولا وجود لها في حقيقة الأمر، فنقول ونحكم على سبيل المثال على واحد من ثلاث بأنه جميل وهذا يعني أن الآخرين هما أقل جمالا منه، ولو جيء بشخصين أقل جمالا منهما لكان الحكم في حق اللذين حكمنا عليهما من قبل بالقبح بكونهما جميلين، فالحكم بالقبح للنسبة والاعتبار وليس له وجود أصلا في مراتب الوجود لأنه إذا ارتفع الاعتبار والنسبة لا وجود له في مراتب الوجود على الإطلاق، فالكل جميل لأنه مخلوق على الصورة الإلهية والله جميل يحب الجمال والله محب لأنه أحب أن يعرف فخلق الخلق فبه تعرف على تجلياته، وتجليات الحق قطعا جميلة لأنها مظاهر وبطون الحق تعالى والحق جميل.

والسيئة ما كان لها أن تظهر بهذا الوصف لولا الشرع الذي حدد لنا الخطى الأجمل في عملية الوصول إلى الحقيقة، أما الخطى التي تستوقفها بعض المراتب الوجودية، أو التي تصد من جهة فتكون عائقا نحو الوصول إلى الحقيقة فقد أطلق عليها الشرع حكم القبيحة، أو السيئة، وجدت من أجل المقارنة أي باعتبارها تعيق أو تعرقل عملية السير والتواصل مع الحقيقة المطلقة، ولو لم تتصف بهذا الاعتبار لكانت جميلة في نفسها.

فالسيئة صفة تعطيل أو تأخير لمسافر إلى الجمال المطلق، فهي قبيحة؛ لأنها تعرقل، وتصد، وتأخر القاصد إلى الجمال المطلق فجاء حكم الشرع فيها من هذا الباب بالنسبة للمسافر أو الراغب في عملية الوصول إلى الجمال المطلق.

قوله تعالى: **(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** هذا يؤيد ما قلناه، وقررناه من أن السيئة هي جميلة وحسنة في نفسها، وهي سيئة بالاعتبار والنسبة، ومن أجل هذا خاطبنا تعالى بقوله أدفع بالتي هي أحسن أي: أجمل، فلم يتنكر لجمال وحسن العائق بل ذكر رقي جمال المواصلة في السير، وفضله على جمال العائق، وطلب منا أن نتفكر، ونحكم، ونتبنى الأجمل الذي يصل بنا إلى جماله تعالى كما جاء في قوله تعالى: **(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً**

وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران: 191] فالتفكر الأجمل هو الذي أوصلهم إلى أن السماوات والأرض لم تخلقا بالباطل بل بالحق؛ لأن الحق هو المتجلي فيها، والحق جميل، فالسماوات والأرض (الكون) جميل لأنه ظاهر على الصورة الإلهية، فلوا أن يدفع المتفكر بالتي هي أحسن لما وصل إلى هذا المستوى من الكشف عن الجمال.

قوله تعالى: **(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)** أي: لا تجعل صفة العداوة حجاب بينك وبينه فيمنعك من الولوج والكشف عن السمات الجمالية داخل هذا الفرد، كما لا تجعل عداوتك له مصدا لبحثه عن الجمال الكامن فيك، بل عليك أن تمد الجسور إليه باستمرار ليكون ذلك فرصا له، ولك في عملية الكشف عن الجمال الكامن فيك وفيه، ولابد أن يكون فيكما جمال مودع، لأنكما مظهرين للحق تعالى، والله جميل وقد خلق آدم على صورة جماله؛ فمن الحكمة أن لا تكون مصدا لبحثه وكشفه عن الجمال، ولا تقتل استعدادك في مواصلة البحث عن مكامن وكنزية الجمال في الوجود لا سيما وأنت مدعو من جهة الحق تعالى بالتفكر في خلق السماوات والأرض، وأنت وهو من ضمن هذه الجمعية، فأنت مدعو أن تتفكر في نفسك، وفي الآفاق من أجل أن تخرج بحصيلة معرفية تقربك من الجمال المطلق، كما جاء في قوله تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)** [فصلت: 53] فلو لم يتفكر في الآفاق الكونية وأفق النفس لا يمكنه تحصيل الحكمة التي يتبين من خلالها تجليات الحق تعالى في كل شيء.

يرى الغزالي:إن الحسد من الأمراض العظيمة للقلب، ومرض القلب لا يداوى إلا بمعجون العلم والعمل فأما العلاج العلمي: فهو أن يعلم إن حسده يضره ولا يضر محسوده وينفعه، أما أنه يضره؛ فهو إن يبطل حسناته ويعرضه لسخط الله تعالى، إذ سخط قضاء الله تعالى، وشح بنعمته التي

وسعها من خزائنه على عباده هذا ضرره في دينه، وأما ضرره في دنياه، أنه لا يزال في غم دائم وكد لازم، وذلك مراد عدوه منه، فإن أهم أغراض عدوه وأكمل النعمة عليه حزن حاسده، فقد كان يريد المحنة لعدوه فحصلت له، والحسود لا يخلو من الغم والمحنة ولا يزال أعداؤه أو واحد منهم في نعمة وأما أنه ينفع عدوه ولا يضره؛ لأن النعمة لا تزول لحسده، وإنما يضاعف حسناته، إذ ينقل إليه حسنات الحاسد، لا سيما إذا طول اللسان فيه، فإنه مظلوم من الحاسد، فقد طلب الحاسد زوال نعمة الدنيا منه فأضاف إليه نعمة الآخرة، وحصل لنفسه مع عذاب الدنيا عذاب الآخرة، فهو كمن رمى عدوه بحجر فلم يصب عدوه وعاد إلى عينه فأعماه وزاد عليه شماتة عدوه إبليس به. إن العلاج العملي أن يحكم الحسد، بكل ما يتقاضاه من قول وفعل فيخالفه ويعمل بنقيضه، فيثني على المحسود، ويظهر الفرح بنعمته، ويتواضع له، وبذلك يعود المحسود صديقا له، ويزايله الحسد ويخلص من إثمه وألمه (**فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**) . (الغزالي: 2009، ص273)

ويرى ابن عطاء في قوله تعالى: (**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ**) أي: (لا يستوي بين من أحسن الدخول في خدمتنا والخروج منها، وبين من أساء الأدب في الخدمة، فإن سوء الأدب في القرب أصعب من سوء الأدب في البعد، وقد يصفح عن الجهال الكبائر، ويؤخذ الصديقون باللحظ والالتفات.) (اليسوعي: 1986، مصدر سابق، ص 136)

أما ابن عربي فيرى في تأويله للآية: (**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ**) لكون الأولى من مقام القلب تجر صاحبها إلى الجنة ومصاحبة الملائكة، والثانية من مقام النفس تجر صاحبها إلى النار ومقارنة الشياطين (**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**) إذا أمكنك دفع السيئة من عدوك بالحسنة التي هي أحسن، فلا تدفعها بالحسنة التي دونها، فكيف بالسيئة ؟ فإن السيئة لا تندفع بالسيئة بل تزيد وتعلو ارتفاع النار بالحطب، فإن قابلتها بمثلها كنت منحطا إلى مقام النفس، متبعا للشيطان، سالكا طريق النار، ملقيا لصاحبك في الأوزار وجاعلا

له ولنفسك من جملة الأشرار، متسببا لازدياد الشر معرضا عن الخير، وإن دفعتها بالحسنة سكنت شرارته وأزالت عداوته وتثبت في مقام القلب على الخير، وهديت إلى الجنة وطردت الشيطان، وأرضيت الرحمن وانخرطت في سلك الملكوت ومحوت ذنب صاحبك بالندامة، وإن دفعتها بالتي هي أحسن ناسبت الحضرة الرحيمية بالرحموت وصرت باتصافك بصفاته تعالى من أهل الجبروت وأفضت من ذاتك فيض الرحمة على صاحبك فصار(كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) ولأمر ما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (لو جاز أن يظهر الباريء لظهر بصورة الحلم)، ولا يلقى هذه الخصلة الشريفة والفضيلة العظيمة.) (ابن عربي: 2001، ج2، ص 223 – 224)

يعرفه عبد القادر الكيلاني قدس سره: الجلال والعظمة: (هما من أفعال الله تعالى، يورثان: الخوف المقلق، والوجل المزعج، والغلبة العظيمة على القلب بما يظهر على الجوارح. يعرفه كمال الدين القاشاني: الجلال هو احتجاب الحق (تعالى) عنا بعزته أن نعرفه بحقيقته وهويته كما يعرف هو ذاته، فإن ذاته (سبحانه) لا يراها أحد على ما هي عليه إلا هو. يعرفه عبد الكريم الجيلي قدس سره: جلال الله عبارة عن ذاته بظهوره في أسمائه وصفاته كما هي عليه على الإجمال، وإما التفصيل فإن الجلال: عبارة عن صفات، العظمة، والكبرياء، والمجد، والثناء. وكل جمال له فإنه حيث يشهد ظهوره يسمى: جلالا. كما أنه كل جلال له فهو في مباديء ظهوره على الخلق يسمى: جمالا، وهنا قال من قال: أن لكل جمال جلالا ولكل جلال جمالا ومن بأيدي الخلق أي لا يظهر لهم من جمال الله إلا جمال الجلال أو جلال الجمال. وأما الجمال المطلق والجلال فإنه لا يكون شهوده إلا الله وحده، وأما الخلق فما لهم فيه قدم.) (الكسنزان: 2005، المصدر السابق، ج4، ص 250 – 251)

يعرفه غياث الدين الدواني: الجلال: هو العظمة الذاتية المستلزمة لسلب جميع النقائص. ويعرفه الشيخ أحمد الدردير: الجلال: في حقه تعالى هو التنزه عن النقائص، والاتصاف بالكمالات. ويرى عبد الغني النابلسي: كل

من هاتين الصفتين (الجلال والجمال) فيها من الصفة الأخرى، لأن الموصوف بها واحد، فالجمال باطنه جلال، والجلال باطنه جمال، ولا يزال الأمر هكذا إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين. ويرى محمد بهاء الدين البيطار: الحقيقة من حيث الإطلاق لا جلال ولا جمال، فالجلال المطلق والجمال المطلق: الكنه الذي استأثر الله تعالى به وهو الذات بلا اعتبار... إن أحدية الله تعالى اقتضت أن كل ما يظهر من الجلال مبطون فيه الجمال، وكل ما يظهر من الجمال مبطون فيه الجلال، فلا يخلص الأمر لأحدهما بدون الآخر. ويرى الواسطي، أبو بكر: أظهر الأرواح من بين جماله وجلاله مكسوة بهاتين الكسوتين، لولا أنه سترها لسجد لها كل ما أظهر من الكون. فمن رداه برداء الجمال فلا شيء أجمل من كونه في ستره ويظهر منه كل درك، وحذاقة، وفطنة، ومن رداه برداء الجلال وقعت الهيبة على شاهده يهابه كل من لقيه.) (نفسه: ج4، ص253 – 254)

وفي الفتوحات يرى ابن عربي في قوله تعالى: (**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**) يعني قوله وأصلح السيئة (**فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا**) يعني هذه الصفة (**إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا**) [فصلت: 35] حبسوا أنفسهم عن أن يجاوزوا المسيء بإساءته إساءة ولو علم الناس قدر ما نبهنا عليه في هذه المسألة ما جازى أحد من أساء إليه بإساءة، فما كنت ترى في العالم إلا عفوا مصلحا لكن الحجب على أعين البصائر كثيفة وليست سوى الأغراض واستعجال التشفي والمؤاخذة، ولو نظر هذا الناظر لما أساء هو على الله في رد ما كلفه به وركوبه الخطر في ذلك وإمهال الحق له وتجاوزه عنه في هذه الدار حتى يكون هو الذي يكشف بنفسه حتى تقوم عليه الحدود ويرمي نفسه في المهالك..إن أجر العفو وأجر العفو من الله كثير فإنه من الأضداد، وأجر الإصلاح وهو الإحسان إليه المزيل لما قام به من الموجب للإساءة إليه (**وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**) [آل عمران: 134] ولو لم يكن في إحسانه المعبر عنه بالإصلاح إلا حصول حب الله إياه الذي لا يعدله شيء لكان عظيما، فيكون من أجر من هذا صفته على الله أجر محب لمحبوب وكفى بما تعطيه منزلة الحب.) (ابن عربي: 2006، مجلد7، ص36)

الشيخ والجلال

الجلال لغة: الجلالة: (عظم القدر، والجلال بغير الهاء: التناهي في ذلك، وخص بوصف الله تعالى، فقيل: **(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)** [الرحمن: 27] ولم يستعمل في غيره، والجليل: العظيم القدر. ووصفه تعالى بذلك إما لخلقه الأشياء العظيمة المستدل بها عليه؛ أو لأنه يجل عن الإحاطة به؛ أو لأنه يجل أن يدرك بالحواس. وموضوعه للجسم العظيم الغليظ، ولمراعاة الغِلظ فيه قوبل بالدقيق، وقوبل العظيم بالصغير فقيل: جليل ودقيق، وعظيم وصغير.) (الراغب: المصدر السابق، ص 198)

الجلال في الاصطلاح الصوفي

يعرفه البقلي: (رؤية الجلال مقام خوف الخاص، والخشية والإجلال والتعظيم، قال العارف: رؤية الجلال توله الأرواح وتشوش الأشباح.) (البقلي: 2005، ص273)

يعرفه القاشاني: الجلال: (لله معنى يرجع منه إليه، وهو الذي منعنا من المعرفة به تعالى، إذ ليس لمخلوق في معرفة الجلال المطلق مدخل ولا شهود انفرد به تعالى وهو الحضرة التي يرى الحق فيها بما هو عليه، فلو كان لنا مدخل فيه لأحطنا علما بالله، وبما عنده، وذلك محال.) (القاشاني: 2004، ص172)

ويعرفه الجرجاني: الجلال: (من الصفات: ما يتعلق بالقهر والغضب) (الجرجاني: 2005، ص56)

ويرى ابن عربي: الجلال: (نعت إلهي يعطي في القلوب هيبة وتعظيما وبه ظهر الاسم الجليل، وحكم هذا الاسم من أعجب الأحكام، فإن له حكم **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)** [الشورى: 11] و **(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)** [الصافات: 180]وله حكم قوله على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني وظمئت فلم تسقني)** فأنزل نفسه منزلة من هذه صفته من الافتقار على العبيد، ومن هذا الباب فرحه بتوبة

عبده وتعجبه من الشاب الذي لا صبوة له وتبشبشه بالذي يأتي إلى المسجد للصلاة، هذا كله وأمثاله من نعوت التنزيه والتشبيه يعطيه حكم الجلال والاسم الإلهي الجليل، ولهذا قلنا أنه يدل على الضدين ومن حضرة الجلال نزل قوله تعالى: **(وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)** [الأنعام: 91] فمن وصفه إنما وصف نفسه ولا يعرف منه إلا نفسه لأن رب العزة لا يعنيه وصف ولا يقيده نعت ولا يدل على حقيقته اسم خاص. والجلال لا يتعلق به إلا العلماء بالله وما له أثر إلا فيهم وليس للمحبين إليه من سبيل.) (ابن عربي: 2006، مجلد4، ص 255 – 256)

شيخ الوقت هو خير من يمثل وجهي الجلال والجمال، وما يتوسط بينهما من جلال الجمال، وجمال الجلال، والجمال والجلال يشكلان حال الشيخ الولي العارف الكامل، وهما مقامي القبض، والبسط، فالقبض يتوجه به للمراتب الوجودية ليكون حالها الهيبة تجاه الحق؛ فينعكس ذلك على حالها من أجل أن تتوجه إلى حال الذلة، والمسكنة، والعبودية الخالصة لله تعالى، فيكون ذلك دافعا ومحفزا للوصول إلى حال الفوز بالجمال وما ينطوي عليه من جود إلهي وهذا ما يعبر عنه بالجنة في الدارين، فالهيبة الناتجة من مظاهر القهر والوعيد: سلطة الحق تعالى وهيبته المتوجهة إلى العباد من أجل التوجه إلى العبادة الخالصة بغية الفوز بالجنان، قال تعالى: **(وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى *وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى)** [النجم:39ـ 40] فسعي الإنسان منه وإليه، ولولا مظاهر القهر، والوعيد، والخوف ما توجه الإنسان إلى ملاذ العبادة ليتجنب ما سيحصل من مظاهر القهر في الدارين الدنيا والآخرة.

فالجلال من خلال هذا الوصف وجد من أجل الجمال، فهو يتضمن جمالا لأنه يؤدي إلى هذه الغاية، ولولا الجلال لاتكل الإنسان على توجهات الرحمة دون العمل وترك العبادة، قال تعالى: **(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)** [الأعراف: 156] في هذا الخطاب باعث على الكسل، وعدم اللجوء إلى العمل والعبادة؛ لأن الحق تعالى باسط جميع مراتب الوجود برحمته، وجعلهم يحتجبون بالرجاء، وهو صحيح وواجب على كل مخلوق أن يعتقد في الله

تعالى هذا الاعتقاد، غير أن بقية الخطاب لله تعالى اشترط شروطا من أجل الفوز بالرحمة فقال: **(فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)** [الأعراف: 156] فالرحمة سوف تتوجه للذين يتقون أي: أهل التقوى، وهم الذين يؤتون الزكاة، ومن صفاتهم أنهم يؤمنون بآيات الله تعالى قولا وفعلا أي: بجميع أوامره يتوجهون لها بالطاعة ظاهرا وباطنا، فأمرنا إلى القيام بالفعل بدلا من الكسل، والاتكال على البطالة، وهذا الخطاب الأخير هو عين الجلال، فالرحمة التي وسعت كل شيء جمال غير أن الشرط المضاف إليها بقوله: **(فَسَأَكْتُبُهَا)** يمثل الجلال فتعين للخلق أسلوب التوجه إلى الحقيقة المطلقة وجمالها، فمن أراد الجمال وجب عليه تبني مجاهدة نفسه، أي: يذيقها قاهرية الجلال حتى يصل مأمنه.

والشيخ الولي الكامل له دور كبير في الترغيب، والترهيب، سواء كان من خلال القول، أو الفعل، وذلك بما مكنه الحق تعالى من ذلك، من كونه البرزخية العظمى، وكما قال ابن عربي: (والجلال لا يتعلق به إلا العلماء بالله وما له أثر إلا فيهم وليس للمحبين إليه من سبيل.)، فهو يعطي المنهج الكامل لعملية الوصول إلى الجمال المطلق، ويطلب منا العمل الفعلي لمجاهدة النفس من خلال الرياضات، ومخالفة هوى النفس، والخلوات، والرياضات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وذكر الله، وإقامة الفروض، والعبادات على أتم وجه، وإرشاد الناس إلى طريق الحق تعالى، وكل هذا يمثل شكل من أشكال الجلال، غير أن الجمال الذي يمنحه الشيخ الولي الكامل تتمثل في بعض المنح والعطايا التي يظهر أثرها في حال السالك مع إدراكه أن هذه المنح والعطايا جاءت من خلال الشيخ الكامل بما مكنه الله تعالى من ذلك باعتباره خليفة له تعالى في المملكة الكونية في عملية التربية والإعداد للمستعدين الذين يريدون تطوير قوابلهم من أجل تحصيل كمالاتهم ليكونوا مؤهلين لبلوغ الحقيقة المطلقة والفناء في الحق تعالى فيذيقهم الشيخ، أنواع المعارف، والعلوم الذوقية، والمكاشفات، والمشاهدات، والكرامات التي تؤكد جميعها على وجود صلة حية بالله تعالى تمر أولا من خلال الشيخ

الولي الكامل ومن ثم تصل بالحقيقة المحمدية وصولا إلى الله تعالى، وهذا كله من مظاهر الجمال.

للحق تعالى ثنائية الجلال والجمال، وللشيخ مجال التطبيق، فالحق تعالى قد توعد الكافرين، والمشركين، والمجرمين بأشكال العذاب، والغاية من كل ذلك أن يلجأ العبد إلى رحمة الله من خلال تطبيق، وطاعة أوامر الله تعالى، ولذلك جاء على لسان الرسل عليهم السلام قوله تعالى: **(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)** [الذاريات: 50] أي فروا من عذابه إلى رحمته، ومن جلاله إلى جماله، إن عملية الفرار تحتاج إلى شرعة، ومنهاج، وتفصيل، وهنا يأتي دور الشيخ الولي المرشد الكامل؛ فهو الذي يوضح آلية الاشتغال بالمنهج، والعمل بالشريعة معا وصولا إلى الرحمة المؤكدة (الجمال المطلق).

قال تعالى:

(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) [الرحمن: 27]

وقال تعالى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) [الرحمن: 78]

وقوله تعالى:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [الأنعام: 18]

وقوله تعالى:

ففي الآية الأولى قال تعالى: **(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)** [الرحمن: 27] أي: أراد لنا تعالى أن لا نحتجب بالكثرة؛ فنظن أن لها بقاء أصلي أزلي يستغني عن الحق تعالى، ويستطيع أن يقوم بنفسه، فإن من ذهبت به الظنون، وذهب هذا المذهب سيؤول به الأمر في النتيجة إلى الندم والوهم، عند انكشاف الحقيقة كما جاء في قوله تعالى: **(لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)** [ق: 22] أي: كنت في غفلة عن حقيقة الوحدة الجامعة التي ليس معها غيرية، فكل ما تراه من الأغيار هو من حيث الحقيقة وهم لأنها تجليات الروح المطلق، والتجلي غير

المتجلي؛ لأن التجليات لها بداية ونهاية، لها أولية وآخرية تؤول إليها، في حين أن المتجلي هو كما هو بيده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قدير، وله وحده البقاء الأبدي الذي لا يشاركه البقاء أحدا من دون الله، من هنا فإن على اللبيب العمل بما يرضي الله وصولا إلى مرتبة الفناء بالله تعالى من خلال الفناء في الشيخ، ومن ثم في الرسول، وصولا إلى الفناء في الله تعالى؛ فإذا وصل العبد إلى المقام وتخلص من أوصاف البشرية، وتخلق بأخلاق الربوبية يكون قد بلغ مأمنه؛ وذلك بقيومية الحق فيه، وانتهاء الإثنينية.

قوله تعالى: (**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ**) أي: لا بقاء لأحد معه في الآخرة فهو الباقي المتجلي بصفة الإكرام لكل من كان مآله إلى الكرم الإلهي لأن دار الآخرة دار الثواب، أي دار الجمال التي تشمل المؤمنين الذين فنوا أنفسهم بالحق تعالى، والذين يفنيهم الحق تعالى برحمته بعد أن يتولاهم بجلاله، فجلال الحق تعالى وقاهريته تكون في دار الدنيا، وبعض أيام الآخرة ثم يصعدون إلى الرحمة كما جاء في قوله تعالى: (**سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً**) [المدّثر: 17] أي: كل واحد من أهل النار يصعد ولكن يمازج صعوده الإرهاق حتى أولئك الذين توسلوا بمالك أن يقضي الله عليهم كما جاء في قوله تعالى: (**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ**) [الزخرف: 77] والمكث كما يرى الراغب: هو ثبات مع انتظار، قال تعالى: (**فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ**) [النمل: 22]. (الراغب: المصدر السابق، ص772)

والمكوث غير البقاء لأن البقاء كما يراه الراغب: يعني (ثبات الشيء على حاله الأولى، وهو يضاد الفناء.(نفسه: ص138)

فهم لابثين فيها لزمان محدود أي: إلى مدة انقضاء حكم الحق تعالى فيهم، ومن ثم تشملهم الرحمة، قال تعالى: (**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً**) [النبأ: 23] أي: مع مدة بقاء قاهرية الجلال التي قدر لها من قبله تعالى أن تنتهي وتذوب في نهاية الأمر بالرحمة المطلقة، فيكون مآل الجميع إلى الرحمة فيكون

وصفه تعالى بالصعود الذي يمازجه الإرهاق قد أخذ حيز الفعل وقضى حكمه وأمضاه فيكون الصعود كما أوعد وأراد أن يصل بصاحبه إلى المطلوب.

في الفتوحات يرى ابن عربي: (الجلال من صفات الوجه فله البقاء دائما، وهو من أدل دليل على أن كل ما في الدنيا في الآخرة بلا شك ومما في الدنيا ما لا خفاء به وهي الأجسام الطبيعية التي من شأنها أن تأكل وتشرب وتستحيل مأكلها ومشروبها بحسب أمزجتها، ففي الجنة يستحيل ما يأكله أهلها عرقا يخرج من أعراضها أطيب من ريح المسك قال تعالى: **(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)** [الرحمن: 27] فقال قائل: بأي نسبة يكون له هذا البقاء ؟ فقال ذو الجلال والإكرام فرفع بنعت الوجه فلو خفض نعت الرب وكان النعت بالجلال وله النقيضان فيبقى الوجه الذي له النقيضان ولا يفنى، وإنما يفنى ما كان على هذه الأرض فناء انتقال في الجوهر وفناء عدم في الصورة، فيظهر مثل الصورة لا عينها في الجوهر الباقي الذي هو عجب الذنب الذي تقوم عليه نشأة الآخرة، فيبقى حكم الوجه المنعوت بالجلال ويتبعه اسمه حيث كان، فللاسم البقاء كما كان البقاء للمسمى به.) (ابن عربي: 2005، مجلد7، ص370)

ويضيف ابن عربي: قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إن الله خلق آدم على صورته)** والعالم مخلوق بالإنسان على صورته، فلو فقد منه الإنسان ما كان العالم على الصورة، ولو فقد العالم وبقي الإنسان كان على الصورة. وقال تعالى: **(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)** [العنكبوت: 57] وهو عزلها عن تدبير هذا الهيكل الطبيعي الذي كانت تدبره في الدنيا في حال إقامتها فيها، وأما قوله تعالى: **(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)** [الرحمن:26 – 27] فلم يقل من فيها فان لأنه إذا كان فيها انحفظ بها، وإذا كان عليها تجرد عنها، فهذا يدلك على أن التجلي الإلهي يعم جميع من عليها، لأن الفناء لا يكون إلا عن تجل إلهي في غير صورة كونية، لأن التجلي في صور المثل إذا عرف أنه عين الصورة اتصف المتجلى له بالخشوع لا بالفناء.) (نفسه: مجلد5، ص158)

وفي تأويل آخر يرى فيه ابن عربي: **(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)** أي: كل من على الجواري السائرة واصل إلى الحق بالفناء فيه،أو كل من على أرض الجسد من الأعيان المفصلة كالروح، والعقل، والقلب، والنفس، ومنازلها، ومقاماتها، ومراتبها، فانٍ عند الوصول إلى المقصود**(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ)** الباقي بعد فناء الخلق، أي: ذاته مع جميع صفاته **(ذُو الْجَلَالِ)** أي: العظمة، والعلو بالاحتجاب بالحجب النورانية، والظلمانية، والظهور بصفة القهر والسلطنة **(وَالْإِكْرَامِ)** بالقرب، والدنو في صور تجليات الصفات، وعند ظهور الذات بصفة اللطف والرحمة.(ابن عربي: 2001، ج2، ص 304)

ويرى ملا صدرا الشيرازي في المظاهر الإلهية: (إن موت (الإنسان الكبير) أعني جملة العالم الجسماني الذي هو حيوان مطيع لله متحرك بالإرادة، وله بدن واحد هو جرم الكل، وطبع واحد سار في الجميع، وهو طبيعة الكل، ونفس واحدة كلية، وروح كلي، مشتمل على جميع العقول المعبر عنه بالعرش المعنوي الذي يستوي عليه الرحمن. فبدن العالم وطبيعته هالكتان داثرتان؛ وأما نفسه وروحه الكليتان محشورتان إلى الدار الآخرة، راجعتان إلى الله، قائمتان عنده: **(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)** [الرحمن:26 – 27].) (الشيرازي، ملا صدرا: 1378هجري، ص97 – 98)

أما قوله تعالى: **(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)** [الرحمن: 78] يرى الراغب: أن البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء، قال تعالى: **(لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)** [الأعراف: 96] وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة. والمبارك: ما فيه ذلك الخير، على ذلك: **(وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ)** [الأنبياء: 50] تنبيها على ما يفيض عليه من الخيرات الإلهية، وقال: **(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ)** [ص: 29] أي: موضع الخيرات الإلهية.. ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مبارك، وفيه بركة، وإلى هذه الزيادة أشير بما روي أنه: (لا ينقص مال من صدقة). (الراغب: المصدر السابق، ص 119 – 120)

هذا يعني أن اسم الرب (**الله**) الذي أشير إليه بقوله تعالى: (**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ**) لأن له الأسماء الحسنى التي ليس حد وليس لها نهاية؛ فلله الأسماء الحسنى، والأسماء الجلالية، والأسماء الكمالية، والأسماء النفسية ، أي: أن جميع الأسماء التي لله تعالى فإنها من بركة الاسم الجامع الله، كما أن لكل اسم من أماء الله بركة من كونه سببا لتناسل الأسماء الإلهية الأخرى (التجليات التي لا نهاية لها، وإن لكل تجلي اسم، وهكذا بشكل مطلق، قال تعالى: (**وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**) [الأعراف: 180] ولك أن تدعوا بكل اسم من هذه الأسماء فأن البركة منه ستحصل، كما أن كل اسم من الأسماء الحسنى ظهر بها الحق تعالى من خلال تجليه فإن البركة حاصلة به لا محال، ويراد بالبركة تكاثر الشيء بفائدة وليس العكس، وأشير إلى المكان الذي يتجمع فيه الماء بالبركة؛ لأن كثرة الماء تنفع في تكاثر الزرع، والخصب فمن خلاله تحصل البركة أي الكثرة بخير، والداعي إلى الله بإذنه هو خير من يمثل هذه البركة؛ لأنه سبب في نشر الرحمة الإلهية إلى الخلق وهذا الفعل هو عين البركة.

قوله تعالى: (**ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**) لقد مر تأويله من قبل، فجلاله قاهريته تعالى التي يتوجه بها للوجود ليكون تحت قهره وحكمه، إذ ليس هناك شيء في الوجود إلا ويفتقر إليه تعالى، كما أنه تعالى ذو الفضل، والكرم، والجود لكل موجود.

يرى ابن عربي في تأويل الآية: (**تَبَارَكَ**) أي: تعالى وتعاظم (**اسْمُ رَبِّكَ**) أي: الاسم الأعظم الذي به تزيد وترتقي مرتبة السالكين من البداية إلى النهاية حتى الوصول إليه والفوز به(**ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**) أي: الجلال في صورة الجمال، والجمال في صورة الجلال اللذان لا يحجب أحدهما عن الآخر عند البقاء بعد الفناء للمحبوبين المحبين السابقين إلى غاية الدرجات بخلاف الجلال والإكرام المذكورين قبل، فإنهما هناك يحجب أحدهما عن الآخر لعدم تحقق الفاني بالوجود الحقاني، والرجوع إلى تفاصيل الصفات، وشهودها في عين الجمع. (ابن عربي: 2001، ج2، ص 309)

في حين يرى الكيلاني، الشريف ناصر في قوله تعالى: **(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)** [الرحمن: 78] (الجميل يتبع الجليل ويلازمه.. ربما يجدون في نفوسهم حرجا، وهيبة من عظمة الجليل، فإن الله أحرجهم بإقران الجميل والأنس والإكرام بالجلال اعتناءاً بهم؛ فلهذا قارن ابن عربي بين الجمال والجلال وأحكامهما، وقدم الهيبة وأخر الأنس؛ لأن الاعتبار بالخواتيم. وهكذا جميع ما ينسب إليه تعالى، ويسمى به من الأسماء المتقابلة، وأوجد فينا مثلها، وبين لنا أن في أرض العالم نجدين؛ نجد التنزيه، ونجد التشبيه؛ وهما عالمان متقابلان في العلو، وإن لكل سر في العالم وجهين بحكم القبضتين من اليدين، ولابد من الدارين، ولابد من برزخ بين كل اثنين، قال تعالى: **(وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)** [الذاريات: 49] لأنه مخلوق عن صفتين إرادة وقول؛ وهما اللذان شهدهما كل مخلوق من الحق، فإن العالم نتيجة، والنتيجة لا تكون إلا عن مقدمتين وهذا هو التناسل؛ كوجود الابن بين الأبوين على صورة الأبوين.) (الكيلاني، الشريف ناصر: 2007، ص 334 – 335)

ويرى السلمي في قوله تعالى: **(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)** أي: **(تبارك ربك)** أي: جل ربك وتنزه وعظم قدره عما يقول الملحدون المبطلون جميعا؛ لأن كل مثنٍ يثنى عليه بقدر بقدره، وكل ذاكر يذكره على قدر طاقته وطبعه وعلمه وفهمه، والحق تعالى ذكره خارج عن أوهام الآدميين؛ لأن الثناء والمعارف دون الغايات، فسبحانه وتعالى عما أثنى عليه غيره ولا صفة بما لا يليق به سواه عجزا إلا الأنبياء جميعهم عن ذلك حتى قال أجلهم قدرا وأعلاهم ذكرا وأرفعهم محلا صلى الله تعالى عليه وسلم: **(سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)** لا أحصى مدحك ولا الثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.) (السلمي: 2001، مجلد2، ص298)

ويرى ابن عجيبة في تأويله للآية: **(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ)** أي: تنزه وتقدس، أو تكاثر خيره، وفيه تقرير لما ذكر في السورة الكريمة من آلائه الفائضة على الأنام،**(ذِي الْجَلَالِ)** ذي العظمة، وقرأ الشامي بالرفع، صفة لأسم، **(وَالْإِكْرَامِ)** لأوليائه بالإنعام. قيل: لما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله: **(ويبقى وجه**

رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) ختم نعم الآخرة بقوله: **(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)** وناسب هذا ذكر البقاء والديمومة له تعالى، إذ ذكر فناء العالم، وناسب هنا ذكر ما امتن به من البركة، وهي الخير والزيادة، إذ جاء ذلك عقب ما امتن به على المؤمنين، وما آتاهم في دار كرامته من الخير وزيادته وديمومته.) (الحسني، ابن عجيبة: 2005، مجلد7، ص283 – 284)

أما قوله تعالى: **(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)** [الأنعام: 18] القهر كما يراه الراغب: هو الغلبة والتذليل معا، ويستعمل في كل واحد منهما، قال تعالى: **(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)**. (الراغب: المصدر السابق، ص687)

إذ أن الغاية من القاهرية وجلالها وجدت من أجل العباد؛ وذلك لأن القاهرية يراد لها أن تقابل من جهة العباد بالذلة، والمسكنة، والعبودية الحقة، حتى يصل العبد من خلال ذل العبودية إلى مرتبة الفناء، إذ أن العزة الإلهية لا يمكن مقابلتها بعزة من جهة الخلق، ومن أجل ذلك عمد مشايخ التصوف إلى المجاهدات ومخالفة النفس من أجل إذلالها، فتتوجه للطاعة، والعبودية الحقة، فيكون هذا التوجه طريقا للفوز برضا الحق تعالى، ومن ثم التماهي فيه أو الذوبان في نوره الأعظم، فإذا حصل الفناء حصل العطاء الإلهي معه فتكون العزة من ضمن الصفات التي تعطى للعبد الذي يصل إلى مقام الفناء، قال تعالى: **(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)** [المنافقون: 8] من خلال هذه الآية يجب أن لا نتصور أن هناك تعددية في العزة لأن هذا ينافي قوله تعالى: **(إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)** [يونس: 65] فالعزة تبقى لله جميعا، وذلك لأن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين قد وصلوا مرتبة الفناء، أي ليس لهم وجود ثاني مع الله تعالى بل له تعالى القيومية فيهم بعد الفناء فهم موجودين بالله، ففازوا بالعزة من خلاله تعالى، ولو كانوا في منأى عن مرتبة الفناء لما منحوا العزة، لأن العزة لله جميعا.

فلولا قاهرية الحق تعالى التي وصفت بالفوق لما وصل العباد إلى هذه المرتبة، فالجلال أولا، ومن ثم الجمال، فالقهر الإلهي للعبد، يطلب الاسم

المقابل له، وهو بالتأكيد من الأسماء الجمالية ومن أجل ذلك كان اختصاص القهر متوجها للعباد حصرا، ولم يتوجه للجميع في الحياة الدنيا، وتوجه لأهل الضلالة في الآخرة إلى أن يتوب عليهم تعالى، قال تعالى: **(لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً)** [الأحزاب: 24]إن جزاء الصادقين جرى بعد أن أجرى تعالى قاهريته عليهم، فصبروا، وصدقوا بوعدهم، وعهدهم، قال تعالى: **(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)** [الأحزاب: 23] أما المنافقين فإن شأنهم راجع لله تعالى لا سيما هو الموصوف بصفات الجلال والجمال، وله وحده المغفرة والعفو، أو العقاب، والعذاب لمن يستحق ذلك.

يقول ابن عربي في فتوحاته في تأويل قوله تعالى: **(لِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ)** [الأنعام: 149] (لأن النزاع وقع بينه وبينه لأنه في نفس الأمر ما ثم إلا حكمان ما ثم ذاتان فافهم، وعندنا ما كانت الحجة البالغة لله تعالى على عباده إلا من كون العلم تابعا للمعلوم ما هو حاكم على المعلوم، فإن قال المعلوم شيئا كان لله الحجة البالغة عليه بأن يقول له: ما علمت هذا منك إلا بكونك عليه في حال عدمك وما أبرزتك في الوجود إلا على قدر ما أعطيتني من ذاتك بقبولك فيعرف العبد أنه الحق فتندحض حجة الخلق في موقف العرفان الإلهي الخاص. وأما في العموم فالأمر فيه قريب والحكم يختلف بحسب فهم الرجال فيه، فما كل أحد تقام عليه حجة تقام على الآخر، فلكل صنف حجة عند الله بها يظهر على عباده **(وَهُوَ الْقَاهِرُ)** بالحجة **(فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)** [الأنعام: 18] حيث يظهر على صنف بما تقوم به الحجة لله عليه، فلولا إطلاق التكليف ما كان خصما، ولا عمل لنا معنا مجلس حكم، ولا ناظرناه فافهم.) (ابن عربي: 2005،مجلد7، ص106)

ويضيف ابن عربي في فتوحاته: **(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)** أي: قهر عباده لما صدر منه في النزاع **(وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً)** [الأنعام: 61] وهو التوكيل أعني هذا الإرسال في حق قوم وحفظا وعصمة في حق آخرين وهو

قوله: **(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ)** [الرعد: 11] أي من حيث أمرهم الله بحفظه فهم المعصومون المحفوظون، وقد يحفظونه من أمر النازل به فيدفعونه كما فعل بالزاني في حين زناه أخرج عنه الإيمان حتى صار عليه كالظلة يحفظه من أمر الله النازل به حيث تعرض بالمخالفة لنزول البلاء عليه، فيحفظه الإيمان من هذا الأمر النازل بأن يتلقاه فيرده عنه لعله يستغفر أو يتوب، فإذا كان غير المعصوم يحفظ مثل هذا الحفظ فما ظنك بالمعتنى به فإنه محفوظ في الأصل، وأدق ما يكون من الخلاف النزاع الإلهي بإنابة العبد، فإذا زال العبد عن إنابته لم يجد القهار من يقف له فيقهره والسهم لا يمشي إلا إلى مرماه.) (نفسه: ص 317)

أما البروسوي فيرى في تأويله للآية: **(وَهُوَ الْقَاهِرُ)** أي: القادر الذي لا يعجزه شيء مستعليا.**(فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ)** في كل ما يفعله ويأمر به**(الْخَبِيرُ)** بأحوال عباده وخفايا أمورهم. صور قهره تعالى وعلو شأنه بالعلو الحسي فعبر عنه بالفوقية بطريق الاستعارة التمثيلية فقوله: **(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)**عبارة عن كمال القدرة كما أن قوله: **(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)** عبارة عن كمال العلم. ويقال: الفوقية من حيث القدرة لا من حيث المكان لعلو شأنه تعالى عن ذلك فإنه تعالى قاهر للممكنات معدومة كانت أو موجودة لأنه يقهر كل واحد منهما بضده فيقهر المعدومات بالإيجاد والتكوين، والموجودات بالإفناء والإفساد.) (البروسوي: 2003، مجلد3، ص18)

وفي التأويلات النجمية: (وقد عم قهره جميع عباده فقهر الكفار بموت القلوب وحياة النفوس، إذ أخطأهم النور المرشش على الأرواح في بدء الخلقة فضلوا في الظلمات الطبيعية وما اهتدوا إلى نور الشريعة، وقهر نفوس المؤمنين بأنوار الشريعة فأخرجهم من ظلمات الطبيعة بالقيام على طاعته، وقهر قلوب المحبين بلوعات الاشتياق فآنسها بلطف المشاهدة، وقهر أرواح الصديقين بسطوات تجلي صفات جلاله، وبالجملة لا ترى شيئا سواه إلا وهو مقهور تحت أعلام عزته وذليل في ميادين صمديته فعلى العبد أن يعرف

مولاه، ويشتغل بعبوديته، وهو الله تعالى الذي خلق كل شيء أوجده وقهره.) (نفسه: ص18)

ويستدعي السلمي أقوال العارفين في تأويله للآية فيرى في قوله تعالى: **(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)** (قيل: جبرهم وقهرهم حتى لو استطاعوا عنه معدلا ما أطاقوا، يجحدون ظاهرين وتكذبهم البواطن. وقال الحلاج: القاهر يمحو به كل موجود. وقال بعضهم: قهرهم على الإيجاد والإظهار، كما قهرهم على الموت والفناء. وقال بعضهم: القاهر: الآمر بالطاعة من غير حاجة، والناهي عن المعصية من غير كراهية، والمثيب من غير عوض، والمعاقب من غير حقد، لا يشقى بالعقوبة ولا يتعزز بالطاعة.) (السلمي: 2001، مجلد1، ص 195)

وللشيخ الولي المرشد هذه الخاصية من القاهرية وهي من ضمن تمكيناته وتصريفه لأنها جزء مهم من أسلوب التربية للمستعدين، فالربوبية تحتاج إلى قاهرية الجلال لمن يعتنى به، فالزجر، والتأديب، والعقوبة،من الأساليب التي لابد منها في عملية التربية يستخدمها ويتعامل بها مع مريديه من أجل الصعود بالمستعدين إلى كمالاتهم، إذ الخطأ والصواب حاصل تحصيل لكل طالب من طلاب الحقيقة، ومن عدم تكرار الخطأ لابد من عقوبة تناسب ذلك، كما أن من مقتضيات الرقي في المقامات لابد من جملة اختبارات يمر بها المريد على شكل ابتلاءات، وقد يقع المريد في حال من الجزع، أو عدم الصبر، وهنا يأتي دور الشيخ المربي فيعالج المواقف بحسب ما يراه وقد يعطي للمريد شيء من الهمة ليجعله صابرا، إذ ليس على المريد إلا اللجوء إلى الصبر، وتحمل قاهرية الجلال لحين انفراج الحال بعد الترقي إلى أفق مقام جديد وكما قيل: (لولا المربي ما عرفت ربي)، وهكذا الحال إلى حين بلوغ المنتهى كما جاء في قوله تعالى: **(إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا)** [النازعات: 44].

الشيخ وجلال الجمال

جلال الجمال لغة: الجلال: (تناهي عظم القدر وهو خاص بالله تعالى.. أما الجمال: الحسن الكثير وهو ما يوصل منه إلى غيره وعلى هذا الوجه ما روي عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: (إن الله جميل يحب الجمال) تنبيها أنه منه تفيض الخيرات الكثيرة.) (الراغب: المصدر السابق، ص 98 - 202)

وهذا يعني أن جلال الجمال: إطلاق قدرة الحق الجمالية، ومن بعض قدرته تعالى في مجال جلال الجمال ما يفاض به إلى المرتبة الإنسانية وبالأخص للمستعدين في الوصول إلى الكمالات.

جلال الجمال في الاصطلاح الصوفي

يرى القاشاني: جلال الجمال: (عبارة عن علو الجمال وعزته عنا، فإذا تجلى لنا تعالى، في جماله، فإن عزة جماله تمنعنا عن إدراكه تعالى ومعرفته على ما هو عليه، فسميت تلك العزة والمنعة التي يقتضيها الجمال جلاله. فالفرق بين هذا الجلال وبين الذي في مقابلة الجمال هو أن الجلال المطلق معنى يرجع منه إليه تعالى، وهو الذي يمنعنا عن أن نرى ذاته تعالى، فلانفراد الحق به تعالى لم يصح لغيره أن يراه فيه، وأما جلال الجمال فهو جمال الذي تجلى لنا فيه، بحيث أنه لما تجلى لنا في جماله، وكان جلاله مقترنا بجماله، فكان تعالى لأجل الجلال والجمال عند تجليه لنا مما لا يستحيل علينا أن ندركه في تجليه لنا، ومن لم يعرف هذا لم يعرف ما اختص به أهل السنة من بين سائر الطوائف، حيث أثبتوا كونه تعالى مرئيا بالأبصار في دار القرار، مع تنزهه عن الجهة، أو من أثبت الجهة لأجل رؤيته، فقد اتضح مما ذكرنا معنى الجلال والجمال، وعنى جلال الجمال.) (القاشاني: 2004، ص173)

في حين يرى ابن عربي: (إن الجلال لله معنى يرجع منه إليه، وهو منعنا من المعرفة به تعالى، والجمال معنى يرجع منه، وهو الذي أعطانا هذه المعرفة التي عندنا به، والتنزلات، والمشاهدات، والأوحوال، وله فينا أمران:

الهيبة والأنس؛ وذلك لأن لهذا الجمال علوا ودنوا فالعلو نسميه جلال الجمال.) (ابن عربي: 1999، 36) فالجلال: عبارة عن المعاني التي استأثر بها تعالى لنفسه، وحين يمنحنا الحق تعالى إمكانية الكشف عنها تكون تلك المعاني ذات طابع جمالي أي: لأنه تعالى أعطانا المعرفة بها، ولا تحصل هذه المعرفة إلا بالدنو والقرب اللتان يلازمها الهيبة والأنس من جهة العبد حتى لا يكون العبد قد أساء الأدب مع الحق تعالى، وهو يقترب من الحق تعالى، وصولا للكمال بالله، وفي هذا المجال فإن الشيخ المربي يعد من الأمور الضرورية؛ لأنه قدس سره يعطينا علم الآداب التي يجب أن يتحلى بها المريد، أو المستعد في سفره تجاه الحقيقة المطلقة ولذلك قيل في حقه: (لولا المربي ما عرفت ربي). ويضيف ابن عربي: (وأعلم أن القرآن يحوي على جلال الجمال وعلى الجمال، فإما الجلال المطلق فليس لمخلوق في معرفته مدخل ولا شهود انفرد الحق به، وهو الحضرة التي يرى فيها الحق سبحانه نفسه بما هو عليه فلو كان لنا فيه مدخل لأحطنا علما بالله وبما عنده وهذا محال..إن الله تعالى له لما كانت له الحقيقتان، ووصف نفسه باليدين وعرفنا بالقبضتين خرج على هذا الحد الوجود فما في الوجود شيء إلا وفيه ما يقابله وغرضنا من هذه المقابلة ما يرجع إلى الجلال والجمال خاصة وأعني بالجلال: جلال الجمال كما ذكرنا إذ ليس في الحديث المأثور عن المخبرين عن الله تعالى يدل على الجلال إلا وفيه ما يقابله من الجمال، وكذلك في الكتب المنزلة كما أنه ما من آية في القرآن تتضمن رحمة إلا ولها أخت تقابلها نقمة كقوله تعالى: **(غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ)** [غافر: 3] يقابله: **(شَدِيدِ الْعِقَابِ)** [غافر: 3] وهكذا آيات الجلال والجمال في كتاب الله.) (ابن عربي: المصدر السابق، ص37)

هذا يعني أن جلال الجمال في القرآن الكريم وما ينطوي عليه من معاني ودلالات لابد لها من مداخل يستخرج العبد من خلالها الكنزية التي أودعها الله تعالى في بطون تلك الآيات، والمدخل هو الذي يطلق عليه مصطلح الطريقة، قال تعالى: **(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً)**

[الجن: 16] أي: لو تم لهم تبني خطوات السلوك إلى الحقيقة التي يعطيها شيخ الزمان (المربي) بالشكل الصحيح لفتح الله لهم أبواب المعارف **(لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً)** أي العلم اللدني الفائض من عين الحقيقة الإلهية الذي أودعه تعالى في بطون كلماته القرآنية، فالآية وكلماتها تعد جلال جمال، وإن الدخول والولوج إلى باطنها الحق، والإطلاع عليه يعد جمال، ولا سبيل إلى ذلك إلا من خلال سلطان الزمان أو الشيخ الولي الكامل المربي، قال تعالى: **(فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)** [الرحمن: 33]

فجلال الجمال في القرآن الكريم يطلب منا التعمق، والولوج فيه من أجل إدراك معانيه، وهذا لن يتم إلا من خلال طريقة صحيحة يقوم بها شيخ ولي عارف من أجل اختصار الزمان ولأجل أن تكون عارفا بالله تعالى قبل انتقالك من دار الدنيا؛ وذلك لأن المرء يحشر على قدر معرفته في دار الآخرة أما جمال الجلال في القرآن الكريم فهو الذي يدعونا إلى العمل من أجل العروج والتسامي إلى المراتب العلية، وطلب، وتحصيل الكمال من خلال تماهينا، أو الذوبان، وتناهينا في المطلق أي بلوغ مستوى التوحيد الحقيقي، عند ذلك يصح لنا مطالعة الجمال المطلق به تعالى لا بنا لأن الأنا ذابت وانتهت بالهو، فلا وجود يومئذ لغيره إلا هو، قال تعالى: **(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ *وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)** [الرحمن:26ــ 27] فإذا حصل هذا الحال، فإنه بفضل جمال الجلال وسوف نجري بحثا معمقا في هذا الموضوع إن شاء الله بعد هذا البحث.

أما عبد الكريم الجيلي فيرى في الإنسان الكامل: إن جلال الحق تعالى هو عبارة عن ظهوره تعالى في أسمائه وصفاته كما هي عليه على الإجمال، فكل اسم أو صفة يظهر فيها الحق تعالى تدق عن الفهم ولا يمكن إدراكها ذوقيا وفيها من الغموض تعد من الأسماء والأوصاف الجلالية، وكل ما يدرك من خلال ما يعطينا الحق تعالى الفهم والمعرفة الذوقية فيها يعد جمالا، فجلال الجمال بحسب ما يراه الجيلي توجه به الحق تعالى إلى مراتب الوجود، أما الجمال المطلق أو الجلال المطلق فقد استأثر به تعالى لنفسه فلا

يعرفه أو يطلع عليه إلا هو تعالى، وذلك لأن الله تعالى له مطلق التجلي فهناك في تجلياته التي لم تظهر بعد إلى الوجود بهذه الأوصاف، (جلال أو وجمال)، فهي لم تزل في علمه تعالى الغيبي؛ فكيف يتم لنا مطالعتها، أو معرفتها وهي في علم الغيب ؟ فهذا غير ممكن بالنسبة لنا، وهو ممكن لله تعالى أن يطلعنا عليه فنعرف من خلاله تلك الحقائق الجمالية أو الجلالية: قال تعالى: **(وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)** [التكوير: 24]، ويرى الجيلي: أن صفات الحق تعالى وأسماءه من حيث ما تقتضيه حقائقها على أربعة أقسام: فقسم منها صفات جمال: كالعليم والرحيم والسلام المؤمن والباريء المصور وغيرها، وقسم منها صفات جلال: كالكبير المتعال، والعزيز العظيم، والجليل القهار، والقادر المقتدر، والماجد الولي وغيرها، وقسم منها مشترك بين الجمال والجلال: الرحمن الملك، الرب المهيمن، الخالق السميع، البصير الحكيم وغيرها، القسم منها ذاتية كالاسم الله، والأحد، والواحد، والفرد، والوتر، والصمد وغيرها. (الجيلي، عبد الكريم: 2000، ج1، ص، 94– 95)

ويضيف الجيلي: إن لكل اسم وصفة من الصفات والأسماء الجلالية والجمالية إلا ولها ظهور وأثر في المراتب الوجودية إذا أراد لها الحق تعالى أن تظهر، فكل ما ظهر في الوجود من مظاهر، ويظهر، ما هي صفات وأسماء للحق تعالى صاحب التجليات، وما من اسم أو صفة تظهر إلا ولها انتماء للجمال أو الجلال أو الكمال، وأول من تظهر عليهم آثار الأسماء الجمالية والجلالية والكمالية هم الأنبياء، والرسل، والكاملين من المشايخ، فالمعلومات التي ينطق بها الكامل أثر لأسمه العليم، فهي مظاهر علم الحق تعالى، وكل أثر للرحمة وكل مرحوم هي مظاهر الرحمة الإلهية، وما ثم موجود إلا وقد سلم من الانعدام المحض، أي: لابد أن يكون مظهرا لأثر من آثار الأسماء، ويرى الجيلي: ما ثم موجود إلا وقد رحمه الله إما بإيجاده أو رحمة خاصة بعد ذلك، ولا ثم موجود إلا وهو معلوم لله تعالى، فصارت الموجودات بأسرها من حيث الإطلاق مظاهر لأسماء الجمال بأسرها، إذ ما ثم اسم ولا وصف من الأسماء والأوصاف الجمالية إلا وهو يعم الوجود من

حيث الأثر عموما وخصوصا، فالموجدات بأسرها مظاهر جمال الحق، وكذلك كل صفة جلالية تقتضي الأثر كالقادر والرقيب والواسع، فإن أثره شائع في الوجود فصارت الموجودات من حيث بعض الصفات الجلالية مظاهر الجلال، فما ثم موجود إلا وهو صورة لجلال الحق ومظهر له، وثم أسماء جلالية تختص ببعض الموجودات دون بعض كالمنتقم والمعذب والضار والمانع وما شابه ذلك، فإن بعض الموجودات مظاهر لها لا كل الموجودات، بخلاف أسماء الجمال فإن كلا منها يعم الوجود وهذا سر قوله: **(سبقت رحمتي غضبي)**. (الجيلي، عبد الكريم: نفسه، ص96)

ويرى الجيلي: أن من علم هذا القول، فقد علم أن العبد الكامل مظهر لهذه الأسماء جميعها المشتركة وغير المشتركة، ذاتية كانت أو جمالية أو جلالية، فالجنة مظهر الجمال المطلق والجحيم مظهر الجلال المطلق، والداران دار الدنيا ودار الآخرة بما فيهما ما خلا الإنسان الكامل منها الأسماء المرتبة بخلال الأسماء الذاتية، فإن الإنسان وحده مظهرها ومظهر غيرها، فما لغيره من الموجودات قدم البتة وإليه الإشارة بقوله: **(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)** [الأحزاب: 72]، وليست الأمانة إلا الحق تعالى بذاته، وأسمائه، وصفاته، فما في الوجود بأسره من صحت له الجملة إلا الإنسان الكامل. (نفسه: ص96—97)

لقد صحت للإنسان الكامل الجملة بوصفه الكامل الحقيقي الذي اتصف بالبرزخية ما بين الوجوب والإمكان، فهو يعد المرآة الجامعة بين صفات القدم وأحكامه، وبين صفات المحدثات، وهو الواسطة بين الحق والخلق، وبه ومن خلال مرتبته وصول الفيض إلى الخلق، فالأسماء الجمالية، والجلالية، والذاتية، والكمالية؛ لأن نفوس الكمل أزلية سابقة في الوجود للقلم الأعلى، وهو النشأ الدائم الأبدي؛ لأن الكمال هو الذي ينمو ويزداد دائما أبدا في المراتب فأول مراتبه التعين الأول أي: الحقيقة المحمدية، ثم التعين الثاني الذي هو صورته التفصيلية، ثم العقل الأول، ثم النفس الكلية إلى آخر

المولدات الذي هو نشأته العنصرية، ثم لا يزال يزداد بحسب التجليات الإلهية، والشؤونات الربانية أبدا دنيا وآخرة، وهو الكلمة الفاصلة الجامعة بين كلمة جامعة لحروف الفعل، والتأثير التي هي حقائق الوجوب، وبين كلمة جامعة لحروف الأنفال، والتأثر التي هي حقائق الإمكان، ومتوسطة بينهما، ولذا تم العالم بوجوده، فهو من العالم كفص الخاتم من الخاتم. (القادري، ملا حسن: 2006، ص114 – 115)

فالشيخ الولي المرشد الكامل هو الذي النيابة عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في البرزخية، وهو الذي يتولى من خلال هذه البرزخية عملية إظهار أسماء جلال الجمال، وجمال الجلال، وتخصيصها بحسب ما هو مفصل في اللوح المحفوظ، أي: إعطاء كل مرتبة وجودية حقها واستحقاقها من جمال الجلال، وجلال الجمال أي: يظهر أثر الأسماء الجمالية، والجلالية، والكمالية، والنفسية، وكما أعطتها الذات الإلهية أو خصصتها لمجمل التجليات لما كان ويكون إلى يوم القيامة، فالشيخ الولي المرشد الكامل له إمكانية تخصيص الصفات والأسماء في الزمان والمكان من تاريخ تسلمه مقاليد المشيخة إلى يوم تسليمها لمن يستحقها، وليس هناك من يشاركه في هذا التخصيص لأنه هو الشيخ الخليفة، والخليفة يظهر بصلاحية من استخلفه، والحق تعالى هو الذي جعله خليفة كما جاء في قوله تعالى: **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)** [البقرة: 30] وحين جرى تعيينه كخليفة للحق تعالى من جهة الحق تعالى أُعطي صلاحية المستخلِف من قبله تعالى، والصلاحية هي التمكين والتصريف، ومن ضمن التمكين والتصريف عملية إظهار آثار الأسماء والصفات في المملكة الإلهية؛ وذلك لأن لكل مرتبة تظهر للعيان لابد أن يكون لها وصف أما أن يكون باديا للحس فقط كالجمادات بأنواعها، وأفعال مغيبة عن الحس كالصلاة والتسبيح كما جاء في قوله تعالى: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)** [النور: 41]، وإما أن تكون الأفعال، والصفات ظاهرة جميعها إلى الحس كما هو الحال مع

المرتبة الحيوانية والإنسانية، وهذا يتم جميعه من خلال الخليفة بما مكنه تعالى من ذلك.

قال تعالى:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) [البقرة: 129]

وقوله تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ) [آل عمران: 164]

وقوله تعالى:

(لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) [التوبة: 128]

وقوله تعالى:

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) [يوسف: 83]

في قوله تعالى:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) [البقرة: 129]

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ) قوله تعالى رسولا منهم يراد به من أجل المناسبة ما بين النور الإلهي المطلق وبين الناس؛ ذلك لأن المناسبة بين الخلق والحق تعالى لا يمكن أن تتم بشكل مباشر إلا بتوسط برزخية لها قابلية تحمل النور الإلهي من جهة والتعامل مع الناس من جهة أخرى رحمة بالناس؛ ذلك لأن النور الإلهي لا يمكن أن يواجه أو يطاق من قبل الخلق، قال تعالى: **(وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**

قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) [الأعراف: 143] فإذا كان نبي الله موسى عليه السلام قد أُخذ بالنور وخر صعقا فكيف الحال مع بقية البشر الذين ليس لديهم الاستعداد الكامل لمقابلة النور الإلهي ؟.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن برزخية نبي الله موسى عليه السلام كانت تجري من خلال السمع ولم تكن من خلال المشاهدة المباشرة، ولم تتم المشاهدة المباشرة إلا مرة واحدة لسيد الأنبياء والرسل حبيب رب العالمين محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام؛ وذلك حين أسري به صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة الإسراء، قال تعالى: **(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)** [الإسراء: 1] فحصل له صلى الله تعالى عليه وسلم القرب والدنو إلى النور الإلهي، قال تعالى: **(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى* فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى *فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)** [النجم:8ـ 10] فالدنو والقرب منه تعالى جعله تعالى من حصة أحبابه من الرسل والأنبياء لأن الله تعالى جعل وجودهم التكويني قبل لهذا القرب والدنو من أجل أن تكون لهم هذه البرزخية والتوسط بينه تعالى وبين الخلق، وغالبا ما تكون البرزخية مكونة من جبريل عليه السلام، والنبي، أو الرسول، أو الولي عليهم السلام جميعا؛ وذلك لأن نور جبريل قابل لأن يتمثل بهيئة البشر فلا يضر هذا التمثل النبي، أو الرسول، أو الولي، ومن ثم يكون البرزخ سواء كان نبي، أو رسول، أو ولي قادرا على إيصال رسالة الرب تعالى إلى الناس دون أن يحدث ذلك ضررا بهم، وهذا ما يطلق عليه (المناسبة).

فمن صحت له النيابة، فإنها لم تأتي إلا من خلال اختيار واجتباء إلهي يؤدي إلى صقل وتصفية من خلال المجاهدة والانتظام في طريق شيخ ولي عارف بالله، قد خبر الطريق من قبل بعد أن عمل في تصفية نفسه من الكدورات، وفي هذا المجال يرى القادري، ملا حسن: أن رجال الطريق من

المشايخ الكرام هو الذين وصلوا إلى مقام القرب، والتمكين وله خمسة أركان، وعشرون صفة. أما الأركان فهي: عبدية الحضرة، واستعداد قبول حقائق الحضرة بلا واسطة، ووجود الرحمة الخاصة من مقام العندية، وشرف تعلم العلوم من الحضرة، وكون التعلم منها بلا واسطة قال الله تعالى: (**فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً**) [الكهف: 65] ، فاندرج في هذه الآية جميع ما ذكر من الأركان كما هو الظاهر، وأما الصفات: أن يكون عالما بالشريعة على قدر الحاجة، وأن يكون على اعتقاد أهل السنة والجماعة، وعاقلا بالعقل الديني والمعاشي، وسخيا شجاعا، وعفيفا من جهة النفس، وعالي الهمة مشفقا على المريد، وحليما عفوا، وحسن الخلق، وصاحب الإيثار، وكريما ومتوكلا، ومسلما وراضيا بالقضاء، وذا وقار وساكنا في الحركات، وثابت القدم في الإرادات، وذا هيبة، فالموصوف بهذه الأوصاف متخلق بأخلاق الله يوصل المريد إلى الحق تعالى بإذنه تعالى. (القادري، ملا حسن: 2006، المصدر السابق، ص159 – 160)

فإذا استوفى الشيخ هذه الشرائط، واتصف بهذه الصفات يكون قد أعطى حق الشكر لله تعالى على توليه بكرم القرب، والاجتباء، وأصبح كاملا بالله تعالى، وبتوفيقه فيعمل بما يقتضيه الشكر ليكون دليلا إلى الله في زمن التيه.

فالعارف هو الخبير بعلم الظاهر والباطن، فلا يصور المرء أن علماء الباطن لا يعلمون علم الظاهر (بل علموه لكن ابتلعهم بحر المعارف فغرقوا فيه، ولم يجدوا للخروج منه سبيلا، ومنه قول قائلهم:

تولع بالحب حتى عشق   فلما استقل به لم يطق

رأى لجة ظنـها موجة   فلما توسط فيها غرق

فهذا الصنف من علماء الباطن هم أمناء الله تعالى في أرضه، وخلفاء النبيين، ومشايخ الاعصار، وأرباب البصائر، وأهل الأسرار الغامضة، وإليهم الإشارة بسر قوله تعالى: (هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ) [آل عمران: 163] وليس بين العبد والترقي من سفل إلى علو إلا حب الدنيا، فإن الترقي يتعذر من أجل

لأنها جاذبة إلى العالم الظلماني وطبائع النفوس لذلك مائلة.) (اللجائي، أبي القاسم عبد الرحمن: 2001، ص 126)

وحين يقول اللجائي ليس بين العبد والترقي من سفل إلى علو إلا حب الدنيا، فإن العبد بين توجهين إما أن توجهه إلى العلو فتكون روحانية الشيخ وسيلته في الترقي، وإما أن يبقى في أسفل سافلين، ويكون الشيطان شيخه وكما قيل في هذا: (من ليس له شيخ فشيخه الشيطان).

قوله تعالى: **(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)** أي: أن من مهمات التي تقوم بها البرزخية العظمى توسطها بين المتكلم (الله تعالى) والمتلقي من الناس، فالمهمة هنا هي جلالية جمالية؛ ذلك لأنه يتعذر على الناس أن تأخذ عن الله بلا واسطة؛ لأن في هذا تأثير نوراني لا يطاق، وهذا هو عين الجلال بالنسبة للناس فكان عوضا عنهم في عملية الأخذ هو الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لأن الحق تعالى جعل فيه خاصية تحمل نور الجلال كما جعل فيه خاصية تحويل الجلال إلى جمال أي: نقل كلام الله تعالى إليهم دون أن يحدث ذلك فيهم ضررا، وطالما لم يضر فيهم بل ينفعهم فهو جمال، كما أن ظهور صفة التعليم فيه هي من الصفات الجمالية فالتعليم منه يعد أثرا لصفة العليم، وهي من الصفات الجمالية فكان الرسول مظهرا لصفات جلال الجمال إلى الخلق فجعله تعالى محل أثر جلاله وجماله.

قوله تعالى: **(وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** أي: يخلصهم من ظلمة الطبع من خلال العلم الذي يمنحه لهم، وفي هذا التوسط والبرزخية التي أوجدها الحق تعالى حفاظ لصفة جلالية خاصة بالله تعالى وهي العزة، كما أنها حفظ لصفة جمالية تختص به تعالى أسمها الحكمة، وقد أظهر تعالى أثرهما على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، أو من ينوب عنه في هذا المقام.

أما في قوله تعالى: **(لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)** [التوبة: 128]

قوله تعالى: (**لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**) يقول ابن عجيبة: (الخطاب موجه للعرب، أو لقريش، أو جميع بني آدم، ويراد به محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم: (**أنفسكم**) أي: من قبيلتكم، بحيث تعرفون حسبه ونسبه وصدقه وأمانته، وتفهمون خطابه، أو من جنسكم من البشر. وقرأ ابن نشيط من (**أنفَسَكم**) بفتح الفاء، أي من أشرافكم. قال صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم، فأنا مصطفى من مصطفين) (**عَزِيزٌ عَلَيْهِ**) أي: شديد شاق عليه (**مَا عَنِتُّمْ**) أي: عنتكم ومشقتكم ولقاؤكم المكروه في دينكم ودنياكم. (**حَرِيصٌ عَلَيْكُم**) أي: على إيمانكم وسعادتكم وصلاح شأنكم، (**بِالْمُؤْمِنِينَ**) منكم ومن غيركم (**رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**) أي: شفيق بهم، قدم الأبلغ منهما؛ لأن الرأفة شدة الرحمة؛ للفاصلة. وسمي رسوله هنا باسمين من أسمائه تعالى.) (الحسني، ابن عجيبة: 2005، المصدر السابق، مجلد3، ص 135)

ويرى الحسني ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية مفادها: (أنه ينبغي للورثة الكمل عليهم السلام ــ الداعين إلى الله، أن يتخلقوا بأخلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم، فيشق عليهم ما ينزل بالمؤمنين من المشاق والمكاره، وييسرون ولا يعسرون عليهم، ويحرصون على الخير للناس كافة، ويبذلون جهدهم في إيصاله إليهم، ويرحمونهم، ويشفقون عليهم، فإن أدبروا عنهم استغنوا بالله وتوكلوا عليه، وفوضوا أمرهم إليه، من غير أسف ولا حزن، قال الورتجبي: (**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**) اشتد عليه مخالفتنا مع الحق، ومتابعتنا هوانا واحتجابنا عن الحق. قال بعضهم: شق عليه ركوبكم مراكب الخلاف، قال سهل: شديد عليه غفلتكم عن الله ولو طرفة عين.) (ابن عجيبة: نفسه، ص135)

ويبدو لي أن قراءة ابن نشيط بقوله: (**من أنفسَكم**) هي الأقرب، والأليق لحقيقة الحقائق، وسيد الأولين والآخرين محمد المصطفى صلى الله تعالى

عليه وسلم؛ فهو صلى الله تعالى عليه وسلم الدرة البيضاء وحقيقة الحقائق فلا يمكن أن يكون في الوجود من هو أنفس منه؛ فهو سيد ولد آدم، كما أن (من) التبعيض هنا سيكون محلها في هذه الآية منسجم مع ما يستحقه الرسول الأعظم من توقير، ومكانة من كونه حبيب رب العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم، قال تعالى: **(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)** [القلم: 4] إن هذا الوصف ينسحب كذلك على الورثة الكمل من أولياء الأمة المحمدية بحكم التابع، والمتبوع، أو أنهم ملحقون به لحاق الكامل بالأكمل، فهم على آثار قدمه سائرون، ولا يخلو زمان منهم.

لقد ظهرت آثار العزة على البرزخية الكبرى، واتصفت بالحرص على الخلق من أجل الرقي بها إلى مستوى الحقيقة، كما واتصف بالحرص على المؤمنين بظهور آثار الصفات الجمالية كالرأفة، والصفة الرحيمية وغيرها من الصفات الجمالية، وحين وصفه تعالى بالرأفة والرحمة فإن هذا يعني ظهور آثار هاتين الصفتين عليه بشهادة الحق تعالى له.

فمن كانت صفاته على هذا المستوى من الجمال، فإن صحبته، وخدمته، والانتظام في طريقته لابد أن تترك أثرا جماليا على المريد، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)** أي: يحشر المرء على خلق خليله، ويرى بعض المشايخ أن للصحبة مع الأخيار لها ثلاثة فوائد: الأولى: أن صحبة أهل الخير تمنع المريد عن الانقلاب والعود إلى البطالة، وتبعد النفس عن التشوق إلى المعاصي، فإن البعد عن المعاصي يثقل فعلها على النفس، والقرب من الطاعات يهون أمرها على النفس، فبركة الصحبة وقوة الروحانية القدسية، يسهل أمرها عليه، أما الفائدة الثانية: أن علم القلوب لا يصطاد إلا بالصحبة، فإن من تحقق حاله لم يخل حاضروه منها، والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يعلم، والمرء على دين خليله، والمؤمن مرآة المؤمن، وما كان من المرئيات انطبع في المرآة المقابلة لها، ولذا كان معولهم على الصحبة، وأعلم أن الداعي للصحبة بين

أثنين وجود الجنسية والنسبة بينهما، فلا يصحب إلا من وجدهما فإنك تجد جنس البشر مثلا يميل بعضهم إلى بعض، وكذلك غيرهم من الحيوانات يميل كل نوع إلى بعضه، أكثر من ميله إلى النوع الآخر، وكميل أهل الملة إلى بعضهم البعض، وكذا ميل أهل الطاعة إلى بعضهم، وكذلك أهل المعصية والفجور، الفائدة الثالثة: أن السالك مبتلى بنفسه، فإذا عمل وحده ربما ظفر منه الشيطان بخيالات، وأوهام، وعقائد فاسدة، وأفكار كاسدة، وكسل ومكر، وحيل، وزندقة واستدراج، وغير ذلك، ويوهمه أن ذلك من الأحوال والأصول، وهو لا يدري ولا سيما المبتدىء فإنه يشوش علمه هذه الحالة فلابد من شيخ بشرطه السابقة لينجو من هذه الورطة وعقبات الطريق وتوقفه. (بارود، بسام محمد:2005، ص33ــ 34)

ويضيف بارود: أن للصحبة آداب يجب مراعاتها ولعل من أهمها: (أن تخلّف حظوظك وراءك، ولا تكن همتك مصروفة إلا لامتثال أوامرهم، فعند ذلك يشكر مسعاك، فإذا تخلقت بذلك فبادر واستغنم الحضور، وأخلص في ذلك ترفع درجتك، وتعلو همتك والقصور، كما قال أبي مدين:

واستغنم الوقت واحضر دائما معهم

واعلم بأن الرضا يختص من حضرا

أي: واستغنم وقت صحبة الفقراء، واحضر دائما معهم بقلبك وقالبك تسري إليك زوائدهم، وتغمرك فوائدهم، وينصح ظاهرك بالتأدب بآدابهم، ويشرق باطنك بالتحلي بأنوارهم، فإن من جالس جانس، فإن جلست مع المحزون حزنت، وإن جلست مع المسرور سررت، وإن جلست مع الغافلين سرت إليك الغفلة وإن جالست أهل الذكر فإنهم قوم لا يشقى جليسهم، فكيف يشقى خادمهم ومحبهم وأنيسهم.) (بارود، بسام محمد: 2005، المصدر السابق، ص، 46 – 47)

قوله تعالى: **(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)** [يوسف: 83]

قوله تعالى: (**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً**) النفس التي تسول على صاحبها للميل به إلى جهة الباطل هي من أشد الأعداء على المرء؛ فهي تحاول أن تقود صاحبها إلى الوقوف مع الأطر الحسية والأوهام والخيالات الفاسدة التي من شأنها أن تعرقل سير المرء باتجاه عالمه الذي هو موطنه الأصلي ومن أجل الرقي بها من مستوى جهلها بحقيقة أصلها لابد من تأديبها بقاهرية الجلال المتمثلة بالرياضات، والخلوات، ومجاهدتها بمخالفة أهوائها حتى تذعن وتنقاد لنداء الحق تعالى، فالنفس مجبولة في بداية الأمر على التسويل، وإن الشيطان من وراء ذلك ظهير، فلابد من قاهرية الجلال الطوعي قبل أن تنال قاهرية الجلال في الآخرة فيكون أشد عذاب ووقعا عليها.

قوله تعالى: (**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**) الصبر قهر للنفس بمنعها عن متابعة أهوائها من أجل الفوز برضا الحق تعالى، فإذا حصل الرضا حصل الجمال لها، فالجمال نتيجة لقاهرية النفس في سبيل الله تعالى، ومن أجل ذلك فإن المشايخ الكاملين يوصون مريديهم بملازمة الصبر في مجاهدة النفس، وعدم الانقياد لها في تحقيق مآربها المحدودة، قوله تعالى: (**عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**) أي: جميع القوى الظاهرة والباطنة التي تكون جمعية الكون الصغير (الإنسان)، وهم متوجهون، ومنقادون لله تعالى دون تعارض داخلي منهم يكون سببا في التأخير باتجاه عملية الفناء في الحق تعالى، إنه هو العليم بإرادة القلب، وحرصه على هذا التوجه، وهو الحكيم الذي يضع الأمور في نصابها الصحيح، كما ينبغي لها، وهنا استعانة بالأسماء الجمالية (الحسنى) لأنها محل الدعوة المأمور بها والتي يقابلها الحق تعالى بالاستجابة.

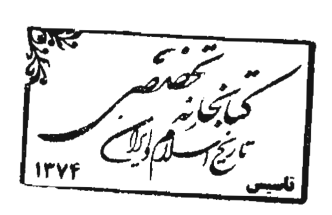
ويرى العريس، فؤاد: في تأويله للآية: أن هناك أكثر من لطيفة في هذه الآية: اللطيفة الأولى: في وقوفنا عند هذه العبارة المفصلية الأساسية. التي سبق أن سمعناها منه حرفا بحرف، حين جاءه خبر فقد يوسف عليه السلام،

في أول السورة إذ نقرأ في الآية الثامنة عشرة: **(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)** وهذا من أسلوب السرد القرآني، تطمئن به نفس القارىء و المستمع، وتستشعر بالتناسق التام بين آي القرآن الكريم، حتى قبل الانتباه إلى المعنى الذي تحمله هذه الآيات. أما اللطيفة الثانية: في إجرائنا لمقارنة بين حال نبي الله تعالى، يعقوب عليه السلام، في كلا الموقفين. نجد ما يلي: في الموقف الأول: يوم فقد يوسف عليه السلام: لم يأته إعلام من الله تعالى، رغم أنه نبي، تدليلا على بشريته، وهذا ما لم يفهمه كثير من الخلق، في تعاملهم مع أنبياء الله تعالى ورسله. ولقد ساوره الشك في صدق الأبناء، وكان شكه صحيحا واقعا في مكانه. ولقد جاؤوه بأدلة حسية بإراقة الدم الكذب على قميص يوسف عليه السلام، أرادوا منها شاهدا على صدقهم، ولم يكونوا صادقين في أقوالهم، ودعموا كلامهم بقولهم: **(وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)** [يوسف: 17] أما في الموقف الثاني، يوم فقد أبنه الأصغر: فهنا أيضا لم يأته إعلام من الله تعالى عن مصيره، ولقد ساوره الشك في صدق الأبناء، وكان شكه في غير موضعه، ولقد صدقوه حقا، وأنى له أن يصدقهم حقا. وما استطاعوا أن يأتوا بالأدلة الحسية المقنعة إلا أنهم قالوا هذه المرة **(وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)** [يوسف: 82]، اللطيفة الثالثة: في لحظنا لقوة إيمان يعقوب عليه السلام بنصرة الله تعالى له، ومتانة هذا الإيمان في قلبه، فعلى الرغم من فقد يوسف عليه السلام، وما يمثله من أهمية بالغة في حياته قال: **(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)** ولقد صبر حقا وصدقا ثم أنه لما جاءه خبر فقد أبنه الأغر، قال: **(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)**. (العريس، فؤاد:2005،مصدر سابق، ص321ــ 322)

ويرى اللجائي في تأويله للآية: **(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً)** لقد كان يعقوب في حال الوصلة، وغاب عن حاله فقال هذا القول، فلما شاهد حال نفسه قال: **(يا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ)** [يوسف: 84] فأوحى الله إليه: أخذنا منك ولدا، وأبقينا لك أولادا، أتتأسف عليه كل هذا التأسف، ولا تتأسف على ما يفوتك منا بتأسفك عليه، وقال أبو سعيد الخراز: التأسف على

الفائت تضييع وقت ثان، فالعياذ بالله من الاشتغال بغير الله، والسقوط من عين الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.) (اللجائي، أبي القاسم: 2001، مصدر سابق، ص 151 - 152)

وفي الفتوحات يرى ابن عربي: (أعلم أن الجمال الإلهي الذي تسمى الله به جميلا ووصف نفسه سبحانه على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يحب الجمال في جميع الأشياء وما ثم إلا جمال، فإن الله ما خلق العالم إلا على صورته، وهو جميل فالعالم كله جميل، وهو سبحانه يحب الجمال، ومن أحب الجمال أحب الجميل، والمحب لا يعذب محبوبه إلا على إيصال الراحة أو على التأديب لأمر وقع منه على طريق الجهالة، كما يؤدب الرجل ولده مع حبه فيه، ومع هذا يضربه وينتهره لأمور تقع منه مع استصحاب الحب له في نفسه، فمآلنا إن شاء الله إلى الراحة والنعيم حيث ما كنا، فإن اللطف الإلهي هو الذي يدرج الراحة من حيث لا يعرف من لطف به، فالجمال له من العالم، وفيه الرجاء، والبسط، واللطف، والرحمة، والحنان، والرأفة، والجود والإحسان والنقم التي في طيها نعم، فله التأديب فهو الطيب الجميل، فهذا أثره في القلوب، وأثره في الصور ما يقع به العشق، والحب، والهيمان، والشوق، ويورث الفناء عند المشاهدة.) (ابن عربي: 2006، مجلد4، ص256ـــ 257)



الشيخ وجمال الجلال

جمال الجلال لغة: (جمل: الجيم والميم واللام أصلان: أحدهما تجمع وعِظَم الخَلق، والآخر حُسنٌ. والجمال: ضد القبح ورجل جميل وجمال؛ قال ابن قتيبة: أصله من الجميل، وهو ودك الشحم المذاب، يراد أن ماء السمن يجري في وجهه.) (ابن فارس: 2008، مجلد1، ص246ـ 247)

الجلال: (عظم القدر، والجلال بغير الهاء: التناهي في ذلك، وخص بوصف الله تعالى، فقيل: **(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)** [الرحمن: 27] ولم يستعمل في غيره، والجليل العظيم القدر.) (الراغب: المصدر السابق، ص198)

وهذا يعني أن اصطلاح جمال الجلال لغة يعني: حسن العظمة أي جمالها البادي في الوجود، الظاهر في كل المرائي، وهو عبارة عن أوصاف مراتب الوجود التي هي تجليات الحق تعالى، وتنزلاته، فلولا تجليها وظهورها في الوجود بحلة الجمال لبقيت عصية علينا، إذ الجلال الإلهي لا يمكن إدراكه إلا إذا تجلى لنا بجمال الجلال.

جلال الجمال في الاصطلاح الصوفي

يرى القاشاني: جمال الجلال: (هو حضرة الدنو الذي منها تجلى لعباده، وباعتبارها صحت المعرفة له، وأهل العبيد لعبادته كما قيل:

جمالك في كل الحقائق سافر   وليس له إلا جلالـــك ساتــــر

وبجماله ظهر لخلقه بخلقه، وبجلاله حجبهم عن معرفته، فالجمال سافر، والجلال ساتر، ولما كان الجلال معنى يرجع منه إليه، بحيث لا يصح لغيره أن يراه فيه لانفراده تعالى، بحضرة جلاله، لم يكن الجلال هو جلال الجمال بعينه.) (القاشاني: 2004، مصدر سابق، ص173ـ 174)

ويرى عبد الكريم الجيلي: (أن جميع أوصاف الجمال راجع إلى وصفين، العلم واللطف، كما أن جميع أوصاف الجلال راجع إلى وصفين، العظمة والاقتدار، ونهاية الوصفين الأولين إليهما، فكأنهما وصف واحد؛ ومن ثم قيل:

إن الجمال الظاهر للخلق إنما هو جمال الجلال، والجلال إنما هو جلال الجمال لتلازم كل واحد منهما للآخر، فتجلياتهما في المثل كالفجر الذي هو أول مبادىء طلوع الشمس إلى نهاية طلوعها، فنسبة الجمال نسبة الفجر، ونسبة الجلال نسبة شروقها، وهذا الإشراق من ذلك الفجر، وذلك الفجر من هذا الإشراق، فهذا معنى جمال الجلال، وجلال الجمال.) (الجيلي: 2000،ج1، مصدر سابق، ص35)

ويرى الجيلي: (أن الجمال المعنوي: الذي هو عبارة عن أسمائه وصفاته إنما اختص الحق بشهود كمالها على ما هي عليه تلك الأسماء والصفات، وأما مطلق الشهود لها فغير مختص بالحق، لأنه لابد لكل من أهل المعتقدات في ربه اعتقادا ما أنا على ما استحقه من أسمائه الحسنى وصفاته العلا أو غير ذلك، ولابد لكل شهود صورة معتقده، وتلك الصورة هي أيضا صورة جمال الله تعالى، فصار ظهور الجمال فيها ظهورا ضروريا لا معنويا، فاستحال أن يوجد شهود الجمال المعنوي بكماله لغير من هو له، تعالى الله وتقدس عما يقولون علوا كبيرا.) (نفسه: ج1، ص94)

ويرى ابن عربي في كتاب الجلال والجمال: من إشارته تعالى في القرآن الكريم قوله تعالى: **(اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)** [آل عمران: 102] (إن الإشارة في هذه الآية تدل على أن الحق تعالى نزل إليهم في جماله مباسطة حين أمرهم بالوفاء بالحق فأنسوا واطمأنوا فخافوا على أنفسهم من غوائل البسط فاستعملوا نفوسهم وإسرارهم في **(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)** [التغابن: 16] فحفظت عليهم هذه الآية أدب الحضرة إشارة اتقوا الله بالله وهو قوله عليه السلام وأعوذ بك منك قال الله تعالى: **(ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)** [الدخان: 49] وقال: **(يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)** [غافر: 35] إشارة اتقوا الله من كونه ساخطا بالله من كونه راضيا، ويرى ابن عربي في إشارة له عامية كونية: اتقوا الله المعاقب بالله المعافي فمن عرف حقائق الأسماء فقد أعطي مفاتيح العلوم.) (ابن عربي: 1999، مصدر سابق، ص45 – 46)

فجمال الجلال هنا كما يراه ابن عربي هو نزول الحق تعالى من الجلال إلى المباسطة ففي قوله تعالى: **(اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)** وكأن أحدا منا يوصي الآخرين بقوله: **(اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)** وهذا أسلوب مباسطة وجمال، وفيه شيء من المكاشفة لأنه يشير بشكل مباشر وواضح إلى أنه تعالى هو المتجلي في الخلق، فهو مرة يكلمنا باعتباره الخالق البديع الذي أوجد كل شيء المحيط بكل شيء وهذه أوصاف الجلال، ومرة يكلمنا وكأنه هو التجليات التي لا تختلف عنا في الوجود والتي تعمل معنا في النصيحة كقوله تعالى: **(اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)** خوفا من بطشه وعذابه وطمعا في جنته وقربه، هذا يعني أن جميع الآيات التي وردت في القرآن الكريم والتي من شأنها أن تحذرنا من عقاب الحق، أو التي تحفزنا باتجاه تحصيل الجنة فهي عبارة عن جمال الجلال.

قال تعالى:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) [الشورى: 11]

وقوله تعالى:

(وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ) [آل عمران: 30]

وقوله تعالى:

(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) [الصافات: 147]

ففي قوله تعالى: **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)** [الشورى: 11] جمال الجلال، لأن الآية تفيد التشبيه من جهة، وتفيد التنزيه من جهة أخرى، التشبيه فيها وجود الكاف في قوله: **(كَمِثْلِهِ)** الذي يفيد المثلية، كقولك زيد كالبحر، أو فلان كالشمس، فالكاف هنا يفيد للمثلية أي: فلان مثل الشمس، أو زيد مثل البحر، وهناك دليلا آخر تدل على التشبيه، إذ أن جملة **(ليس مثله شيء)** تفي بمعنى التنزيه فلا حاجة لأن يضاف الكاف إليها إلا من باب التأكيد. كما أن إضافة جملة: **(وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)** تفيد للتشبيه كذلك لأنها أخرجت الآية بكاملها من التنزيه التام إلى (التنزيه والتشبيه).

من ناحية أخرى فإن الآية يمكن أن تفيد ما أخبر عنه تعالى في الحديث القدسي: **(عبدي أطعني تكن مثلي تقول للشيء كن فيكون)** وبهذا يكون معنى الآية: **(ليس مثل مثله شيء)** ويراد به العبد الطائع الذي أعطي مقام الكن، فكل عبد يصل مقام الكن ينزه عن المثلية.

إن الآية المذكورة جاءت لتعبر عن جمال الجلال، من كونها بشرى للعباد أن هناك من هو حامل لأوصاف الربوبية بعد أن تخلى من أوصاف البشرية فعليكم أن تقصدوه لأنه بمثابة وجه الحق تعالى للخلق، وهو بصر الحق تعالى وسمعه.

وفي كتاب الجلال والجمال يرى ابن عربي: إن في هذا من إشارات الجمال في هذه الآية: **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)** (مثلية لغوية كقولهم زيد مثل الأسد والكاف هنا بمعنى الصفة فيقول ليس مثل مثله شيء فنزل الحق في مقام البسط بصفة الجمال لقلوب العارفين به، ونفى في هذه الآية أن يشبههم شيء من جميع مخلوقاته كما نفى فيها من كونها جلالا أن تشبهه، فنبه بهذه الآية على شرف الإنسان على جميع المبدعات والمخلوقات فحقيقته لا أين، وأثبت له صفات التمام والكمال فجعله فياضا وملكه مقاليد الأسماء وبهذه المثالية اللغوية صحة له الخلافة وتعمرت به الداران وبها سخر الأرواح وبها قال تعالى: **(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)** [الجاثية: 13] فهذه الآية تدل على مباسطة إلهية إذا تجلت إلى قلب المحقق يكون حاله في ذلك الوقت ذا معاني جلالية، كما أنه إذا تجلى إلى قلب المحقق جلال هذه الآية يكون حاله في ذلك الوقت معنى جمالها.) (ابن عربي: 1999، ص38)

ويرى كذلك ابن عربي أن إشارات الجلال في هذه الآية: **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)** (هذه الآية تقابلها فيها وتقابلها أيضا تمامها وهو قوله: **(وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)** ويقابلها من الأحاديث قوله عليه السلام: **(إن الله خلق آدم على صورته)** فاعلم يا من غرق في بحر المشاهدة أن المثلية في الجلال معقولة كما أن المثلية في الجمال لغوية فنفى بهذه الآية المماثلة التي في الاشتراك

في صفات النفس وهنا بحور عظام منها أن المماثلة بين الشيئين لا يقضي بالكمال فيها والفضائل وغير ذلك فإن تماثلا من طريق صفات النفس فقد تماثلا أو تناقضا من طريق صفات المعاني كرجلين قد اشتركا في صفات النفس الواحد منها عاجز قاصر جاهل أبكم أعمى أصم، والآخر عالم قادر متكلم بصير سميع وقد جمعهما حد واحد، وهو أنهما حيوان ناطق مائت مثلا، فإذا كان ذلك فهي إشارة فافهم كما يقع الاشتراك والتماثل في صفات المعاني ولا يقع الاشتراك بالمثلية وإن حقيقة الشيء من صفات نفسه.) (نفسه: ص 37 – 38)

وفي المثلية يضيف ابن عربي في فتوحاته: للأنفاس ظهور واختفاء، (ولا يكون الاستتار والخفاء إلا في الأمثال، وأما في غير فلا، لأن غير المثل لا يقبل صورة من ليس مثله، ألا ترى قوله عليه السلام حين قال:: إن الله قال على لسان عبده: **(سمع الله لمن حمده)** لأنه قال فيه أنه خلقه على صورته فجعله مثلا، ثم نفى أن يماثل ذلك المثل فقال: **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)** أي ليس مثل مثله شيء، فنفى أن يماثل المثل فاستتر الحق بصورة العبد في قوله: سمع الله لمن حمده، فإن المترجم عنه في لسانه، فيظهر المترجم عنه بصورة المترجم عنه المعنوية وبصورة المترجم لهم المحسوسة فيظهر بالصورتين فإنه سماه وهو عبد قائل عن حق، فكان لسانه لسان حق في قوله: سمع الله لمن حمده.) (ابن عربي: 2006، مجلد4، ص 149)

ويرى الكيلاني، الشريف ناصر: لو أتى نوح عليه السلام ما أتى به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأتته قومه؛ لأنه عليه السلام جادلهم بالتي هي أحسن بالقول الأسد الأقوم وهو قوله تعالى: **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)** [الشورى: 11] فإنه جمع التنزيه والتشبيه في آية واحدة، بل في نصفها هذا من جوامع الكلم وفصل الخطاب جمع الأضداد، وقطع الخصومة، والعناد بخلاف نوح عليه السلام، فإن دعوته تنزيه بحت فما قبل من الأمة إلا قليل، وقد انقطع بعده بخلاف المحمديين. في الزيادة إلى نزول

عيسى عليه السلام بل إلى يوم الدين، وذلك من اعتدالهم، وكونهم وسطا: أي لا إفراط فيهم، ولا تفريط. قال تعالى: **(جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)** [البقرة: 143] سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم جمع الله سبحانه لاسمه الأشرف بين حروف الاتصال والانفصال، ليدل الاسم على وصول المسمى به تعالى، فبحرف الانفصال أشار بفصله عن العالم، وبحروف الاتصال أشار باتصاله بالأصل إشارة إلى جمعه بين الحالين، وحيازته الأمرين التنزيه والتشبيه، ويتم له صلى الله تعالى عليه وسلم الأمر من جميع جهاته اسما، ومسمى.) (الكيلاني، الشريف ناصر: 2007، مصدر سابق، ص 140 –141)

ويضيف ناصر الكيلاني: إن مشاهدة العباد للحق لها نسبتين: نسبة تنزيه، ونسبة تشبيه فنسبة التنزيه تجليه في: **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)** والنسبة الأخرى تجليه في قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (أن تعبد الله كأنك تراه) وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إن الله في قبلة المصلي)** وقوله تعالى: **(فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ)** [البقرة: 115] والأحاديث الواردة لو لم تستصحب بمعانيها الموضوعة لها المفهومة من الاصطلاح، فما معنى قوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ)** [إبراهيم: 4] ؟ فما وقعت الفائدة بذلك عند المخاطب لها خصوص العموم من الناس، فإذا تقرر عندك هاتين النسبتين للحق المشروعتين وأنت المطلوب بالتوجه بقلبك وبعبادتك إلى هاتين النسبتين، فلا تعدل عنهما إن كنت ناصحا نفسك، فإن الإنسان ما جمع الحقائق المذكورة إلا بهاتين النسبتين، فلما توجهت هاتان النسبتان فخرج بنو آدم لهذا على ثلاث مراتب: (كامل) وهو الجامع للنسبتين، أو (واقف) مع دليل عقله، ونظره، وفكره، وهو المنزه خاصة، أو (مشبه) بما أعطاه اللفظ الوارد، ولا رابع لهم ف(الاعتدال والكمال) هو القول بالأمرين، والاتصاف بالوجهين؛ أعني الظهور بحقائق الأسماء الإلهية الوجوبية في حقائق الصفات الكونية على الكشف والعيان.) (نفسه: ص 336)

ويرى اللجائي: في قوله: من اعتقد أن الحجب تجوز على الخالق سبحانه فقد جهل صفة الربوبية ن ولو جاز عليه الحجاب لانهدمت السماوات

والأرض،فإذا انكشفت لهم الحجب بدا لهم الجبار جل جلاله فينظرون إلى شيء (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) [الشورى: 11] فينظر العبد المؤمن فلا يرى تحتاً ولا فوقاً، ولا يميناً ولا شمالاً، ولا أماما ولا خلفا إلا الله (سبحانه)، ولا يخطر بباله شيء إلا الله، ولا يجد لشيء لذة إلا النظر لوجه الله فيحير العبد في العظمة والجلال حتى لا يعرف اسم نفسه، ولا يشعر بمن حوله من الخلائق وينسى كل شيء إلا الله سبحانه فينظر العبد حينئذ لمولاه بالبصر والبصيرة من غير أن يدرك ببصره ولا ببصيرته من الصفات شيئا بمعنى النهاية والإحاطة، فإنهم يرونه على الحقيقة.) (اللجائي: 2001، مصدر سابق، ص60)

أما في قوله تعالى: **(وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ)** [آل عمران: 30] قوله تعالى: **(وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ)** في قوله تعالى مباسطة لنا في صيغة التحذير من أجل أن نبقى في طريق الطاعة والانقياد لله تعالى، واللجوء إلى رحمته خوفا من عذابه، وطمعا في رحمته، وحين يقال لنا **(وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ)** فإن هذا التحذير يطلب منا أن نحذر من عذابه وبطشه، كقوله: **(يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ)** [الدخان: 16] كما أن علينا الحذر من مكره تعالى: **(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)** [الأنفال: 30] وقوله: **(فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)** [الأعراف: 99] فالتوجه الجلالي منه تعالى يتوجه إلينا بصيغة التحذير من أجل أن نقع في الضلالة والتيه، فيكون لنا سببا في إدامة العذاب والاحتجاب؛ فنحرم سعادة الدارين.

وقوله تعالى: **(وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ)** هنا مباسطة جمالية يقابلنا بها الحق تعالى، فالرأفة عنوان جمالي مهم يكاشفنا به الحق تعالى، ويدعونا إلى عدم اليأس من مقتضيات الرحمة الإلهية فيما إذا زلت القدم، قال تعالى: **(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)** [الزمر: 53]

ويمكن تأويل الآية على النحو التالي: **(وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ)** أي: يحذركم الله النفس التي أبدعها وسواها مركبة من نقيضين الفجور والتقوى، فجعلها

في الإنسان كما جاء في قوله تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) [الشمس:7– 8] يحذرنا تعالى منها لما فيها من استعداد الفجور، وغاية التحذير هو إيجاد الاستعداد، وتثوير الهمة من أجل تغليب همة مناصرة كفة التقوى في النفس على كفة الفجور، ومن أجل هذا قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) [الشمس:9– 10] وقوله تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) [النازعات:40– 41] فالحق تعالى يحذرنا من النفس وغوائلها، ويطلب منا مجاهدتها وعدم الرضوخ لمطالبها، والحق تعالى: هو الموصوف بالرأفة والرحمة، فتحذيره هنا جاء من باب الرحمة بنا، لقد جاء في الحديث الشريف: (أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك) وقال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) [العنكبوت: 69] أي: الذين أحسنوا التعامل مع النفس حين منعوها عن السير خلف الأهواء، فلو جعلوها تسير على وفق هواها لظلموها بعمى وعذاب الاحتجاب.

يرى ابن عربي في فتوحاته: (أن الله تعالى لما خلق القوة المسماة عقلا وجعلها في النفس الناطقة ليقابل بها الشهوة الطبيعية إذا حكمت على النفس أن تصرفها في غير المصرف الذي عين لها الشارع فعلم الله أنه قد أودع في قوة العقل القبول لما تعطيه القوة المفكرة، وقد علم الله أنه جعل في القوة المفكرة التصرف في الموجودات والتحكم فيها بما يضبطه الخيال من الذي أعطته القوى الحسية، ومن الذي أعطته القوة المصورة مما لم تدركه من حيث المجموع بالقوة الحسية، فعلم أنه لابد أن تحكم عليه القوة المفكرة بالتفكر في ذات موجده وهو الله تعالى، فأشفق عليها من ذلك لما علمه من قصورها عن درك ما ترومه من ذلك فخاطبها قرآنا: (**وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ**) [آل عمران: 30] يقول: ما حذرناكم من النظر في ذات الله إلا رحمة بكم وشفقة عليكم لما نعلم ما تعطيه القوة المفكرة للعقل من نفي ما نثبته على ألسنة رسلي من صفاتي فتردونها بأدلتكم فتحرمون الإيمان فتشقون شقاوة الأبد.) (ابن عربي: 2006،مصدر سابق، مجلد3، ص479)

ويستدعي السلمي الكثير من أقوال العارفين في تأويله للآية فيرى في قوله تعالى: **(وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ)** قال ابن عطاء: إنما يحذر نفسه من يعرفه ن فأما من لا يعرفه فإن هذا الخطاب زائل عنه قال الواسطي في قوله تعالى: **(وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ)** قال: فلا يأمن من أحد أن يفعل به ما فعل بإبليس، زينه بأنوار عبادته وهو عنده في حقائق لعنته، فستر عليه ما سبق منه إليه حتى غافصه بإظهاره عليه. وقال: لا يحذر نفسه من لا يعرفه وهذا خطاب الأكابر، فأما الأصاغر فخاطبهم: **(وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ)** [البقرة: 281] وقال أيضا في قوله: **(وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ)** هل هو إلا الإثبات وليس له من ذلك شيء وإنما هو إيقاع البقية للسرائر، وتيقظ الطبع من الرعونة، وخلوصه من وساوسه. قوله تعالى: **(وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ)** قال ابن عطاء:عم رحمته لعباده، أجمع مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم، وخص رحمة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بوقوفه على المؤمنين دون من سواهم، وهذا كقول إبراهيم عليه السلام حين قال: **(وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ)** [البقرة: 126] فإنه لا رزاق له في السماوات والأرض غيري.) (السلمي: 2001، مجلد1، مصدر سابق، ص 94 - 95)

ويرى القونوي، صدر الدين: (لما كانت الإحاطة بالحق متعذرة كان منتهى حكم كل حاكم فيه بحسبه؛ لا بحسب الحق من حيث هو لنفسه، وما لم يتعين منه أعظم وأجل مما تعين عند الحاكم، لأن نسبة المطلق إلى المقيد نسبة ما لا يتناهى إلى المتناهي؛ بل لا نسبة لما تعين في مداركنا منه سبحانه وبين ما هو عليه من السعة والإطلاق والعظمة؛ وقد قال أكمل الخلق صلى الله تعالى عليه وسلم، لما سئل عن رؤيته: نوراني أراه ؟ وقال: لا أحصي ثناء عليك؛ لا أبلغ كل ما فيك، وقال تعالى: **(وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ)** وقوله: **(وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)** [الإسراء: 85] فما ظنك بما ليس يعلم؟ وقال عيسى عليه السلام: **(وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)** [المائدة: 116] وهو روح الله ومن المقربين بإخبار الله وأقرب الأشياء إليه لنسبة روحه إليه. ولهذا نهى

الناس عن الخوض في ذات الله تعالى.) (القونوي، صدر الدين: 1411هجري، ص، 341)

ويرى ابن عجيبة إن الإشارة في هذه الآية يتوجه بها تعالى الواصلين فقال: **(وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ)** من أن تشهدوا معه سواه، فلو كلف الواصل أن يشهد غيره لم يستطع، إذ لا غير معه حتى يشهده. ويدل على أن الخطاب هنا للواصلين تعقيبه بالمودة والرأفة، اللائقة بالواصلين المحبوبين العارفين الكاملين، خرطنا الله في سلكهم بمنه وكرمه، ثم لا طريق للوصول إلى هذا كله إلا باتباع الرسول الأعظم، أو باتباع من ينوب عنه من المشايخ الكاملين من الأولياء الذين لا يخلو زمان منهم، إذ بهم يتم الانتفاع، لأنهم قدوة الواصلين. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، مجلد1، مصدر سابق، ص، 309)

وفي قوله تعالى: **(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ)** [الصافات: 147]

قوله تعالى: **(مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ)** إن **(أو)** في هذه الآية تبدو وكأنها تفيد الاحتمال، وإن الله تعالى لا يقع عليه الاحتمال لأنه عالم الغيب والشهادة، قال تعالى: **(وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً)** [الجن: 28] لما كان كل شيء محصي بالنسبة لله تعالى عددا، وهو تعالى أرسل رسوله إلى عدد، يفترض أن يكون هذا العدد محصي، ولا يقبل زيادة، ولا نقصان فكلمة **(أو يزيدون)** جاءت وكأنها إخبار من جهة المرتبة الإنسانية، وهذا الإخبار إن دل شيء فإنما يدل على أن تعالى أنزل نفسه منزلة الإنسان الذي يطلب المزيد من العلم من أجل أن يحيط بشيء ما وهذه مباسطة قابلنا الحق تعالى بها، وهذا يعني أن العلم الإلهي، مطلق ومقيد، مطلق حين يرتبط بالذات فهو محيط بكل شيء، قال تعالى: **(إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ)** [فصلت: 54] أما العلم المقيد هو الذي ارتبط بالتجليات لا بالمتجلي، قال تعالى: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)** [النور: 41] فقوله تعالى: **(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)** فلولا تجليه في هذه المراتب لما علمت الصلاة والتسبيح، فالعلم الذي أعطاه الحق تعالى لتجلياته مقيد ولم يكن مطلقا فهو يقبل الاحتمال لخلوه من الإحاطة.

وحين قال تعالى: (مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) فكأنما نزل الحق تعالى من كونه المتجلي إلى مستوى التجلي ليباسطنا في هذا المشهد، ويحتمل أن يجري تأويل على نحو آخر، وهو أن الحق أحاط بعدد الكل، ومن بين العدد مئة ألف من الناس، وما يزيد عن المئة ألف المشار إليه بقوله تعالى: (أَوْ يَزِيدُونَ) قد يكون من مرتبة الجن أو الملائكة، لأن الرسالة قد خص بها تعالى الثقلين الإنس والجان، فذكر تعالى المحسوس بعدد، وأضاف ما زاد عن ذلك بقوله: (أَوْ يَزِيدُونَ) فتكون ال(أو) للإضافة لا للاحتمال، فتكون مخاطبة الحق تعالى لنا تفيد للمكاشفة، أو تحفزنا على العمل من أجل المشاهدة. قال تعالى: (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً) [الجن: 1]، وهذا تأكيد على أن مرتبة الجن من المراتب التي يشملها التكليف، وإن الزيادة تنسب إليهم من كونهم يسمعون رسالة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فيؤمن قسم منهم.

يرى ابن عربي في كتاب الجلال والجمال: (جاء بأو التي للشك، وهذا محال على الله تعالى فلما نزل الحق في جماله في هذه الآية مباسطة معنا والشك منوط بها فقام للعبد ضرب من المناسبة فإن كان العبد جاهلا حمل ربه على نفسه ووصفه بالشك فضل، وإن كان محققا هرب إلى قوله: (وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً) [الجن: 28] فوقف على سر ذلك وألحق الشك بالرؤية البشرية المعتادة على الخطاب المتعارف بين العرب بالكثيرة، فيعود الشك على المخلوق وإن أراد إحصاء العدد وأراد أن ينزه نفسه من غير الوجه الذي نزه بارئه فليأخذها على إرادة الكثرة لا عن العدد وإن كانت لا تخلو عن عدد محقق ولكن لم يرد القائل هنا الإعلام بتعيين العدد وإنما تعلقت الإرادة بالإعلام بالكثرة فهذه الصيغة إذا كانت المتعارفة بين المرسولين إليهم لا يريدون بها الوقوف على عدد محقق فإذا شاهد العبد إرادة الكثرة هنا انكشف له إحصاء ما علمه من وقت وجوده إلى وقته، وما يكون إلا ما يتناهى.) (ابن عربي: 1999،مصدر سابق، ص، 41)

الشيخ والكمال

الكمال لغة: يرى الراغب: (كمال الشيء حصول ما فيه الغرض منه، فإذا قيل كمل ذلك، فمعناه: حصل ما هو الغرض منه، وقوله: (**لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ**) [النحل: 25] تنبيها أنه يحصل لهم كمال العقوبة، وقوله تعالى: (**تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ**) [البقرة: 196] ذكر العشرة ووصفها بالكاملة لا ليعلمنا أن السبعة والثلاثة عشرة، بل ليبين أن بحصول صيام العشرة يحصل كمال الصوم القائم مقام الهدي، وقيل: إن وصفه العشرة بالكاملة استطراد في الكلام، وتنبيه على فضيلة له فيما بين علم العدد، وأن العشرة أول عقد ينتهي إليه العدد فيكمل، وما بعده يكون مكررا مما قبله. فالعشرة هي العدد الكامل.) (الراغب: المصدر السابق، ص726)

ويرى ابن فارس: كمل: (الكاف والميم واللام أصل صحيح يدل على تمام الشيء. يقال: كمل الشيء، وكَمُل فهو كامل، أي تام، وأكملته أنا، قال الله تعالى: (**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**) [المائدة: 3].) (ابن فارس: 2008، مصدر سابق،ج2، ص424)

الكمال في الاصطلاح الصوفي

الكمال كما يعرفه القاشاني: (حصول ما ينبغي لما ينبغي على ما ينبغي) (القاشاني: 2004، ص374)

ويعرفه الجرجاني: الكمال: (ما يكمل به النوع في ذاته، وهو الأول، أعني ما يكمل به النوع في ذاته، وهو الأول، لتقدمه على النوع، والثاني: أعني ما يكمل به النوع في صفاته، وهو ما يتبع النوع من العوارض، وهو الكمال الثاني لتأخره عن النوع.) (الجرجاني: 2005، مصدر سابق، ص، 131)

ويعرفه البقلي: الكمال: (إذا استقام في العبودية واتصف بالربوبية ولا يمزج بحر الربوبية ببحر العبودية ويصير بين البحرين حاجزا لا يتجاوز عن مقام العبودية في المحبة ولا ينحط عن مقام الربوبية في المعرفة يكون

في حد الكمال، قال العارف: الكمال مشاهدة الربوبية في العبودية.) (البقلي: 2005، مصدر سابق، ص، 227)

ويعرفه السلمي، أبو عبد الرحمن: الكامل: (هو من يبقى ظاهره للمريدين على آداب العبودية للإقتداء به والأخذ عنه، ويبقى سره وحاله لمن يقصده إلى سياسات الأحوال وآداب المشاهدة، فيكون السر مشاهدا للحق في جميع الأوقات، يتلاشى فيه من يقصده وهو مشرف على الخلق وعين عليهم، فسره إمام تصحيح العارفين، وظاهره أما آداب المريدين وهذا من أحوال أئمة الصادقين. كذلك قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: **(تنام عيناي ولا ينام قلبي)** أخبر عن الظاهر بحال النوم وهو الإغفاء، وأخبر عن السر بالتيقظ الدائم والمشاهدة والقرب). ويرى الشيخ الرفاعي الكبير قدس سره: الكامل: هو من سلك الطريق، مقتفيا آثار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في كل قول وفعل وحال وخلق، حاملا راية العبدية، فارشا جبين الذل في الحضرة الربانية..يقف عند حده، ويبسط على تراب الأدب بساط خده، ويمر في أثناء سيره على عقبات الآيات، فينصرف عنها إلى المعبود، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا، ويعرفه ابن عربي: الكامل: هو الذي أحكم العلم والعمل، فجمع بين الظاهر والباطن. والكامل: هو الذي يشهد في الغيب الشهود، وفي الشهود الغيب. والكامل: من كان طريقا لجريان النعوت الإلهية، وهو يعلم الفرقان بينهما وبين العلم بها.) (الكسنزان، السيد الشيخ محمد عبد الكريم: 2005، ج19، مصدر سابق، ص191)

ويرى الشيخ أبو الحسن الشاذلي: أن الكاملون: هم الحاملون لأوصاف الحق، والحاملون لأوصاف الخلق. فإن رأيتهم من حيث الخلق، رأيت أوصاف البشر. وإن رأيتهم من حيث الحق، رأيت الأوصاف التي زينهم بها، فظاهرهم الفقر وباطنهم الغنى، ويرى الشاذلي: أن الكامل: هو من لا يطفيء نور معرفته نور ورعه. ويرى الشيخ أحمد بن علوان: الكامل: من كملت آخرته، واستوى لله وللعباد ظاهره وباطنه، وتوجهت نحو طرق الخير

وجهته. ويرى ابن عطاء: الكامل: هو العبد المخصص المشاهد للحق في الكائنات. ويرى: حيدر بن على الآملي: الكامل: هو الإنسان البالغ إلى حد التكميل، الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة. ويرى الشاذلي أبو المراهب: الكامل: هو من شهد جلال الجمال، وجمال الجلال. ويرى الشعراني عبد الوهاب: الكامل: هو من طابق بين طهارة الباطن والظاهر من كل دنس. ويضيف: الكامل: من يشهد الواحد كثيرا، والكثير واحدا في آن واحد بإدراك واحد.. ومن شرط الكمل: أن يجمع بين النقيضين أعني ما هو محال في العقل من غير تأويل ولا تفسير مع الشروط التي يتوقف عليها إثبات التناقض، وذلك لأن طور الولاية يخالف ما تألفه العلماء الحاكمون على الأمور بمقتضى عقولهم. فالكامل لا يرى في حال كشفه ويقظته إلا واحد والتعددات عنده معدومة، ففي اليقظة يدرك العدم المقيد وفي حال الكشف يدرك العدم المطلق. ويقول: الكامل: من نظر إلى أعماله بالعينين، فشكر الله تعالى من حيث رائحة الإخلاص في أعماله، واستغفر الله تعالى من حيث وجود النقص فيها.) (نفسه: ص191ـ 192)

ويرى ملا صدرا الشيرازي: في كمال الإنسان: (كمال الإنسان يكون بإدراك المقامات الإلهية، ونيل المعارف الكلية العقلية مع التجرد عن المحسوسات المادية والزهد عن الدنيات الدنيوية، والخلاص عن أسر الدواعي النفسانية والانطلاق عن القيود الشهوية والغضبية، ويرى الشيرازي في كمال النفس: اتصالها بالقدس وانتقاشها بهيئة الوجود، الفائضة عن المبدأ المعبود. فكل ما كان تابعا لله يولى بحال، يجب شح النفس منه على أميال، حتى يتصل بالعقل الفعال، ويتخلص عن التغيير والزوال. إذ بانفصالها عن الهيولى يصير من المكاره ناجيا، وتحل دارا يكون للأبرار مناجيا، وهي الآن وإن لم يكن في الهيولى بمحصور، إلا أنها من عشق توابعها كمأسور، فإذا فارقت منها وفازت بالخلاص، اتصلت بسعادة الصور المصاص، وهي كما علمت من التجسم بالبعد، بعيدة من الهيولى وأضد، فنالت الفوز بالسعادة المؤبدة، بإذن رب الصور المجردة.) (دغيم، سميح: 1428هجري، ج2، ص833)

أما بخصوص كمال النفس الناطقة فيرى الشيرازي: (النفس الناطقة كمالها الخاص بها أن يتحد بالعقل الكلي، ويتقرر فيها صورة الكل، وهيئة النظام الأتم، والخير الفائض من مبدأ الكل الباري جل ذكره في العقول، والنفوس، والطبائع، والأجرام الفلكية، والعنصرية إلى آخر الوجود، ويتصور كيفية تدبير الباري للأشياء، الآخذة منه إلى أدناها، ثم العائدة إليه العارجة من أدناها إلى أقصاها.) (دغيم: المصدر السابق، ج2، ص833)

ويرى آملي، حيدر: (أن الشريعة والطريقة والحقيقة، وإن كانت بحسب الحقيقة واحدة، لكن الطريقة أعلى من الشريعة رفعة وقدرا، والحقيقة أعلى منها مرتبة وشرفا. وكذلك أهلها، لأن الشريعة مرتبة أولية، والطريقة مرتبة وسطية، والحقيقة مرتبة نهائية. فكما أن الوسط يكون كمالا للبداية ولا يمكن حصوله بدونها، فكذلك النهاية تكون كملا للوسط ولا يمكن حصولها بدونه، أعني لا يصح ما فوقها بخلاف ما دونها، ويصح بالعكس، اعني تصح الشريعة بخلاف الطريقة، لكن لا تصح الطريقة بخلافها؛ والطريقة تصح بخلاف الحقيقة، لكن لا تصح الحقيقة بخلافها، لأن كل واحد منهما كمال بالنسبة إلى غيرها التي تحتها ن فالكامل المكمل هو الجامع للمراتب كلها، لأن الجامع بين شيئين أو بين مقامين لا يكون كالموصوف بواحد منها فقط. ولهذا صار هؤلاء القوم أعلى مرتبة من غيرهم، وأعظم قدرا منهم.) (آملي، السيد حيدر: 2007، ص359)

ويضيف آملي: (إن كمال موسى عليه السلام وأمته كان في الاطلاع على حقائق عالم الأجسام، وكمال عيسى عليه السلام وأمته، في الاطلاع على حقائق عالم الأرواح وصورها ومراتبها. وكما سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأمته كان في الاطلاع على كليهما والجمع بينهما. ولهذا قال: **(أوتيت جوامع الكلم)** وقال تعالى في حقه: **(لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ)** [النور: 35] وقال في حق أمته: **(جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ)** [البقرة: 143].) (آملي: المصدر نفسه، ص361)

وعن مراتب الكمال في الأديان يقول الآملي: (لما كان التكميل الموسوي عليه السلام في طريق الكمال المطلق النوعي، كان ميله إلى تكميل الجزء الأخس من الإنسان، وهو البدن، ولذلك شحنت التوراة ببيان مصالح المعاش. ولما كان عيسى عليه السلام أكمل منه، كان تكميله للجزء الأشرف منه، وهو النفس، ولذلك شحن الإنجيل ببيان مصالح المعاد. ولما كان سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قد حاز الكمال المطلق النوعي، كان تكميله لجزئي الإنسان معا، فإن غاية المركب هو إكمال جميع أجزائه المادية والصورية، وهو سلوك الفضيلة، وهذا هو سر رفع الرهبانية في دينه، ففقهاء أمته وعلماؤها مشبهون بموسى، والحكماء الإسلاميون وأمثالهم مشبهون بعيسى، والعارفون المحققون مشبهون بسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، ويشهد بذلك قول الإمام علي بن أبي طالب: (الشريعة نهر، والحقيقة بحر. فالفقهاء حول النهر يطوفون، والحكماء في البحر على الدر يغوصون، والعارفون على سفن النجاة يسيرون.) (نفسه: ص362)

إن غاية الكمال الإنساني هو التخلق بالأخلاق الربانية كما جاء في قوله تعالى: (**وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّينَ**) [آل عمران: 79] وهذه من المسائل التي اتفقت عليها العقول والشرائع كما يرى القونوي ويرى: أن كمال الإنسان في التخلق بأخلاق الله، وطلب التحلي والتشبه بصفات جنابه العزيز. ولا شك في وحدانية الحق ووحدة فيضه وتوجهه لإيجاد ما يريد إيجاده. فتوجهه إلى إيجاد النملة كتوجهه إلى إيجاد العرش والكرسي، لأنه منزه عن أن تتوهم فيه جهات مختلفة تستشين من صرافة وحدته، إذ لا كثرة هناك ولا تجزئة ولا تبعيض، فالتعدد، والكثرة، والاختلاف، وأمثال ذلك من صفات الممكنات القابلة لفعله، والظاهرة بفيضه وتوجهه الوحداني. ولما كان الأمر كذلك وجب على كل متخلق بأخلاق ربه أن لا يتوجه إلى شيء إلا بجملته وأحدية جمعه، ويحترز من أن يكون بشيء منه مع شيء، وبشيء منه مع آخر، فيكون موزع التوجه، بل هو تام التوجه مع كل شيء بحضور تام، متبع ربه في شؤونه، ظاهر بصفاته التي حلاه بها. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه لم يكن يلتفت، يعني لا يلوي عنقه، وكان إذا التفت جميعا، يعني بكليته. (القونوي، صدر الدين: 2009، ص216- 217)

ويذهب السبزواري مذهب القونوي في تقريره لوصف طريق الكمال الإنساني فيرى: إن الإنسان المتخلق بأخلاق الله تعالى يكون مظهرا من صفات لطف الحق، ولذا يكون قبوله قبول الحق، ورده رد الحق، ولعنه لعن الحق، ويكون دعاؤه دعاء الحق وكذا صلاته، فإذا صلوا على أحد كان صلاتهم صلاة الحق، قال تعالى مخاطبا لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ)** [التوبة: 103] وقال تعالى: **(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** [الأنعام: 162]، وهذا الكمال لا يتحقق في الإنسان المؤمن إلا بالمعرفة الكاملة، والإفاقة عن الغفلة، وفي الآيات الكريمة المتقدمة تلميح إلى ما يصل به المؤمن بالرقي في تلك المراتب، حتى يصل إلى مقام القرب لديه جلت عظمته، فقوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ)** [البقرة: 104] إيمانا حقيقيا، فيكون الخطاب مع الذين قالوا: بلى عندما تجلى بقوله جل شأنه **(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)** [الأعراف: 172] في يوم الميثاق، فعاينوا ثم: **(قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا)** [الأعراف: 172]، وهم الأولياء، أي: أهل الصف الأول - كما هو المصطلح عند العرفاء. (سرور، إبراهيم حسين: 2010، ص 63)

إن التخلق بأخلاق الله تعالى، والاتصاف بصفاته، وبلوغ مراتب الكمال الإنساني لا يمكن أن يشبه بكل حال الكمال الإلهي؛ ذلك لأن كمال الله تعالى عبارة عن ماهيته، وماهيته غير قابلة للإدراك، والغاية فليس لكماله غاية ولا نهاية، ويرى عبد الكريم الجيلي: أن الله تعالى يدرك ماهيته ويدرك أنها لا تدرك وأنها لا غاية لها في حقه وفي حق غيره، أي: يدركها أنها لا تدرك له ولا لغيره لما هي عليه ماهيته في نفسها، فقولنا يدرك ماهيته هو ما يستحقه لكمال الإحاطة وعدم الجهل، وقولنا يدركها أنها لا تدرك له ولا لغيره هو ما يستحقه من حيث كبرياؤه وعدم انتهائه؛ لأنه لا يدرك إلا ما يتناهى وهو ليس له نهاية، فإدراك ما ليس له نهاية محال، فإدراكه لماهيته حكمي لاستحقاقه

شمول العلم وعدم الجهل بنفسه لا أنه قبلت ماهيته الإدراك بوجه من الوجوه فافهم، فهذه مسألة شديدة الغموض فإياك أن تزلق فيها فإنها في مقام الحيرة، ويرى الجيلي، أن كماله تعالى لا يشبه كمال المخلوقات، لأن كمال المخلوقات بمعان موجودة في ذواتهم، ويلك المعاني مغايرة لذواتهم، وكماله سبحانه وتعالى بذاته لا بمعان زائدة عليه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فكماله عين ذاته ولهذا صح له الغنى المطلق والكمال التام. (الجيلي، عبد الكريم: 2000، مصدر سابق، ج1، ص97 – 98)

وعن جمال الكمال المطلق يعتقد الشقاق،يحيى محمد: (إن جمال الكمال المطلق لا يبدو حتى للحقيقة المحمدية بمدارك الحواس فأقصى ما تناله من رؤيته نظر البصيرة لا البصر، ورؤية آثار جماله وجلاله وكماله، فرؤية النور الذي خر له موسى صعقا هو أقصى درجات الرؤية لمن دنى فتدلى، فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى، وهنا تحقق سر الأسرار بما لم يعرفه أحد عندما أوحى إلى عبده ما أوحى، ولم يقل ماذا أوحى إليه، لكن لسان حال السماء نطق بأن الإنسان الكامل سوف يزداد بعد العروج قربا وقدرة على نفوذ البصيرة لرؤية الكمال المطلق الذي ليس هناك ما هو أجمل منه، وقالت السماء ــ بحسب ابن عربي – (يا محمد إذا كل لسانك عن العبارة فلأكسونه لسان الصدق، وما ينطق عن الهوى، فإذا ضل عيانك عن الإشارة فلأجعلن عليك خلعة الهداية، ما زاغ البصر وما طغى، ثم لأعيرنك نورا تنظر به جمالي وتسمع به كلامي، ثم أعرفك بلسان الحال معنى عروجك علي وحكمة نظرك إلي. إن الإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية في رتبة عالية من الحضرة الجمالية، لكن الكمال المطلق لابد أن يبقى بعيدا مهما اشتد القرب، ولابد أن يبقى خفيا مهما أشرق الكشف حتى قال له (فلم أشهدك جلالي ولم أكشف لك عن جمالي لتعلم أني منزه في كمالي عن المثيل.. وعن المواصلة، والمجالسة، والملامسة. فجمال الكمالي في غاية التنزيه والبعد عن التشبيه، ولو لم يكن بهذا الامتناع لم يتحقق فيه الكمال الذي بدونه لا يتحقق الجمال.) (الشقاق،يحيى محمد: 2009، ص320 – 321)

إن الإنسان على ما هو عليه من مرتبة فإنه بمستوى أسفل سافلين كما جاء في قوله تعالى: **(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)** [التين:4 – 5]، وذلك إنما جعل الحق تعالى هبوط النفس إلى هذا العالم الأسفل على معنى الابتلاء لها، فيكون مصيرها بعد هذا البلاء والاختبار إما بتحصيل الكمال بالمعرفة الموصلة إلى محبة الله تعالى والقرب منه فتحوز بذلك السعادة الأبدية، وأما أن تبقى في نزول دائم في مرتبة أسفل سافلين فتكسب الأخلاق الردية، وتنقاد، وتمعن، وتنقاد للشهوات الطبيعة المبعدة من الله تعالى.

ويرى عبد الرحمن الأنصاري: أن كمال النفس هو عين سعادتها، كما أن عدم كمالها البتة هو نفس شقاوتها، وإنما يكون كمالها ونقصانها في هذه الدار ما دامت مصاحبة لبدنها، فكمالها أن تصير بالرياضة بحيث تدرك المعارف الربانية بغير واسطة من العالم العلوي، لا من خارج بطريق الحواس، وتنطبع الفضائل من محبة الحق ومعرفته، والشوق إلى جمال حضرته، فيصير لها ذلك خُلقا وعادة، ونقصُها بضد ذلك، وذلك بأن لا تعرف الحق ولا تحبه ولا تشتاق إليه وتصير لها الرذائل خلقا ثابتا، إذ خلقت مستعدة للأمرين جميعا والبارىء تعالى ييسر كلا لمن يريده منه خير أو شر، ولا تتوهم أن النفس تستفيد بعد فراق الجسد كمالا ولا تقدر على تحصيله، وليس أيضا بين إدراكها للحقائق في الدنيا وإدراكها لذلك في الآخرة فرق، بل هذا هو عين هذا إلا زيادة كشف ووضوح كما بين تصور ذات الشيء في الخيال وبين رؤيته بالبصر. (الأنصاري، عبد الرحمن: ب ت، مصدر سابق، ص6)

ويرى نور الدين عبد الرحمن الجامي: أن أهل الكمال من المشايخ على قسمين: الأول منهم: هم الواصلون الكاملون من مقربو حضرة الجلال، وبعد أن ظهرت عليهم شروط الكمال لم يكلفهم الحق تعالى في مهمة تكميل الآخرين من المستعدين أو طالبي طريق الحقيقة، وهم المجاذيب أو البهاليل الذين تجرعوا من شراب العشق والمحبة ما أفناهم عن ذواتهم، فغرقوا في بحر الجمع، وانخلعوا من ربقة العقل والعلم، وزالت عنهم أحكام الشريعة وآداب الطريقة: هم سكان

قباب العزة، وقطان ديار الحيرة لم يعد فيهم وعي (أخذ ما وهب فسقط ما وجب) بوجودهم فأنى لهم الانشغال بغيرهم، أما القسم الثاني: هم الذين إن فنوا عن ذواتهم، وأعادهم إليها تعالى تصرف الجمال الأزلي، ومنحهم النجاة من ذاك الاستغراق في عين الجمع، ولجة الفناء إلى ساحل التفرقة، وميدان البقاء، فعادوا إلى أحكام الشريعة، وآداب الطريقة، ومازجوا الشراب الزنجبيلي للجذبة، والمحبة بالزلال السلسبيلي للعلم والمعرفة، فنشأ عن امتزاج هذا الماء بخمر المحبة الكثير من حباب نجوم آثار المعارف والأسرار؛ فصار كل منهم نجم هداية للخائرين في ظلمة بيداء الضلالة والحيرة. وهم مشايخ الإرشاد والهداية، وهم الآحاد في كل زمان ومكان تكفلوا المستعدين بالتربية حتى يرتقوا بهم إلى أفق حقيقة نور الأنوار، هناك حيث لا وجود للأثنينية، بل الوجود للواحد الحق. (الجامي، نور الدين عبد الرحمن: 2003، ص 168- 169)

وحين يقول هم الآحاد في كل زمان ومكان لأن الشيخ مرآة الحق في ذلك الزمان، وفي هذا الصدد ترى العارفة بنت النفيس البغدادية في شرحها لمشاهد الأسرار القدسية للشيخ الأكبر ابن عربي قدس سره فتقول: (إن الكامل واحد في كل زمان واحد، واحد لأن أبا البشر واحد، والحكمة في خلقه واحد لأنه لما كان الله تعالى ولا شيء، وأراد الظهور بالوجود، فأول ما ظهر بالنور الذي فتق العمى، وكان هذا النور مرآة للتمايز فتميزت صورته المسماة فيه على سبيل الانطباع، فكان الناظر فيها نفسه هو الله والمنظور هي الصورة الآدمية، ولهذا قيل: إنه على الصورة، وقيل: على صورة الرحمن، كل هذا إشارة إلى انطباع صورته في مرآته، فهو نوره فلم يزل يلحظ نفسه في المرآة المسماة بالنور ما دام أبو البشر حياً وفروعه ينتج التمايز في النور وهو ما تخلف من سعة المرآة عن صورته المقيدة لأننا إذا أطلقنا الاسم وجب التقييد والقصد في خلق هذا النور الذي هو التمايز لا غير فلما ظهر به ولم يكن معه شيء وجب أن يدرك فيه صورته المسماة واستمر هذا الإدراك إلى حيث انتقال آدم إلى الآخرة، وهو إرادته لظهور الاسم الآخر ليتصف به.) (البغدادية، بنت النفيس: 2006، مصدر سابق، ص127)

إن المقصود من قول البغدادية بأن الله تعالى خلق آدم على الصورة، أو على صورة الرحمن، فإنها تحيلنا إلى قول الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم: **(من رآني فقد رأى الحق)** وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ومن عرفني فقد عرف الحق)**، و**(من عرف نفسه فقد عرف ربه)** لأن الإنسان خليفة الله، والخليفة يقوم مقام من يخلف، قال تعالى: **(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)** [البقرة: 30].

يرى البقلي: (في هذا التدبير والتصرف في الإنسان وإن كان محدثا مصنوعا، فهو نموذج من عالم الربوبية؛ لأن الله تعالى خلق آدم بخلقه، وهو عالم، قادر، سميع، بصير، متكلم، مريد، حي، وخلق آدم بهذه الصفات لذلك قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم **(خلق الله آدم على صورته)** فإذا كان كذلك فإنسان مجمع عالم الربوبية والعبودية، ومنقوش نقش الملك والملكوت، ومرآة أفعال الحق في جميع المخلوقات، فصورة الإنسان مختصر صورة العالم، وإن كان من خلاصة العالم ولبابه، وصفوته فهو العالم الكبير في المعنى، وإن كان صغير الحجم، خلقه الله تعالى من صفو سبائك العالم؛ لأنه تعالى مخض مخاض الوجود وأخذ من صفة زبدته وجمع فيهما جمع في جميع الأكوان والحدثان، وأودع فيه من خصائص علومه وحكمته ومعرفته ما لم يخص به الكون، وهو أشرف ما أوجد من العدم إلى الوجود؛ لأنه مختص باجتماع الأضداد فيه من الصفة الروحانية والجسمانية، وليس في الكون وأهله من كان بهذه الصفة غير الإنسان؛ لأنه عين الجمع، وليس في الكون شيء إلا وفي الإنسان مثله.) (البقلي، أبي محمد روزبهان: 2008، ص 140– 141)

فالإنسان الكامل هو من كان على الصورة الإلهية، صورة ومعنى، وأقصد بالصورة أي: يرث الأخلاق الإلهية التي جسدها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، ويجسدها من ناب عن الرسول من المشايخ الكاملين، ليكونوا من خلال التخلق بهذه الصفات والأسماء صورة الحق تعالى أمام الخلق، أو يكون بحق وجه الحق تعالى أمام الخلق، فتعطيه النيابة عن الرسول صلى الله تعالى ما أعطته لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

حين قال: **(من رآني فقد رأى الحق)**، ولما كان الشيخ الولي المرشد الكامل له النيابة عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن هذه النيابة تعطيه في الوقت نفسه نيابة عن الحق تعالى، ومعلوم ما للنيابة عن الحق من تمكين وتصريف يستطيع الشيخ الولي من خلالها أن يكمل كل مستعد للكمال، أو كل مريد أراد الحقيقة المطلقة وعزم عليها وأعد عدة السفر إليها.

فالشيخ الولي المرشد هو من أهم الضرورات التي يحتاجها من ينشد الكمال بالله تعالى، فمن لم يجد هذا الولي المخصوص، لا يجد في عزمه وسفره إلى الحقيقة من هادي يهديه إلى صراطها القويم ويخلصه من متاهات الحجب والموانع التي ليس لها حصر، فالشيخ الولي المرشد هو خبرة من الحق مهداة إلى البشرية، وهو واحد من أهم عناوين الرحمة التي وسعت كل شيء.

قال تعالى

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) [المائدة: 3]

وقوله تعالى:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي) [الفجر:27ـ 30]

في الآية الأولى: **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)** [المائدة: 3] قوله تعالى: **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ)** يشير تعالى في هذا القول إلى الزمن المحمدي وما يقتضيه هذا الزمن من إظهار وسائل الكمال التي تضمنها الشرع والمنهج المحمدي على صاحبه أتم الصلاة والتسليم كما جاء في قوله تعالى: **(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً)** [المائدة: 48] فشرعة الأنبياء السابقين والمنهاج الذي أعطي لهم لم يكن كاملا مكملا بل يصل فيه السالك إلى أعتاب شرعة ومنهج الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، ويقف، ومن ثم يبدأ الرحلة باتجاه

الكمال ولكن من خلال التأييد المحمدي، ولهذا كان الواصلين منهم يعرفون بعض الحقائق عن الحقيقة المحمدية، فكانوا يتوسلون بهذه الحقيقة وبركتها من أجل تحصيل مرادهم، قال تعالى: **(وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ)** [البقرة: 89]. ولما آن أوان هذه الحقيقة أن تظهر ويكاشف بها الجميع لأن ظهورها من مقتضيات الرحمة الإلهية التي توجه بها الحق تعالى من خلال رسوله الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الخلق، والذي بشر فيه تعالى بقوله: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** [الأنبياء: 107] فمن مقتضيات الرحمة هو الكمال الإنساني الذي يكون نتيجة فناء العبد في الرب سبحانه وتعالى، ولن يكون ذلك إلا من خلال شرعة ومنهاج كاملين، وتحت إشراف شيخ ولي مرشد كامل ينوب عن الرسول الكريم، فقوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم يريد بها تعالى هذه الثلاثية: الشريعة، والمنهاج، والرسول أو الشيخ، فشريعة الرسول محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هي سيدة الشرائع لأنها الأكمل، ومنهج الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم هو أكمل المناهج، ومن يتكفل بتطبيقهما هو أكمل من يعلم ويربي المستعدين أو المريدين من بين جميع الرسل والأنبياء السابقين سواء كان حضرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أو من ينوب عنه بتكليف إلهي، وهذه شهادة إلهية تؤكد أجزل النعم التي أنعم بها الله تعالى علينا حين كان لنا نصيبا بهذه الأكملية، أي: باجتماع الأسباب التي تؤدي بنا إلى تحصيل الكمال، لأن المنهج، والشريعة ثابتان في شريعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، والشيخ الولي المرشد الكامل لا يشح الزمان بوجوده أو تعيينه إلى قيام الساعة.

قوله تعالى: **(وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)** تمام النعمة هو الوصول إلى مرتبة الفناء في الله تعالى، والتماهي فيه؛ وذلك لأن النعم بكل أشكالها محدودة إلا نعمة البقاء بالله تعالى فهي المطلقة وهي غير محدودة ومن علامات هذه النعمة هي الاهتداء إلى الشيخ الولي المرشد الكامل في زمانك، وهو موجود لا ريب في ذلك لمقتضيات العدالة والرحمة الإلهيتين.

قوله تعالى: (**وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**) دين الإسلام في حقيقته هو الجامع لهذه الثلاثية أي: الشريعة والمنهج، والشيخ الولي المرشد؛ وذلك لأن هذه الثلاثية هي التي توصل بالمريد إلى الكمال اللازم، وهو التسليم، وبدون هذه الثلاثية يبقى المرء قائما في مقام ما أي: يحتجب في المقام،ولم يغادره إلى الفناء، قال تعالى: (**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) [الحجرات: 14].

قال الراغب في الإسلام: (هو في الشرع على ضربين: أحدهما: دون الإيمان، وهو الاعتراف باللسان، وبه يحقن الدم، حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل، وإياه قصد بقوله: (**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا**) والثاني: فوق الإيمان، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل، واستسلام لله تعالى في جميع ما قضى وقدر، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام في قوله: (**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) [البقرة: 131] وقوله: (**تَوَفَّنِي مُسْلِماً**) [يوسف: 101] أي: أجعلني ممن استسلم لرضاك، ويجوز أن يكون معناه: أجعلني سالما من أسر الشيطان حيث قال: (**لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**) [الحجر:39ـ 40] أي: منقادون لله تعالى مذعنون له.) (الراغب: المصدر السابق، ص425)

هذا يعني أن الإسلام هو دين الكمال لأنه يؤدي بمن أعتقد فيه الاعتقاد الصحيح إلى مرتبة التسليم إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أو إلى نائب الرسول من المشايخ الكاملين، قال تعالى: (**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**) [الأحزاب: 56] فإن الأمر الإلهي هنا جاء بالتسليم إلى الرسول، أو من ينيبه الرسول كما أراد في قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (**من كنت مولاه فهذا علي مولاه**) وهكذا يستمر الحال من مولى إلى مولى بكل زمان ومكان، فمن لم يتمسك بطاعة المولى فقد فسق، وخرج عن حد الطاعة لله تعالى، ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، والمؤمنين.

إن من وصايا الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره قوله: (إن الإنسان إذا لم يكن تلقن الذكر الشريف الذي هو التوحيد من شيخ مرشد له نسبة متصلة بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وإلا فبعيد أن يستحضرها عند الحاجة إليها في وقت مصيبة الموت، ولهذا كان كثيرا ما ينشد:

مليحة التكرار والتثني لا تغفلين في الوداع عني

وقال رضي الله عنه:

إذا المرء ربى نفسه بمـــراده لقد شاد بنينا على غير أسه

ومن لم تربيه الرجـــال وتسقه لبنا لهم قد در من ثـــدي قدمه

فذاك لقيط مـــــا له نسبة الولا ولن يتعدى طور أبناء جنسه

إذا المرء لم يرتد رداء من التقى على يد أســـتاذ خبير بنفسه

يريه رعونات النفوس وكيدهـــا ويشده المحبوب عنـــه بحســـه

ولم يك مجذوبا على يـــد قدوة وتحفظه الألطاف من غير لبسه

ويبدو له المكنون من سر كونه وتجلى له الكاسات في كل أنسه

فذاك لعمري ناقص الحظ عاجز يريد سبيلا وهو يأتي بعكســـه

(الكيلاني، عبد القادر: 1988، ص84)

في تأويل قوله تعالى: (**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**) يرى ابن عربي في فتوحاته: إن الاجتهاد لا يراد به أن تحدث حكما فإن هذا شيء خطأ، وإنما الاجتهاد هو التوجه للبحث من أجل طلب الدليل من الكتاب والسنة أو الإجماع، وفهم عربي على إثبات حكم في تلك المسألة بذلك الدليل الذي اجتهدت في تحصيله، والعلم به في زعمك هذا هو الاجتهاد فإن الله تعالى ورسوله ما ترك شيئا إلا وقد نص عليه ولم يتركه مهملا فإن الله تعالى يقول: (**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**)، وبعد ثبوت الكمال فلا يقبل الزيادة فإن الزيادة في الدين نقص من الدين وذلك هو الشرع الذي لم يأذن الله به، ومن

الورث المعنوي ما يفتح عليك به من الفهم في الكتاب وفي حركات العالم كله، وأما الورث الإلهي فهو ما يحصل لك في ذاتك من صور التجلي الإلهي عندما يتجلى لك فيها فإنك لا تراه إلا به، فإن الحق بصرك في ذلك الموطن ولا يتكرر عليك صورة تجل فقد انتقل عنها وحصل لك نظيرها في ذاتك وفي ملكك.) (ابن عربي: 2006، مجلد6، مصدر سابق، ص300)

وفي تأويل آخر يرى فيه ابن عربي: **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)** ببيان الشعائر وكيفية السلوك **(وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)** بالهداية إلي **(وَرَضِيتُ لَكُمُ)** الاستسلام والانقياد بالانمحاء عند تجليات الأفعال والصفات أو إسلام الوجه للفناء عند تجلي الذات.) (ابن عربي: 2001، ج1، مصدر سابق، ص168)

يرى القشيري: أن إكمال الدين، صون العقيدة من النقص (وهو لأما أزعج قلوب المتعرفين لطلب توحيده أملها بأنوار تأييده وتسديده، حتى وضعوا النظر موضعه من غير تقصير، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور. ويقال: إكمال الدين تحقيق القبول في المآل، كما أن ابتداء الدين توفيق الحصول في الحال؛ فلولا توفيقه لم يكن للدين من حصول، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول.ويقال: إكمال الدين أنه لم يبق شيء يعلمه الحق ـــ سبحانه – من أوصافه وقد علمك. ويقال: إكمال الدين أن ما تقاصر عنه عقلك من تعيين صفاته – على التفصيل – أكرمك بأن عرفك ذلك من جهة الأخبار. وإنما أراد بذكر **(اليوم)** وقت نزول الآية. وتقييد الوقت في الخطاب بقوله: **(اليوم)** لا يعود إلى عين إكمال الدين، ولكن إلى تعريفنا ذلك الوقت. والدين موهوب ومطلوب؛ فالمطلوب ما أمكن تحصيله، والموهوب ما سبق منه حصوله، قوله تعالى: **(وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)** النعمة على الحقيقة ما لا يقطعك عن المنعم بل يوصلك إليه، والنعمة المذكورة ها هنا نعمة الدين، وإتمامها وفاء المآل، واقتران الغفران وحصوله. فإكمال الدين تحقيق المعرفة، وإتمام النعمة تحصيل المغفرة. وهذا خطاب لجماعة المسلمين، ولا شك في مغفرة جميع المؤمنين، وإنما الشك يعتري في الآحاد والأفراد هل يبقى على الإيمان ؟.) (القشيري: 1999، مجلد2، مصدر سابق، ص87 – 88)

ويضيف القشيري في تأويله لقوله تعالى: **(وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)** وذلك لما قسم للخلق أديانهم؛ فخص قوما باليهودية، وقوما بالنصرانية، إلى غير ذلك من النحل والملل، وأفراد المسلمين بالتوحيد والغفران، وقدم قوم الإكمال على الإتمام، فقالوا: الإتمام يقبل الزيادة، فلذلك وصف به النعمة لقبول النعم للزيادة، ولا رتبة بعد الكمال فلذلك وصف به الدين. ويقال: لا فرق بين الدين والنعمة المذكورة ها هنا، وإنما ذكر بلفظين على جهة التأكيد، ثم أضافه إلى نفسه فقال: **(نعمتي)** وإلى العبد فقال: **(دينكم)**. فوجه إضافته إلى العبد من حيث الاكتساب، ووجه إضافته إلى نفسه من حيث الخلق. فالدين من الله عطاء، ومن العبد عناء، وحقيقة الإسلام الإخلاص والانقياد والخضوع لجريان الحكم بلا نزاع في السر.) (نفسه: المصدر السابق، مجلد2، ص89)

ويستدعي السلمي الكثير من أقوال العارفين في تأويل الآية فيرون في قوله تعالى: **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)** قال أبو حفص: كمال الدين في شيئين: في معرفة الله واتباع سنة نبيه. أي: اتباع سنة المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم، في الحال، والفعل، والقول ومما يوجب الوصول إلى الكمالات اللائقة ذوقا وتحقيقا فإذا وصل العبد هذا المستوى فإنه يكون قد تحقق بكمال الدين. قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: اليوم إشارة إلى يوم بعث فيه محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ويوم رسالته. وقيل: اليوم: إشارة إلى الأزل، والإتمام: إشارة إلى الوقت، والرضا: إشارة إلى الأبد. وقيل: **(أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)** بأن خصصتكم من بين عبادي بمشاهدة المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم يخاطب به أصحابه، وجعلتكم حجة لمن بعدكم من الأمة إلى يوم القيامة. وقيل: **(أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)** بالمعرفة. وقال شقيق البلخي: في هذه الآية كمال الدين في الأمن والفراغ، إذا كنت آمنا بما تكفل الله لك صرت فارغا لعبادته، قوله تعالى: **(وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)** قيل: شرائط الإسلام كثيرة: منها سلامة روحك من جنايات سرك، وسلامة سرك من جنايات صدرك، وسلامة صدرك من جنايات قلبك، وسلامة قلبك من جنايات نفسك، وسلامة

الخلق من جنايات شخصك وهيكلك وجوارحك، لذلك قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: **(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)** (السلمي: 2001، مجلد1، مصدر سابق، ص169)

ويقال: (كمال الدين التبرىء من الحول والقوة، والرجوع في الكل إلى منزلة الكل. ويرى الواسطي: الإسلام خصلة مرضية، ولكن لا يهتدي إليه الكل، والإسلام مرضى، ولكن لا يلبسه الكل، والمرضى من أتى به ولكن على شرائط الاستقامة. وقال أبو يعقوب السوسي: الإسلام دار عليها أرع أبواب، وأربع قناطر ثم المراتب بعد ذلك، من لم يدخل الدار، ولم يعبر القناطر لم يصل إلى المراتب، فأول باب منها أداء الفرائض ثم اجتناب المحارم ثم الأمن بالرزق ثم الصبر على المكروه، فإذا دخل الدار استقبلته القناطر، فأول قنطرة منها الرضا بالقضاء. والثاني: التوكل على الله، والثالث: الشكر لنعماء الله. الرابع: إخلاص العمل لله، فمن لم يعبر هذه القناطر لا يصل إلى المراتب، وقال بعضهم: نزلت هذه الآية يوم عرفة في حجة الوداع والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلى الله تعالى عليه وسلم واقف، وعندما كان كمال الدين حيث يرد الحج إلى يوم عرفة، فإنهم كانوا يحجون في كل سنة في شهر فلما رد الله عز وجل إلى ميقات فريضته، أنزل الله تعالى: **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)**.) (نفسه: ص170)

ويرى ابن عجيبة الحسني في تأويله للآية: **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)** بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد، والتوقيف على أحوال الشرائع وقوانين الاجتهاد**(وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)** بالهداية والتوفيق، أو بإكمال الدين، وبالفتح والتمكين، بهدم منار الكفر، ومحو علل الملحدين، **(وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)** أي: اخترته لكم من بين الأديان، الذي لا ترتضي غيره، ولا نقبل سواه. ويرى ابن عجيبة إن الإشارة في هذه الآية مفادها: إذا حصل المريد على أسرار التوحيد، وخاض بحار التفريد، وذاق حلاوة أسرار المعاني، وغاب عن حس الأواني، وحصل له الرسوخ والتمكين في ذلك، أيس منه الشيطان وسائر القواطع، فلا يخشى أحدا إلا الله، ولا يركن

إلى شيء سواه، وأمن من الرجوع في الغالب، إلا لأمر غالب **(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)** [يوسف: 21] ولذلك قال بعضهم: (والله ما رجع من رجع إلا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع) والوصول هو التمكين فيما ذكر، فإذا حصل على كمال المعرفة، ووقف على عرفة المعارف، فقد كمل دينه واستقام أمره، وظهرت أنواره، وتحققت أسراره وما بقي إلا الترقي في الأسرار أبدا سرمدا، والسير في المقامات كسير الشمس في المنازل، ينتقل فيها من مقام إلى مقام، بحسب ما يبرز من عنصر القدرة، فتارة يبرز معه ما يوجب الخوف، وتارة ما يوجب الرجاء، وتارة ما يوجب الرضا والتسليم، وتارة ما يوجب التوكل.) (الحسني، ابن عجيبة: 2005، مجلد2، مصدر سابق، ص144)

أما في قوله تعالى: **(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي)** [الفجر:27ـــ 30]

قوله تعالى: **(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)** اختص تعالى بهذا الخطاب أصحاب هذا المستوى من المقامات، ومما لا شك فيه أن هذا المستوى من المقامات يعد وسطا ما بين مراتب النفس، فالنفس المطمئنة هي أرقى مقاما من النفس الأمارة بالسوء، ومن النفس اللوامة، ومن النفس الملهمة، ومن جهة أخرى هي أدنى من مرتبة النفس الراضية، ومرتبة النفس المرضية، ومرتبة النفس الكاملة، فالبقاء مع مرتبة المطمئنة تبقي صاحبها بعيدا عن مرتبة الفناء التي يحصل فيها الكمال اللائق، فالمطلوب هو التحول من مستوى هذه النفس إلى مستوى أرقى من خلال التطوع المصحوب بالذلة والانكسار، وذلك لمقتضيات العزة الإلهية، قال تعالى: **(إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً)** [النساء: 139] والعزة الإلهية لا يمكن التعامل معها وتحصيل بركتها إلا من خلال الانقياد التام إليها من خلال التطوع في العبادة التي تقتضي الذل والمسكنة والانقياد التام لها، فمن نجح في عملية الانقياد وتحقق بالعبودية اللازمة تنور بنور العزة واصطبغ بها، قال تعالى: **(صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ)** [البقرة: 138] ومن اصطبغ بصبغة الله تعالى خلع عليه الحق تعالى ثوب العزة، وتماهي في الله، ورسوله أو تحقق

في النور الأعز الأعظم، وفي هذا الوصف، قال تعالى: **(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)** [المنافقون: 8].

فمستوى ومرتبة النفس المطمئنة تبقي بعض خصائص الأثنينية بحيث يشعر معها العبد أنه صاحب مرتبة تختلف عن مراتب الآخر، وهذا يعني أن هذا الشعور يبقي العبد مع التكاثر، ويبعده عن التوحيد الحقيقي، قال تعالى: **(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)** [التكاثر:1ـ 2] أي شغلته الكثرة عن الوحدة الحقيقية، فيبقى حاله هكذا حتى ينتقل أمره إلى الحياة الآخرة، ومن هناك تبدأ رحلته نحو التوحيد الحقيقي، ولكن بعد الإرهاق، قال تعالى: **(سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً)** [المدثر: 17].

إن الإرهاق المتوجه من جهة الحق تعالى تجاه العبد، له قاهرية عظيمة وذلك لقوله تعالى: **(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)** [البروج: 12] في حين أن قاهرية الجلال للعبد لنفسه تكون أقل وصفا من قاهرية جلال الحق تعالى، لذا فإن مشايخ الطرق يوصون المريد بالرياضات، والخلوات، والمجاهدات، ونوافل العبادات من أجل بلوغ مرتبة التحقق بالحق، فالتوجه هنا طوعي أفضل مما يكون عليه الحال في الآخرة في حالة توجه قاهرية الجلال الإلهي على العبد؛ لأن قاهرية الحق وصفها الحق تعالى بقوله: **(سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً)** [المدثر: 17] وقوله: **(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)** [البروج: 12] وإن إرهاق العبد لنفسه من خلال الرياضات، وإن بطشه بنفسه في مخالفة هواها لا يشكل شيئا أمام وصف قاهرية الجلال لله تعالى، فمن الحكمة أن يتوجه العبد إلى تطهير ذاته وتخليصها من الشوائب للوصول بها إلى عملية الفناء وهو لم يزل في الحياة الدنيا، فقام الأمر الإلهي في قوله تعالى: **(ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً)** مقام النصيحة التي انبجست من مقتضيات الرحمة الإلهية، فالأمر بالرجوع إلى الرب المصاحب للرضا نصيحة إلهية رحمانية تحمل نتائجها هنا في هذه الدار أي: دار الدنيا؛ وذلك لأن الحق تعالى قال: وأوعد بأن يرضيها **(مَّرْضِيَّةً)** كيف يرضيها ؟ يرضيها بالكمال، وأن العبد الكامل لا يمكن أن ينقصه شيء، فالكمال هنا تحقق العبد بالحق تعالى والله تعالى غني بذاته عن الأغيار، فكذلك

العبد حين يفنى بالله تعالى فهو غني بالله ويكون موصوفا بالعزة التي لا تحتاج ما دونها من مراتب الوجود فيكون العبد غني وله ما يشاء من العطاء الإلهي.

الرجوع إلى الرب هو العودة إلى مرتبة أحسن تقويم أي: الكمال المستوعب لكل الأوصاف، والأسماء، والأفعال القائمة بالله تعالى، أي: متحقق في الحق بعد أن أفنى عن نفسه صفات البشرية ؛ وفيه ظهرت أوصاف الربوبية، أي تجرد من انتماءات النفس لغير جهة الحق تعالى، ورجوعها إلى أصلها، ولم يبق لها إلا السير بالله تعالى.

قوله تعالى: **(فَادْخُلِي فِي عِبَادِي)** أي: قيومية الحق تعالى في العبد، والإسراء به من ظلمة الطبع وليل الجسم والكثافة المادية إلى النور الأعظم، قال تعالى: **(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)** [الإسراء: 1] فإن الروح حين تفنى بالحق تعالى لم يكن لها وجود غير وجود الحق تعالى، فإذا ما تم لها الفناء كان الفناء لها براق الوصول إلى الحقيقة المطلقة، فيكون أمرها قائم بالله تعالى كما جاء في قوله تعالى: **(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)** [الإسراء: 85] وحين يكون أمرها قائم بالله تعالى، فإن تعيينها سيكون كما يشاء تعالى ويختار من العباد الصالحين ليكون قلب ذلك العبد محلا لها، لا سيما وإن الحق تعالى يخبرنا، و يكاشفنا بأنه سيجعلها في عباده المخصوصين الكاملين المكملين؛ وهم أهل الله وخاصته، قال تعالى على لسان نبيه سليمان عليه السلام: **(وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)** [النمل: 19] وهذا هو دعاء نبي الله سليمان عليه السلام، وقوله: **(وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)** أي: الصالحين الذين تصلح قلوبهم لأن تكون عرش الرحمن تعالى.

فقوله تعالى: **(فَادْخُلِي فِي عِبَادِي)** هو أمر التعيين للروح التي اكتملت وتنورت بالحق تعالى حتى أصبحت جاهزة لسماع الأمر الإلهي بالدخول في القلب الذي يصلح لها. وقوله: **(وَادْخُلِي جَنَّتِي)** أي: ادخلي حضرتي، وابقي في

حقيقتي التي لا ينالها إلا أهل الخصوص، وهم المشار إليهم بقوله تعالى: **(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)** [القمر: 55] وقوله تعالى: **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)** [القيامة:22ر– 23] وهم الذين عن ربهم غير محجوبين، قال تعالى في حق المحرومين عن المشاهدة: **(كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)** [المطففين: 15]، وهي جنة القرب والمشاهدة وهي أعلى الجنان.

يرى الآملي، السيد حيدر: إن قول الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بخصوص سلمان رضي الله عنه **(سلمان منا أهل البيت)** لم يرد بذلك النسب الصوري، لأنه ما كان بينه وبين النبي وأهل بيته نسبة صورية أصلا، بل صار منهم من حيث النسب المعنوي. وهذا البيت (أي بيت النبي) أيضا ليس بيتا صوريا الذي فيه النسوان والأولاد، بل هو بيت العلم والمعرفة والحكمة، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: **(لو علم أبو ذر ما في بطن سلمان من الحكمة لكفره)**، وإلى تحصيل النسب المعنوي من عباده المخلصين أشار تعالى في قوله: **(فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي)** لأن الدخول فيهم عبارة عن صيرورة الشخص منهم حقيقة، واتحاده بهم معنى لا صورة كدخول سليمان في بيت النبي. وهناك إشارات في القرآن الكريم إلى كلا النسبين، الصوري والمعنوي، فالصوري قوله تعالى: **(إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ)** [آل عمران: 31] وقوله: **(مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ)** [النساء: 80] أما بالنسبة إلى النسب المعنوي، قال تعالى: **(فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي)** وأشار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلفظ الاتحاد في قوله: **(سلمان منا أهل البيت)** لأن الدخول بحسب المعنى في عباده المخلصين الذين هم الأولياء والأوصياء، ليس من شأن أهل النسب الصوري وأهل الظاهر، ولهذا قال تعالى: **(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ)** [المؤمنون: 101] أي: إذا قامت القيامة الكبرى التي هي عبارة عن ظهور المعاني كلها بانقلاب الظواهر بواطن والبواطن ظواهر، فلا اعتبار هناك للنسب الصوري والقرابة المجازية. (الآملي، السيد حيدر: 2005، مصدر سابق، ص501 – 502)

الشيخ والظاهر

الظاهر لغة: يرى الراغب: (ظهر الشيء أصله: أن يحصل شيء على ظهر الأرض فلا يخفى، وبطن إذا حصل في بطنان الأرض فيخفى، ثم صار مستعملا في كل بارز مبصر بالبصر والبصيرة، قال تعالى: (**إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ**) [غافر: 26]، وقوله تعالى: (**مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**) [الأعراف: 33] وقوله: (**يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**) [الروم: 7] أي: يعلمون الأمور الدنيوية دون الأخروية، والعلم الظاهر والباطن تارة يشار بهما إلى المعارف الجلية والمعارف الخفية، وتارة إلى العلوم الدنيوية، والعلوم الأخروية، وقوله: (**بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**) [الحديد: 13] وقوله: (**نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**) [لقمان: 20] يعني بالظاهرة ما نقف عليها، والباطنة: ما لا نعرفها.) (الراغب: المصدر السابق، ص541)

الظاهر في الاصطلاح الصوفي

الظاهر كما يراه الجرجاني:هو اسم لكلام ظهر المراد منه للسامع بنفس الصيغة، ويكون محتملا للتأويل والتخصيص. وما ظهر المراد منه للسامع بنفس الكلام، كقوله تعالى: (**وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ**) [البقرة: 275] وقوله تعالى: (**فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم**) [النساء: 3]، وضده الخفي وهو ما لا ينال المراد إلا بالطلب كقوله تعالى: (**وَحَرَّمَ الرِّبَا**) [البقرة: 275] وظاهر العلم: عبارة، عند أهل التحقيق، عن أعيان الممكنات. وظاهر الممكنات: هو تجلي الحق بصورة أعيانها وصفاتها، وهو المسمى بالوجود الإلهي، وقد يطلق عليه: ظاهر الوجود، وظاهر المذهب، وظاهر الرواية، المراد بهما: ما في المبسوط، والجامع الكبير، والجامع الصغير، والسير الكبير، والمراد بغير ظاهر المذهب والرواية... وظاهر الوجود: عبارة عن تجليات الأسماء، فإن الامتياز في ظاهر العلم حقيقي والوحدة نسبية، وأما في ظاهر الوجود فالوحدة حقيقية والامتياز نسبي.) (الجرجاني:2005، مصدر سابق، ص، 102)

ويعرفه ملا صدرا: (الله تعالى أوجد الملك والشهادة لقضية اسمه الظاهر) (دغيم، سميح: 1428هجري، مصدر سابق، ص556)

ويعرف القاشاني ظاهرية الحق تعالى: تارة تطلق بإزاء مطلق صور الكون، وتارة يراد بذلك تفصيل الصورة الإنسانية الحقيقية التي هي ظل صورة الحضرة الإلهية. أما ظاهر الممكنات: هو كل ما ظهر لغير الحق تعالى، وقد عرفت في باب الباء أن باطن الممكنات هو تعيناتها في حضرة علمه الأزلي، فإنه كما استحال في الحق تعالى أن تكون ذاته مدركة لغير ذاته الأقدس، فكذا استحال في الممكنات من حيث هي شؤون وتعينات ثابتات في حضرة علمه الأزلي أن تكون مدركة لغيره، لاستحالة أن يكون القديم مدركا باعتبار كونها أعيانا ثابتة هي باطن الممكنات. وأما ظاهرها فهو تجلي الحق بأحكامها المعبر عنه بظاهر الوجود، وبظاهر الحق، وبتجلياته المظهرة لأحكام معلوماته، التي هي حقائق مكوناته، فكل ما يصح ظهوره لغير الحق فإنما هو من قبيل هذا القسم، لاستحالة إدراكنا لذاته وحقائق معلوماته، فإن الاتصاف به، أو بصفاته، ممتنع لغير ذاته قطعا.) (القاشاني: 2004، مصدر سابق، ص287)

ويرى القاشاني في اصطلاح ظاهر الوجود: (هو أيضا عبارة عما يصح ظهوره لغير الحق، فإن القاعدة المقررة في علوم الأذواق هو أنه لما استحال أن تظهر ذات الحق لغير ذاته، واستحال على الأعيان الثابتة أن تكون ظاهرة كما عرفت ذلك في باب أغمض المسائل صار الظاهر إنما هو مصنوعاته التي هي عبارة عن تجليه في أعيان معلوماته، لأنه لما استحال أن يظهر الحق بحسب ذاته لغير ذاته، واستحال على الأعيان الثابتة أن تظهر ذواتها، تعين أن يكون هذا المرئي المسمى بالخلق، وبالغير، وبالسوى، إنما هو تجليات الحق في أعيان الممكنات، وبهذا يعرف معنى قولهم بأن الظاهر ليس هو عين الحق، ولا عين الممكن، ولا غير الحق، ولا العين الممكنة، فافهم ذلك، تفهم معنى قولهم أيضا بان عين ما ترى عين ما لا ترى.) (نفسه: ص287 – 288)

يرى الآملي أن العلوم على ضربين: الأول: يتعلق بالظاهر، والثاني: يتعلق بالباطن، فالعلم الأول الظاهري، فإنه أشرف العلوم وأعظمها عند علماء قسم الكلام، وعند الحكماء قسم الإلهيات، اللذان هما يشتملان على معرفة الله تعالى. أما العلم الذي يتعلق بالباطن، فإنه أشرف العلوم وأعظمها عند الأنبياء والأولياء عليهم السلام ـ والموحدين من تابعيهم، علم التوحيد فيكون علمه بلا شبهة خلاصة العلوم ظاهرا وباطنا، وهذا هو المطلوب. وسبب ذلك أن شرف العلم يكون بشرف المعلوم، وليس هناك معلوم أشرف منه، فيكون العلم به أشرف العلوم، ولهذا انتظم العلماء في سلك الله تعالى وملائكته، قال تعالى: **(شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** [آل عمران: 18]، وفي موضع آخر انتظموا في سلكه بلا واسطة غيره لقوله تعالى: **(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ)** [آل عمران: 7]. (الآملي: 2005، مصدر سابق، ص68)

ويضيف الآملي: أن التوحيد أصل الإسلام وهو الأصل في الجنة والنار، فهذا بحسب الظاهر ظاهر أنه أصل الدين والإسلام، لأن (الإسلام الظاهر) لا يحصل إلا بنفي تعددية الآلهة مع إثبات إله واحد، كقولك: (لا إله إلا الله) وهو كلمة التوحيد. وبحسب الباطن: أيضا هذا ظاهر، لأنه (يعني التوحيد) أصل الدين الحقيقي، والإسلام اليقيني، وذلك لأن الإسلام الباطن، لا يحصل إلا بنفي موجودات كثيرة وإثبات وجود واحد، كقولك: ليس في الوجود سوى الله، وهو كلمة التوحيد الوجودي، فثبت أنه (التوحي) أصل الدين والإسلام، ظاهرا وباطنا. وأما أنه سبب الجنة والنار، فهو معلوم من الأقوال المذكورة، لأنه من لم يكن مسلما ولا مؤمنا بالتوحيد الألوهي الظاهر، لا يمكنه دخول الجنة، ويكون من أهل النار لقوله تعالى: **(مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)** [المائدة: 72]. (نفسه: ص، 69)

ويرى الشيرازي في فتوح الغيب: (إن للنبوة باطنا وهو الولاية، وظاهرا وهو الشريعة، فالنبي بالولاية يأخذ من الله أو من الملك، المعاني التي بها

كمال مرتبته في الولاية والنبوة، ويبلغ ما أخذه من الله بواسطة أو بلا واسطة إلى العباد، ويكلمهم به ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ولا يمكن ذلك إلا بالشريعة، وهي عبارة عن كل ما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة، وما استنبط منهما من الأحكام الفقهية على سبيل الاجتهاد، أو انعقد عليه إجماع العلماء متفرع عليهما، ولما كان للكتاب ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا، كما قال عليه الصلاة والسلام فظهره ما يفهم من ألفاظه يسبق الذهن إليه، وبطنه المفهومات اللازمة للمفهوم الأول، وحده ما إليه ينتهي غاية إدراك الفهوم والعقول، ومطلعه ما يدرك منه على سبيل الكشف والشهود من الأسرار الإلهية والإشارات الربانية، والمفهوم الأول الذي هو الظهر للعوام والخواص، والمفهومات اللازمة للخواص، والحد للكاملين الأخصين منهم، والمطلع للمكملين وخلاصة أخص الخواص، كأكابر الأولياء والعلماء الراسخين.) (الشيرازي، ملا صدرا: 2008، مصدر سابق، ص571)

ويضيف الشيرازي: كان للشريعة ظاهر وباطن، ومراتب العلماء أيضا فيها متكثرة، ففيهم فاضل ومفضول وعالم وأعلم، والذي نسبته إلى نبيه أتم وقربه من روحه أقوى، علمه بظاهر شريعته وباطنه أكمل، والعالم بالظاهر والباطن أحق أن يتبع، لغاية قربه من نبيه وقوة علمه بربه وأحكامه وكشف حقائق الأشياء وشهوده إياها، ثم هو دونه في المرتبة، إلى أن ينزل إلى علماء الظاهر فقط، وفيهم أيضا مراتب، إذ العالم بالأصول والفروع أحق أن يتبع من العالم بأحدهما، وأعني بالأصول ما يستفاد من الكتاب والسنة... فلكل من الظاهر والباطن علماء كلهم داخلون تحت حكم الخليفة، الذي هو العالم بالظاهر والباطن، وأكمل من الكل، فالواجب على الطالب المسترشد إتباع علماء الظاهر في العبادات والطاعات، والانقياد لعلم ظاهر الشريعة، فإنه صورة علم الحقيقة لا غير، ومتابعة الأولياء في السير والسلوك، لينفتح له أبواب الغيب والملكوت، بمفاتيح إشاراتهم وهداياتهم، وعند هذا الفتح يجب له العمل بمقتضى علم الظاهر والباطن مهما أمكن، وإن لم يكن الجمع بينهما، فما دام لم يكن مغلوبا لحكم الوارد والحال، أيضا يجب عليه إتباع العلم الظاهر وإن كان

مغلوبا لحاله، بحيث يخرج من مقام التكليف، فيعمل بمقتضى حاله، لكونه في حكم المجذوبين، وكذلك العلماء الراسخون، فإنهم في الظاهر متابعون للفقهاء المجتهدين، وأما في الباطن فلا يلزم لهم الإتباع، لأن الفقهاء الظاهريين يحكمون بظاهر المفهوم الأول من القرآن والحديث، ولذلك لابد أن يرفع المهدي عليه السلام عند ظهوره الخلافات بين أهل الظاهر، ويرفع الاجتهاد، ويجعل الأحكام المختلفة في مسألة واحدة. (نفسه: ص572- 573)

وإذا ما رحلنا مفهومي الظاهر والباطن إلى الكون الصغير (آدم عليه السلام) فإن ظاهر آدم عليه السلام نسخة صورة العالم، وباطنه نسخة باطن العالم وروحه ومعناه، ويرى القونوي: (إن المجموع الآدمي صورة نسب تعين ما اقتضى الإيجاد من الحق، وَصَحبُهُ حالا وحكما وعينا وعلما، لا أنه متعين في نفسه، أو متقيد أو متلبس بأمر لا يقتضيه ذاته دون اعتبار، وإنما العلم التصوري، والإدراك الشهودي، والبصري لا يعرب عن هذا السر بأكثر من هذا، لضيق فلك العبارة بل لضيق التصور الفكري، بل ولضيق فلك النفس المدرك بالنسبة إلى فسيح حضرة القدس، وسعة دائرة الذات التي هي المنبع والأساس، ومن أجل هذا السر قال تعالى: (خلق الله آدم على صورته)، وأن الصورة أمر مشترك يشتمل على ما ظهر وما بطن، وجمع ما استلزمه الجمع،واستتبعه استتباع السواد الموقوف الظهور على اجتماع المزاج والعفص والماء على وجه مخصوص.) (القونوي: 2009، مصدر سابق، ص223)

ويرى القادري، ملا حسن في شرح حكم الشيخ الأكبر في موضوع: (الشريعة ظاهرة، والطريقة باطنة، والحقيقة مشاهدة. فالشريعة ظاهرة: لأنها أعمال بدنية أو؛ لأنها صورة الأعمال، والثاني أولا هنا وفيما يأتي، و(الطريقة باطنة)؛ لأنها أعمال قلبية أو؛ لأنها باطن الأعمال وروحها، أو المراد العموم في الظاهرة الباطنة فحقا ظاهر كل شيء شريعة، وروح كل شيء ومعناه طريقة، و(الحقيقة مشاهدة) لما هو باطنه، فالصلاة مثلا صورتها وظاهرها من قيامها وركوعها وسجودها وقعودها وغير ذلك من أقوالها شريعة، ومعنى هذه الأعمال والأقوال طريقة، ومشاهدة ذلك المعنى أيضا كالصورة حقيقة، فالعسل

وصورته المائعة المأكولة ظاهرة، والحلاوة التي فيه باطنة، ومشاهدتها ذوقها باقتناء تلك الصورة وإزالتها بالشكل، والغاية العظمى هي الحقيقة، فلا اعتبار لصورة بلا معنى، ولا لذة للمعنى بلا ذوقه، وذوقه لا يكون مع بقاء صورته وأما مشاهدة المعنى مع بقاء صورته، فلا تكون إلا لعين صفاء خلاصة خاصة الخاصة صاحب حقيقة حق اليقين البالغ غاية مقام القرب والتمكين.) (القادري، ملا حسن: 2006، مصدر سابق، ص458)

ويمكن ترحيل مفهومي الظاهر والباطن إلى عالم الحروف، يقول ابن عربي: (والحروف مدبرة عن الألف، والألف مستصحب لها وهي لا تشعر) وترى البغدادية في تأويلها لقول ابن عربي: يريد ابن عربي بهذا التدبير تكوين صور الحرفية الناشئة عن ذات الألف فنشأ فيض، كما أن المقيدات صادرة عن الواحد أيضا نشأ فيض، فهي مدبرة في صورها لا في معانيها، فإن معانيها من حيث هي كثرة دالة على التقييد، فلو دلت على معنى الألف كان الحاصل منه إطلاقا، فتدبيرها عن الألف تدبير انفعال لا نشأة، فإن الألف كلما ظهر الله بمظهر ينطلق عليه حرف كان الألف ناظرا نفسه في مرآة ذلك الحرف، وهذا النظر يوجب ثبوت الانفعال، فهذا تدبير ظاهر لا تدبير حقيقة إذ هو صور انفعال، وكونه مستصحبا لها هو استصحاب صوري لا حقيقي، ولهذا عند انفرادها يطلق عليها الواحد كما قلنا، فهو بصورته المراد للتعريف مستصحبا لها لا بمعناه، وكونها لا تشعر باستصحابه لأجل تمكين التقييد المراد للكمال، فإن المقيدات لو علمت ذواتها واحدة لكان نفس العلم مباينا للتقييد.) (البغدادية، بنت النفيس: 2006، مصدر سابق، ص227 – 228)

وفي الفتوحات يرى ابن عربي: إن الحق تعالى من حيث الحقيقة هو الظاهر لنفسه لا للخلق، وهذا يعني أنه تعالى لا يدركه سواه، وإن حضرة الظاهر تعطينا ظهور أحكام أسمائه الحسنى وظهور أحكام أعياننا في وجود الحق وهو من وراء ما ظهر، فلا أعياننا تدرك رؤية، ولا عين الحق تدرك رؤية، ولا أعيان أسمائه تدرك رؤية، ونحن لا نشك أنا قد أدركنا أمرا ما

رؤية وهو الذي تشهده الأبصار منا، فما ذلك إلا لأحكام التي لأعياننا ظهرت لنا في وجود الحق فكان مظهرا لها، فظهرت أعياننا ظهور الصور في المرائي ما هي عين الرائي لما فيها من حكم المجلى، ولا هي عين المجلى لما فيها مما يخالف حكم المجلى، وما ثم أمر ثالث من خارج يقع عليه الإدراك وقد وقع، فما هو هذا المدرك ؟ ومن هو هذا المدرك ؟ فمن العالم ومن الحق، ومن الظاهر ومن المظهر ومن المظيهر، فإن كانت النسب فالنسب أمور عدمية إلا أن علة الرؤية استعداد المرئي لقبول الإدراك، فيرى المعدوم سلمنا أن المعدوم يرى فمن الرائي، فإن كان نسبة أيضا فكما هو مستعد أن يرى يكون مستعدا أن يرى وإن لم يكن نسبة وكان أمرا وجوديا، فكما هو الرائي هو المرئي لأن الذي نراه يرانا، فإذا قلنا إنه نسبة من حيث إنه مرئي لنا فنقول: إنه أمر وجودي من حيث إنه يرانا كما قلنا فينا، وفيه، فمن نحن ومن هو ؟ وقد قال له بعضنا: **(أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي)** [الأعراف: 143] وقال عن نفسه: **(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)** [العلق: 14] وخبره صدق. وقد أعلم أن بعض العالم يعلم أن الله يرى، ثم قال بآلة الاستدراك فعطف: **(وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي)** [الأعراف: 143] ثم تجلى للجبل فاندك الجبل ولا أدري عن رؤية أو عن مقدمة رؤية لا بل عن مقدمة رؤية، وصعق موسى عن تلك المقدمة **(فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ)** [الأعراف: 143] أي رجعت إلى الحالة التي لم أكن سألتك فيها الرؤية **(وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)** [الأعراف: 143]أي المصدقين بقولك: **(لَن تَرَانِي)** فإنه ما نزل هذا القول ابتداء إلا علي فأنا أول المؤمنين به، ثم يتبعني في الإيمان به من سمعه إلى يوم القيامة. (ابن عربي: 2006، مجلد8، مصدر سابق، ص22 – 23)

من الاشتراطات المهمة التي يجب أن تتوفر في الشيخ المربي الكامل أن يكون الشيخ حاضر، أي لم ينتقل حكمه بعد إلى العالم الآخر؛ ذلك لأنه مختص بتربية المستعدين من الذين يعيشون في الحياة الدنيا، وهؤلاء لا يزالون في طور التربية والتنشئة، كما أنهم لا يزالوا يحتاجون إلى ولي مرشد في العلوم الظاهرة للعمل بها ليكون ذلك بمثابة البدايات لآفاق الكمال،

فالشريعة هي أشبه ما تكون بقشر الحقيقة؛ ذلك لأن حقيقة كل شيء لابد أن يكون له علامة دالة تشير إلى هويته، ففكاهة البرتقال مثلا تمتاز بشكل معين ولون وهو اللون البرتقالي، وملمس يختلف عن غيره من أصناف الفاكهة، ورائحة تميزه عن غيره، وحين نشرع بشراء هذا النوع من الفكاهة يكون شكلها الخارجي دليلا جيدا وكافيا إلى هذا النوع من الفاكهة، كما ويكون كذلك دليلا جيدا إلى مذاق تلك الفاكهة، فنحن حين نتوجه لشراء هذه الفاكهة لا نستطيع أن نطلبها من خلال وصف المذاق، ذلك لتعذر وصف المذاق من الناحية العملية، في حين أن الشكل وما يتصل به من وصف يكفينا للوصول المطلوب، وبعد تحصيل هذه الفاكهة نستطيع في المرحلة الثانية أن نتذوق الفاكهة بعد إزالة القشر والمباشرة في تذوق اللب.

فالشيخ الولي الكامل هو الوسيلة الوحيدة التي تصل بنا من وهم التجليات إلى حقيقة المتجلي، ولابد لنا ونحن عازمين على هذه الرحلة، أن نطلع بشكل مسبق على حقيقة المنهج وخطواته النظرية والعملية من أجل الوصول إلى المراد.

إن حقيقة المنهج يعتمد أساسا على جملة أمور تقع في الظاهر، وأخرى تقع في الباطن، ومعلوم أن الظاهر مركب من أمور مادية كثيفة، وأخرى روحية لطيفة، والمطلوب أن يعدنا الشيخ الولي الكامل الإعداد الروحي الكامل الذي يجعلنا قادرين على التخلي عن الأمور التي تعيق سيرنا إلى الجانب الروحاني أو النوراني، من أجل التحلي بالأوصاف العلا ونذوب أو نتماهى في النور بعد إذ أجرينا على أنفسنا استعدادا يؤهلنا إلى هذا الذوبان أو التماهي، أو ما يطلق عليه بالفناء في الحق، من هنا يتضح أن الشيخ الولي المرشد ضرورة مهمة لأنه الوحيد الذي يكشف لنا عن جميع الحقائق والسبل التي تصل بنا إلى الحقيقة المطلقة، فظاهر الشيخ يقابل به ظواهرنا ليعالج أسباب وقوف الظاهر مع الظواهر، وهو يقابل بواطننا فيحفزها للعمل من أجل يجعلها نقية صافية قابلة للطيران إلى حضرة القدس، فالشيخ الولي المرشد الكامل له التوجيه، والتبصير، ولنا الهمة، والعمل من أجل بلوغ المقصود.

فالظاهر على ما هو عليه مليء بالوهم، والأمور السرابية، ولها من الشياطين من يزينها إلى العيون والقلوب، كما أنها مليئة بالحقائق الإلهية التي تقود العقول إلى القصد والبحث عن السبل المؤدية إلى الحقيقة، قال تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت: 53] فمن الملاحظ في هذا الخطاب الكريم قوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا) أي: سنبصرهم بالحقائق اللازمة التي أدرجها تعالى في الوجود بكل تفاصيله المادي ــ والروحي، ليكون ذلك دليلا على الحق تعالى، فقوله: (سنريهم) هي منطقة الشيخ الولي العارف الكامل لما يمتلكه من حق النيابة الممنوحة له من جهته تعالى، فهو وجه الله تعالى القائمة بحق الهدي في الحياة الدنيا أوجده تعالى من أجل المناسبة ليكون احد مقتضيات الرحمة التي توجه بها تعالى للعالمين، ففيه يقوم فعل البصيرة الصحيحة ومن خلاله يتم التزيين الحق، ومحبة الله تعالى، وهو التضاد الحقيقي الفاعل الذي يقابل به تعالى الوهم الشيطاني، وتسويلاته، ومكره، وخديعته، قال تعالى: (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً) [الكهف: 17] فالشيخ الولي المرشد الكامل عنوان الهداية، ومن أجل هذا فهو ضرورة مهمة للزمان والمكان.

قال تعالى:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [الحديد: 3]

وقوله تعالى:

(وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ) [الأنعام: 120]

قوله تعالى:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) [الروم: 7]

وقوله تعالى:

ففي قوله تعالى: (**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ**) لما كان الحق تعالى له الأزلية المطلقة فلا يصح أن نصفه بالأولية والآخرية، لأن هذا الوصف فيه شيء من التحديد، ولذلك قال بعض العارفين هو الأول الذي لا أولية له، والآخر الذي لا آخرية له، وحتى هذا القول لم يكن مطابق لمراد الحق تعالى في هذه المخاطبة؛ لأنه تعالى قد وصف نفسه بما تقتضيه تجلياته من وصف، ولم يكن هذا الوصف قد اختص بالذات، بل هو وصف قد اختص به تعالى للتوجه الأحدي للذات التي لها مطلق الوجود والتجليات، وأقصد بالتوجه الأحدي للذات؛ لأن الذات لها مطلق التوجهات، غير أنها لم تختار من هذه التوجهات غير إيجاد الخلق (مراتب الوجود) كما ورد في الحديث القدسي: **(كنت كنزا مخفيا أحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني)** أي: (أني كنت كنزا مخفيا مستورا، فأردت أن أظهر بصورة الخلق، وأبرز بتعييناتهم، فظهرت بصورهم، وبرزت بتعيناتهم؛ وليس فيهم غيري، فكأنه تعالى أراد بذلك أن استتاره عين ظهوره، وخفائه محض سفوره، مع أن ظهوره ليس مانعا عن بطونه، ولا بطونه عن ظهوره، ولا كثرته عن وحدته، ولا وحدته عن كثرته. أي: هو ظاهر في عين الباطن، وباطن في عين الظاهر، كثير في عين الواحد، وواحد في عين الكثير كما قال الشاعر:

جمع وفرق فإن العين واحدة

وهي الكثيرة لا تبقي ولا تذر

(الآملي: 2005،مصدر سابق، ص164 – 165)

فإن الأول كوصف من حيث تجليه لا من حيث حقيقته كذات فإن الذات لها مطلق التجليات أي: لها مطلق الأولية كما أن لها مطلق الآخرية، كما أن الآخر كوصف لا يقع إلا على ما يؤول إليه التجلي من حيث الظاهر، فكل تجلي له ظاهر وباطن، الظاهر يختص بالهيكل الوجودي المادي، والباطن ما يختص بالروح، وإن الروح لها الخلود لأنها من جنس النور فظاهر الإنسان هو الذي يقبل الفساد والتغير عند انتقال الإنسان في الموت، ومن أجل ذلك فقد وصفه تعالى بالآخر أي: رجوع جسمانيته إلى الأصل الترابي، ولم يبقى

منه إلا الروح التي تعود لبارئها فيحال أمرها إلى عالم الآخرة بنشأة جديدة لها أولية وليس لها آخرية. قوله تعالى: **(وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)** أي: الوصف الذي تكلمنا عنه وهو ظهور المتجلي في تجلياته الظاهرة للعيان وهي أعيان الممكنات، التي تظهر، وتنتهي، وتبدأ بغيرها، وتنتهي وهكذا إلى أن يشاء الله تعالى، فكل ما يظهر للوجود من مراتب فإنها تمثل الظاهر الذي ينطوي على باطن، والباطن هي الروح، والروح مبدئها منه تعالى: كما جاء في قوله تعالى: **(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي)** [الحجر: 29] أي: إنها امتداد النفخة المنبعثة من روحه تعالى، وطالما هي امتداد من روحه، ومنها يصدر الفعل، ومنها منطلق الإرادة، وفيها كوامن النوايا، والقابليات، والتوجهات، وهي متصلة بالحق ولهذا فإن الإحاطة والعلم بالتجليات يكون حاصل تحصيل للمتجلي؛ وذلك لعدم وجود الزيادة على ما أظهر وأبطن فهو العليم بذاته لذاته فقال: **(وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)**.

يقول الآملي: أن له تعالى البقاء الدائم، والوجود السرمد، وهو الباقي على إطلاقه بعد طرح هذه الإضافات وإسقاط هذه الاعتبارات **(وإليه ترجعون)** هذه الموجودات كلها، بعد طرح إضافتهم وإسقاط اعتبارهم، ولتأكيد هذا المعنى قال تعالى: **(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** ليعلموا يقينا أنه لا يجنبه البطون عن الظهور، ولا يقطعه الظهور عن البطون، ولا الأولية عن الآخرية، ولا الآخرية عن الأولية، بل هو الظاهر بصور الأضداد بضد غيره، لأن كل ظاهر غيره ظاهره غير باطنه وهو تعالى ظاهره عين باطنه. (الآملي: 2005، مصدر سابق، ص56)

يرى الطوفي في قوله تعالى: **(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** أي: (هو الأزلي الأبدي، فالأول هو الذي لم يسبق وجوده عدمه، والآخر من لم يلحق وجوده عدمه وهو عند الجمهور ظاهر آثاره الدالة عليه، باطن بذاته إذ لا يصل الحس ولا الوهم إليه، وعند الاتحادية: أي القائلين بالاتحاد، بحسب الأطوار والمظاهر، فإذا تطور ظهر، وإذا لم يتطور بطن، أو هو ظاهر بحسب تحركه للعالم، باطن بحسب سريانه في الوجود

سريان الماء في العود، واستدل بهذه الآية الجمهور على أن ظهوره وبطونه بحسب آثاره وعلمه أما الاتحادية: على أن الظاهر والباطن بحسب ذاته السارية في العالم، ولذلك علم كل شيء لتخلله الأشياء بذاته.) (الطوفي: 2005، مصدر سابق، ص622)

ويتأول ابن عربي هذا الخطاب فيرى: (**هُوَ الْأَوَّلُ**) الذي يبتدىء منه الوجود الإضافي باعتبار إظهاره (**وَالْآخِرُ**) الذي ينتهي إليه باعتبار إمكانه وانتهاء احتياجه إليه فكل شيء به يوجد وفيه يفنى فهو أوله وآخره في حالة واحدة باعتبارين (**وَالظَّاهِرُ**) في مظاهر الأكوان بصفاته وأفعاله (**وَالْبَاطِنُ**) باحتجابه بماهياته وبذاته (**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**) لأن عين ماهيته صورة من صور معلوماته إذ صور الأشياء كلها في اللوح المحفوظ وهو يعلم اللوح مع تلك الصور بعين ماهية اللوح المنتقش بتلك الصور فعلمه بها عين علمه بذاته.) (ابن عربي: 2001، مصدر سابق، ج2، ص317)

ويرى ابن عربي في رسالة الأنوار: غير أنه من اشتد ظهوره في نوره كالشمس مثلا بحيث تضعف الإدراكات الكونية عنه يسمى ذلك الظهور حجابا، وهو في الحقيقة ظهور، ويرى ابن عربي أن ظهور الأسماء هو في الحقيقة ظهور الذات، فظهور الحق عين بطونه،وبطونه عين ظهوره من حيثية واحدة، لأنه واحد من جميع الوجوه. وإن عين أوليته عين آخريته، وعين ظاهريته عين باطنيته، وإليه كان يشير الخراز بقوله: عرفت الله بجمعه بين الضدين ثم يتلو: (**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)، وإن شدة ظهور الحق إنما هو تغيبه بالكثرات، وذلك عين خفاء الوحدة، فلو احتجب عن هذا العالم بهذا الوجه لفني العالم، لأنه عين الكثرة. ولو لم يحتجب من حيث الوحدة بالكثرة لفني العالم أيضا، فالوحدة حجاب الكثرة، والكثرة حجاب الوحدة. (ابن عربي: 2009، مصدر سابق، ص90 – 91)

ولا ينأى القونوي كثيرا عن أستاذه ابن عربي في كشفه عن الحقيقة الجدلية للظاهر والباطن في شرحه للأربعين حديثا، فيرى: (إن في النشأة الجنانية، يظهرون أصحابها في الوقت الواحد في القصور المتعددة، متنعمين

في كل طائفة من أهاليهم، متقلبين فيما اشتهوا من الصور، وليس هذا إلا من أجل ما ذكرنا من استهلاك أجزاء نشأتهم الكثيفة في لطائف جواهرها، وانصباغها بصفاتها، وغلبة خواص نفوسهم وقواهم الروحانية على قوى أمزجتهم الطبيعية، فصاروا كالملائكة يظهرون فيما شاءوا من الصور، وهذا يعني أن الصور والمظاهر المنسوبة إلى الأرواح والمعاني المجردة – بل الحق أنها بأجمعها – حجب على ذوات الظاهرين بها – ليست ذاتية لحقائقهم كما مر، وسيما الحق الذي أخبرنا عنه في الصحيح: (**أنه يتجلى يوم القيامة في صور متعددة، ويتحول من صورة أدنى إلى صورة عليا وبالعكس**) وذلك بسبب ظهوره بحسب العلامات التي بينه وبين عباده – التي هي عبارة عن ظنونهم الاعتقادية فيه كما قال: (**أنا عند ظن عبدي بي**) وذلك عن مقتضى سنته وعلمه وحكمته.) (القونوي: 2004، مصدر سابق، ص135)

أما الكيلاني، الشريف ناصر فيرى: أن الله تعالى أرانا آيات أسمائه وصفاته في العالم وفينا، وجعل فينا ما نعرفه به؛ لنستدل بناءا عليه، ويتمكن السالك من الوصول إليه فلو لم يصف نفسه بنعوتنا ما عرفناه، فهو المعروف في الحالين والموصوف بالنعتين، وبهذا من كل شيء زوجين؛ ليكون لأحد الزوجين العلو والتأثير وهو الذكر، وللآخر السفالة والانفعال والتأثير وهو الأنثى؛ ليظهر ما بينهما إذا اجتمعا وجود أعيان ذلك النوع على صورتهما كما قال ابن عربي: (إن الحق وصف نفسه بأنه ظاهر وباطن فأوجد العالم، عالم غيب وشهادة) قال الله تعالى: (**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**) [الحشر: 22] وقال تعالى: (**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**) فعلم أهل الله وخاصته إن المراتب وإن كثرت فإنها ترجه إلى هاتين المرتبتين؛ وهما الغيب والشهادة والحقيقة جامعة بينهما، فكل شيء له ظاهر، فهو صورته وشهادته وباطن، وهو روحه وغيبه. فنسبة جميع الصور على اختلاف أنواعها الخفية والجلية إلى الاسم الظاهر المنعوت بالشهادة، ونسبة جميع المعاني والحقائق المجردة؛ التي هي أصول لما ظهر من الصور الجزئية المتعينة، أو أسباب وشروط

كيف شئت ؟ قلت: إلى الغيب والاسم الباطن، فإذا عرفت هذا فاعلم أن العالم عالمان ما ثم ثالث عالم يدركه الحس وهو: المعبر عنه بالشهادة، وعالم لا يدركه الحس وهو: المعبر عنه بعالم الغيب المطلق. (الكيلاني، الشريف ناصر: 2007، مصدر سابق، ص 325)

وسئل أو يزيد عن قوله تعالى: (**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**) فقال: (هو الأول بكشف أحوال الدنيا حتى لا يرغبوا فيها، والآخر بكشف أحوال الآخرة حتى لا يشكوا فيها، والظاهر على قلوب أوليائه حتى يعرفوه، والباطن على قلوب أعدائه حتى ينكروه) (المزيدي، أحمد فريد: 2004، ص33)

ويريد أبو يزيد بقوله: هو الأول بكشف أحوال الدنيا حتى لا يرغبوا فيها: أي: تجلى في الدنيا التجلي الذي له أولية يظهر بها وآخرية يؤول إليها وجعل حكم هذا التجلي ماثلا أمام الملا حتى لا يقفوا مع التجلي ويتخلوا عن المتجلي. أما تجليه في الآخرة فهو تجلي دائمي لأن عالم الآخرة هو عالم الروح الخالدة الغير قابلة للفساد والتغير.

ويتأول الشيخ الكيلاني، عبد القادر قدس سره هذه الآية فيرى: (**هُوَ الْأَوَّلُ**) (الأزلي السرمدي السابق في الوجود (**وَالْآخِرُ**) الأبدي الدائم، المستمر فيه بمقتضى الجود الحق (**وَالظَّاهِرُ**) التحقق في العيان (**وَالْبَاطِنُ**) المكنون في عموم الأكوان، فانظر أيها المعتبر الناظر، هل بقي لغيره وجود ولسواه عين وشهود ؟ (**و**) وبالجملة: (**هُوَ**) بذاته (**بِكُلِّ شَيْءٍ**) ظهر من امتداد أظلاله وانعكاس أشعة نوره وجوده (**عَلِيمٌ**) بذاته وحضوره، غير مغيب عنه مطلقا.) (الكيلاني، عبد القادر: 2009، مجلد5، ص136)

يرى أبو يزيد البسطامي: أن حظوظ كرامات الأولياء على اختلافها تكون من أربعة أسماء (**الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**) وكل فريق له اسم منها، فمن فنى عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، فأصحاب اسمه الظاهر يلاحظون عجائب قدرته، وأصحاب اسمه الباطن يلاحظون ما يجري في الأسرار والسرائر، وأصحاب اسمه الأول يلاحظون بما سبق، وأصحاب

اسمه الآخر متربصون بما يستقبلهم، فكل يكاشف على قدر طاقته إلا من تولى الحق تعالى تدبيره. ويرى بعضهم: أن هذه الأسماء الأربعة هي الأب العلوي للعالم والأم السفلية، فالاسم الأول كالعقل الأول، والاسم الآخر كالنفس المنفعلة عن العقل انفعال الآخر عن الأول، كما انفعلت حواء عن آدم، ثم توجه الأول إلى الآخر توجها باطنا يسمى بالنكاح المعنوي، ويسمى بالنكاح الإلهي بين الأسماء الإلهية، فكان الاسم الباطن محل الحمل، وهو الكنز المخفي في ظهر الاسم الأول، فاستقر في الاسم الآخر بطونا كباطن العالم إلا عن تثليث، ألا ترى أن محبته تعالى (أن يعرف) اقتضت محبا ومحبوبا ومحبة، وهكذا كل أمر في الوجود. (الكيلاني، عبد القادر: المصدر السابق، مجلد5، ص 136)

أما في قوله تعالى: **(وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ)** [الأنعام: 120] فإن ظاهر الإثم هي الأعمال التي حرمها الشرع، والتي تبدو واضحة أمام الحواس كشرب الخمر، والقتل بغير حق، والزنا بعد حصانة، وغيرها من الأعمال المستقبحة شرعا. أما باطن الإثم فهي جميع الأعمال التي يدينها الشرع ويستقبحها، والتي لا تظهر أمام الحواس، كالحسد، والرياء، والبغض والكراهية، وغيرها من الآثام التي لا تدرك حسيا.

إن مهمة الشيخ الولي المرشد هو الوصول بمريده إلى التجرد الكامل من الآثام الظاهرة والباطنة، فإذا تجرد القلب منها، وواظب على الأمور التي تستدعي الفضائل، والأخلاق الحميدة، كالذكر، ومحاسبة النفس مع القيام بالواجبات، والفروض، والنوافل، فإن ذلك يصل بالمريد إلى القرب من الحقيقة وصولا إلى مرتبة الفناء في الله تعالى.

فالشيخ الولي المرشد هو هادي المريد إلى الوسائل والطرق التي تجعل مريده على طريق الاستقامة، وتبعده باستمرار عن الوقوف مع المراتب الوجودية المحدودة، والاحتجاب بجهة الطبع والغواشي، فالشيخ وسيلة ربانية مهمتها الاعتناء بالمستعدين من طالبي الكمال.

قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ)** إن الآثام تبقي صاحبها في دوامة الاحتجاب، وهذا من أكبر القاهريات الجلالية التي تواجه العبد، فإن عذاب الحجب لم يكن تأثيره لم يكن تأثيره مرهق في الحياة الدنيا فحسب، بل هو كذلك أشد قهرا وإرهاقا في الحياة الآخرة، ذلك لأن قاهرية القهار لا يمكن أن يماثلها قهر يصدر من الأغيار، قال تعالى: **(وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)** [الرعد: 6] وقوله تعالى: **(سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً)** [المدّثر: 17].

إن الشيخ الوارث المحمدي يتعامل مع الظاهر والباطن بما تمليه عليه الحقيقة المطلقة أو الحقيقة المحمدية التي تبنت المنهج الوسطي باعتبارها هي منهج الكمال والتمام، وهو الذي يمثل وجهي الحقيقة، قال تعالى: **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)** [المائدة: 3] فإن إكمال الدين وإتمام النعمة حصل بعقيدة الإسلام، أي: بزمن مجيء سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم سيد الأنبياء والرسل وهو عين التوجه الوسطي الذي قال فيه تعالى: **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)** [البقرة: 143] فقوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)** أي: أمة الاعتدال مابين الظاهر والباطن، دون أن يكون معتقدها يميل باتجاه التفريط، أو الإفراط في الظاهر، أو الباطن، بل يعطي للظاهر حقه واستحقاقه، ويعطي للباطن حقه واستحقاقه، فالشيخ الولي المرشد الكامل هو من يتبنى هذا المنهج، ويسير بمريديه، ومن يعتقد به في طريق الاعتدال ولن يحيد عنه قيد أنملة ليحافظ على الوسطية التي تؤدي بمريديه إلى كمال ذواتهم، لقد كانت المناهج السابقة على الإسلام إما أن تغلب الظاهر وتعمل به كالمنهج الموسوي على صاحبه السلام، أو تغلب الباطن على الظاهر وتعمل به كما هو الحال في المنهج العيسوي على صاحبه السلام ومن أجل هذا خاطبهم الحق تعالى بقوله: **(ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء**

رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) [الحديد: 27] وجاء المنهج الوسطي في الختام ليعطي للظاهر حقه، ويعطي للباطن حقه.

كما أن الآية الكريمة تخاطب الأمة ويراد بذلك أن المنهج الوسطي مستمر في كل زمان ومكان، ولم يختص بولي دون ولي آخر أو إمام دون إمام آخر، بل أن هذا المنهج يرتبط بالشيخ الولي المرشد الكامل بكل زمان ومكان، وذلك من أجل أن يكون شهيدا على الأمة في ذلك الزمان والمكان **(لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ)** والشاهد لا يمكن قبول شهادته ما لم يكن حاضرا ناظرا، كما أن الآية كذلك تحيلنا إلى حقيقة مهمة مفادها أن الشيخ الولي المرشد الكامل لابد أن يكون له ارتباط مباشر بحضرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من الناحية الروحية، كما أن تشير إلى هناك حضور لا ريب فيه لحضرة الرسول في كل زمان ومكان كما دلت عليه الآية: **(لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)** فإذا غيب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عن الخلق، فكيف تصح له الشهادة وهو غائب عن الأمة، وشريعة الرسول تقول كما جاء في قوله تعالى: **)اسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** [البقرة: 282].

هذا يعني أن وجود الشيخ الولي المرشد من الضرورات المهمة للزمان والمكان من كونه شاهدا وشهيدا، كما أنه ضرورة لأنه هو المعلم، أو الأستاذ الذي يعلم المستعدين الصيغ الصحيحة لعلمي الظاهر والباطن، وكما ينبغي لهما أن يكونان ليكونا وسيلة العبد تجاه بلوغ الحقيقة، وإن فقدان الشيخ

الكامل ربما يؤدي ذلك إلى تبني منهجا لا يحقق المطلوب في مجالي العلم الظاهري والباطني، فيكون السالك إلى طريق الحقيقة قد اعتمد منهجا لا يصل به إلى مراده، وربما يكون عرضة للانحراف والزلل.

في التأويلات النجمية يرى نجم الدين كبرى أن الإشارة في هذه الآية مفادها: (إن الله تعالى خلق الإنسان ظاهرا هو بدن جسماني، وباطنا وهو قلب روحاني، فكذلك جعل للإثم ظاهرا هو كل قول وفعل موافق للطبع مخالف للشرع، وباطنا هو كل خلق حيواني وسبعي وشيطاني جبلت النفس عليه **(وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ)** أي: اتركوا الأعمال الطبيعية باستعمال الأعمال الشرعية واتركوا الأخلاق الذميمة النفسانية بالتخلق بالأخلاق الملكية الروحانية **(إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ)** ظاهره وباطنه بالأفعال والأخلاق **(سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ)** عاجلا وآجلا أما عاجلا فلكل فعل وقول طبيعي ظلمة تصدأ مرآة القلب بها فيخرق مزاج الأخلاق القلبية الروحانية، ويتقوى مزاج الأخلاق النفسانية الظلمانية وبه يغلب الهوى ويميل إلى الدنيا وشهواتها، فبإظهار كل خلق منها على وفق الهوى يزيد رينا وقسوة في القلب فيحتجب به عن الله تعالى كما قال تعالى: **(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)** [المطففين: 14] وأما آجلا فبهذه الموانع والحجب ينقطع العبد عن الله ويبقى محجوبا معذبا في النار خالدا مخلدا كما قال تعالى: **(كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)** [المطففين: 15].) (البروسوي: 2003، مصدر سابق، مجلد3، ص99)

أما قوله تعالى: **(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)** [الروم: 7] أوجد تعالى الحياة الدنيا بكل تفاصيلها، ومراتب وجودها، لا من أجل أن نقف مع جمالها الظاهري، بل جعل جمال الظاهر دليلا إلى جمال الباطن، وضرب لنا مثلا ماثلا لنا في الفصول، إذ حين يهطل المطر في الأرض اليابسة يكون ذلك بمثابة حياة جديدة لتلك الأرض اليابسة، فيدب فيها وتنشأ أنواع النباتات ذات الألوان المختلفة، ويكون ذلك سببا بنشوء أصناف من الفاكهة والخضر، ومن ثم بعد فترة من الزمن يتجه ذلك الزرع

إلى الاصفرار، والذبول، ومن ثم يعود إلى أصله الترابي، قال تعالى: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ)** [الزمر: 21] إن ما كاشفنا به تعالى في الآية الكريمة هي امتزاج التراب بالماء مع وجود البذور اللازمة لوجود مختلف النباتات ثم سرعان ما تعود تلك التكوينات الخضراء إلى الأصل الذي نشأة عنه، كذلك الحال مع الوجودين الطيني والروحي اللذان خُلق منهما الإنسان في هذه الحياة الدنيا، فلابد في النهاية أن يعود كل عنصر من عناصر هذا المركب إلى أصله الذي جاء منه. فالتفكر في هذه الظاهرة قد قادنا إلى حقيقة حتى ولو كانت بسيطة، فالحق تعالى أراد لنا التفكر والتأمل في خلق الله لنتواصل في بحثنا، ونتوصل إلى حقيقة الظاهر، وعلاقته بالباطن، قال تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)** [فصلت: 53] فقوله تعالى سنريهم هي مهمة أرجعها الله تعالى إليه، أو رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو إلى من ينوب عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، ويتم ذلك من خلال الفتح الإلهي بطريق الواردات الإلهية التي يعطيها الحق تعالى لمريدي وطالبي الحقيقة فيدركوا من خلالها أن هناك صلة حية وأكيدة ما بين الظاهر الحسي، والباطن الروحي، ويأتي دور الشيخ الولي المرشد الكامل هنا في عملية التبصير.

فقوله تعالى: **(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)** أي: على الرغم من الحياة الدنيا مركبة من ظاهر وباطن، أي من روح وجسد، أو عالم كثافة، وعالم لطافة، فإن أكثر الناس قد احتجبوا بالظاهر الحسي عن الباطن الروحي، فكانت معرفتهم ناقصة، وإن هذا النقص سيؤدي بهم إلى الجهل بحقيقة آخرتهم أي عودة أرواحهم إلى عالم حكم الآخرة **(وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)** وما يجري فيها من حكم وجزاء، فالمطلوب من هذا الإخبار الإلهي أن يعلم الإنسان وهو في الحياة الدنيا العلم المطلوب اليقيني، ليكون عمله وسيلة للفوز في عالم الآخرة لأن المرء يحشر على قدر معرفته، وهذا

بطبيعة الحال يتطلب منه أن ينتظم في طريق أستاذ ولي مرشد كامل من أجل أن يحصل على العلم اليقيني الذي يكون بمثابة الزاد له في عالم الآخرة، كما قال الإمام علي ابن أبي طالب: **(تزودوا من الدنيا بزاد الآخرة)** أي: لا يكون علمكم منوط بظاهر الحياة الدنيا، وتتركون العلم الأساس الذي يتصل بالعالم الروحي فيكون ذلك سببا لجهل كبير يشكل لكم حجابا عن المعارف الكلية اليقينية التي لها علاقة مهمة بعالم الحقيقة المطلقة، فلابد أذن من البحث عن طريقة، ووسيلة تؤدي بنا إلى معرفة ما أراد الله منا أن نعرفه، وهو (معرفة الباطن في الحياة الدنيا) ليكون علمنا كاملا، ونخرج من المسائلة غدا، تلك المسائلة التي تشمل الجميع.

يرى ابن عربي في فتوحاته: أن أهل الله يفترض أن يكونوا هم العاملون بالقرآن الكريم ولهم الأحقية بشرحه وبيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم، ذلك لأن شرحه وبيانه هو أيضا تنزيلا من عند الله على قلوب أهل الله كما كان الأصل فيكون النص القرآني والتأويل من الله تعالى، وإلى هذه الحقيقة أشار وقال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذا الباب: **(ما هو إلا فهم يؤتيه الله من شاء من عباده في هذا القرآن)**، فجعل ذلك عطاء من الله يعبر عن ذلك العطاء بالفهم عن الله، فأهل الله أولى به من غيرهم، فلما رأى أهل الله أن الله قد جعل الدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم، وأعطاهم التحكم في الخلق بما يفتون به، وألحقهم بالذين **(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)** [الروم: 7] وهم في إنكارهم على أهل الله **(يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)** [الكهف: 104] سلم أهل الله لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا وصانوا عنهم أنفسهم بتسميتهم الحقائق إشارات فإن علماء الرسوم لا ينكرون الإشارات، فإذا كان في غد يوم القيامة يكون الأمر في الكل.. فأين عالم الرسوم من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين أخبر عن نفسه: (أنه لو تكلم في الفاتحة من القرآن لحمل منها سبعين وقرا)، هل هذا إلا من الفهم الذي أعطاه الله في القرآن. (ابن عربي: 2006، مصدر سابق، مجلد1، ص422 – 423)

الشيخ والباطن

الباطن لغة: الباطن: (إشارة إلى معرفة الحقيقة، وقيل: ظاهر بآياته باطن بذاته، وقيل: ظاهر بأنه محيط بالأشياء مدرك لها، باطن من أن يحاط به، كما قال عز وجل: **(لَّا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ)** [الأنعام: 103] وقد روي عن أمير المؤمنين رضي الله عنه ما دل على تفسير اللفظتين حيث قال: (تجلى لعباده من غير أن رأوه، وأراهم نفسه من غير أن تجلى لهم) ومعرفة ذلك تحتاج إلى فهم ثاقب وعقل وافر، وقوله تعالى: **(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)** [لقمان: 20] قيل الظاهرة: بالنبوة، والباطن: بالعقل، وقيل: الظاهرة: المحسوسات، والباطنة: المعقولات، وقيل الظاهرة: النصرة على الأعداء والباطنة: النصرة بالملائكة.) (الراغب: مصدر سابق، ص131)

الباطن في الاصطلاح الصوفي

يعرف القاشاني باطن كل الحقائق: (هو أصل الحقائق وأنه الوحدة، إذ لا تعين قبلها، فلهذا كانت هي باطن كل حقيقة إلهية وكونية. أما باطن إطلاق ظاهر الوجود: فيعرفه: هو التجلي الأول لأنه هو ظهور الذات بنفسها لنفسها، كما ستعرفه، فيكون هو أبطن الظهورات لا محالة. أما باطن العوالم فيعرفه: هو الأحدية التي عرفتها، لأن ليس بعدها إلا الغيب المطلق، وهذه هي حضرة الأحدية الجمعية المختصة بمظهر الحقيقة الأحدية، ويسمى مقام (أو أدنى) ويسمى (غاية الغايات ونهاية النهايات). أما باطن أصول الأسماء والصفات: هو مفتاح الغيب. أما باطن الروح المحمدي: هو باطن إطلاق ظاهر الوجود، وهو التجلي الأول. وأما باطن أرواح من سواه من الكمل: هو التجلي الثاني الذي عرفت أنه هو إطلاق ظاهر الوجود. أما بطن الممكنات: هو الأعيان الثابتة، وهي باطن الممكنات لأنها هي حقائق الممكنات في حضرة العلم، وكانت باطنة في تلك الحضرة التي لا يصح أن تظهر لغير الحق كظهورها له، بل ولا تظهر أبدا، كما عرفت ذلك في باب أغمض المسائل.) (القاشاني، عبد الرزاق: 2004، مصدر سابق، ص103ـــ 104)

ويرى الشيرازي، ملا صدرا في تعريفه لباطن الإنسان: (أن باطن الإنسان في الدنيا ظاهره في الآخرة، وما كان لها غيبا هاهنا يصير شهادة هناك، ويكون كل سر علانية؛ لأن للنفس في ذاتها سمعا وبصرا وشما وذوقا ولمسا وتخيلا وتصرفا وفعلا وحركة، وأن لها عينا باصرة إلى ربها ناظرة وأذنا سامعة يسمع بها كلمات الملائكة وأصوات طيور الجنان ونغماتها وشما يشم به روائع الإنس ونسائم القدس، وذوقا يذوق به طعوم الجنة ولمسا يلمس به حور العين وهي المشاعر الروحانية والحواس الباطنية وأنها مع محسوساتها من أهل الجنة، إن لم يحجبها سد ولم يمنعها مانع وأما هذه الحواس، فهي دائرة ومحسوساتها مستحيلة كائنة فاسدة، يوجب العذاب الأليم والحرمان من النعيم.) (دغيم، سميح: 1428هجري،ج1، مصدر سابق، ص182)

ويعرف الإمام جعفر الصادق عليه السلام الباطن: (هو باطن في كل مكان لم يخل منه، إذ كان كونه ولا مكان. فحجب بلطفه كنه الكان، وأبدى بقدرته تمكين الكان، فبان لنا الكان، واحتجب عنا كنه الكان، وتجلى لنا ظهور كمال الكان الذي بتحقيقه يتم الإيمان. ويعرفه السلمي، أبو عبد الرحمن: الباطن: هو الذي عرف الغائبات، وأشرف على المستترات، واستبطن علم المغيبات، والباطن الذي خفي عن الظواهر، فلم يدرك إلا بالسرائر. في حين يعرفه الإمام فخر الرازي: الباطن: هو سلب محض، لأن معناه كونه خفيا بحسب الماهية.ويعرفه ابن سبعين، الباطن: هو معنى كل معنى. ويعرفه الجيلي، عبد الكريم: الظاهر الباطن: فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان متحققا بهما.أما الظاهر: فلأنه عين كل موجود لأنه منه خلق، وأما الباطن: فلأنه حقيقة الحقائق، وهي غير مشهورة.) (الكسنزان، السيد الشيخ محمد عبد الكريم: 2005، مصدر سابق، ج3، ص277– 279)

ويرى القونوي: (أن سر بطون الحق تعالى جاءت من أسمه الباطن، فهو أن تعلم أن رؤية الشيء يقتضي العلم به، وهو علم الرائي أنه رأى شيئا ما، وأحاط علما بما رآه، وعند أهل الحق لا ينضبط رؤية الحق، وما لا ينضبط لا يقال فيه أنه يرى أو يعلم، وتتنوع الصور على المكاشف أيضا في تجليات

المشاهد مع أحدية العين في نفس الأمر، فما رآه إلا من رأى أنه ما رآه ولا يعلمه إلا من علم أنه ما علم، ولذلك قال عز شأنه للكليم: **(لَن تَرَانِي)** [الأعراف: 143] لأن المقصود من الرؤية حصول العلم بالمرئي، وهو غير ممكن من الممكن، ولو فتش على دقائق تغيرات أحواله في كل نفس لعلم أن الحق عين أحواله، وأنه تعالى من حيث وجوده وراء ذلك كله، كما هو عين ذلك كله، ولهذا قال موسى عليه السلام: **(تبت إليك)** أي: لا أطلب رؤيتك على الوجه الذي كنت طلبتها، فإني قد عرفت ما لم أكن أعلمه منك.) (القونوي، صدر الدين: 2008، مصدر سابق، ص344)

أما الجيلي فيرى في اسمه الباطن: هو الذي وراء المحسوسات؛ ذلك لأن ما تراه وتحسه حد لشيء قد أدركه الحس وأحاط به حسيا، والحق تعالى هو المتجلي في كل من يحس فكيف يحيط به المعلول؟ وكذلك الحال مع المعقولات، والمعلومات، والحكميات، والشهاديات، والغيبيات، فكل ما تصور في الحال أو خطر بالبال أو شاهدته بالعين، أو سمعته بالأذنين، أو أدركته بالعلم، أو ميزته بالفهم فالله تعالى من وراء ذلك كله باطن لا تعرفه، ومحيط لا تحيط به فتنعته أو تصفه، وأحذر من أن تميل إلى أحد الطرفين فتقف عند أسمه الباطن دون معرفة أسمه الظاهر، أو تقف عند أسمه الظاهر دون معرفتك باسمه الباطن. فالله تعالى هو الظاهر وهو الباطن، وهذا الاسم من الصفات الإضافية. وصفته: البطون. وهو عبارة عن العماء الذاتي الذي هو صرافة الذات المحض في حضرة لا ينسب فيها الوجود والعدم، ولا حضرة فافهم، وهذه الحضرة هي باطن الأحدية. تنزلت الأحدية عنها لوجود نسبة الوجود في المشهد الأحدي من غير وجود نسبة. إذ الأحدية مستغرقة بجميع النسب والإضافات والنعوت والأسماء والصفات. فهي وجود محض، ولذلك كان المشهد العمائي باطنا لها. (الجيلي، عبد الكريم: 2004، مصدر سابق، ص 80)

مثلما كان للشيخ الولي المرشد الكامل من دور مهم في الظاهر، فإن له كذلك الدور الأهم في الباطن؛ ذلك لأن الشيخ الولي المرشد الكامل قد تحقق في أسمه تعالى الباطن، وقد منحه هذا التحقق إمكانية المعرفة القائمة بالله تعالى

للجانب الروحي، إذ من المعلوم أن العلم بالجانب الروحي لا يمكن أن يتم بشكل صحيح ما لم يفنى العبد في الله تعالى، فيأتيه العلم بالروح من خلال الحق تعالى وكما تقتضيه عملية الفناء، قال تعالى: **(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)** [الإسراء: 85] أي: قل للذين يسألونك، ويطلبون العلم بالجانب الروحاني إن هذا العلم لا يمكنكم أن تأخذونه من خلالي، بل يمكنكم تحصيله عن طريق الحق تعالى؛ وذلك من خلال الفناء والتماهي بالحق وانتهاء الأثنينية، عند ذاك ستحصلون على هذا العلم الواسع الكبير القائم بالله، وبدون هذه الطريقة أي طريقة الفناء بالله، ستبقون مع العلم الحسي المحدود والذي وصفه الحق تعالى بقوله: **(وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)** فمن أراد القليل فليبقى مع التمكينات الحسية، ومن أراد العلم الروحي المطلق فإن عليه التوجه إلى الطريقة التي تؤدي به إلى تحصيل هذا العلم.

والشيخ الولي المرشد الكامل هو الذي يمثل الطريقة التي تصل بالمريد إلى العلم الواسع، أي العلم الروحي، وذلك من خلال الانتظام بطريقته، والقيام بخدمته، وصحبته وصولا إلى الكمال اللائق، فالشيخ في مجال الجانب الروحي أو علم الباطن له خبرة وباع طويل في الكيفية التي تؤدي بالمريد إلى اختصار الطريق في رحلة الفناء في الحقيقة المطلقة، وبدون خبرة هذا الولي المخصوص، فإن هذه الرحلة تجاه الحق ستصاب بجملة من العثرات، والكبوات، قال تعالى: **(الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)** [الفرقان: 59] أي: إن عليك الاستعانة بالخبير من أجل الوصول إلى مرتبة الفناء بالرحمن جل جلاله، فالشيخ هو هذا الخبير الذي كلفه الحق تعالى بعد أن كمله وأفناه تعالى فيه، ومن ثم أرسله تعالى للخلق من أجل أن يهتم بالمستعدين الراغبين بالله تعالى، فهو رسول الرسول إلى الخلق، يحببهم ويرغبهم بالله تعالى، فهو بالنسبة للراغبين المسافرين إلى الحق تعالى من أهم الضرورات.

كما أن تمكين الشيخ الولي الكامل من علم الباطن يمكنه من متابعة مريديه والوقوف على أمراضهم الروحية، ومن ثم العمل على تنقية الروح وتطبيبها من أجل الرقي بها إلى العالم النوراني، فالشيخ هو الطبيب الروحي

الذي مكنه الحق تعالى من الإطلاع على علل مريديه، وعلمه تعالى العلاج الناجع لجميع الأمراض الروحية، ومتابعة عملية الشفاء حتى يبلغ المريد مأمنه، قال تعالى: **(وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـــي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)** [آل عمران: 49] أي: أشفي المحتجب بالغواشي، والمحدود البصيرة، وذلك بعدم الوقوف مع المحدود والأطر الحسية كما أشفي المعيوب بعيوب النفس الأمارة بالسوء، وأحيي موتى الجهل بالحياة الروحية الحقيقية، وأخبركم بزاد الروح النافع، وما تدخرون من زاد التقوى في بيوت قلوبكم لينفعكم في دار الآخرة، ويرى ابن عربي في تأويله الآية: **(وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ)** المحجوب عن نور الحق الذي لم تنفتح عين بصيرته قط ولم تبصر شمس وجه الحق ولا نوره ولم يعرف أهله بكحل نور الهداية **(والأَبْرَصَ)** المعيوب نفسه بمرض الرذائل والعقائد الفاسدة ومحبة الدنيا ولوث الشهوات بطب النفوس**(وَأُحْيِـــي الْمَوْتَى)** موتى الجهل بحياة العلم**(بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ)** تتناولون من مباشرة الشهوات واللذات **(وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ)** أي: في بيوت غيوبكم من الدواعي والنيات **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)**. (ابن عربي: 2001، مصدر سابق، ج1، ص106)

فالشيخ الولي المرشد الكامل هو الممثل الحقيقي للرحمة الإلهية من كونه يحرص على هداية جميع المستعدين إلى طريق الاستقامة ويتابع خطاهم ظاهرا وباطنا حتى يصلوا إلى مطلوبهم، ويتحققوا في الحقيقة فيبلغوا مستوى الكمال اللائق بهم.

قال تعالى:

(وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [الأنعام: 151]

وقوله تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) [لقمان: 20]

وقوله تعالى:

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ) [الحديد: 13]

ففي قوله تعالى: **(وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** [الأنعام: 151]

قوله تعالى: **(وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ)**، (الفحش: ما عظم قبحه من الأفعال، والأقوال، وقال: **(إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء)** [الأعراف: 28]، وفحش فلان: صار فاحشا. ومنه قول الشاعر:

عقيلة مال الفاحش المتشدد

يعني به: العظيم القبح في البخل، والمتفحش: الذي يأتي بالفحش.) (الراغب: المصدر السابق، ص626)

يأتي النهي الإلهي عن الفحشاء لأنها تبقي المرء في دائرة الرذائل التي من شأنها أن تديم الحجب المانعة مع المرء، ويبقى أسيرا للرغبات المحدودة حتى يأتيه الأجل المحتوم، والفواحش ليست جميعها واضحة كل الوضوح بل فيها ما يلتبس على المرء تشخيصها؛ وذلك لأن منها ما يدخل في عداد الباطن، أي: من الأمراض التي تصيب النفس الإنسانية فتنزل بها إلى مستوى أسفل سافلين، ومجموع هذه الأمراض إذا حصلت في النفس، يطلق على تلك النفس (النفس الأمارة بالسوء) والنفس الأمارة بالسوء ذات اللون الأزرق: هي الواقفة، والمحتجبة مع مراتب الوجود السفلى مستغرقة فيها، منشغلة بالكثرة بعيدة عن الوحدة الحقيقية باقيا حالها هكذا لحين الموت والانتقال إلى عالم الآخرة، وهناك تفاجأ ببعض الحقائق التي تصدمها، قال تعالى: **(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)** [التكاثر: 1ـ 2] وحين يزورون المقابر يجدون فيها تلك المفاجئة التي كان غافلا عنها طيلة وجوده في عالم الدنيا، قال تعالى: **(لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ**

الْيَوْمَ حَدِيدٌ) [ق: 22] أي: يعطيه الحق تعالى البصيرة التي ترى الحقائق الروحية الثابتة كما هي عليه، فيدرك حينها أنه كان يسير خلف الوهم المادي وتحولاته في الصور، وأنه كان في منأى عن الحقائق الروحية، وإن السبب وراء ذلك كله هو السير خلف أهواء النفس والشيطان، قال تعالى: **(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)** [الجاثية: 23] ولو كان همه وطلبه الله تعالى وتجرد من متابعة ومحبة ميول النفس، لجعل الله تعالى سمع وبصر ولسان صدق، وقلب يفقه به فيكون ممن استعد لعالم الآخرة.

هنا يأتي دور الأستاذ العارف في تربية وتنبيه الغافلين عن هذه المنزلقات الخطيرة، كما أن الشيخ يمنح المريد إمكانية التعرف على المنهج المواكب للشريعة فيكون المريد على بصيرة من أمره وسلوكه، فيؤدي به هذا المنهج إلى الشفاء التام من أمراض النفس وأهوائها، ويسير قدما باتجاه قطع المقامات وصولا إلى مرتبة الفناء في الله.

قوله تعالى: **(مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)** أي: ما كان يدرك بالبصر وأدوات الحس، وما كان يدرك بالبصيرة، والحواس الباطنية، وهنا إشارة مهمة مفادها أن مهمة الشيخ الولي المرشد إذا غيبت عن توجيهها وإشرافها على المرء، فمن أين له أن يدرك المخاطر الكامنة في بعض المخالفات الباطنة، كالحقد، والنميمة، والضغينة، والحسد وما شابه ذلك ؟ إن مهمة الشيخ الولي المرشد تبصير المريد بهذه المخالفات، وتوضيحها له من أجل أن يأخذ الحذر من الوقوع فيها، فالمخالفات الظاهرية هي من حصة رجال الشريعة، والمخالفات الباطنية التي عادة ما تكون بعيدة عن ملاحظة رجل الشريعة فإنها من صميم واجبات الشيخ الولي المرشد الكامل لأنه وحده الذي يطلعه الله تعالى على التفاصيل التي يقوم بها مريده، فيقوم بتوجيه مريده التوجيه اللائق، ويعطيه الوسيلة التي من خلالها يتجنب عملية الوقوع في مثل هذه الأخطاء.

قوله تعالى: **(وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ)** أي: لا تقتلوا النفس بالمخالفات فتبقى في عذاب الاحتجاب، فهي لم تخلق من أجل تكون

واقفة مع مرتبة أسفل سافلين بل مخلوقة من أجل أن تعرف وتتبين الطريق الذي يصل بها إلى الحق تعالى الذي به تحصل الحياة الحقيقية والخلود الأبدي السرمدي، فهي المعبر عنها بالأمانة، وعلى الإنسان أن لا يخون الأمانة التي وضعها الحق تعالى فينا، فلابد لنا من البحث والتقصي في عملية اختيار الوسيلة التي تؤدي بنا إلى الإيفاء بالأمانة، قال تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)** [فصلت: 53] المطلوب أن يتبين المرء حقيقة الحق في النفس والآفاق، ليخذ من خلال هذا التبيان وسيلة لعدم قتل النفس، إذ حياة النفس الحقيقية تقوم من خلال العلم، كما أن الرحمة لها تكون من خلال العلم الإلهي كما جاء في قوله تعالى: **(عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً)** [الكهف: 65] فالرحمة الإلهية الممنوحة للعبد الصالح ممثلة في العلم اللدني الذي أعطاه تعالى لهذا العبد المخصوص، فحياة الروح يقوم على ما يعطيه الحق تعالى لعبده من العلم الموهوب، وجعل تعالى التقوى براق العبد للوصول إلى هذا العلم اللدني كما جاء في قوله تعالى: **(وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** [البقرة: 282]، ومن أجل أن نعرف الكيفية التي تصل بنا إلى مرتبة التقوى لابد لنا من معلم له خبرة في هذا المجال.

قوله تعالى: **(ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** هذا ما وصانا به الحق تعالى، ووصية الحق تعالى تطلب منا الوفاء الأكبر لأنها من أجل وأعظم الوصايا، ولما كانت وصية بعضنا لبعض تقتضي الالتزام، وأن وصية الميت لابد أن تراعى شرعا ويعمل بها، ولا يجوز تجاهلها في كل حال من الأحوال خاصة إذا كانت لا تخرج عن حد الشرع، فيكيف الحال مع وصية الحق تعالى فمن غير المعقول التغاضي عنها أو عدم الاهتمام بها، ومن أجل ذلك نبهنا تعالى إلى ضرورة استدعاء الإمكانات العقلية السليمة من أجل تطبيع مراد الحق تعالى في هذه الآية، تجنبا من الوقوع في خطأ المعاصي والاحتجاب.

يرى سيدنا الكيلاني قدس سره في تأويله للآية: **(وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ)** القبيح **(مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ)**

كالقود وقتل المرتد، ورجم الزاني المحصن، وغيرها من المحارم التي رخص الشرع بارتكابها، إذ ارتكابها من جملة المحللات والمأمورات **(ذَلِكُمْ)** المذكور مفصلا مما **(وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** رجاء أن تسترشدوا لتهتدوا إلى توحيده. (الكيلاني، عبد القادر: 2009، مصدر سابق،مجلد2، ص58)

لقد ذكر سيدنا الكيلاني قدس سره الفواحش الظاهرة، ولم يتطرق إلى الفواحش الباطنة لأن ذكرها لا يكفي وحده في عملية الحد منها، بل يتطلب ذلك قول وعمل دقيقين من أجل الحد من الفاعلية السلبية للنفس، كما ويتطلب ذلك منهجا متكاملا وصحبة يشترك فيها المريد مع شيخه.

أما في قوله تعالى: **(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)** [لقمان: 20]

قوله تعالى: **(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)** يرى الراغب: سبغ: (درع سابغ: تام واسع. قال الله تعالى: **(أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ)** [سبأ: 11]، وعنه استعير إسباغ الوضوء، وإسباغ النعم، قال تعالى: **(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)**.) (الراغب: مصدر سابق، ص395)

هذا يعني ومن خلال معطيات اللغة أن النعمة التي أسبغها تعالى علينا تامة لأنها تشمل الظاهر والباطن، وموصوفة بالسعة التي لا يحدها حد لمن يتواصل في السير إلى الحقيقة، فهي نعم مطلقة لمن كان فناؤه في الله تعالى، كما أنها لم تكن مؤجلة في الآخرة فحسب بل يهب الله تعالى مذاقات منها للسالكين السائرين في طريق الحق تعالى، وهذا ما أخبر به تعالى في قوله: **(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)** [الحجرات: 7] والنعم الموهوبة هي إما أن تكون من ضمن التخصيصات التي خصصها تعالى بشكل عام لجميع مراتب الوجود، ومن ضمنها المرتبة الإنسانية، وهي مدونة في اللوح المحفوظ ينزلها الله بقدر ما خصصه في علمه، وأما أن تكون من باب المواهب الإلهية التي يفيض بها تعالى لعباد مخصوصين ليثبتهم على الإيمان.

قوله تعالى: **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)** أي: من الناس من يجادل في الله، وهو لم يتحقق بعد في الحقيقة الإلهية، بل لا يزال يتبع الظن؛ ذلك لأن العلم ما لم يقم بالله فإنه من قبيل الظن، قال تعالى: **(وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** [البقرة: 282] وشتان من يكون علمه قائم بالله، وآخر علمه جاء من جهة ما يعطيه الحس أو العقل الحسي.

قوله تعالى: **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ)** إن هذه الآية تشير إلى أن الجدال يفترض أن يكون بعلم موهوب من قبل الله تعالى، وأهل العلم القائم بالله هم المشار إليهم بقوله تعالى: **(وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ)** [آل عمران: 7]؛ ذلك لأن الرسوخ بالعلم جاء بسبب ما أتاهم ربهم من العلم اللدني، والراسخون بالعلم هو أهل الكمالات من الواصلين، قوله تعالى: **(وَلَا هُدًى)** أي: السائرون في طريق الهداية، وهم أرباب المقامات من الذين ينطقون بالمعارف بمقتضى حال المقام؛ وذلك لأن لكل مقام مقال يناسب ذلك المقام، وهو أيضا من العلوم التي تقوم بالله ولكنها أدنى منزلة من علم الراسخ أو الكامل. وقوله: **(وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)**، وهو علم التأويل الذي يسند معارفه إلى القرآن الكريم، وهو أيضاً علم قائم بالله، غير أنه أقل مستوى من العلمين السابقين.

يرى سيدنا الكيلاني في تأويله للآية: (و) بالجملة **(أَسْبَغَ)** أي: أكثر وأوفر سبحانه **(عَلَيْكُمْ)** أيها المجبولون على الكرامة الفطرية، والكمال الجبلي **(نِعَمَهُ ظَاهِرَةً)** تدركون بها ظواهر الآفاق من المبصرات، والمسموعات، والملموسات، والمشمومات، والمذوقات **(وَبَاطِنَةً)** تدركون بها سرائر المعلومات والمعنويات، وتنكشفون بها إلى المعارف، والحقائق الفائضة على قلوبكم التي أودعها الله العليم الحكيم في بواطنكم، ليسع فيها وينزل عليها سلطان وحدته الذاتية السارية في ظواهر الأكوان وبواطنها الكائنة أزلا وأبدا، مع أنه سبحانه لا يسعه في سعة السماوات والأرض وإن فرض لها أضعاف وآلاف، لكنه يسع في قلب عبده العارف المؤمن الموقن، المنكشف بتوحيده، وبظهور وحدته الذاتية المتجلية على صفائح ما ظهر وما بطن، ومع ظهور

وحدته سبحانه في ذاته واستقلاله في إظهار المظاهر الكائنة أزلا وأبدا **(وَمِنَ النَّاسِ)** المجبولين على الجدال والنسيان، المنهمكين في بحر العناد والطغيان **(مَن يُجَادِلُ فِي)** توحيد **(اللَّهِ)** المتوحد المتفرد بالألوهية والربوبية، المستقل بالتصرف في ملكه وملكوته إرادة واختيارا، ويثبت له شريكا سواه ويعبده كعبادته، مع أن جداله ما يستند إلى سند يصلح للاستناد، بل**(بِغَيْرِ عِلْمٍ)** دليل عقلي يمكن التوصل به إلى إثبات ما ادعاه بطريق النظر والاستدلال **(وَلَا هُدًى)** أي: كشف صريح لدني نبع من قلبه بلا افتقار إلى المقدمات والوسائل العادية التي يستنتج منها المطالب **(وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)** أي: دليل نقلي ينور خلده، ويعده لفيضان المعارف والحقائق من المبدأ الفياض، بل إنما نشأ ما ادعاه من محض التقليد والتخمين الحاصل من متابعة الوهم والخيال.) (الكيلاني، عبد القادر: 2009، مجلد4، مصدر سابق، ص43 – 44)

وفي التأويلات النجمية: (النعمة الظاهرة هي تسخير ما في السماوات وما في الأرض الظاهرة من الكواكب السيارة والملائكة المقربين فتسخير الكواكب تيسيرها في البروج على الأفلاك التي دبرها لكل واحدة منها فلكا، وقدر لهن القربات والاتصالات وجعلهن مدبرات العالم السفلي متصرفات بالخواص والطبائع في العناصر الأربعة، ولقراباتهن واتصالاتهن مقتضيات في إظهار الأمور المقدرة بتقدير العزيز العليم في العالم السفلي من الزماني مثل الشتاء والصيف والخريف والربيع، ومن المكاني مثل المعدن والنبات والحيوان والإنسان فظهور الأحوال المختلفة بحسب سير الكواكب على الدوام لمصالح الإنسان ومنافعهم منها، وتسخير الملائكة بان الله تعالى من كمال حكمته وقدرته جعل كل صنف من الملائكة موكلين على نوع من المدبرات، وأعوانا لها كالملائكة الموكلين على الشمس، والقمر، والنجوم، وأفلاكها، والموكلين على السحاب والمطر..والموكلين على الرياح والبحور والمخلوقات، والملائكة الكتاب للناس الموكلين عليهم، وغيرهم.) (الكبرى، نجم الدين: 2009، المصدر السابق، مجلد4، ص43)

ويرى بعضهم تأويل قوله تعالى: **(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)** أي: النعم الظاهرة: الأمن والنعم الباطنة الرضا والغفران. وقيل: النعم

الظاهرة: الإسلام، والنعم الباطنة الإيمان. وقال الجوزجاني: النعم الظاهرة: توفيق الطاعات، والنعم الباطنة قبولها منك. وقال الجنيد البغدادي قدس سره: النعم الظاهرة: الأخلاق، والنعم الباطنة المعرفة. وقال يحيى بن معاذ: هو كما قال القائل:

تفضل إحسانا ووثق حرمته   ووصل جبلا من جبال الوثائق

قال يحيى: تفضل إحسانا بالإسلام ووثق حرمته بالإيمان، ووصل جبلا من جبال الوثائق من جبال البر في درجات الوسائل، وقال ابن عطاء: الظاهرة: خدمته الظاهرة،أي: القيام بالطاعات، وأداء الواجبات من صوم، وصلاة، وحج، وزكاة وغير ذلك من الواجبات، والباطنة نور المعرفة، أي: ما يعطيه علم الأحوال، والمقامات من معارف نتيجة العمل بالنوافل إلى جانب الواجبات، ومجموع ذلك ما يكون من ضمن المنهج الذي يقوم به الشيخ الولي الكامل. وقال أبو الحسين الوراق: النعمة الظاهرة: قبول الحق، ومن علامات القبول الاهتداء إلى الولي المرشد الكامل، والنعمة الباطنة: رضا الرب كنتيجة لقبول النافلة، والأعمال الواجبة،.وقال: النعمة الظاهرة: استواء الخلق أي: اعتدال المرء وعدم التطرف، والنعمة الباطنة حسن الخلق أي: الإقتداء بخطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لذلك كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: **(اللهم حسن خلقي فحسن خلقي)**. وقال بعضهم: الظاهرة: صحبة الصالحين، والباطنة سكون القلب مع الله. قال بعضهم: النعمة الظاهرة: اتباع ظاهر العمل، والنعمة الباطنة: طلب الحقيقة في الاتباع. وقال بعضهم: النعمة الظاهرة: الإعراض عن الدنيا، والنعمة الباطنة: الرجوع إلى التوكل والثقة بالله. (السلمي: 2001، مصدر سابق، مجلد2، ص132- 133)

ويضيف السلمي: (النعمة الظاهرة: ما أنعم الله على الجوارح من مباشرة الطاعات، والنعمة الباطنة: ما أنعم على القلب من شتى الأحوال من المعرفة، واليقين، والرضا، والتوكل، وغير ذلك، وهو يدلك أن العلم ظاهر وباطن، وكما أن العلوم الظاهرة يرجع إلى أربابها كذلك علوم الباطن يرجع فيها إلى أربابها، ونتائج علوم الباطن يرجع فيها إلى أربابها، ونتائج علوم الباطن من قبول علم الظاهر، واستعمال آدابها فيها. وقال بعضهم: هو الخَلق والخُلق.

وسئل ابن عباس عن هذه الآية فقال: هذه من مكنون علمي سألت عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: أما الظاهرة فما سوى خلقك وأما الباطنة فما ستر من عيوبك ولو أبداها لقلاك أهلك ومن سواهم.) (نفسه: ص133)

أمل قوله تعالى: (**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**) [الحديد: 13]

قوله تعالى: (**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا**) النظر من جهة أهل المقامات العالية من أهل الإيمان حين يحصل؛ فإن فيه تحصل البركة، والنور الممثل بالمعارف والعلوم اللدنية، وهذا النوع من النظر يحصل بسرعة فائقة تتعدى حدود الزمان، وتعطي كذلك لمن يُنظر إليه قوة التمكين والتصريف اللتان تمنحانه سلطة روحية عالية، ولا يمكن سلبها إلا بإرادة الله.

ويبدو أن قول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا، فإن في هذا القول شيء من الأدب من أجل استعطاف ميل المؤمنين إليهم، وهو أرقى من حيث اللياقة من قول وتصرف بعض مؤمني اليهود الذين كانوا يخاطبون الحق تعالى بأسلوب خال من الأدب واللياقة كما أخبر عنه الحق في قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) [البقرة: 104] ويبدو أن الخطاب الإبليسي كان أرفع شأنا وأكثر أدبا مع رب العزة من خطاب مؤمني اليهود حين قال: (**قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**) [الحجر: 36] ولم يقل راعني، فأنظر وتأمل هذه الطريقة فإنها تحيلك إلى حقيقة مفادها إلى أن العارف بآداب الحضرة كيف يخاطب من هو أرفع شأنا ومقاما منه، والمنافقون ما قالوا للذين آمنوا أنظرونا إلا بعد ما تبين لهم بعد انتقالهم لعالم الآخرة أصول الخطاب، أي: بعد أن كشف الله تعالى لهم وأصبح بصرهم من حديد كما جاء في قوله تعالى: (**لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**) [ق: 22] فهم قبل هذا الكشف لا يجيدون حسن الخطاب لأنهم كانوا في غفلة عن ما تبغيه هذه الحقائق.

قوله تعالى: **(نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ)** في عالم الآخرة وحين تظهر حقائق الأرواح على حقيقتها النورية، فإن القوانين هناك سوف تكون على غير ما هي عليه في الحياة الدنيا؛ ذلك لأن الحقائق النورانية للأرواح تكون قابلة لاقتباس الأنوار من المؤمنين الآخرين الذين هم أرقى مقاما منهم لغرض الاستزادة والترقي بها، فيجالس المؤمن أخاه المؤمن و بعد أن يفترقا يجدا أنفساهما قد ترقتا إلى مقام أرقى، فإن من الطبع النوراني قبوله فيض نوراني آخر تماما كما الحال عليه حين يوقد مصباح زيتي من مصباح آخر، قال تعالى: **(نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ)** [النور: 35] اجتمع النورين في نور واحد، فيؤدي ذلك إلى تكون نور أعظم مما كان عليه، ولذلك قال تعالى: **(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ)** إشارة إلى عودة الأنوار في الحقيقة إلى الله تعالى باعتباره نور الأنوار وموجدها، وهو المتجلي في كل حقيقة نورانية ظاهرة في مراتب الوجود أو باطنة فيها، فإن حقيقة الأشياء قائمة بالمتجلي فيها جل شأنه العزيز.

قوله تعالى: **(قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً)** أحالهم الخطاب إلى الرجوع للخلف، أي جهة الأغيار التي كانوا من قبل محتجبين بها، أو أرجعوا إلى صور أعمالكم التي حشرت معكم والتمسوا نورا منها، جرى هذا الخطاب على سبيل التوبيخ والتنبيه على أن الوقوف مع جهة الطبع والأغيار سيكون سبة عليهم في الآخرة.

قوله تعالى: **(فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ)** أي: بسور يعتقد فيه أهل الحس الظاهري، أو المحدودين بالأطر الحسية وقصيري النظر أن هؤلاء القوم هم من ضمن المعذبين، وهم لا يعلمون أن هؤلاء القوم يشعرون بسعادة، وأن الجنة قد أزلفت لهم، وأن أهل الظاهر لا يشعرون في حقيقة ما هم فيه، وهم كذلك لا يعلمون بأن عملية ميلهم إلى جهة الأغيار واستغراقهم ووقوفهم مع جهة الحس فإن هذا هو عين العذاب لأنه ينطوي على عذاب الجهل والاحتجاب.

ويرى الشيخ الجيلاني قدس سره في تأويل له للآية الكريمة: **(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ)** المبطلون المستمرون على النفاق من أهل الحق **(وَالْمُنَافِقَاتُ)** أيضا كذلك **(لِلَّذِينَ آمَنُوا)** حين يروهم **(يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم)**

[الحديد: 12] (**انظُرُونَا**) أيها السعداء المحقون، والتفتوا نحونا(**نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ**) إذ نحن في ظلمة شديدة (**قِيلَ**) لهم حينئذ من قبل الحق على سبيل التوبيخ والتقريع: (**ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ**) أي: إلى دار الاعتبار والاختبار(**فَالْتَمِسُوا نُوراً**) واقتبسوا من مشكاة النبوة والولاية بامتثال الأوامر والنواهي الموردة من عنده سبحانه على رسله، وبالحكم والأسرار الصادرة من ألسنة أولي العزائم الصحيحة،المنجذبين نحو الحق من طريق الفناء فيه بالموت الإرادي، واعلموا أن اقترافه واقتباسه إنما هو في دار العبرة والغرور، لا في دار الحضور والسرور(**فَضُرِبَ**) وحيل حينئذ (**بَيْنَهُم**) أي: بين المؤمنين والمنافقين (**بِسُورٍ**) حائط حائل (**لَّهُ**) أي: للسور(**بَابٌ**) مفتوح يدخل منه المؤمنون (**بَاطِنُهُ**) أي: باطن الباب (**فِيهِ الرَّحْمَةُ**) النازلة من قبل الحق بمقتضى اسم الرحمن على أهل الإيمان والعرفان (**وَظَاهِرُهُ**) أي: ظاهر الباب (**مِن قِبَلِه**) سبحانه بمقتضى اسمه المنتقم (**الْعَذَابُ**) النازل على أهل النفاق والطغيان. (الكيلاني: 2009، مصدر سابق، مجلد5، ص141– 142)

ويرى الآلوسي، أبي الفضل في تأويله لقوله تعالى: (**انظُرُونَا**) أي انتظرونا(**نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ**) نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم طلب القبس أي جذوة من النار. وجوز أن يكون المعنى انظروا إلينا نقتبس الخ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به فانظرونا على الحذف والإيصال لأن النظر بمعنى مجرد الرؤيا يتعدى بإلى فإن أريد التأمل تعدى بفي لكن حمل الآية على ذلك خلاف الظاهر؛ وقولهم للمؤمنين ذلك لأنهم في ظلمة لا يدرون كيف يمشون فيها، وروي أنه يكون ذلك على الصراط وقرأ زيد ابن علي والأعمش (**أنظرونا**) بقطع الهمزة وفتحها وكسر الظاء من النظرة وهي الإمهال يقال أنظر المديون أي أمهله، وضع (**انظرونا**) بمعنى المهلة (**قِيلَ**) يقال: الملائكة عليهم السلام (**ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ**) قال ابن عباس: أي من حيث جئتم من الظلمة أو إلى المكان الذي قسم منه النور على ما صح عن أبي يمامة (**فَالْتَمِسُوا نُوراً**) هناك، قال مقاتل: هذا من الاستهزاء بهم كما استهزءوا بالمؤمنين، في الدنيا حين قالوا: (**آمنا**) وليسوا بمؤمنين، أي حين يقال لهم: (**ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً**). (الآلوسي، شهاب الدين: 2000، ج27، ص249 – 250)

الشيخ والترقي

الترقي لغة: (رَقِيتُ في الدرج والسلم أرقى رقيا، ارتقيت أيضا. قال تعالى: **(فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ)** [ص: 10] وقيل: ارق على ظلعك، أي: اصعد وإن كنت ظالعا، قال تعالى: **(وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ)** [الإسراء: 93] وقوله تعالى: **(وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ)** [القيامة: 27] أي: من يرقيه تنبيها أنه لا راقي يرقيه فيحميه. وقال ابن عباس: معناه من يرقى بروحه.) (الراغب: مصدر سابق، ص363)

الترقي في الاصطلاح الصوفي

يعرفه ابن عربي: الترقي: (هو التنقل في الأحوال والمقامات والمعارف نفسا وقلبا وحقا طلبا للتداني. ويعرفه الشيخ علي البندنيجي: الترقي: هو العروج المعنوي بقطع المقامات الربانية وبالارتقاء إلى منازلات الإلهية، رهبة من وحشة ظلمة الكثافة، ورغبة لإيناس بهجة اللطافة، وخيفة من المهالك في مهمة القيود، ورجاء للحياة بساحة الإطلاق.) (الكسنزان، السيد الشيخ محمد: 2005، مصدر سابق، ج10، ص49)

ويعرفه الكسنزان، السيد الشيخ محمد قدس سره: الترقي: (هو التقرب إلى الله تعالى. الترقي: هو التدرج في مراتب الكمال للوصول إلى التحقق بالفناء التام. وفي أنواع المقامات يرى ابن عربي: ذهب ذو النون المصري إلى أن الترقي منقطع بعد الموت. وذلك إنما هو الترقي في درجات الجنة خاصة، وأما الترقي في المعاني فدائم أبدا، فتعظيم جناب الحق دائم أبدا، وهي عبادة ذاتية عن تجل لا ينقطع ولا ينقطع مزيدها، وأما هذه العبادة التكليفية فهي التي تسقط بسقوط التكليف. ويرى عبد الكريم الجيلي: إن العالم كله في ترقي في كل نفس، لأنه أثر تجليات الحق، وهي في الترقي، فلزم أن يكون العالم في الترقي. وفي ترقي الدرويش يرى الكسنزان: ترقي الدرويش: هو تغيره روحيا نتيجة لخرقه عوائد نفسه خلال سفره إلى الله تعالى. وترقي الدرويش يتم من خلال مجاهدته لنفسه ومحاولته خرق حجب الكثرة والوحدة بينه وبين ربه بالتدريج وصولا إلى تحققه بالافتقار المطلق للحق الغني المطلق.) (الكسنزان: نفسه، ج10، ص50 – 51)

لما كانت وظيفة الشيخ الولي المرشد الكامل هي الوصول بالمريدين المستعدين إلى مراتب الكمال، فإن ذلك يتطلب منه أن يجري عملية الترقي لمريديه، بتخليصهم من مستوى الوقوف مع جهة الطبع، أي: ما تطبعت عليه النفس الأمارة بالسوء، واعتادت عليه من ميل لجهة السوى والأغيار، والاحتجاب بالغواشي، والوقوف مع المحدود النسبي على حساب الانعتاق الجميل الذي يتحرر من مستوى أسفل سافلين إلى مستوى أحسن تقويم.

وإن عملية التحول هذه ليست من المهمات السهلة؛ ذلك لأن النفس قد اعتادت وتطبعت على حظوظ الدنيا بعد إذ نسيت ما كان لها في عالمها الأول الذي هو موطنها الأصلي، موطن أحسن تقويم، فمن أجل العودة إلى الموطن الأصلي يجب ترويض النفس من أجل ترك العادة شيئا فشيئا، وهذا ما يطلق عليه بمجاهدة النفس من أجل التخلي والتحلي، أي: التخلي عن الأوصاف التي تطبعت عليها النفس في عالم الدنيا، والتحلي بأوصاف عالم الأرواح الذي هو الموطن الأصلي، قال تعالى: **(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)** [العنكبوت: 69] وقوله تعالى: **(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)** [النازعات:40ـ 41] أي من خاف مقام ربه المتجلي في النفخة التي نفخها من روحه في الفرد الإنساني كما جاء في قوله تعالى: **(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي)** [الحجر: 29] وعمل عملا لا يخرجه عن الحد الذي وضعه تعالى محلا لرضاه، فإن له جنة المعاني تأويه في دار الدنيا والآخرة، هذا يعني إن على المرء أن يجاهد نفسه من أجل عدم الرضوخ لما يتطلبه هواها من ميول إلى جهة الأغيار.

وبما أن المرء ليست له خبرة ودراية واسعة في ميدان التخلي، فقد جعل تعالى من باب الرحمة بنا معلما وأستاذا يتولى رعايتنا ويعلمنا الطريقة التي نستطيع من خلالها أن نتجنب العثرات والوقوع في المهالك؛ ذلك لأن للشيطان مكائد ليس من السهل تجنبها، قال تعالى: **(لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)** [الحجر:39ـ 40] أي أن

التمكين الإبليسي في الإغواء لن يفلت منه أحد إلا إذا كان قد بلغ مرتبة المخلصين، أي: الذين كمل لديهم العلم بالله تعالى ولم تعد تخفى عليهم خافية، وهم أهل الحدس والفراسة، كما جاء في الحديث: **(اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)**، فمن لم يكن له نظر قائم بنور الله فإنه لا محال سيكون عرضة للوقوع في المكائد الإبليسية، ولن يسلم من هذه المكائد حتى يبلغ أشده من الكمال، وهذا لن يتم بدون مساعدة وإشراف شيخ ولي مرشد، قال تعالى: **(مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً)** [الكهف: 17] فالهداية إلى طريق الحق تشترط وجود الولي المرشد الذي لا غنى عنه في طريق الوصول والترقي.

فالشيخ الولي المرشد يعلم السالك أو المريد طرق الوقاية من أمراض النفس، ويقوم معه بالنصيحة من أجل تجنب الزلل والوقوع في المهالك، لكي يستمر في سيره لقطع المقامات التي تؤدي إلى عملية الفناء في الله تعالى، وتحصيل أسباب الكمال، وما دام المريد غير مكتمل فإن صحبته للشيخ ضرورية، ولا يمكن الاستغناء عنها، أو التغاضي عنها.

إن عملية الترقي في المراتب تحصل دائما ما دام الإنسان هو الجامع للمراتب الوجودية جميعها، فهو كون صغير وجامع، أي أنه وحدة في كثرة، ومن أجل أن يتوحد في الحقيقة النورية، لابد له من أن يتخلص من كثرته وتنوعاتها، كالصفات الحيوانية، والنباتية، والمعدنية، وجميع الصفات التي من شأنها أن تعيق عملية التوحيد الحقيقي مع النور الحق، وإن الشيخ الولي المرشد الكامل هو الرعاية الإلهية التي جعلها الحق تعالى بحسب مقتضيات الرحمة في كل زمان ومكان، لتنقذ الناس من التيه والضلال المؤدي إلى عذاب الجحيم، والشيخ مفتاح الجنة لمن عرف قدره، وتعامل معه بمحبة، وصحبه بأدب، وسمعه، وأطاعه، ولزم خدمته في كل حال، وتبنى منهجه، وطريقته بعزم أكيد دون ملل أو كلل، ولن يجافيه، أو يعترض عليه ليحصل بذلك على الكمالات اللائقة التي ترقيه في الصحبة، أي: يجد من الشيخ الولي المرشد في كل مقام فاكهة من أغصان دانية من العلوم الروحية، والمعارف

اللدنية، التي لم يذق مثلها من قبل، وهكذا فإن صحبة الشيخ لن تنتهي عند مقام معين، لأن الشيخ كامل والكامل مطلق بالله، فليس لعلمه حد يقف عنده، فصحبة الشيخ الكامل مطلقة، والفائدة التي تعطيها هذه الصحبة كذلك مطلقة.

قال تعالى:

(أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ) [ص: 10]

في قوله تعالى:

(أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ) [ص: 10]

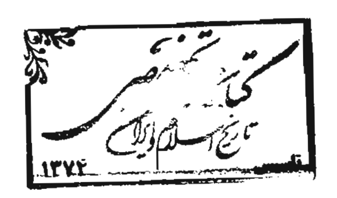
يخاطب تعالى قوى الكفر والضلالة بشكل خاص، والمؤمنين والمسلمين بشكل عام، وهو يسخر تعالى من دعواهم التي يريدون أن يضلوا بها الكثيرين، مفندا تعالى أقوالهم التي يتوجهون بها إلى عامة الناس، بأن لهم من التمكين والتصريف ما يجعلهم المدبرين لملك السماوات والأرض وما يدور بينهما، فلو كانت لديهم هذه التمكينات فعلا فليصعدوا إلى حيث معارج الوصول وليتمكنوا من الأخذ من منابع الوحي والإلهام ما يعزز لهم دعواهم ويدعم به أقوالهم، وهذه إشارة له تعالى إلى بطلان دعواهم وفساد آرائهم، وهذا يعني على من يصغي إليهم أن يكف عنهم الإصغاء ولا يضيع الوقت في السماع إليهم وأن ينصرف إلى من له صلة يقينية بالحق تعالى، وهم أرباب الكمال والتمكين من المشايخ الكاملين.

ويرى الكيلاني في تأويله للآية: **(أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)** أي: يدعون أن لهم التصرف في العلويات والسفليات والممتزجات، وإن ادعوا ذلك لأنفسهم **(فَلْيَرْتَقُوا)** وليصعدوا **(فِي الْأَسْبَابِ)** التي هي معارج الوصول إلى منشأ الوحي والإلهام، ومنبع النزول والإنزال، فليأتوا بالوحي إلى من أرادوا واختاروا، وبالجملة: من أين يتأتى لأولئك الكفرة العجزة المقهورين الصاغرين الخيرة في أمره سبحانه وحكمه بمقتضى قضائه، حتى

يتفهموا عنه وعن أفعاله وأحكامه، إذ لا يسع لأحد من أقوياء عباده أن يسأل عن فعله مع أولئك الحمقى. (الكيلاني، عبد القادر: 2009، مصدر سابق، مجلد4، ص243)

أما الكبيسي فيرى في روح المعاني: قوله تعالى: **(أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)** ترشيح لما سبق، أي بل ألهم ملك هذه الأجرام العلوية والأجسام السفلية حتى يتكلموا في الأمور الربانية ويتحكموا في التدابير الإلهية التي يستأثر بها رب العزة والكبرياء، وقوله تعالى: **(فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ)** جواب شرط محذوف أي إن كان لهم ما ذكر من الملك فليصعدوا في المعارج والمناهج التي يتوصل بها إلى السماوات فليدبروها وليتصرفوا فيها فإنهم لا طريق لهم إلى تدبيرها والتصرف فيها إلا ذاك أو إن ادعوا ما ذكر من الملك فليصعدوا وليتصرفوا حتى يظن صدق دعواهم فإنه لا أمارة عندهم على صدقها فلا أقل من أن يجعلوا ذلك أمارة. وقال الزمخشري ومتابعوه: أي فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله تعالى، وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون. (الآلوسي: 2000، مصدر سابق، ج23، ص 224)

في حين يرى ابن عجيبة الحسني في تأويله للآية: **(أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)** أي: بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتكلموا في الأمور الربانية، ويتحكموا في التدابير الإلهية، التي اختص بها رب العزة والكبرياء ؟ ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: **(فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ)** وهو جواب شرط مقدر، أي: إن كان لهم ما ذكر من الملك، ويملكون التصرف في قسمة الرحمة، فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى السماء، حتى يدبروا أمر العالم وملكوت الله، فينزلون الوحي إلى من يختارون ويستصوبون. والسبب، في الأصل: ما يتوصل به إلى المطلوب. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، مصدر سابق، مجلد6، ص 204ـــ 205)



المصادر

القرآن الكريم

1- ابن عربي، محيي الدين: تفسير ابن عربي،ط1، دار أحياء التراث العربي، بيروت،2001.

2- --،--: فصوص الحكم،ط1،شرح: الجامي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

3- --،--: الفتوحات المكية، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.

4- ---،---: مواقع النجوم، ط1، تحقيق: سعيد عبد الفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت،2007.

5- --،--: الإنباه على طريق الله، ط1، تحقيق: قاسم الطهراني، دار الكتب العلمية،بيروت، 2009.

6- --،--: عجائب العرفان في تفسير إيجاز البيان،ط1، دار الكتب العلمية،بيروت، 2007.

7- --،--: رسالة الأنوار، ط1، تحقيق: قاسم الطهراني، دار ومكتبة الهلال، بيروت،2009

8- --،--: رسائل ابن عربي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1999.

9- --،--: الرسالة الوجودية،ط1، دار الكتب العلمية،بيروت، 2004.

10- --،--: التجليات الإلهية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

11- --،--: كتاب الحجب،ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004.

12- --،--: الوصايا، ط1، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1999.

13- --،--: كتاب الكتب، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1999.

14- --،--: شجون المسجون وفنون المفتون،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

15- --،--: تهذيب الأخلاق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

16- --،--: كتاب التراجم، ط1، مؤسسة التاريخ العربي،بيروت،1999.

17- --،--: رسالة الأنوار،ط1، مؤسسة التاريخ العربي،بيروت، 1999.

18---،--: كتاب الحجب،ط1، دار الكتب العلمية،بيروت، 2005.

19- --،--: عقلة المستوفز، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.

20- --،--: الصلوات، ط1، تحقيق: قاسم الطهراني، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2009.

21---،--: المبادىء والغايات،ط1، تحقيق:سعيد عبد الفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت،2006

22- --،--:كتاب الجمال والجلال،ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت،1999.

23- --،--:ذخائر الأعلاق في ترجمان الأشواق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،2000.

24- --،--: رحمة الرحمن في تفسير وإشارات القرآن، ط1، جمع وتأليف: محمود محمود الغراب، منشورات ذوي القربى، قم، 1431، هجري.

25- ابن مامين، محمد مصطفى:منيل المآرب،ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت،2007.

26- ابن سبعين، عبد الحق: أنوار النبي أسرارها وأنواعها، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة،2007.

27- ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008.

28- أبي مدين: أنس الوحيد ونزهة المريد، شرح: شهاب الدين أحمد عبد القادر، المطبعة العثمانية، مصر، 1306هجري.

29- الأصفهاني، الراغب: مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ط1، تحقيق: صفوان عدنان،طليعة النور، قم، 1427هجري.

30- الأطعاني، شمس الدين:روضة الحبور ومعدن السرور، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دارة الكرز، القاهرة،2004.

31- الآلوسي، أبي الفضل شهاب الدين: روح المعاني، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000.

32- الآلوسي، عادل كامل: الحب عند العرب، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 1999.

33- آملي، السيد حيدر: جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ط1، دار المحجة البيضاء، بيروت، 2007.

34- الأنطاكي، داود: العشق الإلهي، دار المكشوف، بيروت، 1957.

35- الأنصاري، عبد الرحمن: مشارق أنوار القلوب، تحقيق: ريتر، دار صادر، بيروت، ب ت.

36-، بارود، بسام محمد: قصيدة شيخ الشيوخ أبي مدين، طبع بمصر،2005.

37- باشا، عمر موسى: عمر اليافي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1993.
38- بدوي، عبد الرحمن: رابعة العدوية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،ب ت.
39- البروسوي، إسماعيل حقي: روح البيان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
40- البرسي، رجب: مشارق أنوار اليقين، ط2، تحقيق: علي عاشور، دار القربى، إيران، 1427هجري
41- بحر العلوم، محمد علي: الإمامة الإلهية، ط1، منشورات الاجتهاد، قم،2006.
42- البغدادية، بنت النفيس: شرح مشاهد الأسرار القدسية لابن عربي، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.
43- البقلي، أبي محمد روزبهان: تقسيم الخواطر، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، الآفاق العربية،القاهرة، 2008.
44- --، --: المصباح في مكاشفة بعث الأرواح، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.
45- --،--: مشرب الأرواح، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.
46- بلاثيوس، آسين: ابن عربي حياته ومذهبه، دار القلم، بيروت، 1979.
47- التستري، أبي محمد سهل: تفسير التستري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.
48- --،--: فكر وأخلاق سهل التستري، ط1،دار الكتب العلمية، بيروت، 2008.
49- الترمذي، أبي عبد الله محمد: كيفية السلوك إلى رب العالمين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،2002
50- التفتازاني، أبو الوفا الغنيمي: ابن سبعين وفلسفته الصوفية،ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973.
51- التلمساني، عفيف الدين:شرح مواقف النفري، تحقيق: جمال المرزوقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر، 2000.
52- التيجاني، أحمد: حل الأقفال لقراءة جوهرة الكمال، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.
53- التيجاني، أبو العباس: جواهر المعاني، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973.
54- الجامي، نور الدين عبد الرحمن: نقد النصوص في شرح نقش الفصوص،ط1، دار الكتب العلمية،بيروت، 2005.

55- --،--: لوائح الحق ولوامع العشق، ط1، ترجمة: محمد علاء الدين منصور، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003.

56ـ الجبوري، نظلة: نصوص المصطلح الصوفي في الإسلام، بيت الحكمة، بغداد، 1999.

57- الجراح رشيد سليم: رابعة العدوية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.

58- الجزائري، عبد القادر: المواقف الروحية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

59- --،--: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، ط1، تحقيق: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، ب ت.

60- الجيلي، عبد الكريم: الإسفار عن رسالة الأنوار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

61- --،--: الإنسان الكامل، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 2000.

62- --،--: الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.

63- --،--: نسيم السحر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.

64- --،--: شرح مشكلات الفتوحات المكية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.

65- --،--: المناظر الإلهية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

66- --،--: لوامع البرق الموهن، تحقيق: قاسم الطهراني، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2009

67- --،--: الكهف والرقيم، تحقيق: قاسم الطهراني، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2008.

68- --،--: الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية،،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

69- الحريثي، أحمد بن يوسف: فتح الحق في الجمع والفرق، تحقيق: سعيد عبد الفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.

70- الحسني، ابن عجيبة: البحر المديد، ط2، تحقيق: عمر أحمد الراوي، دار الكتب العلمية، بيروت،2005.

71- --،--: إيقاظ الهمم في شرح الحكم، المكتبة التوفيقية، مصر، ب ت.

72- --، --: رسائل ابن عجيبة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.

73- --،--: الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، ط1ن دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.
74- الحسيني، عبد المحسن: المعرفة عند الحكيم الترمذي، دار الكتاب العربي، قاهرة، ب ت.
75- الحسيني، نهرو الشيخ محمد: الرؤى والأحلام في المنظور الصوفي، دار القادري، دمشق،2007.
76- الحكيم، سعاد: تاج العارفين الجنيد البغدادي، ط1، دار الشروق، مصر، 2004.
77- الخلوتي، محمد بن شعيب: مفاتيح الغيوب وتعمير القلوب، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الحقيقة للبحث العلمي، القاهرة، 2008.
78- الدباغ، عبد العزيز: الإبريز، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.
79- الدرقاوي، العربي: بشور الهدية في مذهب الصوفية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009.
80- الدسوقي، إبراهيم: الجوهرة المضيئة في سلوك الطالب ونصح البرية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.
81- دغيم، سميح: موسوعة مصطلحات صدر الدين الشيرازي، ط1، ذوي القربى، قم، 1428هجري.
82- الديناني، غلام حسين: إشراق الفكر والشهود في فلسفة السهروردي، ط1، دار الهادي، بيروت، 2005
83- الرازي، محمد بن أبي بكر: حدائق الحقائق، ط1، تحقيق: سعيد عبد الفتاح، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.
84- --،--: مختار الصحاح، دار الرسالة، الكويت، 1983.
85- الرفاعي، أبي الهدى محمد: قلائد الزبرجد، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت،2007.
86- زروق، أحمد بن أحمد: شرح أسماء الله الحسنى، ط1، تحقيق: يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت،2007.
87- زيدان، يوسف: عبد الكريم الجيلي، ط1، دار الجيل، بيروت، 1992.
88- --،--: النادرات العينية لعبد الكريم الجيلي، ط1، دار الأمين، مصر، 1999.
89- سرور، إبراهيم حسين: الوصايا العرفانية للسيد عبد الأعلى السبزواري، ط1، دار المتقين، بيروت، 2007.

90- السبزواري، عبد الأعلى: مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ط2، انتشارات دار المفيد، إيران،1998.

91- السرهندي، أحمد عبد الأحد: المكتوبات الربانية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

92- السلمي، أبي عبد الرحمن: حقائق التفسير، ط1، تحقيق: سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.

93- السهروردي: هياكل النور، ط1، تحقيق: محمد علي أبو ريان، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1957.

94- الشاذلي، أبو الحسن: لطائف المنن في مناقب المهتدين، تحقيق:عبد الحليم محمود، دار الشعب، مصر، 1986.

95- الشاذلي، شمس الدين: تحفة الحبيب فيما يبهجه في رياض الشهود والتقريب، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008.

96- الشعراني، عبد الوهاب: كشف الحجاب والران، مطبعة حجازي، القاهرة، 1357هجري.

97- --،--: موازين القاصرين من شيوخ ومريدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.

98- --،--: الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية، ط1، تحقيق: لجنة التراث، دار صادر، بيروت، 1999.

99- الشقاق، محمد راضي: الحب في التصوف الإسلامي، ط1، دار الهادي، بيروت، 2009.

100- الشيرازي، صدر الدين: المبدأ والمعاد، ط3، مركز انتشارات دفتر تبليغ إسلامي، قم، 1422، هجري

101- --،--: مفاتيح الغيب، ط1، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 2008.

102- --،--: المظاهر الإلهية، تحقيق: محمد خامنئي، بنياد حكمت إسلامي، طهران، 1378هجري شمسي.

103- --،--: الحكمة المتعالية، ط1، طليعة النور، إيران، 1425هجري.

104- --،--: رسالة في الحدوث، ط1، تحقيق: حسين موسيان، بنياد حكمت إسلامي، إيران، 1378، هجري شمسي.

105- --،--: كسر أصنام الجاهلية،ط1، تحقيق: محسن جهانكيري، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 2007.

106- --،--: كتاب المشاعر، ط1، تحقيق: علي محي الدين، دار الكتب العلمية، بيروت،2002.

107- --،--: تفسير القرآن الكريم، ط3، انتشارات بيدار،قم،1379هجري شمسي.

108- --،--: كتاب العرشية، ط1، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 2000.

109- الطعمي، محي الدين:إحياء علوم الصوفية، ط1، المكتبة الثقافية، بيروت، 1994.

110ـ الطوسي، أبي نصر عبد الله: اللمع في تاريخ التصوف، تحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، مصر، ب ت.

111- الطوفي، نجم الدين أبي الربيع: الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية،ط1، تحقيق: محمد حسن محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.

112- عباس، قاسم محمد: الحلاج،دار الحكمة، لندن، 2005.

113- العريس، فؤاد:لطائف التفسير، ط1، دار المعرفة، بيروت، 2005.

114- العمراني، علي بن عبد الرضا: نصيحة المريد في طريق أهل السلوك والتجريد، ط1، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.

115- الغزالي، أبو حامد: جواهر القرآن، ط1، تحقيق: وسام الخطاوي، دار مكتبة الهلال، بيروت، 2009

116- --،--: الرسالة اللدنية، ط1، دار الفكر للطباعة، بيروت، 2003.

117- --،--: الدرة الفاخرة في علوم الآخرة، ط1، دار الفكر، بيروت، 2003.

118- --،--: فيصل التفرقة، ط1، دار الفكر، بيروت، 2003.

119- --،--: مشكاة الأنوار، ط1، دار الفكر، بيروت، 2003.

120- --،--: رسائل الإمام الغزالي، ط1، دار الفكر، بيروت، 2003.

121- --،--: الجواهر الغوالي، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، 1990.

122- --،--: آداب الصحبة والمعاشرة، تحقيق: محمد سعود المعيني، مطبعة العاني، بغداد، 1984.

123- الفرغاني، سعد الدين محمد: منتهى المدارك في شرح تائية ابن الفارض، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.

124ـ الفيروزابادي، مجمد الدين محمد: بصائر ذوي التمييز، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، ب ت.

125- القادري، محمد بن عمر: شرح الصلاة الأكبرية لابن عربي، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2007.

126- القادري، ملا حسن: شرح حكم الشيخ الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.

127- القاشاني، عبد الرزاق: لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،2004.

128- --،--: شرح منازل السائرين، ط1، مكتبة الفردوس، بيروت، 2007.

129- القشيري، عبد الكريم: لطائف الإشارات، المكتبة التوفيقية، مصر، 1999.

130- --،--: الرسالة القشيرية، ط1، دار صادر، بيروت، 2001.

131- القصيري، داود بن محمود: شرح تائية ابن الفارض، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

132- القونوي، صدر الدين: شرح الأسماء الحسنى،ط1، تحقيق: قاسم الطهراني، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2008

133- --،--: شرح الربعين حديث،ط1،تحقيق:قاسم الطهراني، دار ومكتبة الهلال، بيروت،2009.

134- --------،-------------:مفتاح الغيب، شرح: محمد بن حمزة الفناري، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ب ت.

135- --،--: تفسير أم القرآن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،2005.

136- الكاشاني، الفيض: كتاب الصافي في تفسير القرآن،ط1، تحقيق: محسن الأميني، دار الكتب الإسلامية، إيران، 1419هجري.

137- --،--: المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء،،ط1، إحياء الكتب الإسلامية، قم،1426هجري.

138- الكبير، محمد وفا:كتاب الأزل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،2005.

139- كبرى، نجم الدين: فوائح الجمال وفواتح الجلال، ط1، تحقيق: يوسف زيدان، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993.

140- الكتاني، أبي الفيض: الديوانة، تحقيق: إسماعيل المساوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

141- الكتاني، محمد بن جعفر: جلاء القلوب من الأصداء الغينية، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.
142- الكردي، ملا حسن: شرح حكم الشيخ الأكبر، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.
143- الكسنزان، السيد الشيخ محمد:موسوعة الكسنزان، ط1، دار آية، بيروت، 2005.
144---،--: الطريقة العلية القادرية الكسنزانية،ط1، من إصدارات التكية ببغداد.
145- كوليبالي، طاهر: التصوف العقلي عند ابن سينا، ط1، دار الهادي، بيروت، 2003.
146- الكيلاني، عبد القادر: فتوح الغيب، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.
147- --،--: الغنية لطالبي طريق الحق، ط1، تحقيق: عصام فارس، دار الجيل، بيروت، 1999.
148- --،--: الفتح الرباني والفيض الرحماني، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2004.
149- --،--: سر الأسرار، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت،2005.
150- --،--: وصايا الشيخ عبد القادر، ط1، المكتبة العالمية، بغداد، 1988.
151- --،--: تفسير الكيلاني، تحقيق:أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت،2009
152- الكيلاني، الشريف ناصر: حكم الفصوص وحكم الفتوحات، ط1، دار الآفاق العربية،القاهرة، 2007.
153- الكيلاني، عبد الرزاق: الشيخ عبد القادر الكيلاني، ط1، دار القلم، دمشق، 1994.
154- اللجائي، أبي القاسم عبد الرحمن: قطب العارفين، ط1، تحقيق: محمد الديباجي، دار صادر، بيروت، 2001.
155- المحاسبي، أبي عبد الله: كتاب العقل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.
156- --،--: المسائل في أعمال القلوب والجوارح، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.
157- --، --: رسالة المسترشدين، تحقيق: عبد الفتاح أبو رغدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، 1964.

158ـ المحاسبي، حارث ابن أسد: العقل في فهم القرآن، ط3، تحقيق: حسين القوتلي، دار الفكر، بيروت، 2007.

159- محمد وفا، علي وفا: المسامع، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.

160- مصطلح الطريقة في الشريعة الإسلامية: ب ت، سلسلة إصدارات التكية العلية القادرية الكسنزانية، ببغداد.

161- المغربي، أبي مدين: شرح الحكم الغوثية، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الآفاق العربية، القاهرة،2008.

162- المستغانمي، أحمد بن مصطفى: المنح القدوسية،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

163- المصري، شعيب بن سعد: الروض الفائق في المواعظ والرقائق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

164- المكي، أبو طالب: قوة القلوب، ط1، تحقيق: سعيد نسيب مكارم، دار صادر، بيروت، 1995.

165- --،--: علم القلوب، ط1، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

166- المزيدي، أحمد فريد: روضة الحبور ومعدن السرور، ط1، دارة الكرز، مصر،2004.

167- المشكيني: مصطلحات الفقه، ط1، انتشارات الهدى، إيران، 1419هجري.

168ـ النابلسي، عبد الغني: كتاب الوجود، ط1، تحقيق: يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003

169- نصر، عاطف جودة: شعر عمر ابن الفارض، ط1، دار الأندلس، بيروت، 1982.

170- نوري، الحاج الطيب: معارج المحبين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.

171- الهروي، عبد الله الأنصاري: منازل السائرين، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، 1990.

172- الهندي، محمود: ذو النون المصري، التفسير العرفاني، ط1، مكتبة مدبولي، مصر، 2007.

173- اليسوعي، بولس نويا: نصوص صوفية غير منشورة، دار المشرق، بيروت، 1973.

المحتويات

کتابخانه تخصصی
تاریخ اسلام و ایران
تاسیس ۱۳۷۴